## تفسير سورة الأنفال

صرح كثير من المفسرين بأنها مدنية ، ولم يستثنوا منها شيئا ، وبه قال الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء . وقد روى مثل هذا عن ابن عباس . أخرجه النحاس فى ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه عنه قال : سورة الأنفال نزلت بالمدينة. وأخرجه ابن مردويه عن عبد الله ابن الزبير . وأخرجه ابن مردويه أيضا عن زيد بن ثابت . وأخرج سعيد بن منصور والبخارى وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : نزلت فى بدر . وفى لفظ : تلك سورة بدر (١) .

قال القرطبى : قال ابن عباس : هى مدنية إلا سبع آيات من قوله : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا** ... ﴾ إلى آخر سبع آيات ، وجملة آيات هذه السورة ست وسبعون آية . وقد كان النبى ﷺ يقرأ بها فى صلاة المغرب كما أخرجه الطبرانى بسند صحيح عن أبى أيوب (٢) . وأخرج أيضاً عن زيد بن ثابت عن النبى ﷺ أنه كان يقرأ فى الركعتين من المغرب بسورة الأنفال (٣) .

### بسم الله الرحمن الرحيم

**﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) ﴾ .**

الأنفال : جمع نَفَل محرَّكاً ، وهو الغنيمة ، ومنه قول عنترة :

إنا إذا احمر الوغى نروى القنا ونعف عند تقاسم الأنفال (٤)

أى الغنائم . وأصل النفل : الزيادة . وسميت الغنيمة به ؛ لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرماً على غيرهم . أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهد من أجر الجهاد. ويطلق النفل على معان أخر منها اليمين ، والابتغاء ، ونبت معروف . والنافلة : التطوع لكونها زائدة على الواجب (٥) . والنافلة : ولد الولد ؛ لأنه زيادة على الولد (٦) .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٤٥) .

(٢) الطبرانى (٣٨٩٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٢١ :« رجاله رجال الصحيح » .

(٣) الطبرانى (٤٨٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٢١ : « ورجاله رجال الصحيح » .

(٤) البيت يوجد فى ديوانه من قصيدته المعنونة ( من مثل قومى ) والتى بدأها بقوله :

عفت الديار وباقى الأطلال ريح الصبا وتقلب الأحوال

وقد جاء فى المخطوطة : « مقاسم » : والصحيح : « تقاسم »كى يستقيم المعنى .

(٥) النافلة : ما زاد على النصيب أو الحق أو الفرض يقال : هو يصلى النافلة وفى التنزيل العزيز: ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ [ الإسراء : ٧٩] .

(٦) ومنه قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ﴾ [ الأنبياء : ٧٢ ] .

وكان سبب نزول الآية اختلاف الصحابة رضى الله عنهم فى يوم بدر كما سيأتى بيانه ، فنزع الله ما غنموه من أيديهم ، وجعله لله والرسول ، فقال : ﴿ **قل الأنفال لله والرسول** ﴾ أى حكمها مختص بهما ، يقسمها بينكم رسول الله عن أمر الله سبحانه ، وليس لكم حكم فى ذلك . وقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الأنفال كانت لرسول الله ﷺ خاصة ، ليس لأحد فيها شىء حتى نزل قوله تعالى : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه** ﴾ وثم أمرهم بالتقوى ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله والرسول بالتسليم لأمرهما ، وترك الاختلاف الذى وقع بينهم ، ثم قال : ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ أى امتثلوا هذه الأوامر الثلاثة إن كنتم مؤمنين بالله . وفيه من التهييج والإلهاب ما لا يخفى ، مع كونهم فى تلك الحال على الإيمان ، فكأنه قال : إن كنتم مستمرين على الإيمان بالله ؛ لأن هذه الأمور الثلاثة التى هى : تقوى الله، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله والرسول ، لا يكمل الإيمان بدونها ، بل لا يثبت أصلا لمن لم يمتثلها ، فإن من ليس بمتق ، وليس بمطيع لله ورسوله ليس بمؤمن.

وقد أخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن أبى أمامة قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فانتزعه الله من أيدينا ، وجعله إلى الرسول ﷺ ، فقسمه رسول الله بين المسلمين عن بواء . يقول : عن سواء . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عبادة بن الصامت ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرا . فالتقى الناس فهزم الله العدو . فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأكبت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه . وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم بأحق بها منا ، نحن نفينا عنه العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : لستم بأحق بها منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ ، وخفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ، فنزلت : ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول** ﴾ قسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين ، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار فى أرض العدو ، نفل الربع ، وإذا أقبل راجعًا وكل الناس نفل الثلث . وكان يكره الأنفال ويقول : ليرد قوى المسلمين على ضعيفهم(١) .

وأخرج إسحاق بن راهويه فى مسنده ، وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى أيوب الأنصارى

---

(١) أحمد ٥/ ٣٢٣ ، ٣٢٤ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٩ : « ورجاله ثقات » وابن جرير ٩/ ١١٦ وصححه الحاكم ٢/ ١٣٥ ، ١٣٦ : « على شرط مسلم » ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٦/ ٢٩٢ .

قال : بعث رسول الله ﷺ سرية فنصرها الله وفتح عليها ، فكان من أتاه بشىء نفله من الخمس ، فرجع رجال كانوا يستقدمون ويقتلون ويأسرون ، وتركوا الغنائم خلفهم ، فلم ينالوا من الغنائم شيئاً ، فقالوا : يا رسول الله ، ما بال رجال منا يستقدمون ويأسرون ، وتخلف رجال لم يصلوا بالقتال فنفلتهم بالغنيمة ؟ فسكت رسول الله ﷺ، ونزل : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ... ﴾ الآية . فدعاهم رسول الله ﷺ فقال : « ردوا ما أخذتم ، واقتسموا بالعدل والسوية فإن الله يأمركم بذلك » فقالوا : قد أنفقنا وأكلنا ، فقال : « احتسبوا ذلك » (١) .

وأخرج أحمد وأبو داود ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن سعد ابن أبى وقاص ، قال : قلت : يا رسول الله ، قد شفانى الله اليوم من المشركين ، فهب لى هذا السيف. فقال : « إن هذا السيف لا لك ولا لى . ضعه » . فوضعته ، ثم رجعت قلت : عسى يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلائى ، إذا رجل يدعونى من ورائى . قلت : قد أنزل الله فىَّ شيئًا ؟ قال : «كنت سألتنى هذا السيف وليس هو لى، وإنه قد وهب لى فهو لك». وأنزل الله هذه الآية : ﴿ **يسألونك على الأنفال** ﴾ (٢) ، وفى لفظ لأحمد أن سعداً قال: لما قتل أخى يوم بدر ، وقتلت سعيد بن العاص ، وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيفة (٣) ، فأتيت به رسول الله ﷺ ثم ذكر نحو ما تقدم (٤) . وقد روى هذا الحديث عن سعد من وجوه أخر .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ؛ أن الناس سألوا رسول الله ﷺ الغنائم يوم بدر فنزلت : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ (٥) . وأخرج ابن مردويه عنه قال : لم ينفل النبى ﷺ بعد إذ نزلت عليه : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ إلا من الخمس ، فإنه نفل يوم خيبر من الخمس . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى ، وابن جرير وابن المنذر وابن حبان وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس ، قال : لما كان يوم بدر ، قال النبى ﷺ : « من قتل قتيلا فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا » . فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات ، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان : أشركونا معكم فإنا كنا لكم رِدْءاً . ولو كان منكم شىء

(١) عزاه فى المطالب العالية (٣٦٢٨) لإسحاق ، ونقل المحقق عن البوصيرى أنه قال : « رواه إسحاق بسند ضعيف لضعف واصل بن السائب » .

(٢) أحمد ١/ ١٧٨ وأبو داود فى الجهاد (٢٧٤٠) والترمذى فى التفسير (٣٠٧٩) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٢١٦) وابن جرير ٩/ ١١٧ وأبو نعيم فى الحلية ٨/ ٣١٢ وصححه الحاكم ٢/ ١٣٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٦/ ٢٩١ .

(٣) فى المطبوعة : « الكنيفة » بالنون ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة بالتاء .

(٤) أحمد ١/ ١٨٠ .

(٥) ابن جرير ٩/ ١١٨ .

للجأتم إلينا . فاختصموا إلى النبى ﷺ فنزلت : ﴿ **يسألونك عن الأنفال ...** ﴾ الآية ، فقسم النبى ﷺ الغنائم بينهم بالسوية (١) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ قال : الأنفال : المغانم . كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شىء ما أصاب من سرايا المسلمين من شىء أتوه به . فمن حبس منه إبرة أو سلكا فهو غلول ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم منها شيئا فأنزل الله: ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال** ﴾ لى جعلتها لرسولى ليس لكم فيها شىء . ﴿ **فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ ، ثم أنزل الله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء ﴾ الآية [الأنفال: ٤١] ، ثم قسم ذلك الخمس لرسول الله ﷺ ولذى القربى ، واليتامى، والمساكين ، والمهاجرين فى سبيل الله ، وجعل أربعة أخماس الناس فيه سواء ، للفرس سهمان. ولصاحبه سهم ، وللراجل سهم (٢). وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ قال : هى الغنائم ، ثم نسخها : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء** ﴾ الآية .

وأخرج مالك وابن أبى شيبة وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن القاسم بن محمد قال : سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال : الفرس من النفل والسلب من النفل . فأعاد المسألة فقال ابن عباس : هذا مثل صبيغ (٣) الذى ضربه عمر . وفى لفظ : فقال : ما أحوجك أن يصنع بك كما صنع عمر بصبيغ العراقى . وكان عمر ضربه حتى سالت الدماء على عقبيه (٤) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال: الأنفال : المغانم . أمروا أن يصلحوا ذات بينهم فيها ، فيرد القوى على الضعيف. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والنحاس ، وأبو الشيخ عن عطاء فى قوله : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ قال : هو ماشذ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال ، من عبد أو دابة أو متاع ، فذلك للنبى ﷺ يصنع به ما شاء (٥) .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن عمرو قال : أرسلنا إلى سعيد

---

(١) أبو داود فى الجهاد (٢٧٣٧ ، ٢٧٣٨) والنسائى فى التفسير (٢١٧) وابن جرير ٩/ ١١٦ وابن حبان (٥٠٧١) والحاكم ٢/ ١٣٢ وقال : «هذا حديث صحيح فقد احتج البخارى بعكرمة ، وقد احتج مسلم بداود بن أبى هند ولم يخرجاه » وقال الذهبى : « هو على شرط البخارى » ، والبيهقى فى الدلائل ٣/ ١٣٦ .

(٢) ابن جرير ٩/ ١١٨ والبيهقى ٦/ ٢٩٣ .

(٣) فى المخطوطة : « ضبيع » ، بالضاد المعجمة فى أوله والعين المهملة فى آخره ، والصواب بالصاد المهملة والغين المعجمة على وزن « فعيل » واسمه: صَبِيغ بن عِسْل .

(٤) مالك فى الجهاد ٢/ ٤٥٥ وابن أبى شيبة ( ١٥١٣٤ ) وابن جرير ٩/ ١١٥ وقال ابن كثير ٣/ ٢٧٤ : « إسناده صحيح إلى ابن عباس ، أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل » .

(٥) ابن جرير ٩/ ١١٤ .

ابن المسيب نسأله عن الأنفال فقال: تسألونى عن الأنفال ،وإنه لا نفل بعد رسول الله ﷺ(١). وأخرج عبد الرزاق عن سعيد أيضاً قال : ما كانوا ينفلون إلا من الخمس . وروى عبد الرزاق عنه أنه قال : لا نفل فى غنائم المسلمين إلا فى خمس الخمس . وأخرج عبدالرزاق عن أنس أن أميراً من الأمراء أراد أن ينفله قبل أن يخمسه ، فأبى أنس أن يقبله حتى يخمسه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الشعبى فى قوله: ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ قال : ما أصابت السرايا (٢) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير ، والنحاس فى ناسخه عن مجاهد وعكرمة ، قال : كانت الأنفال لله والرسول حتى نسختها آية الخمس : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء ﴾ الآية [ الأنفال : ٤١ ] (٣).

وأخرج ابن أبى شيبة ، والبخارى فى الأدب المفرد ، وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وأصلحوا ذات بينكم** ﴾ قال : هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا الله ، وأن يصلحوا ذات بينهم حيث اختلفوا فى الأنفال . وأخرج ابن أبى حاتم عن مكحول قال : كان صلاح ذات بينهم أن ردت الغنائم ، فقسمت بين من ثبت عند رسول الله ﷺ وبين من قاتل وغنم . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله : ﴿ **وأطيعوا الله ورسوله** ﴾ قال : طاعة الرسول اتباع الكتاب والسنة .

**﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾** .

الوجل : الخوف والفزع . والمراد أن حصول الخوف من الله ، والفزع منه عند ذكره هو من شأن المؤمنين الكاملى الإيمان ، المخلصين لله . فالحصر باعتبار كمال الإيمان ، لا باعتبار أصل الإيمان .

قال جماعة من المفسرين : هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول الله ﷺ فيما أمر به من قسمة الغنائم ، ولا يخفاك أن هذا وإن صح إدراجه تحت معنى الآية من جهة أن وجل القلوب عند الذكر ، وزيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله ، يستلزمان امتثال ما أمر به سبحانه من كون الأنفال لله والرسول . ولكن الظاهر أن مقصود الآية هو إثبات هذه المزية لمن كمل إيمانه من غير تقييد بحال دون حال ، ولا بوقت دون وقت ، ولا بواقعة دون واقعة .

والمراد من تلاوة آياته تلاوة الآيات المنزلة ، أو التعبير عن بديع صنعته ، وكمال قدرته فى آياته التكوينية بذكر خلقها البديع ، وعجائبها التى يخشع عند ذكرها المؤمنون . قيل : والمراد

(١) ابن جرير ٩/١١٩ .
(٢) ابن أبى شيبة (١٥١٣٥) .
(٣) ابن جرير ٩/١١٨ .

بزيادة الإيمان هو زيادة انشراح الصدر ، وطمأنينة القلب ، وانثلاج الخاطر عند تلاوة الآيات . وقيل : المراد بزيادة الإيمان زيادة العمل ؛ لأن الإيمان شىء واحد لا يزيد ولا ينقص (١) . والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه .

﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ لا على غيره . والتوكل على الله : تفويض الأمر إليه فى جميع الأمور . والموصول فى قوله : ﴿ **الذين يقيمون الصلاة** ﴾ فى محل رفع ، على أنه وصف للموصول الذى قبله ، أو بدل منه أو بيان له ، أو فى محل نصب على المدح . وخص إقامة الصلاة والصدقة ؛ لكونهما أصل الخير وأساسه . و« من » فى ﴿ **مما** ﴾ للتبعيض.

والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المتصفين بالأوصاف المتقدمة ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **هم المؤمنون** ﴾ أى إن هؤلاء هم الكاملون الإيمان ، البالغون فيه إلى أعلى درجاته ، وأقصى غاياته . و﴿ **حقاً** ﴾ مصدر مؤكد لمضمون جملة: ﴿**هم المؤمنون** ﴾ أى حق ذلك حقا ، أو صفة مصدر محذوف ، أى هم المؤمنون إيماناً حقًا . ثم ذكر ما أعد لمن كان جامعًا بين هذه الأوصاف من الكرامة فقال : ﴿ **لهم درجات** ﴾ أى منازل خير وكرامة وشرف فى الجنة ، كائنة عند ربهم. وفى كونها عنده سبحانه زيادة تشريف لهم وتكريم ، وتعظيم وتفخيم . وجملة :﴿ **لهم درجات عند ربهم** ﴾ خبر ثان لـ ﴿ **أولئك** ﴾ أو مستأنفة جواباً لسؤال مقدر . ﴿ **ومغفرة** ﴾ معطوف على درجات ، أى مغفرة لذنوبهم . ﴿**ورزق كريم** ﴾ يكرمهم الله به من واسع فضله وفائض جوده .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وجلت قلوبهم** ﴾ قال : فرِقَتْ قلوبهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضاً فى الآية قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شىء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشىء من آيات الله ، ولا يتوكلون على الله ،ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ فأدوا فرائضه . وأخرج الحكيم الترمذى وابن جرير وأبو الشيخ من طريق شهر بن حوشب عن أم الدرداء قالت: إنما الوجل فى القلب كاحتراق السعفة (٢) يا شهر بن حوشب ، أما تجد قشعريرة ؟ قلت : بلى . قالت : فادع عندها ، فإن الدعاء يستجاب عند ذلك .

وأخرج الحكيم الترمذى عن ثابت البنانى ، قال : قال فلان : إنى لأعلم متى يستجاب لى . قالوا : ومن أين لك ؟ قال : إذا اقشعر جلدى ، ووجل قلبى ، وفاضت عيناى ، فذلك حين يستجاب لى . وأخرج أيضا عن عائشة قالت : ما الوجل فى قلب المؤمن إلا كضرمة (٣)

---

(١) مسألة زيادة الإيمان ونقصانه اختلفت حولها الفرق ، والصحيح الذى دل عليه الكتاب والسنة أنه يزيد وينقص . راجع : فتاوى ابن تيمية ، والعقيدة الطحاوية وغيرهما .

(٢) السعفة ـ بفتحتين ـ : ورق جريد النخل إذا يبس .

(٣) الضرمة : الجمرة ، والنار ، والسعفة فى طرفها نار .

السعفة ، فإذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فيقال له : اتق الله . فيجل قلبه .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **زادتهم إيمانًا** ﴾ قال: تصديقا . وأخرج هؤلاء عن الربيع بن أنس فى قوله : ﴿ **زادتهم إيمانا** ﴾ قال : خشية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ يقول : لا يرجون غيره .

وأخرجا عنه فى قوله : ﴿ **أولئك هم المؤمنون حقًا** ﴾ قال : برئوا من الكفر . وأخرج أبو الشيخ عنه ﴿**حقاً**﴾ قال : خالصاً . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله :﴿ **لهم درجات** ﴾ يعنى : فضائل ورحمة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لهم درجات** ﴾ قال : أعمال رفيعة . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **لهم درجات** ﴾ قال : أهل الجنة بعضهم فوق بعض ، فيرى الذى هو فوق فضله على الذى هو أسفل منه . ولا يرى الذى هو أسفل أنه فضل عليه أحد . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **ومغفرة** ﴾ قال : بترك الذنوب . ﴿ **ورزق كريم** ﴾ قال : الأعمال الصالحة . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى ، قال : إذا سمعتم الله يقول : ﴿ **وزرق كريم** ﴾ فهى الجنة .

**﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝٨ ﴾** .

قوله : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ قال الزجاج : الكاف فى موضع نصب ، أى الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، أى مثل إخراج ربك . والمعنى : امضى لأمرك فى الغنائم . ونفل من شئت ، وإن كرهوا؛ لأن بعض الصحابة قال لرسول الله ﷺ حين جعل لكل من أتى بأسير شيئاً . قال : بقى أكثر الناس بغير شىء . فموضع الكاف نصب كما ذكرنا . وبه قال الفراء . وقال أبو عبيدة : هو قسم ، أى والذى أخرجك . فالكاف بمعنى الواو. و« ما » بمعنى الذى . وقال الأخفش سعيد بن مسعدة : المعنى : أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك . وقال عكرمة : المعنى : أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك ربك .

وقيل : ﴿ كما أخرجك ﴾ متعلق بقوله : ﴿ لهم درجات ﴾ أى هذا الوعد للمؤمنين حق فى الآخرة . ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ الواجب له، فأنجز وعدك وظفرك بعدوّك ، وأوفى لك . ذكره النحاس واختاره . وقيل: الكاف فى ﴿ كما ﴾ كاف التشبيه على سبيل المجازاة كقول القائل لعبده : كما وجهتك إلى أعدائى فاستضعفوك وسألت مددًا فأمددتك وقويتك ، وأزحت علتك ، فخذهم الآن فعاقبهم . وقيل : إن الكاف فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذه الحال كحال إخراجك . يعنى أن حالهم فى كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم فى كراهة خروجهم للحرب ، ذكره صاحب الكشاف [(١)] .

و﴿ بالحق ﴾ متعلق بمحذوف ، والتقدير : إخراجاً متلبساً بالحق الذى لا شبهة فيه . وجملة : ﴿ وإن فريقًا من المؤمنين لكارهون ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى كما أخرجك فى حال كراهتهم لذلك ؛ لأنه لما وعدهم الله إحدى الطائفتين إما العير أو النفير ، رغبوا فى العير لما فيها من الغنيمة ، والسلامة من القتال ، كما سيأتى بيانه.

وجملة : ﴿ يجادلونك فى الحق بعد ما تبين ﴾ إما فى محل نصب على أنها حال بعد حال، أو مستأنفة جواب سؤال مقدر . ومجادلتهم لما ندبهم إلى إحدى الطائفتين ، وفات العير، وأمرهم بقتال النفير ، ولم يكن معهم كثير أهبة ، لذلك شق عليهم وقالوا : لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة ، وأكملنا الأهبة . ومعنى : ﴿ فى الحق ﴾ أى فى القتال بعد ما تبين لهم أنك لا تأمر بالشىء إلا بإذن الله ، أو بعد ما تبين لهم أن الله وعدهم بالظفر بإحدى الطائفتين . وأن العير إذا فاتت ظفروا بالنفير . و﴿ بعد ﴾ ظرف ليجادلونك . و﴿ ما ﴾ مصدرية ، أى يجادلونك بعد ما تبين الحق لهم .

قوله : ﴿ كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ الكاف فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿ لكارهون ﴾ أى حال كونهم فى شدة فزعهم من القتال ، يشبهون حال من يساق ليقتل ، وهو مشاهد لأسباب قتله ناظر إليها لا يشك فيها .

قوله : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر ، أى واذكروا وقت وعد الله إياكم إحدى الطائفتين . وأمرهم بتذكير الوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث بقصد المبالغة . والطائفتان هما : العير والنفير. و﴿ إحدى ﴾ هو ثانى مفعولى ﴿ يعد ﴾ و﴿ أنها لكم ﴾ بدل منه بدل اشتمال. ومعناه: أنها مسخرة لكم، وأنكم تغلبونها وتغنمون منها ، وتصنعون بها ما شئتم من قتل وأسر وغنيمة ، لا يطيقون لكم دفعاً ، ولا يملكون لأنفسهم منكم ضراً ولا نفعاً . وفى هذه الجملة تذكير لهم بنعمة من النعم التى أنعم الله بها عليهم .

---

(١) الكشاف ٢/ ١٩٧ .

قوله : ﴿ **وتودون** ﴾ معطوف على ﴿ **يعدكم** ﴾ من جملة الحوادث التى أمروا بذكر وقتها. ﴿ **أن غير ذات الشوكة** ﴾ من الطائفتين،وهى طائفة العير ﴿ **تكون لكم** ﴾ دون ذات الشوكة ، وهى طائفة النفير ، أى غير ذات الحد. والشوكة : السلاح . والشوكة : النبت الذى له حد . ومنه رجل شائك السلاح ، أى حديد السلاح . ثم يقلب فيقال : شاكى السلاح . فالشوكة مستعارة من واحدة الشوك . والمعنى : وتودون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح ، وهى طائفة العير لأنها غنيمة صافية عن كدر القتال ، إذ لم يكن معها من يقوم بالدفع عنها .

قوله : ﴿ **ويريد الله أن يحق الحق بكلماته** ﴾ معطوف على ﴿ **تودون** ﴾ وهو من جملة ما أمروا بذكر وقته ، أى ويريد الله غير ما تريدون ، وهو أن يحق الحق بظاهره ، لما قضاه من ظفركم بذات الشوكة ، وقتلهم لصناديدهم وأسر كثير منهم ، واغتنام ما غنمتم من أموالهم التى أجلبوا بها عليكم ، وراموا دفعكم بها . والمراد بالكلمات : الآيات التى أنزلها فى محاربة ذات الشوكة ، ووعدكم منه بالظفر بها . ﴿ **ويقطع دابر الكافرين** ﴾ الدابر : الآخر . وقطعه عبارة عن الاستئصال ، والمعنى : ويستأصلهم جميعاً .

قوله : ﴿ **ليحق الحق ويبطل الباطل** ﴾ هذه الجملة علة لما يريده الله ، أى أراد ذلك ، أو يريد ذلك ليظهر الحق ويرفعه ﴿ **ويبطل الباطل** ﴾ ويضعه ، أو اللام متعلقة بمحذوف ، أى فعل ذلك ليحق الحق.وقيل : متعلق بـ﴿ **يقطع** ﴾ وليس فى هذه الجملة تكرير لما قبلها ؛ لأن الأولى لبيان التفاوت فيما بين الإرادتين . وهذه لبيان الحكمة الداعية إلى ذلك، والعلة المقتضية له . والمصلحة المترتبة عليه . وإحقاق الحق : إظهاره . وإبطال الباطل : إعدامه . ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ [ الأنبياء : ١٨ ] ومفعول ﴿ **ولو كره المجرمون** ﴾ محذوف،أى ولو كرهوا أن يحق الحق ، ويبطل الباطل . والمجرمون هم المشركون من قريش ، أو جميع طوائف الكفار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى أيوب الأنصارى قال : قال لنا رسول الله ﷺ ، ونحن بالمدينة ، وبلغه أن عير أبى سفيان قد أقبلت فقال : « ما ترون فيها لعل الله يغنمناها ويسلمنا»، فخرجنا ، فلما سرنا يومًا أو يومين ، أمرنا رسول الله ﷺ أن نتعاد ، ففعلنا . فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثة عشر ، فأخبرنا النبى ﷺ بعدتنا ، فسر بذلك وحمد الله وقال : « عدة أصحاب طالوت » . فقال : « ما ترون فى قتال القوم ، فإنهم قد أخبروا بمخرجكم » . فقلنا : يا رسول الله ، لا والله مالنا طاقة بقتال القوم ، إنما خرجنا للعير ، ثم قال : « ما ترون في قتال القوم ؟ » فقلنا مثل ذلك . فقال المقداد : لا تقولوا كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا

قاعدون ﴾ [ المائدة : ٢٤ ] فأنزل الله : ﴿ **كما أخرجك ربك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم** ﴾ . فلما وعدنا الله إحدى الطائفتين إما القوم ، وإما العير ، طابت أنفسنا . ثم إنا اجتمعنا مع القوم فصففنا ، فقال رسول الله ﷺ :« اللهم إنى أنشدك وعدك». فقال ابن رواحة : يارسول الله ، إنى أريد أن أشير عليك ، ورسول الله ﷺ أفضل من أن يشير عليه : إن الله أجل وأعظم من أن تنشده وعده . فقال : « يا ابن رواحة ، لأنشدن الله وعده ، فإن الله لا يخلف الميعاد » . فأخذ قبضة من التراب ، فرمى بها رسول الله ﷺ فى وجوه القوم فانهزموا . فأنزل الله : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ فقتلنا وأسرنا ، فقال عمر : يا رسول الله ، ما أرى أن يكون لك أسرى ، فإنما نحن داعون مؤلفون ، فقلنا : يا معشر الأنصار ، إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا. فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ فقال : « ادعوا لى عمر » . فدعى له ، فقال : « إن الله قد أنزل علىَّ : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى﴾ » الآية [ الأنفال : ٦٧]. وفى إسناده ابن لهيعة ، وفيه مقال معروف (١) .

وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن مردويه عن محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثى عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال : « كيف ترون ؟ » . فقال أبو بكر : يارسول الله ، بلغنا أنهم كذا وكذا ، ثم خطب الناس فقال : « كيف ترون ؟ » فقال عمر مثل قول أبى بكر . ثم خطب الناس فقال : « كيف ترون ؟ » فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، إيانا تريد ، فوالذى أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ، ولا لى بها علم ، ولئن سرت حتى تأتى برك الغماد من ذى يمن ، لنسيرن معك ،ولا نكونن كالذين قالوا لموسى :﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ [ المائدة : ٢٤ ] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر ، وأحدث الله إليك غيره ، فانظر الذى أحدث الله إليك فامض له ، فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، فنزل القرآن على قول سعد : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ويقطع دابر الكافرين** ﴾ وإنما كان رسول الله ﷺ يريد الغنيمة مع أبى سفيان ، فأحدث الله إليه القتال .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ قال : كذلك يجادلونك فى خروج القتال . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ قال :السدى فى قوله :﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ قال : خروج

---

(١) الطبرانى (٤٠٥٦) وقال الهيثمى فى المجمع : ٦/ ٧٦ « إسناده حسن » وقال محقق الطبرانى : « قلت ليس بحسن لأن فى إسناده ابن لهيعة ، والراوى عنه من غير العبادلة » .

النبى ﷺ إلى بدر ﴿ **وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون** ﴾ قال : لطلب المشركين . ﴿**يجادلونك فى الحق بعد ما تبين** ﴾ إنك لا تصنع إلا ما أمرك الله به .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم** ﴾ قال: هى عير أبى سفيان . ودَّ أصحاب محمد ﷺ أن العير كانت لهم ، وأن القتال صرف عنهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة : ﴿ **ويقطع دابر الكافرين** ﴾ أى شأفتهم. ووقعة بدر قد اشتملت عليها كتب الحديث ، والسير ، والتاريخ مستوفاة ، فلا نطيل بذكرها .

﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)** ﴾ .

قوله : ﴿ **إذ تستغيثون** ﴾ الظرف متعلق بمحذوف ، أى واذكروا وقت استغاثتكم .وقيل : بدل من : ﴿ **وإذ يعدكم الله** ﴾ معمول لعامله . وقيل : متعلق بقوله : ﴿ **ليحق الحق** ﴾ والاستغاثة طلب الغوث . يقال : استغاثنى فلان فأغثته . والاسم : الغياث . والمعنى أن المسلمين لما علموا أنه لابد من قتال الطائفة ذات الشوكة ، وهم النفير كما أمرهم الله بذلك ، وأراده منهم ، ورأوا كثرة عدد النفير ، وقلة عددهم ، استغاثوا بالله سبحانه . وقد ثبت فى صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن عدد المشركين يوم بدر ألف ، وعدد المسلمين ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً، وأن النبى ﷺ لما رأى ذلك ، استقبل القبلة ، ثم مَدَّ يَدَيْهِ فجعل يهتف بربه : « اللهم انجز لى ما وعدتنى ، اللهم آتنى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض » (١) الحديث ﴿ **فاستجاب لكم** ﴾ عطف على ﴿ **تستغيثون** ﴾ داخل معه فى التذكير ، وهو وإن كان مستقبلا فهو بمعنى الماضى . ولهذا عطف عليه ﴿ **استجاب** ﴾ .

قوله : ﴿ **أنى ممدكم بألف من الملائكة** ﴾ أى بأنى ممدكم فحذف حرف الجر ، وأوصل الفعل إلى المفعول . وقرئ بكسر الهمزة على إرادة القول ، أو على أن فى ﴿ **استجاب** ﴾ معنى القول .

قوله : ﴿ **مردفين** ﴾ قرأ نافع بفتح الدال اسم مفعول . وقرأ الباقون بكسرها اسم فاعل . وانتصابه على الحال . والمعنى على القراءة الأولى : أنه جعل بعضهم تابعاً لبعض . وعلى القراءة الثانية : أنهم جعلوا بعضهم تابعًا لبعض . وقيل: إن ﴿ **مردفين** ﴾ على القراءتين نعت

(١) مسلم فى الجهاد (١٧٦٣/٥٨) .

لألف . وقيل : إنه على القراءة الأولى حال من الضمير المنصوب فى ﴿ ممدكم ﴾ أى ممدكم فى حال إردافكم بألف من الملائكة . وقد قيل : إن ردف وأردف بمعنى واحد . وأنكره أبو عبيدة قال : لقوله تعالى: ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ [ النازعات:٧ ] ولم يقل المردفة . قال سيبويه : وفى الآية قراءة ثالثة وهى: « مردفين » بضم الراء وكسر الدال مشددة ، وقراءة رابعة بفتح الراء وتشديد الدال ، وقرأ جعفر بن محمد وعاصم الجحدرى :« بآلاف » جمع ألف ، وهو الموافق لما تقدم فى آل عمران .

والضمير فى ﴿ **وما جعله الله** ﴾ راجع إلى الإمداد المدلول عليه بقوله : ﴿ **أنى ممدكم** ﴾. ﴿ **إلا بشرى** ﴾ أى إلا بشارة لكم بنصره ، وهو استثناء مفرغ ، أى ما جعل إمدادكم لشىء من الأشياء إلا للبشرى لكم بالنصر . ﴿ **ولتطمئن به**﴾ أى بالإمداد قلوبكم . وفى هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا ، بل أمد الله المسلمين بهم للبشرى لهم ، وتطمين قلوبهم، وتثبيتها . واللام فى ﴿ **لتطمئن** ﴾ متعلقة بفعل محذوف يقدر متأخراً ، أى ولتطمئن قلوبكم فعل ذلك لا لشىء آخر . ﴿**وما النصر إلا من عند الله** ﴾ لا من عند غيره ، ليس للملائكة فى ذلك أثر ، فهو الناصر على الحقيقة،وليسوا إلا سبباً من أسباب النصر التى سببها الله لكم ، وأمدكم بها. ﴿ **إن الله عزيز**﴾ لا يغالب ﴿ **حكيم** ﴾ فى كل أفعاله .

وقد أخرج ابن جرير عن على رضى الله عنه قال : نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبى ﷺ وفيها أبوبكر، ونزل ميكائيل فى ألف من الملائكة عن ميسرة النبى ﷺ ، وأنا فى الميسرة . وأخرج سنيد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد قال : ما أمد النبى ﷺ بأكثر من هذه الألف التى ذكر الله فى الأنفال ، وما ذكر الثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف إلا بشرى .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مردفين** ﴾ قال: متتابعين . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **مردفين** ﴾ يقول : المدد . وأخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عنه أيضًا فى الآية قال : وراء كل ملك ملك . وأخرج ابن أبى حاتم عن الشعبى قال : كان ألف مردفين وثلاثة آلاف منزلين ، فكانوا أربعة آلاف ، وهم مدد المسلمين فى ثغورهم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبوالشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **مردفين** ﴾ قال : مجدين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال: متتابعين ، أمدهم الله بألف ، ثم بثلاثة ثم أكملهم خمسة آلاف. ﴿ **وما جعله الله إلا بشرى** ﴾ لكم ﴿ **ولتطمئن به قلوبكم** ﴾ قال: يعنى نزول الملائكة . قال : وذكر لنا أن عمر قال : أما يوم بدر فلا نشك أن الملائكة كانوا معنا . وأما بعد ذلك فالله أعلم. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد ﴿ **مردفين** ﴾ قال : بعضهم على أثر بعض .

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **إذ يغشاكم** ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر كالذى قبله ، أو بدل ثان من ﴿ **إذ يعدكم** ﴾ أو منصوب بالنصر المذكور قبله . وقيل غير ذلك مما لا وجه له . و﴿ **يغشيكم** ﴾ هى قراءة نافع وأهل المدينة على أن الفاعل هو الله سبحانه. وهذه القراءة هى المطابقة لما قبلها . أعنى قوله : ﴿ **وما النصر إلا من عند الله** ﴾ ولما بعدها أعنى : ﴿ **وينزل عليكم** ﴾ فيتشاكل الكلام ويتناسب . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : « يغشاكم » على أن الفاعل للنعاس . وقرأ الباقون: ﴿**يغشيكم**﴾ بفتح الغين وتشديد الشين ، وهى كقراءة نافع وأهل المدينة فى إسناد الفعل إلى الله ، ونصب النعاس . قال مكى : والاختيار ضم الياء والتشديد ، ونصب النعاس لأن بعده ﴿ **أمنة منه**﴾ . والهاء فى ﴿ **منه** ﴾ لله ، فهو الذى يغشيهم النعاس ، ولأن الأكثر عليه ، وعلى القراءة الأولى والثالثة يكون انتصاب ﴿ **أمنة** ﴾ على أنها مفعول له . ولايحتاج فى ذلك إلى تأويل وتكلف ؛ لأن فاعل الفعل المعلل والعلة واحد ، بخلاف انتصابها على العلة باعتبار القراءة الثانية ، فإنه يحتاج إلى تكلف. وأما على جعل الأمنة مصدراً فلا إشكال . يقال : أمن أمنة وأمنا وأماناً . وهذه الآية تتضمن ذكر نعمة أنعم الله بها عليهم ، وهى أنهم مع خوفهم من لقاء العدو والمهابة لجانبه ، سكن الله قلوبهم وأمّنها حتى ناموا آمنين غير خائفين ، وكان هذا النوم فى الليلة التى كان القتال فى غدها . قيل : وفى امتنان الله عليهم بالنوم فى هذه الليلة وجهان : أحدهما : أنه قوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد . الثانى : أنه أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم . وقيل : إن النوم غشيهم فى حال التقاء الصفين . وقد مضى فى يوم أحد نحو من هذا فى سورة آل عمران .

قوله :﴿ **وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به** ﴾ هذا المطر كان بعد النعاس . وقيل : قبل النعاس . وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر ، فنزلوا عليه ، وبقى المؤمنون لا ماء لهم ، فأنزل الله المطر ليلة بدر. والذى فى سيرة ابن إسحاق وغيره أن المؤمنين هم الذين سبقوا إلى ماء بدر ، وأنه منع قريشا من السبق إلى الماء مطر عظيم ، ولم يصب المسلمين منه إلا ما شد لهم دهس [١] الوادى ، وأعانهم على المسير [٢] .

(١) الدهس : المكان السهل اللين ليس برمل ولا تراب ولا طين ، والأرض لا يغلب عليها لون الأرض ، ولا لون النبات . اللسان ٦/ ٨٩.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

ومعنى ﴿ **ليطهركم به** ﴾ : ليرفع عنكم الأحداث ﴿ **ويذهب عنكم رجز الشيطان** ﴾ أى وسوسته لكم ، بما كان قد سبق إلى قلوبهم من الخواطر التى هى منه من الخوف والفشل حتى كانت حالهم حال من يساق إلى الموت . ﴿**وليربط على قلوبكم** ﴾ فيجعلها صابرة قوية ثابتة فى مواطن الحرب . والضمير فى ﴿ **به** ﴾ من قوله : ﴿ **ويثبت به الأقدام** ﴾ راجع إلى الماء الذى أنزله الله ، أى يثبت بهذا الماء الذى أنزله عليكم عند الحاجة إليه أقدامكم فى مواطن القتال . وقيل : الضمير راجع إلى الرابط المدلول عليه بالفعل .

قوله : ﴿ **إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم** ﴾ الظرف منصوب بفعل محذوف خاص بالنبى ﷺ؛ لأنه لا يقف على ذلك سواه ، أى واذكر يا محمد وقت إيحاء ربك إلى الملائكة . وقيل : هو بدل من ﴿ **إذ يعدكم** ﴾ كما تقدم. ولكنه يأبى ذلك أن هذا لا يقف عليه المسلمون ، فلا يكون من جملة النعم التى عددها الله عليهم . وقيل : العامل فيه يثبت، فيكون المعنى يثبت الأقدام وقت الوحى ، وليس لهذا التقييد معنى . وقيل : العامل فيه ﴿ **ليربط** ﴾ ولا وجه لتقييد الربط على القلوب بوقت الإيحاء . ومعنى الآية : إنى معكم بالنصر والمعونة . فعلى قراءة الفتح للهمزة هو مفعول ﴿**يوحى**﴾ وعلى قراءة الكسر يكون بتقدير القول . ومعنى ﴿ **فثبتوا الذين آمنوا** ﴾: بشروهم بالنصر، أو ثبتوهم على القتال بالحضور معهم، وتكثير سوادهم. وهذا أمر منه سبحانه للملائكة الذين أوحى إليهم بأنه معهم. والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

قوله : ﴿ **سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب** ﴾ قد تقدم بيان معنى إلقاء الرعب فى آل عمران . قيل : هذه الجملة تفسير لقوله : ﴿ **إنى معكم** ﴾ . قوله :﴿ **فاضربوا فوق الأعناق** ﴾ قيل: المراد : الأعناق أنفسها. و﴿ **فوق** ﴾ زائدة. قاله الأخفش وغيره . وقال محمد بن يزيد : هذا خطأ ؛ لأن ﴿ **فوق** ﴾ يفيد معنى ، فلا يجوز زيادتها ، ولكن المعنى أنه أبيح لهم ضرب الوجوه وما قرب منها . وقيل : المراد بما فوق الأعناق ؛ الرؤوس . وقيل : المراد بفوق الأعناق أعاليها ؛ لأنها المفاصل الذى يكون الضرب فيها أسرع إلى القطع . قيل: وهذا أمر للملائكة . وقيل: للمؤمنين. وعلى الأول قيل : هو تفسير لقوله : ﴿ **فثبتوا الذين آمنوا** ﴾.

قوله : ﴿ **واضربوا منهم كل بنان** ﴾ قال الزجاج : واحد البنان : بنانة . وهى هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء ، والبنان مشتق من قولهم : أبن الرجل بالمكان . إذا أقام به ، لأنه يعمل بها ما يكون للإقامة والحياة . وقيل : المراد بالبنان هنا أطراف الأصابع من اليدين ، والرجلين ، وهو عبارة عن الثبات فى الحرب . فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال ، بخلاف سائر الأعضاء . قال عنترة :

وقد كان فى الهيجاء يحمى ذمارها ... ويضرب عند الكرب كل بنان

وقال عنترة أيضا :

وإن المـوت طـوع يـدى إذا مـا ... وصلـت بنـانـهـا بالـهـندوانـى

قال ابن فارس : البنان : الأصابع . ويقال : الأطراف ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما وقع عليهم من القتل ، ودخل فى قلوبهم من الرعب ، وهو مبتدأ . و﴿ **بأنهم شاقوا الله ورسوله** ﴾ خبره ، أى ذلك بسبب مشاقتهم . والشقاق أصله أن يصير كل واحد من الخصمين فى شق . وقد تقدم تحقيق ذلك . ﴿ **ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب** ﴾ له ، يعاقبه بسبب ما وقع منه من الشقاق .

قوله : ﴿ **ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار** ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من العقاب ، أو الخطاب هنا للكافرين ، كما أن الخطاب فى قوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ للنبى ﷺ أو لكل من يصلح للخطاب. قال الزجاج : ذلكم رفع بإضمار الأمر أو القصة . أى الأمر أو القصة ذلكم فذوقوه. قال : ويجوز أن يضمر واعلموا . قال فى الكشاف : ويجوز أن يكون نصباً على عليكم ذلكم فذوقوه ، كقولك : زيداً فاضرب به. قال أبو حيان : لا يجوز تقدير : عليكم لأنه اسم فعل ، وأسماء الأفعال لا تضمر ، وتشبيهه بـ : زيدا فاضربه غير صحيح ؛ لأنه لم يقدر فيه عليك ، بل هو من باب الاشتغال . وجملة : ﴿**وأن للكافرين عذاب النار** ﴾ معطوفة على ما قبلها فتكون الإشارة على هذا إلى العقاب العاجل الذى أصيبوا به ، ويكون ﴿ **وأن للكافرين عذاب النار** ﴾ إشارة إلى العقاب الآجل .

وقد أخرج أبو يعلى والبيهقى فى الدلائل عن على قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلى تحت شجرة حتى أصبح (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب فى الآية ، قال: بلغنا أن هذه الآية أنزلت فى المؤمنين يوم بدر فيما أغشاهم الله من النعاس أمنة منه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أمنة منه** ﴾ قال : أمنا من الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **أمنة منه** ﴾ قال : رحمة منه أمنة من العدو . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : النعاس فى الرأس ، والنوم فى القلب. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً قال : كان النعاس أمنة من الله ، وكان النعاس نعاسين : نعاس يوم بدر ، ونعاس يوم أحد .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب فى قوله: ﴿ **وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به** ﴾ قال : طش (٢) كان يوم بدر . وأخرج هؤلاء عن مجاهد فى الآية ، قال: المطر أنزله الله عليهم قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار ، والتبدت به الأرض ، وطابت به أنفسهم ، وثبتت به أقدامهم . وأخرج ابن أبى حاتم وابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال : بعث الله السماء ، وكان الوادى دهسًا ، وأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد الأرض ، ولم يمنعهم المسير ، وأصاب قريشًا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه. وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس ، قال : إن المشركين

(١) البيهقى فى الدلائل ٣/ ٣٩ .

(٢) الطش : المطر القليل وهو فوق الرذاذ . اللسان ٦/ ٣١١.

غلبوا المسلمين فى أول أمرهم على الماء ، فضحى المسلمون وصلوا مجنبين محدثين ، فألقى الشيطان فى قلوبهم الحزن ، وقال : أتزعمون أن فيكم نبيًا وأنكم أولياء الله ، وتصلون مجنبين محدثين؟ فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادى ماء ، فشرب المسلمون وتطهروا، وثبتت أقدامهم ، وذهبت وسوسته (١) . وقد قدمنا أن المشهور فى كتب السير المعتمدة أن المشركين لم يغلبوا المؤمنين على الماء ، بل المؤمنون هم الذين غلبوا عليه من الابتداء . وهذا المروى عن ابن عباس فى إسناده العوفى ، وهو ضعيف جداً.

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **رجز الشيطان** ﴾ قال : وسوسته . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وليربط على قلوبكم** ﴾ قال: بالصبر ﴿ **ويثبت به الأقدام** ﴾ قال: كان بطن الوادى دهاسًا ، فلما مطروا اشتدت الرملة. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله: ﴿ **ويثبت به الأقدام** ﴾ قال : حتى تشتد على الرمل ، وهو كهيئة الأرض . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن على قال : كان رسول الله ﷺ يصلى تلك الليلة ويقول :« اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد » ، وأصابهم تلك الليلة مطر شديد ، فذلك قوله : ﴿ **ويثبت به الأقدام** ﴾ (٢) .

وأخرج ابن أبى شيبة عن مجاهد قال : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف قال : قال لى أبى : يا بنى ، لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى رأس المشرك، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس قال : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب على الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد احترق به . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ **فاضربوا فوق الأعناق** ﴾ يقول : الرؤوس . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطية ﴿**فاضربوا فوق الأعناق** ﴾ قال : اضربوا الأعناق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك ﴿**فاضربوا فوق الأعناق**﴾ يقول: اضربوا الرقاب.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **واضربوا منهم كل بنان** ﴾ قال : يعنى بالبنان الأطراف . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطية ﴿**واضربوا منهم كل بنان** ﴾ قال : كل مفصل .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)**

(١) ابن جرير ٩/ ١٣١ .
(٢) ابن جرير ٩/ ١٣٠ .

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) ﴾ .

الزحف : الدنو قليلا قليلا . وأصله الاندفاع على الإلية . ثم سمى كل ماش فى الحرب إلى آخر زاحفاً . والتزاحف : التدانى والتقارب . تقول : زحف إلى العدو زحفا ، وازدحف القوم ، أى مشى بعضهم إلى بعض ، وانتصاب ﴿ زحفا ﴾ إما على أنه مصدر لفعل محذوف، أى تزحفون زحفا ، أو على أنه من المؤمنين ، أى حال كونكم زاحفين إلى الكفار ، أو حال من الذين كفروا ، أى حال كون الكفار زاحفين إليكم، أو حال من الفريقين، أى متزاحفين .

﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ نهى الله المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار إذا لقوهم ، وقد دب بعضهم إلى بعض للقتال ، فظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين فى كل زمن ، وعلى كل حال إلا حالة التحرف والتحيز . وقد روى عن عمر وابن عمر(١) وابن عباس وأبى هريرة وأبى سعيد وأبى نضرة وعكرمة ونافع والحسن وقتادة وزيد بن أبى حبيب والضحاك ؛ أن تحريم الفرار من الزحف فى هذه الآية مختص بيوم بدر . وأن أهل بدر لم يكن لهم أن ينحازوا ، ولو انحازوا لانحازوا إلى المشركين ، إذ لم يكن فى الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ، ولا لهم فئة إلا النبى ﷺ. فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض . وبه قال أبو حنيفة . قالوا : ويؤيده قوله : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ فإنه إشارة إلى يوم بدر . وقيل : إن هذه الآية منسوخة بآية الضعف . وذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية محكمة عامة غير خاصة ، وأن الفرار من الزحف محرم ، ويؤيد هذا أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب فى يوم بدر .

وأجيب عن قول الأولين : بأن الإشارة فى ﴿ يومئذ ﴾ إلى يوم بدر بأن الإشارة إلى يوم الزحف كما يفيده السياق، ولا منافاة بين هذه الآية وآية الضعف ، بل هذه الآية مقيدة بها ، فيكون الفرار من الزحف محرما بشرط ما بينه الله فى آية الضعف . ولا وجه لما ذكروه من أنه لم يكن فى الأرض يوم بدر مسلمون غير من حضرها ، فقد كان فى المدينة إذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبى ﷺ بالخروج لأنه ﷺ ومن خرج معه لم يكونوا يرون فى الابتداء أنه سيكون قتال . ويؤيد هذا ورود الأحاديث الصحيحة المصرحة بأن الفرار من الزحف من جملة الكبائر كما فى حديث : « اجتنبوا السبع الموبقات» . وفيه : « والتولى يوم الزحف » (٢) . ونحوه من الأحاديث . وهذا البحث تطول ذيوله وتتشعب طرقه ، وهو مبين فى مواطنه . قال ابن عطية :

(١) وحديث ابن عمرحديث حسن تفرد به النسائى فى التفسير (٢٢٠) وقال ابن جرير ٩/ ١٣٥ : « وأولى التأويلين فى هذه الآية بالصواب عندى قول من قال حكمها محكم ، وأنها نزلت فى أهل بدر وحكمها ثابت فى جميع المؤمنين ، وأن الله حرم على المؤمنين إذا لقوا العدو أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتحرف لقتال أو لتحيز إلى فئة » .

(٢) الحديث عن أبى هريرة أخرجه البخارى فى الوصايا (٢٧٦٦) وفى الطب (٥٧٦٤) وفى الحدود (٦٨٥٧) ومسلم فى الإيمان (٨٩/ ١٤٥) وأبو داود فى الوصايا (٢٨٧٤) والنسائى فى الكبرى فى الوصايا (٣٦٧١) وفى التفسير (٣٨١) .

والأدبار : جمع دبر . والعبارة بالدبر فى هذه الآية متمكنة فى الفصاحة لما فى ذلك من الشناعة على الفارّ والذم له .

قوله : ﴿ **إلا متحرفا لقتال** ﴾ التحرف : الزوال عن جهة الاستواء ، والمراد به هنا : التحرف من جانب إلى جانب فى المعركة طلبا لمكائد الحرب وخدعا للعدو ، وكمن يوهم أنه منهزم ليتبعه العدو فيكر عليه ويتمكن منه ، ونحو ذلك من مكائد الحرب، فإن الحرب خدعة.

قوله : ﴿ **أو متحيزا إلى فئة** ﴾ أى إلى جماعة من المسلمين غير الجماعة المقابلة للعدو . وانتصاب ﴿**متحرفا**﴾ و﴿**متحيزا** ﴾ على الاستثناء من المولين ، أى ومن يولهم دبره إلا رجلا منهم متحرفا أو متحيزا . ويجوز انتصابهما على الحال ، ويكون حرف الاستثناء لغوا لا عمل له . وجملة : ﴿ **فقد باء بغضب من الله** ﴾ جزاء للشرط ، والمعنى : من ينهزم ويفر من الزحف فقد رجع بغضب كائن من الله إلا المتحرف والمتحيز . ﴿ **ومأواه جهنم** ﴾ أى المكان الذى يأوى إليه هو النار . ففراره أوقعه إلى ما هو أشد بلاء مما فر منه وأعظم عقوبة . والمأوى: ما يأوى إليه الإنسان . ﴿ **وبئس المصير** ﴾ ما صار إليه من عذاب النار . وقد اشتملت هذه الآية على الوعيد الشديد لمن يفر عن الزحف،وفى ذلك دلالة على أنه من الكبائر الموبقة .

قوله : ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم** ﴾ الفاء جواب شرط مقدر ، أى إذا عرفتم ما قصه الله عليكم من إمداده لكم بالملائكة ، وإيقاع الرعب فى قلوبهم فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بما يسره لكم من الأسباب الموجبة للنصر .

قوله: ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ اختلف المفسرون فى هذا الرمى على أقوال : فروى عن مالك أن المراد به : ما كان منه ﷺ فى يوم حنين ، فإنه رمى المشركين بقبضة من حصباء الوادى ، فأصابت كل واحد منهم . وقيل : المراد به : الرمية التى رمى رسول الله ﷺ أُبى بن خلف بالحربة فى عنقه فانهزم ومات منها . وقيل : المراد به السهم الذى رمى به رسول الله ﷺ فى حصن خيبر ، فسار فى الهوى حتى أصاب ابن أبى الحقيق وهو على فراشه .

وهذه الأقوال ضعيفة ، فإن الآية نزلت عقب وقعة بدر . وأيضا المشهور فى كتب السير والحديث فى قتل ابن أبى الحقيق أنه وقع على صورة غير هذه الصورة . والصحيح كما قال ابن إسحاق وغيره أن المراد بالرمي المذكور فى هذه الآية: هو ما كان منه ﷺ فى يوم بدر ، فإنه أخذ قبضة من تراب فرمى بها فى وجوه المشركين ، فأصابت كل واحد منهم ودخلت فى عينيه ومنخريه وأنفه (١) .

قال ثعلب : المعنى : ﴿ **وما رميت** ﴾ الفزع والرعب فى قلوبهم ﴿ **إذ رميت** ﴾ بالحصباء فانهزموا . ﴿**ولكن الله رمى** ﴾ أى أعانك وأظفرك ، والعرب تقول : رمى الله لك ، أى أعانك وأظفرك وصنع لك . وقد حكى مثل هذا أبوعبيدة فى كتاب المجاز . وقال محمد بن

(١) ابن إسحاق ٢/ ٣١٠ ، ٣١١ .

يزيد المبرد : المعنى : ﴿ وما رميت ﴾ بقوتك ﴿ إذ رميت ﴾ ولكنك بقوة الله رميت .

وقيل: المعنى: إن تلك الرمية بالقبضة من التراب التى رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة ؛ لأنك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمى البشر ، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم ، فأثبت الرمية لرسول الله ﷺ ؛ لأن صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه ؛ لأن أثرها الذى لا يطيقه البشر فعل الله عز وجل ، فكأن الله فاعل الرمية على الحقيقة، وكأنها لم توجد من رسول الله ﷺ أصلا . هكذا فى الكشاف (١) .

قوله : ﴿ وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ﴾ البلاء هاهنا : النعمة . والمعنى : ولينعم على المؤمنين إنعاما جميلا . واللام متعلقة بمحذوف ، أى وللإنعام عليهم بنعمه الجميلة فعل ذلك لا لغيره . أو الواو عاطفة لما بعدها على علة مقدرة قبلها ، أى ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا . ﴿ إن الله سميع عليم ﴾ لدعائهم ، عليم بأحوالهم . والإشارة بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ إلى البلاء الحسن ، وهو فى محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى الغرض ﴿ ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ أى إن الغرض منه سبحانه بما وقع مما حكته الآيات السابقة إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين . وقيل : المشار إليه القتل والرمى . وقد قرئ بتشديد الهاء وتخفيفها مع التنوين ، وقرأ الحسن بتخفيف الهاء مع الإضافة ، والكيد : المكر ، وقد تقدم بيانه .

وقد أخرج البخارى فى تاريخه ، والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن نافع ؛ أنه سأل ابن عمر قال : إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا ، ولا ندرى من الفئة أمامنا أو عسكرنا ؟ فقال لى: الفئة رسول الله ﷺ ،فقلت: إن الله يقول: ﴿ إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ﴾ قال: إنما نزلت هذه الآية فى أهل بدر ،لا قبلها ولا بعدها (٢). وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والنحاس فى ناسخه، وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى فى قوله : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ... ﴾ الآية ، قال: إنها كانت لأهل بدر خاصة (٣). وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب قال: لا تغرنكم هذه الآية، فإنما كانت يوم بدر ، وأنا فئة لكل مسلم (٤). وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : نزلت فى أهل

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٠٧ .

(٢) النسائى فى التفسير (٢٢٠) وإسناده حسن ورجاله ثقات غير حسان بن عبد الله بن سهل الكندى المصرى فهو صدوق يخطئ .

(٣) أبو داود فى الجهاد (٢٦٤٨) والنسائى فى التفسير (٢٢٣، ٢٢٤) وابن جرير ٩/ ١٣٤ ، وصححه الحاكم ٢/ ٣٢٧ على شرط مسلم ووافقه الذهبى، وابن الجوزى فى نواسخ القرآن ص ٣٤٥، وسنده صحيح ورجاله كلهم ثقات .

(٤) ابن جرير ٩/ ١٣٥ .

بدر خاصة ، ما كان لهم أن ينهزموا عن رسول الله ﷺ ويتركوه . وقد روى اختصاص هذه الآية بأهل بدر عن جماعة من التابعين ومن بعدهم . وقد قدمنا الإشارة إلى ذلك .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **إلا متحرفا لقتال** ﴾ يعنى مستطردا يريد الكرة على المشركين . ﴿ **أو متحيزا إلى فئة** ﴾ يعنى أو ينحاز إلى أصحابه من غير هزيمة ﴿ **فقد باء بغضب من الله**﴾ يقول : استوجبوا سخطا من الله ﴿ **ومأواه جهنم وبئس المصير** ﴾ فهذا يوم بدر خاصة ، كان شديدا على المسلمين يومئذ ليقطع دابر الكافرين ، وهو أول قتال قاتل المشركين من أهل مكة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك ، قال : المتحرف : المتقدم من أصحابه أن يرى عورة من العدو فيصيبها . والمتحيز : الفار إلى رسول الله ﷺ ، وكذلك من فر اليوم إلى أميره وأصحابه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عطاء بن أبى رباح فى قوله: ﴿**ومن يولهم يومئذ دبره** ﴾ قال: هذه الآية منسوخة بالآية التى فى الأنفال:﴿ الآن خفف الله عنكم ﴾[1] الآية [الأنفال: ٦٦ ].

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد ، والبخارى فى الأدب المفرد واللفظ له ، وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجة وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر قال : كنا فى غزاة فحاص الناس حيصة[2] ، قلنا : كيف نلقى رسول الله ﷺ وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ؟ فأتينا رسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر ، فخرج فقال : « من القوم ؟ » فقلنا: نحن الفرارون. فقال: « لا ، بل أنتم العكارون »[3] . فقبلنا يده فقال : « أنا فئتكم ، وأنا فئة المسلمين ، ثم قرأ :﴿ **إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة** ﴾ »[4] .

وقد روى فى تحريم الفرار من الزحف ، وأنه من الكبائر أحاديث . وورد عن جماعة من الصحابة أنه من الكبائر ، كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس [5] ـ وأخرجه ابن أبى شيبة عن ابن عمر (٦) ـ وأخرجه ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب [7] .

---

(١) ابن جرير ٩/ ١٣٥ .

(٢) حاصوا حيصة: أى جالوا جولة يطلبون الفرار . اللسان ٧/ ١٩.

(٣) والعكارون : العائدون إلى القتال والعاطفون عليه ، يقال : عكرت على الشىء ، أى : عطفت عليه ، وانصرفت إليه بعد الذهاب عنه .اللسان ٤ / ٥٩٩ .

(٤) سعيد بن منصور فى الجهاد (٢٥٣٩) وابن سعد ٤/ ٤٥ وابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٥٣٣) وأحمد ٢/ ٧٠ وأبو داود فى الجهاد (٢٦٤٧) والترمذى فى الجهاد (١٧١٦) وقال : « هذا حديث حسن ، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبى زياد » والبيهقى فى الشعب (٤٠٠٢) وقال : « إسناده ضعيف » .

(٥) ابن جرير ٩/ ١٣٥ .

(٦) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٥٣٩) .

(٧) المرجع السابق فى الجهاد ( ١٥٥٣٨ ) .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿**فلم تقتلوهم**﴾ قال لأصحاب محمد ﷺ حين قال : هذا قتلت ، وهذا قتلت . ﴿ **وما رميت إذ رميت** ﴾ قال لمحمد ﷺ حين حصب الكفار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **وما رميت إذ رميت** ﴾ قال : رماهم يوم بدر بالحصباء. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن حكيم بن حزام قال : لما كان يوم بدر ، سمعنا صوتاً من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت فى طست ، ورمى رسول الله ﷺ بتلك الحصباء وقال : « شاهت الوجوه » فانهزمنا . فذلك قوله تعالى : ﴿ **وما رميت إذ رميت...** ﴾ الآية [(١)] .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن جابر قال : سمعت صوت حصيات وقعن من السماء يوم بدر كأنهن وقعن فى طست . فلما اصطف الناس أخذهن رسول الله ﷺ فرمى بهن فى وجوه المشركين فانهزموا ، فذلك قوله : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ . وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما رميت إذ رميت** ﴾ قال : قال رسول الله لعلى : « ناولنى قبضة من حصباء » فناوله ، فرمى بها فى وجوه القوم فما بقى أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **وما رميت إذ رميت**﴾[(٢)] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب ، قال : لما كان يوم أحد أخذ أبى بن خلف يركض فرسه حتى دنا من رسول الله ﷺ ، واعترض رجال من المسلمين لأبى بن خلف ليقتلوه ، فقال لهم رسول الله ﷺ: « استأخروا » . فاستأخروا ، فأخذ رسول الله ﷺ حربته فى يده ، فرمى بها أبى بن خلف وكسر ضلعاً من أضلاعه ، فرجع أبىٌ ابن خلف إلى أصحابه ثقيلا ، فاحتملوه حين ولوا قافلين ، فطفقوا يقولون : لا بأس . فقال أبى حين قالوا له ذلك: والله لو كانت بالناس لقتلتهم . ألم يقل : إنى أقتلك إن شاء الله ، فانطلق به أصحابه ينعشونه حتى مات ببعض الطريق فدفنوه . قال ابن المسيب : وفى ذلك أنزل الله : ﴿ **وما رميت إذ رميت** ﴾[(٣)] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب والزهرى نحوه . وإسناده صحيح إليهما. وقد أخرجه الحاكم فى المستدرك[(٤)] . قال ابن كثير: وهذا القول عن هذين الإمامين غريب جداً . ولعلهما أرادا أن الآية تتناولهما بعمومها . وهكذا قال فيما قاله عبد الرحمن بن جبير كما سيأتى [(٥)] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن جبير : أن رسول الله ﷺ [ لما

---

(١) ابن جرير ٩/ ١٣٦ والطبرانى (٣١٢٧ ، ٣١٢٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٨٧ : « إسناده حسن » .
(٢) الطبرانى (١١٧٥٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٨٧ : « رجاله رجال الصحيح » .
(٣) ابن جرير ٩/ ١٣٦ ، ١٣٧ عن الزهرى نحوه .
(٤) صححه الحاكم ٢/ ٣٢٧ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٥) ابن كثير ٣/ ٢٩٢ .

خرج ] يؤم ابن أبى الحقيق دعا بقوس فرمى بها الحصن . فأقبل السهم حتى قتل ابن أبى الحقيق فى فراشه ، فأنزل الله : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله : ﴿ **ولكن الله رمى** ﴾ أى لم يكن ذلك برميتك لولا الذى جعل الله من نصرك ، وما ألقى فى صدور عدوك حتى هزمهم ﴿ **وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا** ﴾ أى ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم فى إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ؛ ليعرفوا بذلك حقه ، ويشكروا بذلك نعمته .

﴿ **إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ⑲** ﴾ .

الاستفتاح : طلب النصر . وقد اختلف فى المخاطبين بالآية من هم ؟ فقيل : إنها خطاب للكفار تهكما بهم ، والمعنى : إن تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم النصر . وقد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا الله أن ينصر أحق الطائفتين بالنصر ، فتهكم الله بهم ، وسمى ما حل بهم من الهلاك نصراً . ومعنى بقية الآية على هذا القول . ﴿ **وإن تنتهوا** ﴾ عما كنتم عليه من الكفر والعداوة لرسول الله ﴿ **فهو** ﴾ أى الانتهاء ﴿**خير لكم وإن تعودوا** ﴾ إلى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة ﴿ **نعد** ﴾ بتسليط المؤمنين عليكم ونصرهم كما سلطناهم ونصرناهم فى يوم بدر . ﴿ **ولن تغنى عنكم فئتكم** ﴾ أى جماعتكم ﴿ **شيئاً ولو كثرت** ﴾ أى لا تغنى عنكم فى حال من الأحوال ولو فى حال كثرتها . ثم قال : ﴿ **وأن الله مع المؤمنين** ﴾ ومن كان الله معه فهو المنصور . ومن كان الله عليه فهو المخذول . قرئ بكسر :« إن » وفتحها . فالكسر على الاستئناف . والفتح على تقدير : ولأن الله مع المؤمنين فعل ذلك .

وقيل : إن الآية خطاب للمؤمنين ، والمعنى : إن تستنصروا الله فقد جاءكم النصر فى يوم بدر . وإن تنتهوا عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم وفداء الأسرى قبل الإذن لكم بذلك فهو خير لكم . وإن تعودوا إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم،كما فى قوله : ﴿لولا كتاب من الله سبق . . . ﴾ الآية [ الأنفال : ٦٨ ] . ولا يخفى أنه يأبى هذا القول معنى : ﴿ **ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا** ﴾ ويأباه أيضا : ﴿ **وأن الله مع المؤمنين** ﴾ وتوجيه ذلك لا يمكن إلا بتكلف وتعسف .

وقيل : إن الخطاب فى ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ للمؤمنين ، وما بعده للكافرين ، ولا يخفى ما فى هذا من تفكيك النظم وعود الضمائر الجارية فى الكلام على نمط واحد إلى طائفتين مختلفتين .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن منده ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن

شهاب عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير، أن أبا جهل قال حين التقى القوم : اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه (١) الغداة . فكان ذلك استفتاحًا منه ، فنزلت : ﴿ **إن تستفتحوا** ﴾ الآية (٢). وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطية قال : قال أبو جهل يوم بدر : اللهم انصر أهدى الفئتين ، وأفضل الفئتين ، وخير الفئتين ، فنزلت الآية (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **إن تستفتحوا** ﴾ يعنى المشركين ، أى إن تستنصروا فقد جاءكم المدد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ قال : كفار قريش فى قولهم : ربنا افتح بيننا وبين محمد وأصحابه ، ففتح بينهم يوم بدر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ **إن تستفتحوا** ﴾ قال : إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء فى يوم بدر .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله :﴿ **وإن تنتهوا** ﴾ قال : عن قتال محمد ﷺ . ﴿**وإن تعودوا نعد** ﴾ قال : إن تستفتحوا الثانية أفتح لمحمد . ﴿ **وأن الله مع المؤمنين** ﴾ قال : مع محمد وأصحابه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ **وإن تعودوا نعد** ﴾ يقول : نعد لكم بالأسر والقتل .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣)** ﴾ .

أمر الله سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ونهاهم عن التولى عن رسوله .فالضمير فى ﴿ **عنه** ﴾ عائد إلى الرسول؛ لأن طاعة رسول الله ﷺ هى من طاعة الله . و﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [ النساء : ٨٠]. ويحتمل أن يكون هذا الضمير راجعاً إلى الله وإلى رسوله كما فى قوله : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ [التوبة : ٦٢ ] وقيل : الضمير راجع إلى الأمر الذى دل عليه ﴿ **أطيعوا** ﴾ وأصل تولوا : تتولوا ، فطرحت إحدى التاءين . هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤمنين . وبه قال الجمهور .

وقيل : إنه خطاب للمنافقين . والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط . قال ابن عطية : وهذا وإن كان محتملا على بعد فهو ضعيف جدا ؛ لأن الله وصف من خاطبه فى هذه

---

(١) فأحنه أى : أهلكه ، والحَيْنُ ـ : بالفتح هو الهلاك . اللسان ١٣/ ١٣٦ .

(٢) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٥٢١) وأحمد ٥/ ٤٣١ والنسائى فى التفسير (٢٢١) وابن جرير ٩/ ١٣٨ وصححه الحاكم ٢/ ٣٢٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٧٤ .

(٣) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٥٢٨) وابن جرير ٩/ ١٣٨ .

الآية بالإيمان ، وهو : التصديق . والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء .

وأبعد من هذا من قال : الخطاب لبنى إسرائيل ، فإنه أجنبى من الآية . وجملة : ﴿ **وأنتم تسمعون** ﴾ فى محل نصب على الحال . والمعنى : وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين ، وتصدقون بها ولستم كالصم البكم . ﴿ **ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا** ﴾ وهم المشركون أو المنافقون أو اليهود أو الجميع من هؤلاء ، فإنهم يسمعون بآذانهم من غير فهم ولا عمل ، فهم كالذى لم يسمع أصلا ؛ لأنه لم ينتفع بما سمعه .

ثم أخبر سبحانه بـ ﴿ **إن شر الدواب** ﴾ أى ما دب على الأرض ﴿ **عند الله** ﴾ أى فى حكمه ﴿ **الصم البكم** ﴾ أى الذين لا يسمعون ولا ينطقون . وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق ؛ لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق ﴿ **الذين لا يعقلون** ﴾ ما فيه النفع لهم فيأتونه ، وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه ، فهم شر الدواب عند الله ؛ لأنها تميز بعض تمييز ، وتفرق بين ما ينفعها ويضرها .

﴿ **ولو علم الله فيهم** ﴾ أى فى هؤلاء الصم البكم ﴿ **خيراً لأسمعهم** ﴾ سماعا ينتفعون به، ويتعقلون عنده الحجج والبراهين . قال الزجاج : ﴿ **لأسمعهم** ﴾ جواب كل ما سألوا عنه . وقيل : ﴿ **لأسمعهم** ﴾ كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم ؛ لأنهم طلبوا إحياء قصى بن كلاب وغيره ، ليشهدوا بنبوة محمد ﷺ . ﴿ **ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون**﴾ لأنه قد سبق فى علمه أنهم لا يؤمنون . وجملة :﴿ **وهم معرضون** ﴾ فى محل نصب على الحال .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿**وهم لا يسمعون** ﴾ قال : عاصون (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿ **إن شر الدواب عند الله**. . . ﴾ الآية . قال : إن هذه الآية نزلت فى فلان وأصحاب له . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **إن شر الدواب عند الله** ﴾ قال: هم نفر من قريش من بنى عبد الدار .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **الصم البكم الذين لا يعقلون** ﴾ قال :لا يتبعون الحق . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : نزلت هذه الآية فى النضر بن الحارث وقومه . ولعله المكنى عنه « بفلان » فيما تقدم من قول على رضى الله عنه . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله : ﴿ **ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم** ﴾ أى لأنفذ لهم قولهم الذى قالوا بألسنتهم ، ولكن القلوب خالفت ذلك منهم (٢) . وأخرج أبوالشيخ عن عكرمة فى الآية قال : قالوا نحن صم عما يدعونا إليه محمد لا نسمعه ، بكم لا نجيبه فيه

(١) فى المطبوعة : « غاضبون » وفى ابن جرير ٦/ ١٤٠ « عاصون » ، وهو الصواب كما أثبتناه من المخطوطة .
(٢) ابن إسحاق ٢/ ٣١١.

بتصديق ، قتلوا جميعا بأحد ، وكانوا أصحاب اللواء يوم أحد .

**﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) ﴾** .

الأمر هنا بالاستجابة مؤكد لما سبق من الأمر بالطاعة ، ووحد الضمير هنا حيث قال : **﴿ إذا دعاكم ﴾** كما وحده فى قوله : **﴿ ولا تتولوا عنه ﴾** . وقد قدمنا الكلام فى وجه ذلك . والاستجابة : الطاعة . قال أبو عبيدة : معنى استجيبوا : أجيبوا . وإن كان استجاب يتعدى باللام ، وأجاب بنفسه كما فى قوله : ﴿ يا قومنا أجيبوا داعى الله ﴾ [ الأحقاف : ٣١] وقد يتعدى استجاب بنفسه ،كما فى قول الشاعر (١) :

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى      فلم يستجبه عند ذاك مجيب

**﴿ إذا دعاكم لما يحييكم ﴾** اللام متعلقة بقوله : **﴿ استجيبوا ﴾** أى استجيبوا لما يحييكم إذا دعاكم ، ولا مانع من أن تكون متعلقة بـ « دعا » ، أى إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة ، فإن العلم حياة ، كما أن الجهل موت . فالحياة هنا مستعارة للعلم . قال الجمهور من المفسرين : المعنى : استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه ففيه الحياة الأبدية ، والنعمة السرمدية . وقيل : المراد بقوله : **﴿ لما يحييكم ﴾** : الجهاد ، فإنه سبب الحياة فى الظاهر ؛ لأن العدو إذا لم يغز غزا .

ويستدل بهذا الأمر بالاستجابة على أنه يجب على كل مسلم إذا بلغه قول الله أو قول رسوله فى حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر إلى العمل به كائنا ما كان ، ويدع ما خالفه من الرأى وأقوال الرجال . وفى هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الأدلة ، وترك التقيد بالمذاهب ، وعدم الاعتداد بما يخالف ما فى الكتاب والسنة كائنا ما كان .

قوله : **﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾** قيل : معناه : بادروا إلى الاستجابة قبل أن لا تتمكنوا منها بزوال القلوب التى تعقلون بها بالموت الذى كتبه الله عليكم. وقيل : معناه : إنه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو ، فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدلهم بعد الخوف أمنا ، ويبدل عدوهم من الأمن خوفا . وقيل : هو من باب التمثيل لقربه سبحانه من العبد كقوله : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ [ ق : ١٦ ] ومعناه : أنه مطلع على ضمائر القلوب لا تخفى عليه منها خافية .

واختار ابن جرير أن هذا من باب الإخبار من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب عباده منهم،

---

(١) الشاعر : هو كعب بن سعد الغنوى ، قاله يرثى أخاه أبا المغوار .

وأنه يحول بينهم إذا شاء حتى لا يدرك الإنسان شيئا إلا بمشيئته عز وجل . ولايخفاك أنه لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعانى . ﴿ **وأنه إليه تحشرون** ﴾ معطوف على ﴿ **أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾ وأنكم محشورون إليه ، وهو مجازيكم بالخير خيراً وبالشر شراً . قال الفراء : ولو استأنفت فكسرت همزة « إنه » لكان صوابا . ولعل مراده أن مثل هذا جائز فى العربية .

قوله : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ أى اتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح ، ولا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم . وقد اختلف النحاة فى دخول هذه النون المؤكدة فى ﴿**تصيبن** ﴾ فقال الفراء : هو بمنزلة قولك : انزل عن الدابة لا تطرحنك . فهو جواب الأمر بلفظ النهى، أى إن تنزل عنها لا تطرحنك . ومثله قوله تعالى : ﴿ ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده ﴾ [ النمل : ١٨ ] أى إن تدخلوا ، لا يحطمنكم . فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء .

وقال المبرد : إنه نهى بعد أمر . والمعنى : النهى للظالمين ، أى لا يقربن الظلم . ومثله ما روى عن سيبويه : لا أرينك هاهنا ، فإن معناه : لا تكن هاهنا ، فإن من كان هاهنا رأيته. وقال الجرجانى : إن ﴿ **لا تصيبن** ﴾ نهى فى موضع وصف لفتنة . وقرأ على وزيد بن ثابت وأبى وابن مسعود : « لتصيبن » على أن اللام جواب لقسم محذوف ، والتقدير : اتقوا فتنة والله لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة . فيكون معنى هذه القراءة مخالفا لمعنى قراءة الجماعة ؛ لأنها تفيد أن الفتنة تصيب الظالم خاصة بخلاف قراءة الجماعة .

﴿ **واعلموا أن الله شديد العقاب** ﴾ ومن شدة عقابه أنه يصيب بالعذاب من لم يباشر أسبابه ، وقد وردت الآيات القرآنية بأنه لا يصاب أحد إلا بذنبه ، ولا يعذب إلا بجنايته ، فيمكن حمل ما فى هذه الآية على العقوبات التى تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض . ويمكن أن تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة ، والله أعلم . ويمكن أن يقال: إن الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة بأسباب ، كترك الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فتكون الأسباب المتعدية للظالم إلى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ قال : للحق . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية ، قال : هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة فى الدنيا والآخرة . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله : ﴿ **إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ أى للحرب التى أعزكم الله بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم بها من العذاب بعد القهر منهم لكم (١) . وقد ثبت فى الصحيح من

---

(١) ابن إسحاق ٢/ ٣١٢ .

حديث أبى سعيد بن المعلى ، قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله ﷺ ، فلم أجبه، ثم أتيته فقلت : يا رسول الله ، إنى كنت أصلى. فقال: « ألم يقل الله : ﴿ **استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم** ﴾ » (١) الحديث. وفيه دليل على ما ذكرنا من أن الآية تعم كل دعاء من الله أو من رسوله .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾ قال : يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصى الله . ويحول بين الكافر وبين الإيمان وطاعة الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى الآية قال : علمه يحول بين المرء وقلبه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية ، قال : يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن فى الآية قال: فى القرب منه .

وأخرج أحمد والبزار وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر عن مطرف ، قال: قلت للزبير: يا أبا عبد الله ، ضيعتم الخليفة حتى قتل ، ثم جئتم تطلبون بدمه . قال الزبير : إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ ، وأبى بكر وعمر وعثمان : ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ ولم نكن نحسب أنا أهلها حتي وقعت فينا حيث وقعت . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن ، قال : قرأ الزبير : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ قال : البلاء والأمر الذى هو كائن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن فى الآية ، قال : نزلت فى على وعثمان وطلحة والزبير (٢) .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : نزلت فى أصحاب النبى ﷺ خاصة . وأخرج ابن جرير وأبوالشيخ عن السدى قال : نزلت فى أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا، فكان من المقتولين طلحة والزبير ، وهما من أهل بدر(٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : تصيب الظالم والصالح عامة . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : هى مثل : ﴿ **يحول بين المرء وقلبه** ﴾ حتى يتركه لا يعقل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية ، قال : أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب (٤) . وقد وردت الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأن هذه الأمة إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، عمهم الله بعذاب من عنده (٥) .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٤٧٤، ٤٧٠٣) وأبو داود فى الصلاة (١٤٥٨) وابن ماجة فى الأدب (٣٧٨٥) .

(٢ ، ٣) ابن جرير ٩/ ١٤٤ . (٤) ابن جرير ٩/ ١٤٤ .

(٥) ومنها هذا الحديث عن أبى بكر رضى الله عنه قال : يا أيها الناس : إنكم تقرؤون هذه الآية : ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ [ المائدة: ١٠٥ ] وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: =

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ .

الخطاب بقوله : ﴿ **واذكروا إذ أنتم قليل** ﴾ للمهاجرين ، أى اذكروا وقت قِلَّتِكُمْ . و﴿ **مستضعفون** ﴾ خبر ثان للمبتدأ . والأرض : هى أرض مكة . والخطف : الأخذ بسرعة . والمراد بالناس : مشركو قريش . وقيل : فارس والروم . ﴿**فآواكم** ﴾ يقال : آوى إليه بالمد وبالقصر بمعنى انضم إليه . فالمعنى : ضمكم الله إلى المدينة أو إلى الأنصار ﴿ **وأيدكم بنصره**﴾ أى قواكم بالنصر فى مواطن الحرب التى منها يوم بدر . أو قواكم بالملائكة يوم بدر ﴿ **ورزقكم من الطيبات** ﴾ التى من جملتها الغنائم . ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾ أى إرادة أن تشكروا هذه النعم التى أنعم بها عليكم. والخون : أصله كما فى الكشاف : النقص . كما أن الوفاء : التمام [(١)] ، ثم استعمل فى ضد الأمانة والوفاء ، لأنك إذا خنت الرجل فى شيء فقد أدخلت عليه النقصان. وقيل : معناه الغدر وإخفاء الشيء . ومنه قوله تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ [ غافر : ١٩] . نهاهم الله عن أن يخونوه بترك شيء مما افترضه عليهم ، أو يخونوا رسوله بترك شيء مما أمنهم عليه ، أو بترك شيء مما سنه لهم ، أو يخونوا شيئا من الأمانات التى اؤتمنوا عليها ؛ وسميت أمانات ؛ لأنه يؤمن معها من منع الحق ، مأخوذة من الأمن .

وجملة :﴿ **وأنتم تعلمون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى وأنتم تعلمون أن ذلك الفعل خيانة ، فتفعلون الخيانة عن عمد ، أو وأنتم من أهل العلم لا من أهل الجهل . ثم قال : ﴿ **واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ لأنهم سبب الوقوع فى كثير من الذنوب ، فصاروا من هذه الحيثية محنة يختبر الله بها عباده . وإن كانوا من حيثية أخرى زينة الحياة الدنيا كما فى الآية الأخرى . ﴿ **وأن الله عنده أجر عظيم** ﴾ فآثروا حقه على أموالكم وأولادكم ليحصل لكم ما عنده من الأجر المذكور .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **واذكروا إذ أنتم قليل** ﴾ قال: كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلا، وأشقاه عيشا ، وأجوعه بطونا ، وأعراه جلودا ، وأبينه ضلالة ، من عاش عاش شقيا ، ومن مات منهم ردى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ،

= « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » أبوداود فى الملاحم (٤٣٣٨) والترمذى فى الفتن (٢١٦٨) وعن حذيفة بن اليمان حديث آخر (٢١٦٩) والنسائى فى التفسير (١٧٧). وابن ماجة فى الفتن (٤٠٠٥) وحديث آخر عن عائشة (٤٠٠٤) .

(١) الكشاف : ٢ / ٢١٣ .

لا والله ما نعلم قبيلا من حاضرى الأرض يومئذ كان أشر منزلا منهم، حتى جاء الله بالإسلام، فمكن به فى البلاد ، ووسع به فى الرزق ، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس . وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا لله نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر وأهل الشكر فى مزيد من الله عز وجل . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **يتخطفكم الناس** ﴾ قال : فى الجاهلية بمكة. ﴿ **فآواكم** ﴾ إلى الإسلام . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن وهب في قوله : ﴿ **يتخطفكم الناس** ﴾ قال : الناس إذ ذاك فارس والروم . وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم ، والديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس** ﴾ قيل : يا رسول الله ، ومن الناس ؟ قال : « أهل فارس » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **فآواكم** ﴾ قال : إلى الأنصار بالمدينة ﴿ **وأيدكم بنصره** ﴾ قال : يوم بدر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة ، فأتى جبريل النبى ﷺ فقال : إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أبا سفيان فى مكان كذا وكذا ، فاخرجوا إليه واكتموا» فكتب رجل من المنافقين إلى أبى سفيان : إن محمداً يريدكم فخذوا حذركم ، فأنزل الله: ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول** . . . ﴾ الآية [(١)] . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن أبى قتادة ، قال : نزلت هذه الآية : ﴿ **لا تخونوا الله والرسول**﴾ فى أبى لبابة بن عبد المنذر ، سألوه يوم قريظة : ما هذا الأمر ؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح ، فنزلت . قال أبو لبابة : ما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله [(٢)] . وأخرج سنيد وابن جرير عن الزهرى نحوه بأطول منه[(٣)] . وأخرج عبد بن حميد عن الكلبى : أن رسول الله ﷺ بعث أبا لبابة إلى قريظة وكان حليفًا لهم ، فأومأ بيده أنه الذبح ، فنزلت . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى هذه الآية أنها نزلت فى أبى لبابة ، ونسختها الآية التى فى براءة : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ [ التوبة : ١٠٢ ].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لا تخونوا الله** ﴾ قال : بترك فرائضه ﴿**والرسول** ﴾ بترك سننه وارتكاب معصيته ﴿ **وتخونوا أماناتكم** ﴾ يقول : لا تنقصوها . والأمانة : الأعمال التى ائتمن الله عليها العباد . وأخرج ابن جرير عن المغيرة بن شعبة قال : نزلت هذه الآية فى قتل عثمان . ولعل مراده أن من جملة ما يدخل تحت عمومها قتل عثمان [(٤)] . وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن أبى حبيب فى الآية ، قال : هو

---

(١) ابن جرير ٩/ ١٤٦ وقال الشيخ محمود شاكر فى تحقيقه لابن جرير : « وهذا خبر ضعيف جداً لضعف محمد المحرم وهو متروك الحديث » وقد ذكر الخبر ابن كثير فى تفسيره ٣/ ٣٠٤ وقال : « هذا إسناد غريب جدا وفى سنده وسياقه نظر » .

(٢ ــ ٤ ) ابن جرير ٩/ ١٤٦ .

الإخلال بالسلاح فى المغازى . ولعل مراده أن هذا مما يندرج تحت عمومها .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ؛ وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال : ما منكم من أحد إلا وهو يشتمل على فتنة لأن الله يقول : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلات الفتن [1] . وأخرج هؤلاء عن ابن زيد فى الآية قال : فتنة الاختبار اختبرهم . وقرأ : ﴿ ونبلوكم[2] بالشر والخير فتنة ﴾ [الأنبياء : ٣٥ ].

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)** ﴾.

جعل الله سبحانه التقوى شرطا فى الجعل المذكور مع سبق علمه بأنهم يتقون أو لا يتقون ، جريا على ما يخاطب به الناس بعضهم بعضا . والتقوى : اتقاء مخالفة أوامره ، والوقوع فى مناهيه . والفرقان : ما يفرق به بين الحق والباطل . والمعنى : أنه يجعل لهم من ثبات القلوب وثقوب البصائر وحسن الهداية ما يفرقون به بينهما عند الالتباس . وقيل : الفرقان : المخرج من الشبهات ، والنجاة من كل ما يخافونه ، ومنه قول الشاعر :

مالك من طول الأسى فرقان    بعد قطين رحلوا وبانوا

ومنه قول الآخر :

وكيف أرجو الخلد والموت طالبى    ومالى من كأس المنية فرقان

وقال الفراء : المراد بالفرقان : الفتح والنصر . قال ابن إسحاق : الفرقان : الفصل بين الحق والباطل . وبمثله قال ابن زيد . وقال السدى : الفرقان : النجاة . ويؤيد تفسير الفرقان بالمخرج والنجاة قوله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾ [ الطلاق : ٢] . وبه قال مجاهد ومالك بن أنس .

﴿ **ويكفر عنكم سيئاتكم** ﴾ أى يسترها حتى تكون غير ظاهرة ﴿ **ويغفر لكم** ﴾ ما اقترفتم من الذنوب . وقد قيل : إن المراد بالسيئات : الصغائر ، وبالذنوب التى تغفر : الكبائر . وقيل : المعنى : أنه يغفر لهم ما تقدم من الذنوب وما تأخر . ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ فهو المتفضل على عباده بتكفير السيئات ومغفرة الذنوب .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يجعل لكم فرقانا** ﴾ قال : هو المخرج . وأخرج ابن جرير عنه قال : هو النجاة . وأخرج ابن جرير عن عكرمة مثله . وأخرج ابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن ابن عباس، قال : هو النصر .

---

(١) المرجع السابق ٩/١٤٧.

(٢) فى المخطوطة : « ولنبلونكم » ، وهو خطأ .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا** ﴾ الظرف معمول لفعل محذوف ، أى واذكر يا محمد وقت مكر الكافرين بك ،أو معطوف على ما تقدم من قوله : ﴿ **واذكروا** ﴾ ذكر الله رسوله هذه النعمة العظمى التى أنعم بها عليه ، وهى نجاته من مكر الكافرين وكيدهم كما سيأتى بيانه . ﴿ **ليثبتوك** ﴾ أى يثبتوك بالجراحات كما قال ثعلب وأبو حاتم وغيرهما، ومنه قول الشاعر :

فقلت ويحكم ما فى صحيفتكم        قالوا الخليفة أمسى مثبتا وجعًا

وقيل المعنى : ليحبسوك . يقال : أثبته إذا حبسه . وقيل : ليوثقوك . ومنه : ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ [ محمد : ٤] وقرأ الشعبى : « ليبيتوك » من البيات . وقرئ : « ليثبتوك » بالتشديد . ﴿ **أو يخرجوك** ﴾ معطوف على ما قبله ، أى يخرجوك من مكة التى هى بلدك وبلد أهلك . وجملة : ﴿ **ويمكرون ويمكر الله** ﴾ مستأنفة. والمكر: التدبير فى الأمر فى خفية . والمعنى : أنهم يخفون ما يعدونه لرسول الله ﷺ من المكايد ، فيجازيهم الله على ذلك ، ويرد كيدهم فى نحورهم . وسمى ما يقع منه تعالى مكرا مشاكلة كما فى نظائره . ﴿ **والله خير الماكرين** ﴾ أى المجازين لمكر الماكرين بمثل فعلهم ، فهو يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون ، فيكون ذلك أشد ضرراً عليهم وأعظم بلاء من مكرهم .

قوله : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ أى التى تأتيهم بها وتتلوها عليهم . ﴿ **قالوا** ﴾ تعنتا وتمردا وبعدا عن الحق : ﴿**قد سمعنا** ﴾ ما تتلوه علينا ﴿ **لو نشاء لقلنا مثل هذا** ﴾ الذى تلوته علينا . قيل : إنهم قالوا هذا توهمًا منهم أنهم يقدرون على ذلك . فلما راموا أن يقولوا مثله ، عجزوا عنه ، ثم قالوا [(١)] عنادًا وتمردا : ﴿ **إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ أى ما يستطره الوراقون من أخبار الأولين . وقد تقدم بيانه مستوفى .

﴿ **وإذ قالوا** ﴾ أى واذكر إذ قالوا : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك** ﴾ بنصب الحق على أنه خبر كان ، والضمير للفصل . ويجوز الرفع . قال الزجاج : ولا أعلم أحدا قرأ بها ، ولا اختلاف بين النحويين فى إجازتها ، ولكن القراءة سنة . والمعنى : إن كان القرآن

---

(١) فى المطبوعة :« قال » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

الذى جاءنا به محمد هو الحق ﴿ **فأمطر علينا** ﴾ قالوا هذه المقالة مبالغة فى الجحود والإنكار . قال أبو عبيدة : يقال : أمطر فى العذاب ، ومطر فى الرحمة . وقال فى الكشاف : قد كثر الإمطار فى معنى العذاب (١) .

﴿ **أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ سألوا أن يعذبوا بالرجم بالحجارة من السماء ، أو بغيرها من أنواع العذاب الشديد. فأجاب الله عليهم بقوله : ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت** ﴾ يا محمد ﴿ **فيهم** ﴾ موجود ، فإنك ما دمت فيهم فهم فى مهلة من العذاب الذى هو الاستئصال . ﴿ **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ روى أنهم كانوا يقولون فى الطواف: غفرانك ، أى وما كان الله معذبهم فى حال كونهم يستغفرونه . وقيل : المعنى : لو كانوا ممن يؤمن بالله ويستغفره لم يعذبهم . وقيل : إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم ، أى وما كان الله ليعذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين ، فلما خرجوا من بين أظهرهم ، عذبهم بيوم بدر وما بعده . وقيل : المعنى : وما كان الله معذبهم وفى أصلابهم من يستغفر الله .

وقد أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل، والخطيب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا** ﴾ قالوا : تشاورت قريش ليلة بمكة ، فقال بعضهم : إذا أصبح فاثبتوه بالوثاق . يريدون النبى ﷺ . وقال بعضهم : بل اقتلوه . وقال بعضهم : بل أخرجوه ، فأطلع الله نبيه على ذلك ، فبات علىّ على فراش النبى ﷺ حتى لحق بالغار ،فلما أصبحوا ، ثاروا إليه ، فلما رأوه عليا ، رد الله مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا ؟ فقال : لا أدرى ، فاقتصوا أثره . فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا فى الجبل ، فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا : لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه . فمكث فيه ثلاث ليال (٢) . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبونعيم والبيهقى عن ابن عباس ، فذكر القصة بأطول مما هنا . وفيها ذكر الشيخ النجدى ، أى إبليس ومشورته عليهم عند اجتماعهم فى دار الندوة للمشاورة فى أمر النبى ﷺ ، وأن أبا جهل أشار بأن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش غلاما ، ويعطوا كل واحد منهم سيفا ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد فإذا قتلوه ، تفرق دمه فى القبائل ، فقال الشيخ النجدى : هذا والله هو الرأى .فتفرقوا على ذلك (٣) .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبيد بن عمير ، قال : لما ائتمروا بالنبى ﷺ ليثبتوه أويقتلوه أويخرجوه ، قال له عمه أبو طالب : هل

---

(١) الكشاف : ٢/ ٢١٧ .

(٢) عبد الرزاق (٩٧٤٣) وأحمد ١/ ٣٤٨ والطبرانى (١٢١٥٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٣٠: « فيه عثمان بن عمرو الجزرى وثقه ابن حبان وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح » . وقال الشيخ أحمد شاكر فى تحقيقه للمسند (٣٢٥١) : « فى إسناده نظر » وأبو نعيم فى الدلائل ١٤٩، ١٥٠ وابن جرير ٩/ ١٥٠ .

(٣) ابن إسحاق ٢/ ١٢٢ ـ ١٢٥ وابن جرير ٩/ ١٤٩ .

تدرى ما ائتمروا بك ؟ قال : «يريدون أن يسجنونى ، أو يقتلونى ، أو يخرجونى » . قال : من حدثك بهذا ؟ قال : « ربى » . قال : نعم الرب ربك ، استوص به خيرا ، قال : «أنا أستوصى به بل هو يستوصى بى » (١) وأخرجه ابن جرير من طريق أخرى عنه (٢) . وهذا لا يصح فقد كان أبو طالب مات قبل وقت الهجرة بسنين .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا** ﴾ قال : قال عكرمة : هى مكية (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء فى قوله :﴿ **ليثبتوك** ﴾ يعنى:ليوثقوك. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : قتل النبى ﷺ يوم بدر صبرا عقبة بن أبى معيط ، وطعيمة بن عدى ، والنضر ابن الحارث ، وكان المقداد أسر النضر ، فلما أمر بقتله قال المقداد : يا رسول الله ، أسيرى . فقال رسول الله ﷺ : « إنه كان يقول فى كتاب الله ما يقول ».قال : وفيه أنزلت هذه الآية : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ وهذا مرسل (٤) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى أنها نزلت فى النضر بن الحارث .

وأخرج البخارى وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى عن أنس بن مالك ، قال : قال أبو جهل بن هشام : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك** .... ﴾ الآية ، فنزلت : ﴿ **وما كان الله ليعذبهم** . . ﴾ الآية(٥). وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنها نزلت فى أبى جهل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية أنها نزلت فى النضر بن الحارث (٦) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد مثله (٧) . وأخرج ابن جرير عن عطاء نحوه (٨) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ، قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك . ويقولون : غفرانك غفرانك . فأنزل الله : ﴿ **وما كان الله ليعذبهم**. . .﴾ الآية .

قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبى ﷺ والاستغفار، فذهب النبى ﷺ وبقى الاستغفار (٩). وأخرج الترمذى وضعفه عن أبى موسى الأشعرى ، قال : قال النبى ﷺ: « أنزل الله علىَّ أمانين لأمتى: ﴿ **وما كان الله ليعذبهم**. . ﴾ الآية. فإذا مضيت،تركت فيهم الاستغفار »(١٠).

---

(١) ابن جرير ٩/ ١٤٩ وقال ابن كثير ٣/ ٣٠٦ : « وذكر أبى طالب فى هذا غريب جدا ، بل منكر ؛لأن هذه الآية مدنية ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفى أو القتل إنما كان ليلة الهجرة سواء ؛ وكان ذلك بعد موت أبى طالب بنحو من ثلاث سنين » .

(٢) ابن جرير ٩/ ١٤٩ . (٣) المرجع السابق ٩/ ١٥١ .

(٤) ابن جرير ٩/ ١٥٢ . (٥) البخارى فى التفسير (٤٦٤٨) ، (٤٦٤٩) والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٧٥.

(٦ ـ ٨) ابن جرير ٩/ ١٥٢ . (٩) ابن جرير ٩/ ١٥٤ والبيهقى ٥/ ٤٥ ، ٤٦ .

(١٠) الترمذى فى التفسير ( ٣٠٨٢) وقال : « هذا حديث غريب وإسماعيل بن مهاجر يضَعفُ فى الحديث » .

وأخرج أبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى هريرة قال : كان فيكم أمانان مضى أحدهما ، وبقى الآخر ، قال: ﴿ **وما كان الله ليعذبهم ....** ﴾ الآية (١) . وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ والطبرانى وابن مردويه والحاكم وابن عساكر عن أبى موسى الأشعرى نحوه أيضا (٢). والأحاديث عن رسول الله ﷺ فى مطلق الاستغفار كثيرة جدا معروفة فى كتب الحديث .

﴿ **وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)** ﴾ .

قوله : ﴿ **وما لهم ألا يعذبهم الله** ﴾ لما بين سبحانه أن المانع من تعذيبهم هو الأمران المتقدمان : وجود رسول الله ﷺ بين ظهورهم ، ووقوع الاستغفار ، ذكر بعد ذلك أن هؤلاء الكفار ـ أعنى كفار مكة ـ مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح . والمعنى : أى شىء لهم يمنع من تعذيبهم ؟ قال الأخفش : إن « أن » زائدة . قال النحاس : لو كان كما قال ، لرفع ﴿ **يعذبهم** ﴾ وجملة : ﴿ **وهم يصدون عن المسجد الحرام** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى وما يمنع من تعذيبهم ؟ والحال أنهم يصدون الناس عن المسجد الحرام كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول الله ﷺ وأصحابه من البيت . وجملة : ﴿ **وما كانوا أولياءه** ﴾ فى محل نصب على أنها حال من فاعل ﴿ **يصدون** ﴾ وهذا كالرد لما كانوا يقولونه من أنهم ولاة البيت ، وأن أمره مفوض إليهم ، ثم قال مبينا لمن له ذلك : ﴿ **إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾ أى ما أولياؤه إلا من كان فى عداد المتقين للشرك والمعاصى ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ ذلك . والحكم على الأكثرين بالجهل يفيد أن الأقلين يعلمون ولكنهم يعاندون .

قوله : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية** ﴾ المكاء : الصفير من مكا يمكو مكاء . ومنه قول عنترة:

وخليل غانية تركت مجندلا تمكو فريصته كشدق الأعلم

أى تصوت . ومنه مكت است الدابة : إذا نفخت بالريح . قيل : المكاء : هو الصفير على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له : المكاء . قال الشاعر :

(١) صححه الحاكم ١/ ٥٤٢ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٦٥٤).

(٢) ابن جرير ٩/ ١٥٤ والحاكم ١/ ٥٤٢ وسكت عنه وكذا الذهبى ، وهو موقوف .

إذا غرد المكاء فى غير دوحة فويل لأهل الشاء والحمرات

والتصدية : التصفيق ، يقال : صد يصدى تصدية : إذا صفق . ومنه قول عمرو بن الإطنابة :

وظلوا جميعا لهم ضجة مكاء لدى البيت بالتصدية

أى بالتصفيق. وقيل : المكاء : الضرب بالأيدى . والتصدية : الصياح . وقيل : المكاء : إدخالهم أصابعهم فى أفواههم ، والتصدية : الصفير. وقيل : التصدية : صدهم عن البيت . قيل : والأصل على هذا : تصددة ، فأبدل من إحدى الدالين ياء . ومعنى الآية : أن المشركين كانوا يصفرون ويصفقون عند البيت الذى هو موضع للصلاة والعبادة فوضعوا ذلك موضع الصلاة قاصدين به أن يشغلوا المصلين من المسلمين عن الصلاة . وقرئ بنصب : « صلاتهم » على أنها خبر كان ، وما بعده اسمها . قوله : ﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ هذا التفات إلى مخاطبة الكفار تهديدا لهم ومبالغة فى إدخال الروعة فى قلوبهم . والمراد به : عذاب الدنيا كيوم بدر وعذاب الآخرة .

قوله : ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله** ﴾ لما فرغ سبحانه من شرح أحوال هؤلاء الكفرة فى الطاعات البدنية ، أتبعها شرح أحوالهم فى الطاعات المالية . والمعنى : أن غرض هؤلاء الكفار فى إنفاق أموالهم هو الصد عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك ، وإنفاق أموالهم عليها، وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم الأحزاب . فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش ، ثم أخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الإعجاز فقال : ﴿ **فسينفقونها** ﴾ أى سيقع منهم هذا الإنفاق ﴿ **ثم تكون** ﴾ عاقبة ذلك أن يكون إنفاقهم حسرة عليهم،وكأن ذات الأموال تنقلب حسرة تصير ندما. ﴿ ثم ﴾ آخر الأمر ﴿ **يغلبون** ﴾ كما وعد الله به فى مثل قوله: ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ [المجادلة: ٢١ ] ومعنى ﴿ ثم ﴾ فى الموضعين : إما التراخى فى الزمان لما بين الإنفاق المذكور ، وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد ، وإما التراخى فى الرتبة لما بين بذل المال وعدم حصول المقصود من المباينة، ثم قال : ﴿ **والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾ أى استمروا على الكفر ؛ لأن من هؤلاء الكفار المذكورين سابقا من أسلم وحسن إسلامه ، أى يساقون إليها لا إلى غيرها . ثم بين العلة التى لأجلها فعل بهم ما فعله ، فقال : ﴿ **ليميز الله الخبيث** ﴾ أى الفريق الخبيث من الكفار ﴿ **من** ﴾ الفريق ﴿ **الطيب** ﴾ وهم المؤمنون. ﴿ **ويجعل الخبيث بعضه على بعض** ﴾ أى يجعل فريق الكفار الخبيث بعضه على بعض ﴿ **فيركمه جميعا** ﴾ عبارة عن الجمع والضم ، أى يجمع بعضهم إلى بعض ، ويضم بعضهم إلى بعض حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم . يقال : ركم الشىء يركمه : إذا جمعه وألقى بعضه على بعض. والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الفريق الخبيث . ﴿ **هم الخاسرون** ﴾ أى الكاملون

فى الخسران . وقيل : الخبيث والطيب : صفة للمال . والتقدير : يميز المال الخبيث الذى أنفقه المشركون من المال الطيب الذى أنفقه المسلمون، فيضم تلك الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض ، فيلقيه فى جهنم ، ويعذبهم بها كما فى قوله تعالى : ﴿ فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ [ التوبة : ٣٥] . قال فى الكشاف : واللام على هذا متعلقة بقوله : ﴿ **ثم تكون عليهم حسرة** ﴾ وعلى الأول بـ ﴿**يحشرون** ﴾ . و﴿ **أولئك** ﴾ إشارة إلى الذين كفروا . انتهى(١) .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ ثم استثنى أهل الشرك فقال : ﴿**ومالهم ألا يعذبهم الله** ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **وما لهم ألا يعذبهم الله**﴾ قال : عذابهم فتح مكة . وأخرج ابن إسحاق وأبو حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير : ﴿ **وما لهم ألا يعذبهم الله**﴾ وهم يجحدون بآيات الله ويكذبون رسله . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله : ﴿ **وهم يصدون عن المسجد الحرام** ﴾ أى من آمن بالله وعبده أنت ومن اتبعك . ﴿ **وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾ الذين يخرجون منه ويقيمون الصلاة عنده ، أى أنت ومن آمن بك . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾ قال : من كانوا حيث كانوا.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير قال : كانت قريش يعارضون النبى ﷺ فى الطواف ويستهزئون ويصفرون ويصفقون ، فنزلت : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية** ﴾ (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والضياء عن ابن عباس قال : كانت قريش يطوفون بالكعبة عراة تصفر وتصفق ، فأنزل الله : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية** ﴾ قال: والمكاء : الصفير . إنما شبهوا بصفير الطير . ﴿ **وتصدية** ﴾ : التصفيق . وأنزل الله فيهم : ﴿ قل من حرم زينة الله . . . ﴾ الآية [ الأعراف : ٣٢ ] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس نحوه . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه نحوه أيضا (٣) .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر قال: المكاء : الصفير . والتصدية : التصفيق .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : المكاء : إدخال أصابعهم فى أفواههم . والتصدية : الصفير ، يخلطون بذلك كله على محمد ﷺ صلاته . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : المكاء : الصفير ، على نحو طير أبيض يقال له : المكاء . يكون بأرض الحجاز . والتصدية : التصفيق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **إلا مكاء** ﴾ قال : كانوا

(١) الكشاف : ٢/ ٢١٩ .

(٢ ، ٣) ابن جرير ٩/ ١٥٨ .

يشبكون أصابعهم ويصفرون فيهن . ﴿ **وتصدية** ﴾ قال : صدهم الناس . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : كان المشركون يطوفون بالبيت على الشمال ، وهو قوله : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية** ﴾ فالمكاء مثل نفخ البوق . والتصدية : طوافهم على الشمال .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿**فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**﴾ قال : يعنى أهل بدر ، عذبهم الله بالقتل والأسر .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل ، كلهم من طريقه ، قال : حدثنى الزهرى ، ومحمد بن يحيى بن حبان ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، والحسين بن عبد الرحمن بن عمرو قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم [(١)] إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية فى رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم ، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينوا بهذا المال على حربه . فلعلنا أن ندرك منه ثأراً . ففعلوا ، ففيهم ـ كما ذكر ابن عباس أنزل الله : ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله** ﴾ إلى ﴿**والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾ [(٢)] وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى أبى سفيان بن حرب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه (٣) . وأخرج هؤلاء وغيرهم عن سعيد بن جبير نحوه [(٤)] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحكم بن عتيبة فى الآية قال : نزلت فى أبى سفيان ، أنفق على مشركى قريش يوم أحد أربعين أوقية من ذهب ، وكانت الوقية يومئذ اثنين وأربعين مثقالا من ذهب[(٥)].

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن شمر بن عطية فى قوله : ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب** ﴾ قال : يميز يوم القيامة ما كان من عمل صالح فى الدنيا ، ثم تؤخذ الدنيا بأسرها فتلقى فى جهنم. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **فيركمه جميعاً** ﴾ قال : يجمعه جميعاً .

**﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠) ﴾** .

(١) فلُّهم : الفَلُّ : المنهزم . اللسان ١١/ ٣٥٠ .
(٢) ابن إسحاق ٢/ ٣١٤ وابن جرير ٩/ ١٦٠ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٢٢٥ .
(٣) ابن جرير ٩/ ١٦٠ . (٤) المرجع السابق ٩/ ١٥٩ .
(٥) المرجع السابق ٩/ ١٦٠ .

أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول للكفار هذا المعنى. وسواء قاله بهذه العبارة أو غيرها . قال ابن عطية: ولو كان كما قال الكسائى : إنه فى مصحف عبد الله بن مسعود : « قل للذين كفروا إن تنتهوا » يعنى بالتاء المثناة من فوق ، لما تأدت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها . وقال فى الكشاف: أى قل لأجلهم هذا القول. وهو ﴿ **إن ينتهوا** ﴾ ولو كان بمعنى خاطبهم ، لقيل : إن تنتهوا يغفر لكم . وهى قراءة ابن مسعود ونحوه : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه ﴾ [ الأحقاف : ١١ ] خاطبوا به غيرهم لأجلهم ليسمعوه ، أى إن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله ﷺ وقتاله بالدخول فى الإسلام ﴿ **يغفر لهم ما قد سلف** ﴾ لهم من العداوة . انتهى (١) . وقيل معناه : إن ينتهوا عن الكفر . قال ابن عطية : والحامل على ذلك جواب الشرط بـ ﴿**يغفر لهم ما قد سلف** ﴾ ، ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لمنته عن الكفر ، وفى هذه الآية دليل على أن الإسلام يجب ما قبله .

﴿ **وإن يعودوا** ﴾ إلى القتال والعداوة أو إلى الكفر الذى هم عليه ، ويكون العود بمعنى الاستمرار . ﴿ **فقد مضت سنة الأولين** ﴾ هذه العبارة مشتملة على الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم فى سالف الدهر بعذاب الله ، أى قد مضت سنة الله فيمن فعل مثل فعل هؤلاء من الأولين من الأمم أن يصيبه بعذاب ، فليتوقعوا مثل ذلك .

﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ أى كفر . وقد تقدم تفسير هذا فى البقرة مستوفى . ﴿**فإن انتهوا** ﴾ عما ذكر ﴿**فإن الله بما يعملون بصير** ﴾ لا يخفى عليه ما وقع منهم من الانتهاء ﴿ **وإن تولوا** ﴾ عما أمروا به من الانتهاء ﴿**فاعلموا**﴾ أيها المؤمنون ﴿ **أن الله مولاكم** ﴾ أى ناصركم عليهم ﴿ **نعم المولى ونعم النصير** ﴾ فمن والاه فاز ، ومن نصره غلب.

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فقد مضت سنة الأولين** ﴾ قال : فى قريش وغيرها يوم بدر ، والأمم قبل ذلك . وأخرج أحمد ومسلم عن عمرو بن العاص قال: لما جعل الله الإسلام فى قلبى، أتيت النبى ﷺ فقلت : ابسط يدك فلأبايعك . فبسط يمينه ، فقبضت يدى. قال : « مالك » . قلت : أردت أن أشترط . قال : « تشترط ماذا ؟ » قلت : أن تستغفر لى . قال : « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله » (٢). وقد ثبت فى الصحيح من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « الإسلام يجب ما قبله ، والتوبة تجب ما قبلها » .

وقد فسر كثير من السلف قوله تعالى : ﴿ **فقد مضت سنة الأولين** ﴾ بما مضى فى الأمم المتقدمة من عذاب من قاتل الأنبياء وصمم على الكفر . وقال السدى ومحمد بن إسحاق : المراد بالآية : يوم بدر . وفسر جمهور السلف الفتنة المذكورة هنا : بالكفر . وقال محمد بن إسحاق

---

(١) الكشاف ٢/ ٢١٩ .

(٢) أحمد ٤/ ١٩٨ ، ١٩٩ ومسلم فى الإيمان ( ١٢١/ ١٩٢ )

بلغنى عن الزهرى عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا : ﴿ **حتى لا تكون فتنة** ﴾ : حتى لا يفتن مسلم عن دينه .

**﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) ﴾** .

لما أمر الله سبحانه بالقتال بقوله : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ وكانت المقاتلة مظنة حصول الغنيمة ، ذكر حكم الغنيمة ، والغنيمة قد قدمنا أن أصلها : إصابة الغنم من العدو ، ثم استعملت فى كل ما يصاب منهم ، وقد تستعمل فى كل ما ينال بسعى. ومنه قول الشاعر:

وقد طوفت فى الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب

ومنه قول الآخر :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه ... أنى توجه والمحروم محروم

وأما معنى الغنيمة فى الشرع : فحكى القرطبى الاتفاق على أن المراد بقوله تعالى : ﴿**واعلموا أنما غنمتم من شيء**﴾: مال الكفار إذا ظفر بهم المسلمون على وجه الغلبة والقهر . قال: ولا تقتضى اللغة هذا التخصيص ، ولكن عرف الشرع قيد اللفظ بهذا النوع . وقد ادعى ابن عبد البر الإجماع على أن هذه الآية بعد قوله : ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ [الأنفال : ١ ] وأن أربعة أخماس الغنيمة مقسومة على الغانمين . وأن قوله : ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ نزلت حين تشاجر أهل بدر فى غنائم بدر على ما تقدم أول السورة .

وقيل : إنها ــ أعنى قوله ــ : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ ، محكمة غير منسوخة ، وأن الغنيمة لرسول الله ﷺ وليست مقسومة بين الغانمين ، وكذلك لمن بعده من الأئمة ، حكاه الماوردى عن كثير من المالكية . قالوا : وللإمام أن يخرجها عنهم، واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين . وكان أبو عبيدة يقول : افتتح رسول الله ﷺ مكة عنوة ، ومن على أهلها فردها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها فيئاً . وقد حكى الإجماع جماعة من أهل العلم على أن أربعة أخماس الغنيمة للغانمين . وممن حكى ذلك ابن المنذر وابن عبد البر والداودى والمازرى والقاضى عياض وابن العربى . والأحاديث الواردة فى قسمة الغنمية بين الغانمين وكيفيتها كثيرة جداً .

قال القرطبى : ولم يقل أحد فيما أعلم أن قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال .....﴾

الآية ناسخ لقوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء .... ﴾ الآية. بل قال الجمهور : إن قوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ ناسخ ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله . وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء فى فتحها(١) . قال : وأما قصة حنين فقد عوض الأنصار لما قالوا تعطى الغنائم قريشا وتتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم نفسه ، فقال لهم : « أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم ؟ »(٢) كما فى مسلم وغيره . وليس لغيره أن يقول هذا القول ، بل ذلك خاص به .

قوله : ﴿ أنما غنمتم من شيء ﴾ يشمل كل شيء يصدق عليه اسم الغنيمة . و﴿ من شيء ﴾ بيان لـ « ما » الموصولة. وقد خصص الإجماع من عموم الآية الأسارى ، فإن الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف . وكذلك سلب المقتول إذا نادى به الإمام . وقيل : كذلك الأرض المغنومة . ورد بأنه لا إجماع على الأرض .

قوله : ﴿ فأن لله خمسه ﴾ قرأ النخعى : « فإن لله » بكسر إن ، وقرأ الباقون بفتحها على أن ﴿أن﴾ وما بعدها مبتدأ وخبره محذوف ، والتقدير : فحق أو فواجب أن لله خمسه.

وقد اختلف العلماء فى كيفية قسمة الخمس على أقوال ستة :

الأول: قالت طائفة : يقسم الخمس على ستة ، فيجعل السدس للكعبة ، وهو الذى لله ، والثانى لرسول الله. والثالث لذوى القربى ، والرابع لليتامى ، والخامس للمساكين ، والسادس لابن السبيل .

والقول الثانى : قاله أبو العالية والربيع : إنها تقسم الغنيمة على خمسة ، فيعزل منها سهم واحد ، ويقسم أربعة على الغانمين ، ثم يضرب يده فى السهم الذى عزله ، فما قبضه من شيء جعله للكعبة ، ثم يقسم بقية السهم الذى عزله على خمسة للرسول ومن بعده. . الآية .

القول الثالث : روى عن زين العابدين على بن الحسين أنه قال : إن الخمس لنا . فقيل له: إن الله يقول: ﴿ واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ فقال: يتامانا ومساكيننا وأبناء سبيلنا .

القول الرابع : قول الشافعى : إن الخمس يقسم على خمسة ، وإن سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف فى مصالح المؤمنين ، والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورة فى الآية .

القول الخامس : قول أبى حنيفة : إنه يقسم الخمس على ثلاثة : اليتامى والمساكين وابن السبيل ، وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله ﷺ بموته كما ارتفع حكم سهمه . قال : ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر وبناء المساجد وأرزاق القضاة والجند . وروى نحو هذا عن الشافعى .

---

(١) القرطبى ٣/٢٨٤٦ .

(٢) البخارى فى المغازى (٤٣٣٧) ومسلم فى الزكاة (١٠٥٩/ ١٣٥) وكلهم عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

القول السادس : قول مالك: إنه موكول إلى نظر الإمام واجتهاده ،فيأخذ منه بغير تقدير ، ويعطى منه الغزاة باجتهاد، ويصرف الباقى فى مصالح المسلمين .

قال القرطبى : وبه قال الخلفاء الأربعة وبه عملوا ، وعليه يدل قوله ﷺ : « مالى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم » (١) . فإنه لم يقسمه أخماسا ولا أثلاثا ، وإنما ذكر ما فى الآية من ذكره على وجه التنبيه عليهم ؛ لأنهم من أهم من يدفع إليه . قال الزجاج محتجا لهذا القول : قال الله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [ البقرة : ٢١٥ ] . وجائز بإجماع أن ينفق فى غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك (٢) .

قوله : ﴿ **ولذى القربى** ﴾ قيل : إعادة اللام فى ذى القربى دون من بعدهم لدفع توهم اشتراكهم فى سهم النبى ﷺ .

وقد اختلف العلماء فى القربى على أقوال : الأول : أنهم قريش كلها ، روى ذلك عن بعض السلف ، واستدل بما روى عن النبى ﷺ أنه لما صعد الصفا جعل يهتف ببطون قريش كلها قائلا : « يا بنى فلان ، يا بنى فلان » (٣) .

وقال الشافعى وأحمد وأبو ثور ومجاهد وقتادة وابن جرير ومسلم بن خالد : هم بنو هاشم وبنو المطلب لقوله ﷺ: « إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد » وشبك بين أصابعه . وهو فى الصحيح (٤) .

وقيل : هم بنو هاشم خاصة . وبه قال مالك والثورى والأوزاعى وغيرهم . وهو مروى عن على بن الحسين ومجاهد.

قوله : ﴿ **إن كنتم آمنتم بالله** ﴾ قال الزجاج عن فرقة : إن المعنى : فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم آمنتم بالله . وقالت فرقة أخرى : إن ﴿ **إن** ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم** ﴾ قال ابن عطية : وهذا هو الصحيح ؛ لأن قوله : ﴿ **واعلموا** ﴾ يتضمن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر الله فى الغنائم ، فعلق ﴿ **إن** ﴾ بقوله : ﴿ **واعلموا** ﴾ على هذا المعنى ، أى إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة . وقال فى الكشاف : إنه متعلق بمحذوف يدل عليه ﴿ **واعلموا** ﴾ بمعنى : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن

---

(١) مالك فى الجهاد (٢٢) عن عمرو بن شعيب ، وأحمد ٤/ ١٢٢ عن العرباض بن سارية ،٥/ ٣١٦ عن عبادة بن الصامت ، والنسائى ٧/ ١٣١ ، ١٣٢ عن عبادة أيضا .

(٢) القرطبى ٤/ ٢٨٥٠ .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٨٠١) ومسلم فى الإيمان (٢٠٨/ ٣٥٥) والترمذى فى التفسير (٣٣٦٣) وقال : « حسن صحيح » كلهم عن ابن عباس رضى الله عنه .

(٤) البخارى فى فرض الخمس (٣١٤٠) وفى المناقب (٣٥٠٢) وأبو داود فى الخراج والإمارة والفىء (٢٩٧٨ ، ٢٩٨٠) والنسائى فى قسم الفىء ٧/ ١٣١ وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٨١) عن جبير بن مطعم رضى الله عنه .

الخمس من الغنيمة يجب التقرب به ، فاقطعوا عنه أطماعكم ، واقتنعوا بالأخماس الأربعة . وليس المراد بالعلم المجرد، ولكن العلم المضمن بالعمل والطاعة لأمر الله ؛ لأن العلم المجرد يستوى فيه المؤمن والكافر . انتهى (١) .

قوله : ﴿ **وما أنزلنا على عبدنا** ﴾ معطوف على الاسم الجليل ، أى إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا . و﴿ **يوم الفرقان** ﴾: يوم بدر ؛ لأنه فرق بين أهل الحق وأهل الباطل . و﴿ **الجمعان** ﴾ : الفريقان من المسلمين والكافرين ﴿ **والله على كل شىء قدير** ﴾ ومن قدرته العظيمة نصر الفريق الأقل على الفريق الأكثر .

قوله : ﴿ **إذ أنتم بالعدِوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى** ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بكسر العين فى العدوة فى الموضعين . وقرأ الباقون بالضم فيهما. و« إذ » بدل من يوم الفرقان ، ويجوز أن يكون العامل محذوفا ، أى واذكروا إذ أنتم . والعدوة : جانب الوادى . والدنيا : تأنيث الأدنى . والقصوى : تأنيث الأقصى ، من دنا يدنو ، وقصا يقصو . ويقال : القصيا ، والأصل الواو . وهى لغة أهل الحجاز. والعدوة الدنيا : كانت مما يلى المدينة ، والقصوى : كانت مما يلى مكة ، والمعنى : وقت نزولكم بالجانب الأدنى من الوادى إلى جهة المدينة، وعدوكم بالجانب الأقصى منه مما يلى مكة ، وجملة :﴿ **الركب أسفل منكم** ﴾ : فى محل نصب على الحال . وانتصاب ﴿ **أسفل** ﴾ على الظرف . ومحله الرفع على الخبرية ، أى والحال أن الركب فى مكان أسفل من المكان الذى أنتم فيه . وأجاز الأخفش والكسائى والفراء رفع أسفل على معنى أشد سفلا منكم ، والركب : جمع راكب. ولا تقول العرب ركب إلا للجماعة الراكبى الإبل . ولايقال لمن كان على فرس وغيرها : ركب . وكذا قال ابن فارس ، وحكاه ابن السكيت عن أكثر أهل اللغة . والمراد بالركب هاهنا : ركب أبى سفيان ، وهى المراد بالعير ، فإنهم كانوا فى موضع أسفل منهم مما يلى ساحل البحر .

قيل : وفائدة ذكر هذه الحالة التى كانوا عليها ، من كونهم بالعدوة الدنيا وعدوهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منهم : الدلالة على قوة شأن العدو وشوكته . وذلك لأن العدوة القصوى التى أناخ بها المشركون كان فيها الماء ، وكانت أرضا لا يابس بها . وأما العدوة الدنيا فكانت رخوة تسوخ فيها الأقدام ولا ماء بها . وكانت العير وراء ظهر العدومع كثرة عددهم . فامتن الله على المسلمين بنصرتهم عليهم . والحال هذه .

قوله : ﴿ **ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد** ﴾ أى لو تواعدتم أنتم والمشركون من أهل مكة على أن تلتقوا فى هذا الموضع للقتال ، لخالف بعضكم بعضا ، فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد ، وثبطهم ما فى قلوبهم من المهابة لرسول الله ﷺ.﴿ **ولكن** ﴾ جمع الله بينكم فى هذا الموطن ﴿ **ليقضى الله أمرا كان مفعولا** ﴾ أى حقيقا بأن يفعل من نصر أوليائه وخذلان

(١) الكشاف ٢/ ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

أعدائه وإعزاز دينه وإذلال الكفر ، فأخرج المسلمين لأخذ العير وغنيمتها عند أنفسهم ، وأخرج الكافرين للمدافعة عنها ، ولم يكن فى حساب الطائفتين أن يقع هذا الاتفاق على هذه الصفة . واللام فى ﴿ **ليقضى** ﴾ متعلقة بمحذوف ، والتقدير : جمعهم ليقضى .

وجملة : ﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى** ﴾ بدل من الجملة التى قبلها ، أى ليموت من يموت عن بينة ويعيش عن بينة ، لئلا يبقى لأحد على الله حجة . وقيل : الهلاك والحياة مستعاران للكفر والإسلام ، أى ليصدر إسلام من أسلم عن وضوح بينة ويقين بأنه دين الحق ، ويصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالجة شبهة . قرأ نافع وخلف وسهل ويعقوب والبزى وأبو بكر : « من حيى » بياءين على الأصل . وقرأ الباقون بياء واحدة على الإدغام ، وهى اختيار أبى عبيد ؛ لأنها كذلك وقعت فى المصحف. ﴿ **وإن الله لسميع عليم** ﴾ أى سميع بكفر الكافرين عليم به ، وسميع بإيمان المؤمنين عليم به .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال :ثم وضع مقاسم الفىء فقال : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء** ﴾ بعد الذى كان مضى من بدر ﴿ **فأن لله خمسه** ﴾ إلى آخر الآية . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم عن قيس بن مسلم الجدلى قال : سألت الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب ابن الحنفية عن قول الله : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه** ﴾ قال : هذا مفتاح كلام ، لله الدنيا والآخرة . ﴿ **وللرسول ولذى القربى** ﴾ فاختلفوا بعد وفاة رسول الله ﷺ فى هذين السهمين ، قال قائل منهم : سهم ذى القربى لقرابة رسول الله ﷺ . وقال قائل منهم : سهم ذى القربى لقرابة الخليفة . وقال قائل منهم : سهم النبى ﷺ للخليفة من بعده ، واجتمع رأى أصحاب رسول الله ﷺ على أن يجعلوا هذين السهمين فى الخيل والعدة فى سبيل الله ، فكان ذلك فى خلافة أبى بكر وعمر (١) .

وأخرج ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة فضرب ذلك فى خمسه ، ثم قرأ : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم** ﴾ الآية . قال : قوله : ﴿ **فأن لله خمسه** ﴾ مفتاح كلام ، لله ما فى السموات وما فى الأرض ، فجعل الله سهم الله والرسول واحداً ﴿ **ولذى القربى** ﴾ فجعل هذين السهمين قوة فى الخيل والسلاح ، وجعل سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل لا يعطيه غيرهم ، وجعل الأربعة الأسهم الباقية للفرس سهما ولراكبه سهما ، وللراجل سهما (٢) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس : فأربعة منها بين من قاتل عليها ، وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس ، فربع لله

---

(١) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥١٥٣) وابن جرير ١٠/ ٣ والحاكم ٢/ ١٢٨ .

(٢) ابن جرير ١٠/ ٣ والطبرانى (١٢٦٦٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ٣٤٣:« فيه نهشل بن سعيد وهو متروك ».

وللرسول ولذى القربى ، يعنى : قرابة رسول الله ﷺ ، فماكان لله وللرسول فهو لقرابة النبى ﷺ ، ولم يأخذ النبى ﷺ من الخمس شيئا ، والربع الثانى لليتامى، والربع الثالث للمساكين ، والربع الرابع لابن السبيل ، وهو : الضيف الفقيرالذى ينزل بالمسلمين (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء** ﴾ الآية ، قال : كان يجاء بالغنيمة فتوضع ، يقسمها رسول الله ﷺ على خمسة أسهم ، فيعزل سهما منها ، ويقسم أربعة أسهم بين الناس ، يعنى : لمن شهد الوقعة ، ثم يضرب بيده فى جميع السهم الذى عزله ، فما قبض عليه من شىء جعله للكعبة ، فهو الذى سمى الله : لا تجعلوا لله نصيبا فأن لله الدنيا والآخرة ، ثم يعمد إلى بقية السهم فيقسمه على خمسة أسهم : سهم للنبى ﷺ ، وسهم لذى القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل(٢) .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ يجعل سهم الله فى السلاح والكراع وفى سبيل الله وفى كسوة الكعبة وطيبها ، وما تحتاج إليه الكعبة ، ويجعل سهم الرسول فى الكراع والسلاح ونفقة أهله ، وسهم ذى القربى لقرابته يضعه رسول الله ﷺ فيهم مع سهمهم مع الناس ، ولليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ثلاثة أسهم يضعها رسول الله فيمن شاء حيث شاء ، ليس لبنى عبد المطلب فى هذه الثلاثة الأسهم ولرسول الله ﷺ سهم مع سهام الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن حسين المعلم قال : سألت عبد الله بن بريدة عن قوله : ﴿ **فأن لله خمسه وللرسول** ﴾ فقال: الذى لله لنبيه ، والذى للرسول لأزواجه . وأخرج الشافعى وعبد الرزاق وابن أبى شيبة ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ أن نجدة كتب إليه يسأله عن ذوى القربى الذين ذكر الله ، فكتب إليه: إنا كنا نرى أنا هم فأبى ذلك علينا قومنا ، وقالوا : قريش كلها ذوو قربى ، وزيادة قوله : وقالوا : قريش كلها ، تفرد بها أبو معشر . وفيه ضعف (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر من وجه آخر عن ابن عباس أن نجدة الحرورى أرسل إليه يسأله عن سهم ذى القربى ، ويقول : لمن تراه ؟ فقال ابن عباس : هو لقربى رسول الله ﷺ قسمه لهم رسول الله ﷺ. وقد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضا رأيناه دون حقنا فرددناه عليهم وأبينا أن نقبله ، وكان عرض عليهم أن يعين ناكحهم ، وأن يقضى عن غارمهم ، وأن يعطى فقيرهم ، وأبى أن يزيدهم على ذلك (٤) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : رغبت لكم عن غسالة الأيدى لأن لكم فى خمس الخمس ما يكفيكم أو يغنيكم . رواه ابن أبى حاتم عن إبراهيم بن مهدى المصيصى ،

---

(١) ابن جرير ١٠/ ٤ .
(٢) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥١٤٥) وابن جرير ١٠/ ٤ .
(٣) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٣٠١) ومسلم فى الجهاد والسير (١٨١٢/ ١٤٠) وابن جرير ١٠/ ٥ .
(٤) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٢٩٧) .

حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه، عن حنش، عن عكرمة عنه مرفوعا. قال ابن كثير: هذا حديث حسن الإسناد، وإبراهيم بن مهدى هذا وثقه أبو حاتم ،وقال يحيى بن معين : يأتى بمناكير (١). أخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن الزهرى وعبد الله بن أبى بكر عن جبير بن مطعم؛ أن النبى ﷺ قسم سهم ذوى القربى من خيبر على بنى هاشم وبنى المطلب. قال: فمشيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه، فقلنا: يا رسول الله، هؤلاء إخوانك من بنى هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك منهم، أرأيت إخواننا من بنى المطلب أعطيتهم دوننا ، فإنما نحن وهم بمنزلة واحدة فى النسب ؟ فقال : « إنهم لم يفارقونا فى الجاهلية والإسلام » . وقد أخرجه البخارى فى صحيحه (٢).

وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم ، قال : آل محمد الذين أعطوا الخمس : آل على ، وآل العباس ، وآل جعفر ، وآل عقيل . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : كان للنبى ﷺ شيء واحد من المغنم يصطفيه لنفسه، إما خادم وإما فرس، ثم يصيب بعد ذلك من الخمس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن مردويه عن على قال : قلت : يا رسول الله ، ألا وليتنى ما خصنا الله به من الخمس ؟ فولانيه (٣) . وأخرج الحاكم وصححه عنه قال : ولانى رسول الله ﷺ خمس الخمس ، فوضعته مواضعه حياة رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر (٤).

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يوم الفرقان** ﴾ قال : هو يوم بدر ، وبدر ما بين مكة والمدينة (٥) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يوم الفرقان** ﴾ قال : هو يوم بدر ، فرق الله فيه بين الحق والباطل . وأخرج ابن مردويه عن على بن أبى طالب ، قال : كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان فى صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان . وأخرجه عنه ابن جرير أيضا .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذ أنتم بالعدوة الدنيا** ﴾ قال : العدوة الدنيا شاطئ الوادى . ﴿ **والركب أسفل منكم** ﴾ قال : أبو سفيان . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : العدوة الدنيا : شفير الوادى الأدنى . والعدوة القصوى : شفير الوادى الأقصى .

**﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي**

(١) ابن كثير ٣/ ٣٢٤ .
(٢) فى المخطوطة : «مسلم » ، ولم تعزه التحفة إلى مسلم وإنما للبخارى ولعله سهو أو سبق قلم من المصنف والحديث سبق تخريجه .
(٣) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٢٩٦) .
(٤) صحيح الحاكم ٢/ ١٢٨ ، ٣/ ٣٩ ، ٤٠ ووافقه الذهبى
(٥) ابن جرير ١٠/ ٧ ، ٨ .

**أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤٤)** ﴾ .

« إذ » منصوب بفعل مقدر ، أى اذكر ، أو هو بدل ثان من يوم الفرقان . والمعنى : أن النبى ﷺ رآهم فى منامه قليلا ، فقص ذلك على أصحابه ، فكان ذلك سببا لثباتهم . ولو رآهم فى منامه كثيرا ، لفشلوا وجبنوا عن قتالهم وتنازعوا فى الأمر ، هل يلاقونهم أم لا ؟ ﴿ **ولكن الله سلم** ﴾ أى سلمهم وعصمهم من الفشل والتنازع ، فقللهم فى عين رسول الله ﷺ فى المنام . وقيل : عنى بالمنام محل النوم ، وهو العين ، أى فى موضع منامك وهو عينك . روى ذلك عن الحسن . قال الزجاج : هذا مذهب حسن ، ولكن الأول أسوغ فى العربية ؛ لقوله : ﴿ **وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم** ﴾ فدل بهذا على أن هذه رؤية الالتقاء وأن تلك رؤية النوم .

قوله : ﴿ **وإذ يريكموهم** ﴾ الظرف منصوب بمضمر معطوف على الأول ، أى واذكروا وقت إراءتكم إياهم حال كونهم قليلا ، حتى قال القائل من المسلمين لآخر : أتراهم سبعين ؟ قال: هم نحو المائة . وقلل المسلمين فى أعين المشركين حتى قال قائلهم : إنما هم أكلة جزور ، وكان هذا قبل القتال ، فلما شرعوا فيه كثر الله المسلمين فى أعين المشركين ، كما قال فى آل عمران : ﴿ يرونهم مثليهم رأى العين ﴾ [ آل عمران : ١٣] ووجه تقليل المسلمين فى أعين المشركين هو : أنهم إذا رأوهم قليلا أقدموا على القتال غير خائفين ، ثم يرونهم كثيرا فيفشلون وتكون الدائرة عليهم ، ويحل بهم عذاب الله وسوط عقابه . واللام فى :﴿ **ليقضى الله أمرا كان مفعولا** ﴾ متعلقة بمحذوف كما سبق مثله قريبا . وإنما كرره لاختلاف المعلل به . ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ كلها يفعل فيها ما يريد ويقضى فى شأنها ما يشاء .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إذ يريكهم الله فى منامك قليلا** ﴾ قال : أراه الله إياهم فى منامه قليلا ، فأخبر النبى ﷺ أصحابه بذلك فكان ذلك تثبيتا لهم . وأخرج ابن أبى حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولو أراكهم كثيرا لفشلتم** ﴾ يقول : لجبنتم ﴿**ولتنازعتم فى الأمر** ﴾ قال : لاختلفتم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ﴿ **ولكن الله سلم** ﴾ أى أتم ، وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه: ﴿ **ولكن الله سلم** ﴾ يقول : سلم لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **وإذ يريكموهم** ....﴾ الآية قال : لقد قلوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبى : تراهم سبعين ؟ قال : لا بل هم مائة ، حتى أخذنا رجلا منهم ، فسألناه قال : كنا ألفا. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال :حضض بعضهم على بعض . قال ابن كثير : إسناده صحيح (١) . وأخرج ابن إسحاق عن عباد بن عبد الله بن الزبير فى

---

(١) ابن كثير ٣/ ٣٢٩ .

قوله: ﴿ ليقضى الله أمرا كان مفعولا ﴾ أى ليلقى [(١)] بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه ، والإنعام على من أراد النعمة عليه من أهل ولايته[(٢)].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) ﴾ .

قوله : ﴿ إذا لقيتم فئة ﴾ اللقاء : الحرب ، والفئة : الجماعة ، أى إذا حاربتم جماعة من المشركين ﴿ فاثبتوا ﴾ لهم ولا تجبنوا عنهم ، وهذا لا ينافى الرخصة المتقدمة فى قوله : ﴿ إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة ﴾ فإن الأمر بالثبات هو فى حال السعة ، والرخصة هى فى حال الضرورة . وقد لا يحصل الثبات إلا بالتحرف والتحيز .﴿ واذكروا الله ﴾ أى اذكروا الله عند جزع قلوبكم فإن ذكره يعين على الثبات فى الشدائد . وقيل : المعنى : اثبتوا بقلوبكم واذكروا بألسنتكم فإن القلب قد يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان ، فأمرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب واللسان . قيل : وينبغى أن يكون الذكر فى هذه الحالة بما قاله أصحاب طالوت:﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [ البقرة : ٢٥٠ ] وفى الآية دليل على مشروعية الذكر فى جميع الأحوال ، حتى فى هذه الحالة التى ترجف فيها القلوب وتزيغ عندها البصائر ، ثم أمرهم بطاعة الله فيما يأمرهم به وطاعة رسوله فيما يرشدهم إليه ، ونهاهم عن التنازع وهو الاختلاف فى الرأى، فإن ذلك يتسبب عنه الفشل ، وهو الجبن فى الحرب . والفاء جواب النهى ، والفعل منصوب بإضمار أن ، ويجوز أن يكون الفعل معطوفا على ﴿ تنازعوا ﴾ مجزوما بجازمه . قوله : ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ قرئ بنصب الفعل، وجزمه عطفا على تفشلوا على الوجهين . والريح : القوة والنصر ، كما يقال : الريح لفلان : إذا كان غالبا فى الأمر . وقيل : الريح : الدولة ، شبهت فى نفوذ أمرها بالريح فى هبوبها ، ومنه قول الشاعر :

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فعقبى كل خافقة سكون

(١) فى المخطوطة : « ليلف » والصحيح ما أثبتناه من ابن كثير ٣/ ٣٢٩ .

(٢) قال ابن كثير ٣/ ٣٢٩ : « ومعنى ذلك : أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر وقلله فى عينه ليطمع فيه » .

وقيل : المراد بالريح : ريح الصبا ؛ لأن بها كان ينصر النبى ﷺ ، ثم أمرهم بالصبر على شدائد الحرب وأخبرهم بأنه مع الصابرين فى كل أمر ينبغى الصبر فيه ، ويا حبذا هذه المعية التى لا يغلب من رزقها غالب ، ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات وإن كانت كثيرة ، ثم نهاهم عن أن تكون حالتهم كحالة هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس وهم قريش ، فإنهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التى مع أبى سفيان ومعهم القيان والمعازف ، فلما بلغوا الجحفة بلغهم أن العير قد نجت وسلمت ، فلم يرجعوا بل قالوا : لابد لهم من الوصول إلى بدر ليشربوا الخمر وتغنى لهم القيان وتسمع العرب بمخرجهم ، فكان ذلك منهم بطرا وأشرا وطلبا للثناء من الناس وللتمديح إليهم والفخر عندهم وهو الرياء . قيل : والبطر فى اللغة : التقوى بنعم الله على معاصيه وهو مصدر فى موضع الحال ، أى خَرجوا بطرين مرائين . وقيل : هو مفعول له وكذا رياء ، أى خرجوا للبطر والرياء .

وقوله : ﴿ **ويصدون** ﴾ معطوف على بطرا ، والمعنى كما تقدم ، أى خرجوا بطرين مرائين صادين عن سبيل الله أو للصد عن سبيل الله ، والصد : إضلال الناس والحيلولة بينهم وبين طرق الهداية ، ويجوز أن يكون ﴿ **ويصدون** ﴾ معطوفا على يخرجون ، والمعنى : يجمعون بين الخروج على تلك الصفة والصد . ﴿ **والله بما يعملون محيط** ﴾ لا تخفى عليه من أعمالهم خافية فهو مجازيهم عليها .

قوله : ﴿ **وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم** ﴾ الظرف متعلق بمحذوف ، أى واذكر يا محمد وقت تزيين الشيطان لهم أعمالهم . والتزيين : التحسين ، وقد روى أن الشيطان تمثل لهم وقال لهم تلك المقالة وهى : ﴿ **لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم** ﴾ [١] أى مجير لكم من كل عدو أو من بنى كنانة ، ومعنى الجار هنا : الدافع عن صاحبه أنواع الضرر كما يدفع الجار عن الجار، وكان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم [٢] ، وهو من بنى بكر بن كنانة ، وكانت قريش تخاف من بنى بكر أن يأتوهم من ورائهم . وقيل: المعنى : إنه ألقى فى روعهم هذه المقالة . وخيل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون ﴿ **فلما تراءت الفئتان** ﴾ أى فئة المسلمين والمشركين ﴿ **نكص على عقبيه** ﴾ أى رجع القهقرى ، ومنه قول الشاعر :

ليس النكوص على الأعقاب مكرمة ... إن المكارم إقدام على الأمل

وقول الآخر :

وما نفع المستأخرين نكوصهم ... ولا ضر أهل السابقات التقدم

---

(١) ابن إسحاق ٢/ ٣٠٤ .

(٢) صحابى ، له شعر ، وله فى كتب الحديث تسعة عشر حديثا ، وكان فى الجاهلية قائفا ــ اقتصاص الأثر وإصابة الفراسة ــ أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر رسول الله ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبى بكر ، أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هـ ،و توفى عام ٢٤ هـ .الإصابة ٢/ ١٩ وأسد الغابة ٢/ ٢٦٤ .

وقيل : معنى نكص ها هنا : بطل كيده وذهب ما خيله . ﴿ **وقال إني بريء منكم** ﴾ أي تبرأ منهم لما رأى أمارات النصر مع المسلمين بإمداد الله لهم بالملائكة ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إني أرى ما لا ترون** ﴾ يعني الملائكة ، ثم علل بعلة أخرى فقال : ﴿ **إني أخاف الله** ﴾ قيل: خاف أن يصاب بمكروه من الملائكة الذين حضروا الوقعة . وقيل : إن دعوى الخوف كذب منه ، ولكنه رأى أنه لا قوة له ولا للمشركين فاعتل بذلك ، وجملة : ﴿ **والله شديد العقاب** ﴾ يحتمل أن تكون من تمام كلام إبليس ، ويحتمل أن تكون كلاما مستأنفا من جهة الله سبحانه .

قوله : ﴿ **إذ يقول المنافقون** ﴾ الظرف معمول لفعل محذوف هو : اذكر ، ويجوز أن يتعلق بنكص أو بزين أو بشديد العقاب . قيل : المنافقون هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، ﴿ **والذين في قلوبهم مرض** ﴾ هم الشاكون من غير نفاق بل لكونهم حديثي عهد بالإسلام فوافقوا المنافقين في قولهم بهذه المقالة أعني : ﴿ **غر هؤلاء** ﴾ أي المسلمين ﴿ **دينهم** ﴾ حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش . وقيل : الذين في قلوبهم مرض : هم المشركون ، ولا يبعد أن يراد بهم اليهود الساكنون في المدينة وما حولها . وأنهم هم والمنافقون من أهل المدينة قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين إلى بدر لما رأوهم في قلة من العَدَد وضعف من العُدَد ، فأجاب الله عليهم بقوله : ﴿ **ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز** ﴾ لا يغلبه غالب، ولا يذل من توكل عليه ﴿ **حكيم** ﴾ له الحكمة البالغة التي تقصر عندها العقول .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿ **واذكروا الله** ﴾ قال: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكونون : عند الضراب بالسيوف . وأخرج الحاكم وصححه ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « ثنتان لا يردان : الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضا » (١) . وأخرج الحاكم وصححه عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ كان يكره الصوت عند القتال (٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾ يقول : لا تختلفوا فتجبنوا ويذهب نصركم . وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : ﴿ **وتذهب ريحكم** ﴾ قال: نصركم . وقد ذهب ريح أصحاب محمد حين نازعوه يوم أحد .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم** ﴾ الآية ، يعني : المشركين الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر . وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان

---

(١) صححه الحاكم ٢/١١٣، ١١٤ ووافقه الذهبي .
(٢) صححه الحاكم ٢/١١٦ ووافقه الذهبي .

والدفوف ، فأنزل الله هذه الآية [(١)] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر ، عن مجاهد فى الآية قال : أبو جهل وأصحابه يوم بدر . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبى الله ﷺ يوم بدر خرجوا ولهم بغى وفخر، وقد قيل لهم يومئذ : ارجعوا فقد انطلقت عيركم وقد ظفرتم ، فقالوا : لا والله حتى يتحدث أهل الحجاز بمسيرنا وعددنا . وذكر لنا : أن نبى الله ﷺ قال يومئذ : « اللهم إن قريشا قد أقبلت بفخرها وخيلائها لتجادل رسولك » وذكر لنا أنه قال يومئذ : « جاءت من مكة أفلاذها » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : جاء إبليس فى جند من الشياطين ومعه راية فى صورة رجال من بنى مدلج ، والشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان : ﴿ **لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم** ﴾ وأقبل جبريل على إبليس ، فلما رآه وكانت يده فى يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده وولى مدبرا وشيعته، فقال الرجال : يا سراقة ، إنك جار لنا فقال : ﴿ **إنى أرى ما لا ترون** ﴾ وذلك حين رأى الملائكة ﴿ **إنى أخاف الله والله شديد العقاب** ﴾ [(٢)] قال : ولما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين فى أعين المشركين وقلل المشركين فى أعين المسلمين . فقال المشركون : وما هؤلاء ؟ غر هؤلاء دينهم ، وإنما قالوا ذلك من قلتهم فى أعينهم، وظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون فى ذلك . فقال الله : ﴿ **ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم** ﴾ . وأخرج [(٣)] الطبرانى وأبو نعيم عن رفاعة بن رافع الأنصارى قال : لما رأى إبليس ما تفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يخلص القتل إليه فتشبث به الحارث ابن هشام وهو يظن أنه سراقة بن مالك ، فوكز فى صدر الحارث فألقاه ثم خرج هاربا حتى ألقى نفسه فى البحر ورفع يديه فقال : اللهم إنى أسألك نظرتك إياى [(٤)] . وأخرج الواقدى وابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **إنى أرى ما لا ترون** ﴾ قال : ذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة ، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة وقال : ﴿ **إنى أخاف الله** ﴾ وكذب عدو الله ما به مخافة الله ، ولكن علم أنه لا قوة له به ولا منعة له . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن معمر قال : ذكروا أنهم أقبلوا على سراقة بن مالك بعد ذلك ، فأنكر أن يكون قال شيئا من ذلك .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذ يقول المنافقون** ﴾ قال: وهو يومئذ فى المسلمين . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **والذين فى قلوبهم مرض** ﴾ قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين . وأخرج عبد الرزاق

---

(١) ابن جرير ١٠/ ١٣ . (٢) ابن جرير ١٠/ ١٤ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٧٩ .

(٣) فى المطبوعة : « أو خرج » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٤) الطبرانى (٤٥٥٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٨٠ : « فيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف » وهذا الأثر روى ابن جرير أيضا عن ابن عباس مثله ١٠/ ١٤ .

وابن المنذر عن الكلبى فى قوله: ﴿ **والذين فى قلوبهم مرض** ﴾ قال : هم قوم كانوا أقروا بالإسلام وهم بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر ، فلما رأوا المسلمين قالوا : ﴿ **غر هؤلاء دينهم** ﴾ . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن الشعبى نحوه .

**﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) ﴾** .

قوله : ﴿ **ولو ترى** ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح له كما تقدم تحقيقه فى غير موضع ، والمعنى : ولو رأيت ؛ لأن « لو » تقلب المضارع ماضيا . و « إذ » ظرف لترى ، والمفعول محذوف ، أى ولو ترى الكافرين وقت توفى الملائكة لهم . قيل: أراد بالذين كفروا من لم يقتل يوم بدر . وقيل : هى فيمن قتل ببدر وجواب «لو» محذوف تقديره : لرأيت أمرا عظيما . وجملة : ﴿ **يضربون وجوههم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والمراد بأدبارهم : استاههم ، كنى عنها بالأدبار . وقيل : ظهورهم . قيل : هذا الضرب يكون عند الموت كما يفيده ذكر التوفى . وقيل : هو يوم القيامة حين يسيرون بهم إلى النار . قوله : ﴿**وذوقوا عذاب الحريق** ﴾ قال الفراء ، المعنى : ويقولون: ذوقوا عذاب الحريق ، والجملة معطوفة على يضربون. وقيل : إنه يقول لهم هذه المقالة خزنة جهنم ، والذوق قد يكون محسوسا ، وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار ، وأصله من الذوق بالضم ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من الضرب والعذاب ، والباء فى : ﴿ **بما قدمت أيديكم** ﴾ سببية ، أى ذلك واقع بسبب ما كسبتم من المعاصى واقترفتم من الذنوب ، وجملة : ﴿ **وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى والأمر أنه لا يظلمهم ، ويجوز أن تكون معطوفة على الجملة الواقعة خبرا لقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ وهى ﴿ **بما قدمت أيديكم** ﴾ أى ذلك العذاب بسبب المعاصى، وبسبب ﴿ **أن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ لأنه سبحانه قد أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه وأوضح لهم السبيل ، وهداهم النجدين كما قال سبحانه : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [ النحل : ١١٨ ] .

قوله : ﴿ **كدأب آل فرعون** ﴾ لما ذكر الله سبحانه ما أنزله بأهل بدر أتبعه بما يدل على أن هذه سنته فى فرق الكافرين . والدأب : العادة ، والكاف فى محل الرفع على الخبرية لمبتدأ

محذوف ، أى دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون ﴿ **والذين من قبلهم** ﴾ . والمعنى : أنه جوزى هؤلاء كما جوزى أولئك ، فكانت العادة فى عذاب هؤلاء كالعادة الماضية لله فى تعذيب طوائف الكفر، وجملة قوله : ﴿ **كفروا بآيات الله** ﴾ مفسرة لدأب آل فرعون ، أى دأبهم هذا هو أنهم كفروا بآيات الله ، فتسبب عن كفرهم أخذ الله سبحانه لهم ، والمراد بذنوبهم : معاصيهم المترتبة على كفرهم ، فيكون الباء فى: ﴿ **بذنوبهم** ﴾ للملابسة ، أى فأخذهم متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها ، وجملة : ﴿ **إن الله قوى شديد العقاب** ﴾ معترضة مقررة لمضمون ما قبلها .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى العقاب الذى أنزله الله بهم ، وهو مبتدأ وخبره ما بعده. والجملة جارية مجرى التعليل لما حل بهم من عذاب الله . والمعنى : أن ذلك العقاب بسبب أن عادة الله فى عباده عدم تغيير نعمه التى ينعم بها عليهم ﴿ **حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ من الأحوال والأخلاق بكفران نعم الله وغمط إحسانه وإهمال أوامره ونواهيه ، وذلك كما كان من آل فرعون ومن قبلهم ومن قريش ومن يماثلهم من المشركين ، فإن الله فتح لهم أبواب الخيرات فى الدنيا ومنّ عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، فقابلوا هذه النعم بالكفر فاستحقوا تغيير النعم،كما غيروا ما كان يجب عليهم سلوكه ،والعمل به من شكرها وقبولها، وجملة : ﴿ **وأن الله سميع عليم** ﴾ معطوفة على ﴿ **بأن الله لم يك مغيرا نعمة** ﴾ داخلة معها فى التعليل ، أى ذلك بسبب أن الله لم يك مغيرا ، إلخ . وبسبب أن الله سميع عليم : يسمع ما يقولونه ، ويعلم ما يفعلونه . وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف .

ثم كرر ما تقدم ، فقال : ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم** ﴾ لقصد التأكيد مع زيادة أنه كالبيان للأخذ بالذنوب بأنه كان بالإغراق ، وقيل : إن الأول باعتبار ما فعله آل فرعون ومن شبه بهم ، والثانى : باعتبار ما فعل بهم . وقيل : المراد بالأول : كفرهم بالله ، والثانى : تكذيبهم الأنبياء . وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تعسف ، والكلام فى: ﴿ **أهلكناهم بذنوبهم** ﴾ كالكلام المتقدم فى : ﴿ **فأخذهم الله بذنوبهم** ﴾ . ﴿ **وأغرقنا آل فرعون** ﴾ معطوف على أهلكناهم عطف الخاص على العام لفظاعته وكونه من أشد أنواع الإهلاك، ثم حكم على كلا الطائفتين من آل فرعون والذين من قبلهم ، ومن كفار قريش بالظلم لأنفسهم ، بما تسببوا به لعذاب الله من الكفر بالله وآياته ورسله وبالظلم لغيرهم ، كما كان يجرى منهم فى معاملاتهم للناس بأنواع الظلم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة** ﴾ قال : الذين قتلهم الله ببدر من المشركين . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : قال رجل : يا رسول الله، إنى رأيت بظهر أبى جهل مثل الشوك. قال : « ذلك ضرب الملائكة » وهذا مرسل [١] . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد

(١) ابن جرير ١٠/١٧.

فى قوله: ﴿ **وأدبارهم** ﴾ قال: وأستاههم، ولكن الله كريم يكنى. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله: ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ قال : نعمة الله : محمد ﷺ ، أنعم الله به على قريش فكفروا فنقله الله إلى الأنصار .

﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠)** ﴾ .

قوله : ﴿ **إن شر الدواب** ﴾ أى شر ما يدب على وجه الأرض ﴿ **عند الله** ﴾ أى فى حكمه ﴿ **الذين كفروا** ﴾ أى المصرون على الكفر المتمادون فى الضلال . ولذا قال :﴿ **فهم لا يؤمنون**﴾ أى إن هذا شأنهم لا يؤمنون أبدا ، ولا يرجعون عن الغواية أصلا ، وجعلهم شر الدواب لا شر الناس إيماء إلى انسلاخهم عن الإنسانية ودخولهم فى جنس غير الناس من أنواع الحيوان لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم . قوله : ﴿ **الذين عاهدت منهم** ﴾ بدل من الذين كفروا أو عطف بيان أو فى محل نصب على الذم . والمعنى : أن هؤلاء الكافرين الذين هو شر الدواب عند الله هم هؤلاء الذين عاهدت منهم ، أى أخذت منهم عهدهم ، ثم هم ﴿ **ينقضون عهدهم** ﴾ الذى عاهدتهم ﴿ **فى كل مرة** ﴾ من مرات المعاهدة ، والحال أنهم ﴿ **لا يتقون** ﴾ النقض ،ولا يخافون عاقبته ولا يتجنبون أسبابه . وقيل : إن « من » فى قوله : ﴿ **منهم** ﴾ للتبعيض ، ومفعول عاهدت محذوف ، أى الذين عاهدتهم ، وهم بعض أولئك الكفرة ، يعنى الأشراف منهم ، وعطف المستقبل وهو ﴿ **ثم ينقضون** ﴾ على الماضى ، وهو ﴿ **عاهدت** ﴾؛ للدلالة على استمرار النقض منهم ، وهؤلاء هم قريظة ، عاهدهم رسول الله ﷺ ألا يعينوا الكفار فلم يفوا بذلك كما سيأتى ، ثم أمر رسول الله ﷺ بالشدة والغلظة عليهم ، فقال : ﴿**فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم** ﴾ أى فإما تصادفنهم فى ثقاف وتلقاهم فى حالة تقدر عليهم فيها وتتمكن من غلبهم ﴿ **فشرد بهم من خلفهم** ﴾ أى ففرق بقتلهم والتنكيل بهم من خلفهم المحاربين لك من أهل الشرك حتى يهابوا جانبك ويكفوا عن حربك مخافة أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء . والثقاف فى أصل اللغة : ما يشد به القناة أو نحوها ، ومنه قول النابغة:

تدعو قعيبا وقد غض الحديد بها ... غض الثقاف على صم الأنابيب (١)

---

(١) البيت يوجد فى ديوانه ص ٥٩ وهو من قصيدته « لم يبق غير طريد » ، وقد جاء البيت فى المطبوعة محرفا ففيه : « غص » بدلا من « غضّ » ، وأيضا « ضم » بدلا من « صم » .

يقال: ثقفته : وجدته ، وفلان ثقف : سريع الوجود لما يحاوله ، والتشريد : التفريق مع الاضطراب . وقال أبو عبيدة :﴿ **شرد بهم** ﴾ : سمع بهم . وقال الزجاج : افعل بهم فعلا من القتل تفرق به من خلفهم ، يقال : شردت بنى فلان : قلعتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها . قال الشاعر :

أطوّف فى الأباطح كل يوم مخافة أن يشردنى حكيم

ومنه شرد البعير : إذا فارق صاحبه ، وروى عن ابن مسعود أنه قرأ : « فشرذ بهم » بالذال المعجمة . قال قطرب : التشريذ بالذال المعجمة هو: التنكيل ، وبالمهملة : هو التفريق . وقال المهدوى : الذال المعجمة لا وجه لها إلا أن تكون بدلا من الدال المهملة لتقاربهما . قال : ولا يعرف فشرذ فى اللغة ، وقرئ : « من خلفهم » بكسر الميم والفاء .

قوله : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة** ﴾ أى غشا ونقضا للعهد من القوم المعاهدين ﴿ **فانبذ إليهم** ﴾ أى فاطرح إليهم العهد الذى بينك وبينهم ﴿ **على سواء** ﴾ : على طريق مستوية . والمعنى : أنه يخبرهم إخبارا ظاهرا مكشوفا بالنقض ولا يناجزهم الحرب بغتة . وقيل : معنى ﴿ **على سواء** ﴾ : على وجه يستوى فى العلم بالنقض أقصاهم وأدناهم أو تستوى أنت وهم فيه . قال الكسائى : السواء : العدل ، وقد يكون بمعنى الوسط ، ومنه قوله : ﴿ فى سواء الجحيم ﴾ [ الصافات : ٥٥ ] ، ومنه قول حسان :

يا ويح أنصار النبى ورهطه بعد المغيب فى سواء الملحد

ومن الأول قول الشاعر :

فاضرب وجوه الغدر الأعداء حتى يجيبوك إلى سواء

وقيل : معنى ﴿ **فانبذ إليهم على سواء** ﴾ : على جهر لا على سر ، والظاهر أن هذه الآية عامة فى كل معاهد يخاف من وقوع النقض منه . قال ابن عطية : والذى يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بنى قريظة انقضى عند قوله : ﴿ **فشرد بهم من خلفهم** ﴾، ثم ابتدأ تبارك وتعالى فى هذه الآية يأمره بما يصنعه فى المستقبل مع من يخاف منه خيانة ، وجملة : ﴿ **إن الله لا يحب الخائنين** ﴾ تعليل لما قبلها ، ويحتمل أن تكون تحذيرا لرسول الله ﷺ عن المناجزة قبل أن ينبذ إليهم على سواء ، ويحتمل أن تكون عائدة إلى القوم الذين تخاف منهم الخيانة .

قوله : ﴿ **ولا تحسبن** ﴾ قرأ ابن عامر ويزيد وحمزة وحفص بالياء التحتية . وقرأ الباقون بالمثناة من فوق . فعلى القراءة الأولى يكون الذين كفروا : فاعل الحسبان ، ويكون مفعوله الأول محذوفا ، أى لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم ، ومفعوله الثانى : سبقوا ، ومعناه : فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم . وعلى القراءة الثانية يكون الخطاب لرسول الله ﷺ . ومفعوله الأول:الذين كفروا ، والثانى : سبقوا . وقرئ : « إنهم سبقوا » ، وقرئ :« يحسبن » بكسر

الياء . وجملة : ﴿ **إنهم لا يعجزون** ﴾ تعليل لما قبلها ، أى أنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن إدراكهم . وقرأ ابن عامر : « أنهم » بفتح الهمزة ، والباقون بكسرها ، وكلا القراءتين مفيدة لكون الجملة تعليلية . وقيل : المراد بهذه الآية : من أفلت من وقعة بدر من المشركين . والمعنى : أنهم وإن أفلتوا من هذه الوقعة ونجوا فإنهم لا يعجزون . بل هم واقعون فى عذاب الله فى الدنيا أو فى الآخرة . وقد زعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم أن قراءة من قرأ : « يحسبن » بالتحتية لحن ، لا تحل القراءة بها ؛لأنه لم يأت ليحسبن بمفعول. وهو يحتاج إلى مفعولين . قال النحاس : وهذا تحامل شديد . ومعنى هذه القراءة : ولا يحسبن من خلفهم الذين كفروا سبقوا ، فيكون الضمير يعود على ما تقدم إلا أن القراءة بالتاء أبين . وقال المهدوى : يجوز على هذه القراءة أن يكون الذين كفروا فاعلا . والمفعول الأول محذوف ، والمعنى : ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا . قال مكى : ويجوز أن يضمر مع سبقوا « أن» فتسد مسد المفعولين، والتقدير : ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا ، فهو مثل : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا ﴾ [ العنكبوت : ٢ ] فى سد أن مسد المفعولين .

ثم أمر سبحانه بإعداد القوة للأعداء ، والقوة : كل ما يتقوى به فى الحرب ، ومن ذلك السلاح والقسى . وقد ثبت فى صحيح مسلم وغيره من حديث عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول :« ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ ألا إن القوة الرمى» قالها ثلاث مرات [(١)] .وقيل : هى الحصون ، والمصير إلى التفسير الثابت عن رسول الله ﷺ متعين.قوله : ﴿ **ومن رباط الخيل** ﴾ قرأ الحسن وعمرو بن دينار وأبو حيوة : « ومن ربط الخيل » بضم الراء والباء ككتب جمع كتاب . قال أبو حاتم : الرباط من الخيل الخمس فما فوقها ، وهى الخيل التى ترتبط بإزاء العدو . ومنه قول الشاعر :

أمر الإله بربطها لعدوه فى الحرب إن الله خير موفق

قال فى الكشاف : والرباط اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله . ويجوز أن يسمى بالرباط الذى هو بمعنى المرابطة ،ويجوز أن يكون جمع ربيط كفصيل وفصال. انتهى[(٢)] . ومن فسر القوة بكل ما يتقوى به فى الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام وجملة: ﴿ **ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾ فى محل نصب على الحال ،والترهيب: التخويف. والضمير فى: ﴿ **به** ﴾ عائد إلى « ما » فى ﴿ **ما استطعتم** ﴾ أو إلى المصدر المفهوم من ﴿ **وأعدوا** ﴾ وهو الإعداد . والمراد بعدو الله وعدوهم:هم المشركون من أهل مكة وغيرهم من مشركى العرب. قوله: ﴿ **وآخرين من دونهم** ﴾ معطوف على عدو الله وعدوكم،ومعنى من دونهم : من

---

(١) أحمد ٤ / ١٥٧ ومسلم فى الإمارة ( ١٩١٧ / ١٦٧ ) وأبو داود فى الجهاد ( ٢٥١٤ ) والترمذى فى التفسير (٣٠٤٣ ) وابن ماجه فى الجهاد ( ٢٨١٣ ) والدارمى فى الجهاد ٢ / ٢٠٤ .

(٢) الكشاف ٢ / ٢٣٢ .

غيرهم . قيل : هم اليهود. وقيل : فارس والروم . وقيل : الجن ، ورجحه ابن جرير [(١)]. وقيل : المراد بالآخرين من عدوهم : كل من لا تعرف عداوته ، قاله السهيلى . وقيل : هم بنو قريظة خاصة ، وقيل غير ذلك ، والأولى الوقف فى تعيينهم لقوله : ﴿ **لا تعلمونهم الله يعلمهم** ﴾ . قوله: ﴿ **وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله** ﴾ أى فى الجهاد وإن كان يسيرا حقيرا ﴿ **يوف إليكم** ﴾ جزاؤه فى الآخرة ، فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة كما قررناه سابقا . ﴿**وأنتم لا تظلمون** ﴾ فى شيء من هذه النفقة التى تنفقونها فى سبيل الله ،أى من ثوابها بل يصير ذلك إليكم وافيا وافرا كاملا ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾[ النساء: ٤٠ ]. ﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم ﴾ [ آل عمران:١٩٥ ] .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : نزلت ﴿ **إن شر الدواب عند الله** ....﴾ الآية فى ستة رهط من اليهود فيهم ابن تابوت . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم** ﴾ قال : قريظة يوم الخندق مالؤوا على رسول الله ﷺ أعداءه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فشرد بهم من خلفهم** ﴾ قال : نكل بهم من بعدهم . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال :نكل بهم من وراءهم . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى الآية قال: أنذر بهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : عظ بهم من سواهم من الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال :أخفهم بهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله:﴿ **لعلهم يذكرون** ﴾ يقول:لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب قال : دخل جبريل على رسول الله ﷺ فقال: قد وضعت السلاح وما زلنا فى طلب القوم فاخرج فإن الله قد أذن لك فى قريظة ، وأنزل فيهم : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة** . . .﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنهم لا يعجزون** ﴾ قال : لا يفوتونا . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ قال : الرمى والسيوف والسلاح .

وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير فى قوله : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ قال : أمرهم بإعداد الخيل . وأخرج أبو الشيخ ، والبيهقى فى الشعب عن عكرمة فى الآية قال: القوة:ذكور الخيل، والرباط : الإناث . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب فى الآية قال : القوة: الفرس إلى السهم فما دونه.وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال: القوة :الحصون ، ﴿ **ومن رباط الخيل** ﴾ قال : الإناث . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة

---

(١) ابن جرير ١٠ / ٢٣ .

وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾ قال : تخزون به عدوّ الله وعدوكم . وقد ورد فى استحباب الرمى وما فيه من الأجر أحاديث كثيرة ، وكذلك ورد فى استحباب اتخاذ الخيل وإعدادها وكثرة ثواب صاحبها أحاديث لا يتسع المقام لبسطها . وقد أفرد ذلك جماعة من العلماء بمصنفات .

﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (٦١) **وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ** (٦٢) **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (٦٣) ﴾ .

الجنوح: الميل ، يقال: جنح الرجل إلى الرجل: مال إليه، ومنه قيل للأضالع : جوانح ؛ لأنها مالت إلى الحنوة ، وجنحت الإبل : مالت أعناقها فى السير ، ومنه قول ذى الرمة :

إذا مات فوق الرحل أحييت روحه ... بذكراك والعيس المراسيل جنح

ومثله قول عنترة :

جوانح قد أيقن أن قبيله ... إذا ما التقى الجمعان أول غالب

يعنى الطير ، والسلم : الصلح . وقرأ الأعمش وأبو بكر وابن محيصن والمفضل بكسر السين ، وقرأ الباقون بفتحها ، وقرأ العقيلى : « فاجنح » بضم النون ، وقرأ الباقون بفتحها . والأولى : لغة قيس ، والثانية : لغة تميم . قال ابن جنى : ولغة قيس هى القياس ، والسلم تؤنث كما تؤنث الحرب ، أو هى مؤولة بالخصلة ، أو الفعلة . وقد اختلف أهل العلم هل هذه الآية منسوخة أم محكمة ؟ فقيل : هى منسوخة بقوله: ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ [ التوبة : ٥ ] . وقيل : ليست بمنسوخة ؛ لأن المراد بها الجزية ، وقد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم ، فتكون خاصة بأهل الكتاب . وقيل : إن المشركين إن دعوا إلى الصلح جاز أن يجابوا إليه ، وتمسك المانعون من مصالحة المشركين بقوله تعالى : ﴿ فلا تهنوا (١) وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ﴾ [ محمد : ٣٥ ] . وقيدوا عدم الجواز بما إذا كان المسلمون فى عزة وقوة لا إذا لم يكونوا كذلك ، فهو جائز كما وقع منه ﷺ من مهادنة قريش ، وما زالت الخلفاء والصحابة على ذلك ، وكلام أهل العلم فى هذه المسألة معروف مقرر فى مواطنه ﴿ **وتوكل على الله** ﴾ فى جنوحك للسلم ولا تخف من مكرهم (٢) ، فـ ﴿ **إنه** ﴾ سبحانه ﴿ **هو السميع** ﴾ لما يقولون ﴿ **العليم** ﴾ بما يفعلون .

﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك** ﴾ بالصلح ، وهم مضمرون الغدر والخدع ﴿**فإن حسبك الله**﴾ أى كافيك ما تخافه من شرورهم بالنكث والغدر ، وجملة ﴿**هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين**﴾

---

(١) فى المطبوعة : « ولا تهنوا » .

(٢) فى المطبوعة : « مكرمهم » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

تعليلية ، أى لا تخف من خدعهم ومكرهم فإن الله الذى قواك عليهم بالنصر فيما مضى ـ وهو يوم بدر ـ هو الذى سينصرك ويقويك عليهم عند حدوث الخدع والنكث ، والمراد بالمؤمنين : المهاجرون والأنصار ، ثم بيّن كيف كان تأييده بالمؤمنين فقال : ﴿**وألف بين قلوبهم**﴾ وظاهره العموم وأن ائتلاف قلوب المؤمنين هو من أسباب النصر التى أيد الله بها رسوله . وقال جمهور المفسرين : المراد : الأوس والخزرج ، فقد كان بينهم عصبية شديدة وحروب عظيمة فألف الله بين قلوبهم بالإيمان برسول الله ﷺ . وقيل : أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار ، والحمل على العموم أولى ، فقد كانت العرب قبل البعثة المحمدية يأكل بعضهم بعضا ولا يحترم ماله ولا دمه ، حتى جاء الإسلام فصاروا يدا واحدة ، وذهب ما كان بينهم من العصبية ، وجملة : ﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم** ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها ، والمعنى : أن ما كان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ إلى حد لا يمكن دفعه بحال من الأحوال ، ولو أنفق الطالب له جميع ما فى الأرض لم يتم له ما طلبه من التأليف ؛ لأن أمرهم فى ذلك قد تفاقم جدا ﴿ **ولكن الله ألف بينهم** ﴾ بعظيم قدرته وبديع صنعه ﴿ **إنه عزيز** ﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يستعصى عليه أمر من الأمور ﴿ **حكيم** ﴾ فى تدبيره ونفوذ نهيه وأمره .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإن جنحوا للسلم** ﴾ قال : قريظة . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : نزلت فى بنى قريظة نسختها : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم . . . ﴾ إلى آخر الآية [ محمد : ٣٥ ] .وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : السلم : الطاعة. وأخرج أبو الشيخ عنه فى الآية قال : إن رضوا فارض . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال : إن أرادوا الصلح فأرده . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال :نسختها هذه الآية: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ إلى قوله :﴿ وهم صاغرون ﴾ [ التوبة : ٢٩ ] .وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر ، والنحاس فى ناسخه،وأبو الشيخ عن قتادة قال:ثم نسخ ذلك:﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [ التوبة : ٥ ] .وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك** ﴾ قال : قريظة .وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **وبالمؤمنين** ﴾ قال : بالأنصار . وأخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير نحوه .وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه أيضا . وأخرج ابن عساكر عن أبى هريرة قال: مكتوب على العرش لا إله إلا الله ، أنا الله وحدى لا شريك لى، ومحمد عبدى ورسولى، أيدته بعلمى ، وذلك قوله : ﴿ **هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين** ﴾ .

وأخرج ابن المبارك وابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا والنسائى والبزار وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود ؛ أن

هذه الآية نزلت فى المتحابين فى الله : ﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ...** ﴾ الآية [١] .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وأبو الشيخ ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، واللفظ له عن ابن عباس قال : قرابة الرحم تقطع ، ومنة المنعم تكفر ، ولم نر مثل تقارب القلوب ، يقول الله : ﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ...** ﴾ الآية [٢] . وأخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم والبيهقى عنه نحوه ، وليس فى هذا عن ابن عباس ما يدل على أنه سبب النزول ، ولكن الشأن فى قول ابن مسعود رضى الله عنه : إن هذه الآية نزلت فى المتحابين فى الله مع أن الواقع قبلها : ﴿ **هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين** ﴾ والواقع بعدها : ﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ ومع كون الضمير فى قوله : ﴿ **ما ألفت بين قلوبهم** ﴾ يرجع إلى المؤمنين المذكورين قبله بلا شك ولا شبهة ، وكذلك الضمير فى قوله : ﴿ **ولكن الله ألف بينهم** ﴾ فإن هذا يدل على أن التأليف المذكور هو بين المؤمنين الذين أيد الله بهم رسوله ﷺ .

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)** ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ ليس هذا تكريرا لما قبله فإن الأول مقيد بإرادة الخدع ﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله** ﴾ فهذه كفاية خاصة ، وفى قوله : ﴿ **يأيها النبى حسبك الله** ﴾ كفاية عامة غير مقيدة ، أى حسبك الله فى كل حال ، والواو فى قوله : ﴿ **ومن اتبعك** ﴾ يحتمل أن تكون للعطف على الاسم الشريف ، والمعنى : حسبك الله وحسبك المؤمنين ، أى كافيك الله وكافيك المؤمنين ، ويحتمل أن تكون بمعنى مع كما تقول : حسبك وزيدا درهم ، والمعنى: كافيك وكافى المؤمنين الله ؛ لأن عطف الظاهر على المضمر فى مثل هذه الصورة ممتنع كما تقرر فى علم النحو ، وأجازه الكوفيون . قال الفراء: ليس بكثير فى كلامهم أن تقول : حسبك وأخيك ، بل المستعمل أن يقال : حسبك وحسب

---

(١) ابن المبارك فى الزهد ( ٣٦٣ ) وابن أبى شيبة ١٣ / ٥٦٧ ولكنه عن مجاهد ، وابن أبى الدنيا فى الإخوان (١٤) والنسائى فى التفسير ( ٢٣٠) والبزار فى كشف الأستار ( ٢٢١٥) وصححه الحاكم ٢ / ٣٢٩ ووافقه الذهبى ، والذهبى فى السير ٥ / ٣٩٦ ، ٣٩٧ والبيهقى فى الشعب ( ٩٠١٣ ) ط : الكتب العلمية . وذكره الهيثمى فى المجمع ٧ / ٣٠ ، ٣١ وقال : « رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير جنادة بن سلم وهو ثقة » كذا قال. وفى مسند البزار : « مسلم بن جنادة » وهو الصواب كما لا يخفى .

(٢) البيهقى فى الشعب ( ٩٠٣٢ ـ ٩٠٣٤ ) .

أخيك بإعادة الجار ، فلو كان قوله : ﴿ **ومن اتبعك** ﴾ مجرورا لقيل : حسبك الله وحسب من اتبعك ، واختار النصب على المفعول معه النحاس . وقيل : يجوز أن يكون المعنى : ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله فحذف الخبر .

وقوله : ﴿ **حرض المؤمنين على القتال** ﴾ أى حثهم وحضهم ، والتحريض فى اللغة : المبالغة فى الحث وهو : كالتحضيض ، مأخوذ من الحرض ، وهو أن ينهكه المرض ويتبالغ فيه حتى يشفى على الموت كأنه ينسبه إلى الهلاك لو تخلف عن المأمور به . ثم بشرهم تثبيتا لقلوبهم وتسكينا لخواطرهم بأن الصابرين منهم فى القتال يغلبون عشرة أمثالهم من الكفار ، فقال : ﴿ **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين** ﴾ ثم زاد هذا إيضاحا مفيدا لعدم اختصاص هذه البشارة بهذا العدد ، بل هى جارية فى كل عدد فقال : ﴿ **وإن تكن منكم مائة يغلبوا ألفا** ﴾ وفى هذا دلالة على أن الجماعة من المؤمنين قليلا كانوا أو كثيرا لا يغلبهم عشرة أمثالهم من الكفار بحال من الأحوال ، وقد وجد فى الخارج ما يخالف ذلك .فكم من طائفة من طوائف الكفار يغلبون من هو مثل عشرهم من المسلمين ، بل مثل نصفهم بل مثلهم . وأجيب عن ذلك بأن وجود هذا بالخارج لا يخالف ما فى الآية لاحتمال ألا تكون الطائفة من المؤمنين متصفة بصفة الصبر . وقيل : إن هذا الخبر الواقع فى الآية هو فى معنى الأمر ، كقوله تعالى: ﴿ والوالدات يرضعن ﴾ [ البقرة: ٢٣٣ ] ، ﴿ والمطلقات يتربصن ﴾ [ البقرة : ٢٢٨ ] . فالمؤمنون كانوا مأمورين من جهة الله سبحانه بأن تثبت الجماعة منهم لعشرة أمثالهم، ثم لما شق ذلك عليهم واستعظموه خفف عنهم ورخص لهم لما علمه سبحانه من وجود الضعف فيهم فقال : ﴿ **فإن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين** ﴾ إلى آخر الآية ، فأوجب على الواحد أن يثبت لاثنين من الكفار . وقرأ حمزة وحفص عن عاصم : ﴿ **ضعفا** ﴾ بفتح الضاد .

وقوله : ﴿ **بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **يغلبوا** ﴾ ،أى إن هذا الغلب بسبب جهلهم وعدم فقههم ،وأنهم يقاتلون على غير بصيرة،ومن كان هكذا فهو مغلوب فى الغالب . وقد قيل فى نكتة التنصيص على غلب العشرين للمائتين ، والمائة للألف : إن سراياه التى كان يبعثها ﷺ كان لا ينقص عددها عن العشرين ولا يجاوز المائة . وقيل فى التنصيص فيما بعد ذلك على غلب المائة للمائتين والألف للألفين : على أنه بشارة للمسلمين بأن عساكر الإسلام سيجاوز عددها العشرات والمئات إلى الألوف ، ثم أخبرهم بأن هذا الغلب هو بإذن الله وتسهيله وتيسيره لا بقوتهم وجلادتهم ، ثم بشرهم بأنه مع الصابرين ، وفيه الترغيب إلى الصبر والتأكيد عليهم بلزومه والتوصية به ، وأنه من أعظم أسباب النجاح والفلاح والنصر والظفر ؛ لأن من كان الله معه لم يستقم لأحد أن يغلبه . وقد اختلف أهل العلم هل هذا التخفيف نسخ أم لا ؟ ولا يتعلق بذلك كثير فائدة .

وقد أخرج البزار عن ابن عباس قال :لما أسلم عمر قال المشركون : قد انتصف القوم منا اليوم ، وأنزل الله : ﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ . وأخرج الطبرانى

وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما أسلم مع النبى ﷺ تسعة وثلاثون رجلا وامرأة، ثم إن عمر أسلم صاروا أربعين فنزل :﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين**﴾ (١) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : لما أسلم مع النبى ﷺ ثلاثة وثلاثون وست نسوة ثم أسلم عمر نزلت ﴿ **يأيها النبى حسبك الله**﴾(٢) . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن الزهرى فى الآية قال : نزلت فى الأنصار . وأخرج البخارى فى تاريخه،وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الشعبى فى قوله:﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ قال : حسبك الله وحسب من اتبعك .

وأخرج البخارى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين** ﴾ فكتب عليهم ألا يفر واحد من العشرة ، وألا يفر عشرون من مائتين . ثم نزلت ﴿ **الآن خفف الله عنكم** ... ﴾ الآية ، فكتب ألا يفر مائة من مائتين . قال سفيان : وقال ابن شبرمة : وأرى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مثل هذا (٣) ، وإن كانا رجلين أمرهما وإن كانوا ثلاثة فهو فى سعة من تركهم .وأخرج البخارى ، والنحاس فى ناسخه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين** ﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم ألا يفر واحد من عشرة ، فجاء التخفيف : ﴿ **الآن خفف الله عنكم** ... ﴾ الآية . قال : فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم (٤) .

**﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩) ﴾** .

هذا حكم آخر من أحكام الجهاد . ومعنى : ﴿ **ما كان لنبى** ﴾ ما صح له وما استقام ، وقرأ أبو عمرو وسهيل ويعقوب ويزيد والمفضل أن تكون بالفوقية ، وقرأ الباقون بالتحتية ، وقرأ أيضا يزيد والمفضل : « أسارى » ، وقرأ الباقون : ﴿ **أسرى** ﴾ والأسرى : جمع أسير ، مثل : قتلى وقتيل ، وجرحى وجريح . وقال فى جمع أسير أيضا : أسارى بضم الهمزة وبفتحها ، وهو مأخوذ من الأسر ، وهو القد ؛ لأنهم كانوا يشدون به الأسير فسمى كل أخيذ

(١) الطبرانى ( ١٢٤٧٠ ) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٣١ : « وفيه إسحاق بن بشر الكاهلى وهو كذاب » .
(٢) قال ابن كثير ٣ / ٣٤٤ : « وهذا فيه نظر ؛ لأن هذه الآية مدنية ، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة ، وقبل الهجرة إلى المدينة » .
(٣) البخارى فى التفسير ( ٤٦٥٢ ) والبيهقى فى الشعب ( ٤٣١٠ ) ورجاله كلهم ثقات .
(٤) البخارى فى التفسير ( ٤٦٥٣ ) والبيهقى ٩ / ٧٦ .

وإن لم يشد بالقيد : أسيرا . قال الأعشى :

وقيدنى الشعر فى بيته كما قيدت الأسرات الحمارا

وقال أبو عمرو بن العلاء : الأسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون ، والأسارى : هم الموثقون ربطا . والإثخان : كثرة القتل والمبالغة فيه ؛ تقول العرب : أثخن فلان هذا الأمر ، أى بالغ فيه . فالمعنى : ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يبالغ فى قتل الكافرين ويستكثر من ذلك . وقيل : معنى الإثخان : التمكن . وقيل : هو القوة . وأخبر الله سبحانه أن قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم وفدائهم ثم لما كثر المسلمون رخص الله فى ذلك فقال : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ [ محمد : ٤ ] كما يأتى فى سورة القتال إن شاء الله. قوله: ﴿**تريدون عرض**﴾ الحياة ﴿ **الدنيا** ﴾ أى نفعها ومتاعها بما قبضتم من الفداء ، وسمى عرضا ؛ لأنه سريع الزوال ، كما تزول الأعراض التى هى مقابل الجواهر ﴿ **والله يريد الآخرة** ﴾ أى يريد لكم الدار الآخرة بما يحصل لكم من الثواب فى الإثخان بالقتل . وقرئ: « يريد الآخرة » بالجر على تقدير مضاف وهو المذكور قبله ، أى والله يريد عرض الآخرة ﴿ **والله عزيز** ﴾ لا يغالب ﴿ **حكيم** ﴾ فى كل أفعاله .

قوله : ﴿ **لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** ﴾ اختلف المفسرون فى هذا الكتاب الذى سبق ما هو ؟ على أقوال : الأول : ما سبق فى علم الله من أنه سيحل لهذه الأمة الغنائم بعد أن كانت محرمة على سائر الأمم . والثانى : أنه مغفرة الله لأهل بدر، ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر ،كما فى الحديث الصحيح : « إن الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (١). القول الثالث : هو أنه لا يعذبهم ورسوله ﷺ فيهم كما قال سبحانه : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ [ الأنفال : ٣٣ ] . القول الرابع : أنه لا يعذب بذنب فعله جاهلا لكونه ذنبا . القول الخامس : أنه ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر . القول السادس : أنه لا يعذب أحدا إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهى ، ولم يتقدم نهى عن ذلك . وذهب ابن جرير الطبرى إلى أن هذه المعانى كلها داخلة تحت اللفظ وأنه يعمها ﴿ **لمسكم** ﴾ أى لحل بكم ﴿ **فيما أخذتم** ﴾ أى لأجل ما أخذتم من الفداء ﴿ **عذاب عظيم** ﴾ والفاء فى : ﴿ **فكلوا مما غنمتم** ﴾ لترتيب ما بعدها على سبب محذوف ، أى قد أبحت لكم الغنائم ، فكلوا مما غنمتم ، ويجوز أن تكون عاطفة على مقدر محذوف ، أى اتركوا الفداء فكلوا مما غنمتم من غيره . وقيل : إن: « ما » عبارة عن الفداء ، أى كلوا من الفداء الذى غنمتم فإنه من جملة الغنائم التى أحلها الله لكم ،و ﴿ **حلالا طيبا** ﴾ منتصبان على الحال أو صفة المصدر المحذوف ،أى أكلا حلالا طيبا ﴿ **واتقوا الله** ﴾ فيما يستقبل فلا تقدموا على

---

(١) البخارى فى التفسير ( ٤٨٩٠ ) ومسلم فى فضائل الصحابة ( ٢٤٩٤ / ١٦١ ) والترمذى فى التفسير ( ٣٣٠٥ ) وقال : « حسن صحيح » وكلهم عن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

شيء لم يأذن الله لكم به ﴿ **إن الله غفور** ﴾ لما فرط منكم ﴿**رحيم** ﴾ بكم، فلذلك رخص لكم في أخذ الفداء في مستقبل الزمان.

وقد أخرج أحمد عن أنس قال : استشار النبي ﷺ الناس في الأسرى يوم بدر فقال : «إن الله قد أمكنكم منهم » ، فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله ، اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال : « يأيها الناس ، إن الله قد أمكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالأمس » ، فقام عمر فقال : يا رسول الله ، اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ ، ثم عاد فقال مثل ذلك ، فقام أبو بكر الصديق فقال : يا رسول الله، نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء . فعفا عنهم وقبل منهم الفداء ، فأنزل الله : ﴿ **لولا كتاب من الله سبق ...** ﴾ الآية (١) .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه ، وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال : لما كان يوم بدر جيء بالأسارى وفيهم العباس ، فقال رسول الله ﷺ : « ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله ، قومك وأهلك فاستبقهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : يا رسول الله، كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ،قدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا ، فقال العباس ـ وهو يسمع ـ : قطعت رحمك ، فدخل النبي ﷺ عليهم ولم يرد عليهم شيئا ، فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر ، وقال أناس : يأخذ بقول عمر ، وقال قوم: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ،فخرج رسول الله ﷺ فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، ومثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام قال : ﴿ من تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ [ إبراهيم : ٣٦ ] . ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام إذ قال : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [ المائدة : ١١٨ ] . ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ [ نوح : ٢٦ ].ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [ يونس: ٨٨ ]. أنتم عالة فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق » ، فقال عبد الله : يا رسول الله ، إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ﷺ ، فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع على الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال

---

(١) أحمد ٣ / ٢٤٣ وقال الهيثمي في المجمع ٦ / ٩٠ : « رواه أحمد عن شيخه علي بن عاصم بن صهيب وهو كثير الغلط والخطأ ، ولا يرجع إذا قيل له الصواب ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح » .

رسول الله ﷺ: «إلا سهيل ابن بيضاء»، فأنزل الله: ﴿ما كان لنبى أن يكون له أسرى...﴾ الآية(١) .

وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن على قال : قال النبى ﷺ فى الأسرى يوم بدر : « إن شئتم قتلتموهم ، وإن شئتم فاديتم واستمتعتم بالفداء ، واستشهد منكم بعدتهم ، فكان آخر السبعين ثابت بن قيس استشهد باليمامة » (٢) . وأخرج عبد الرزاق فى مصنفه وابن أبى شيبة عن عبيدة نحوه (٣) . وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عمر قال : لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسر ، أسره رجل من الأنصار وقد وعدته الأنصار أن يقتلوه . فبلغ ذلك النبى ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « إنى لم أنم الليلة من أجل عمى العباس ، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه » فقال له عمر: فآتيهم؟ قال: « نعم » فأتى عمر الأنصار فقال : أرسلوا العباس . فقالوا : لا و الله لا نرسله . فقال لهم عمر : فإن كان لرسول الله ﷺ رضا ، قالوا : فإن كان لرسول الله ﷺ رضا فخذه ، فأخذه عمر ، فلما صار فى يده قال له : يا عباس ، أسلم ، فوالله إن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب ، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك ، قال : فاستشار رسول الله أبا بكر، فقال أبو بكر : عشيرتك فأرسلهم ، فاستشار عمر، فقال : اقتلهم ، ففاداهم رسول الله ﷺ ، فأنزل الله: ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى ... ﴾ الآية (٤) .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ حتى يثخن فى الأرض ﴾ يقول : حتى يظهروا على الأرض . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : الإثخان : هو القتل . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن مجاهد أيضا فى الآية قال : ثم نزلت الرخصة بعد: إن شئت فمنّ ، وإن شئت ففاد. وأخرج ابن المنذر عن قتادة : ﴿ تريدون عرض الدنيا ﴾ قال : أراد أصحاب محمد ﷺ يوم بدر الفداء ففادوهم بأربعة آلاف أربعة آلاف. وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة : ﴿ تريدون عرض الدنيا ﴾ قال: الخراج. وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ قال : سبق لهم المغفرة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : ما سبق لأهل بدر من السعادة . وأخرج النسائى وابن مردويه وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : سبقت لهم من الله الرحمة قبل أن يعملوا بالمعصية (٥) . وأخرج أبو حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : سبق ألا يعذب

---

(١) ابن أبى شيبة فى المغازى ( ١٨٥٣٧ ) وأحمد ١ / ٣٨٣ والترمذى فى التفسير( ٣٠٨٤ ) وقال: « حديث حسن، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه » والطبرانى ( ١٠٢٥٧ ، ١٠٢٥٨ ) وقال الهيثمى فى المجمع ٦ / ٩٠ : « رواه الطبرانى أيضا وفيه أبو عبيدة لم يسمع من أبيه ، ولكن رجاله ثقات ، وفى رواية عند الطبرانى . . . وهى متصلة وفيها موسى بن مطير وهو ضعيف » وصححه الحاكم ٣ / ٢١ ، ٢٢ ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الدلائل ٣ / ١٣٨ ، ١٣٩ وفى السنن ٦ / ٣٢١ .

(٢) صححه الحاكم ٢ / ١٤٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٦ / ٣٢١ .

(٣) عبد الرزاق ( ٩٤٠٢ ) وابن أبى شيبة ( ١٨٥٣٣ ) .

(٤) صححه الحاكم ٢ / ٣٢٩ وقال الذهبى : « على شرط مسلم » .

(٥) النسائى فى التفسير ( ٢٣١ ) إسناده حسن تفرد به النسائى ورجاله ثقات غير على بن أبى طلحة الوالبى وثقه بعضهم وضعفه يعقوب بن سفيان، ولذا قال عنه الحافظ: « صدوق قد يخطئ » فهو حسن الحديث إن شاء الله .

أحدا حتى يبين له ويتقدم إليه .

**﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾** .

اختلاف القراء فى أسرى [١] والأسارى هو هنا كما سبق فى الآية قبل هذه . خاطب الله النبى ﷺ بهذا ، أى قل لهؤلاء الأسرى الذين هم فى أيديكم أسرتموهم يوم بدر وأخذتم منهم الفداء : ﴿ **إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا** ﴾ من حسن إيمان ، وصلاح نية ، وخلوص طوية ﴿**يؤتكم خيرا مما أخذ منكم**﴾ من الفداء ، أى يعوضكم فى هذه الدنيا رزقا خيرا منه وأنفع لكم ، أو فى الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة بالأعمال الصالحة ﴿ **ويغفر لكم** ﴾ ذنوبكم ﴿**والله غفور رحيم**﴾ شأنه المغفرة لعباده والرحمة لهم ، ولما ذكر ما ذكره من العوض لمن علم فى قلبه خيرا ذكر من هو ضد ذلك منهم فقال : ﴿ **وإن يريدوا خيانتك** ﴾ بما قالوه لك بألسنتهم من أنهم قد آمنوا بك وصدقوك ولم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة ونية خالصة ، بل هو مماكرة ومخادعة ، فليس ذلك بمستبعد منهم، فإنهم قد فعلوا ما هو أعظم منه ، وهو أنهم خانوا الله من قبل أن تظفر بهم ، فكفروا به وقاتلوا رسوله ﴿ **فأمكن منهم** ﴾ بأن نصرك عليهم فى يوم بدر فقتلت منهم من قتلت وأسرت من أسرت ﴿ **والله عليم** ﴾ بما فى ضمائرهم ﴿**حكيم**﴾ فى أفعاله بهم .

وقد أخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن عائشة قالت : لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ فى فداء أبى العاص وبعثت فيه بقلادة ، فلما رآها رسول الله ﷺ رق رقة شديدة وقال : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها » ، وقال العباس: إنى كنت مسلما يا رسول الله ، قال : « الله أعلم بإسلامك ، فإن تكن كما تقول فالله يجزيك ، فافد نفسك وابنى أخويك نوفل بن الحارث وعقيل بن أبى طالب وحليفك عتبة بن عمرو » ، قال : ما ذاك عندى يا رسول الله ، قال : « فأين المال الذى دفنت أنت وأم الفضل؟ فقلت لها : إن أصبت فهذا المال لبنى ؟ » فقال : والله يا رسول الله، إن هذا لشىء ما علمه غيرى وغيرها ، فاحسب لى ما أصبتم منى عشرون أوقية من مال كان معى ، قال : « لا أفعل» ، ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه، ونزلت : ﴿ **قل لمن فى أيديكم من الأسرى** ... ﴾ الآية ، فأعطانى مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبدا كلهم فى يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله [٢] .

وأخرج ابن سعد ، والحاكم وصححه عن أبى موسى أن العلاء بن الحضرمى بعث إلى

---

(١) هكذا بالمخطوطة ، ولعله فى « الأسارى » فقط .

(٢) صححه الحاكم ٣/ ٢٣ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٦/ ٣٢٢ .

رسول الله ﷺ بمال من البحرين ثمانين ألفا ، فما أتى رسول الله ﷺ مال أكثر منه ، فنشر على حصير ، وجاء الناس فجعل رسول الله ﷺ يعطيهم ، وما كان يومئذ عدد ولا وزن ، فجاء العباس فقال : يا رسول الله ، إنى أعطيت فدائى وفداء عقيل يوم بدر ، أعطنى من هذا المال ، فقال : « خذ » فحثا فى خميصته، ثم ذهب ينصرف فلم يستطع ، فرفع رأسه وقال : يا رسول الله ، ارفع علىّ ، فتبسم رسول الله ﷺ وذهب وهو يقول : أما أحد اللذين وعد الله فقد أنجزنا وما ندرى ما يصنع فى الأخرى ﴿ **قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم** ﴾ فهذا خير مما أخذ منى ولا أدرى ما يصنع فى المغفرة (١) . والروايات فى هذا الباب كثيرة . وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس فى الآية قال : نزلت فى الأسارى يوم بدر منهم العباس بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث ، وعقيل بن أبى طالب (٢). وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عنه فى قوله :﴿ **وإن يريدوا خيانتك** ﴾ إن كان قولهم كذبا ﴿ **فقد خانوا الله من قبل** ﴾ فقد كفروا وقاتلوك فأمكنك الله منهم.

**﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) ﴾.**

ختم الله سبحانه هذه السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليه الذى يستعين به ، وسمى سبحانه المهاجرين إلى المدينة بهذا الاسم ؛ لأنهم هجروا أوطانهم وفارقوها طلبا لما عند الله ، وإجابة لداعيه . ﴿ **والذين آووا ونصروا** ﴾ هم الأنصار ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إشارة إلى الموصول الأول والآخر ، وهو مبتدأ وخبره الجملة المذكورة بعده ، ويجوز أن يكون ﴿**بعضهم**﴾ بدلا من اسم الإشارة ، والخبر ﴿ **أولياء بعض** ﴾ أى بعضهم أولياء بعض فى النصرة والمعونة . وقيل : المعنى : إن بعضهم أولياء بعض فى الميراث . وقد كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة ، ثم نسخ ذلك بقوله سبحانه : ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ .

(١) ابن سعد ٤/ ١٥ ، ١٦ وصححه الحاكم ٣/ ٣٢٩ ، ٣٣٠ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .
(٢) ابن سعد ٤/ ١٥ .

قوله : ﴿ **والذين آمنوا** ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿ **مالكم من ولايتهم من شيء** ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة : ﴿ **من ولايتهم** ﴾ بكسر الواو . وقرأ الباقون بفتحها ، أى ما لكم من نصرتهم وإعانتهم ، أو من ميراثهم ، ولو كانوا من قراباتكم لعدم وقوع الهجرة منهم ﴿ **حتى يهاجروا** ﴾ فيكون لهم ما كان للطائفة الأولى الجامعين بين الإيمان والهجرة ﴿**وإن استنصروكم** ﴾ أى هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا إذا طلبوا منكم النصرة لهم على المشركين ﴿**فعليكم النصر** ﴾ أى فواجب عليكم النصر ﴿ **إلا** ﴾ أن يستنصروكم ﴿ **على قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ فلا تنصروهم ولا تنقضوا العهد الذى بينكم وبين أولئك القوم حتى تنقضى مدته . قال الزجاج : ويجوز : فعليكم النصر بالنصب على الإغراء .

قوله : ﴿ **والذين كفروا** ﴾ مبتدأ خبره ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ أى بعضهم ينصر بعضا ويتولاه فى أموره، أو يرثه إذا مات ، وفيه تعريض للمسلمين بأنهم لا يناصرون الكفار ولا يتولونهم . قوله : ﴿ **إلا تفعلوه** ﴾ الضمير يرجع إلى ما أمروا به قبل هذا من موالاة المؤمنين ومناصرتهم على التفصيل المذكور ، وترك موالاة الكافرين ﴿ **تكن فتنة فى الأرض**﴾ أى تقع فتنة إن لم تفعلوا ذلك ﴿ **وفساد كبير** ﴾ أى مفسدة كبيرة فى الدين والدنيا ، ثم بين سبحانه حكما آخر يتعلق بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين فى سبيل الله والمؤمنين الذين آووا من هاجر إليهم ونصروهم وهم الأنصار ، فقال : ﴿ **أولئك هم المؤمنون حقا** ﴾ أى الكاملون فى الإيمان ، وليس فى هذا تكرير لما قبله فإنه وارد فى الثناء على هؤلاء ، والأول وارد فى إيجاب الموالاة والنصرة ، ثم أخبر سبحانه أن ﴿ **لهم** ﴾ منه ﴿ **مغفرة** ﴾ لذنوبهم فى الآخرة و لهم فى الدنيا ﴿ **رزق كريم** ﴾ خالص عن الكدر طيب مستلذ . ثم أخبر سبحانه بأن من هاجر بعد هجرتهم وجاهد مع المهاجرين الأولين والأنصار فهو من جملتهم ، أى من جملة المهاجرين الأولين والأنصار فى استحقاق ما استحقوه من الموالاة والمناصرة وكمال الإيمان والمغفرة والرزق الكريم، ثم بين سبحانه بأن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض من غيرهم ممن لم يكن بينه وبينهم رحم فى الميراث ، والمراد بهم : القرابات ، فيتناول كل قرابة . وقيل : المراد بهم هنا: العصبات ، قالوا : ومنه قول العرب : وصلتك رحم ، فإنهم لا يريدون قرابة الأم . قالوا : ومنه قول قتيلة :

ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقق

ولا يخفاك أنه ليس فى هذا ما يمنع من إطلاقه على غير العصبات ، وقد استدل بهذه الآية من أثبت ميراث ذوى الأرحام ، وهم من ليس بعصبة ولا ذى سهم على حسب اصطلاح أهل علم المواريث ، والخلاف فى ذلك معروف مقرر فى مواطنه . وقد قيل : إن هذه الآية ناسخة للميراث بالموالاة والنصرة عند من فسر ما تقدم من قوله: ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ وما بعده بالتوارث ، وأما من فسرها بالنصرة والمعونة فيجعل هذه الآية إخبارا منه سبحانه وتعالى بأن

القرابات ﴿ **بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** ﴾ أى فى حكمه أو فى اللوح المحفوظ أو فى القرآن ، ويدخل فى هذه الأولوية الميراث دخولا أوليا لوجود سببه ـ أعنى ـ القرابة : ﴿ **إن الله بكل شىء عليم** ﴾ لا يخفى عليه شىء من الأشياء كائنا ما كان ، ومن جملة ذلك ما تضمنته هذه الآيات .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن الذين آمنوا وهاجروا...** ﴾ الآية قال : إن المؤمنين كانوا على عهد رسول الله ﷺ على ثلاث منازل ، منهم المؤمن المهاجر المباين لقومه ، وفى قوله : ﴿ **والذين آووا ونصروا** ﴾ قال : آووا ونصروا وأعلنوا ما أعلن أهل الهجرة وشهروا السيوف على من كذب وجحد، فهذان مؤمنان جعل الله بعضهم أولياء بعض ، وفى قوله : ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا** ﴾ قال : كانوا يتوارثون بينهم إذا توفى المؤمن المهاجر بالولاية فى الدين ، وكان الذى آمن ولم يهاجر لا يرث من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر ، فبرأ الله المؤمنين المهاجرين من ميراثهم ، وهى الولاية التى قال : ﴿ **ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ كان حقا على المؤمنين الذين آووا ونصروا إذا استنصروهم فى الدين أن ينصروهم إن قوتلوا إلا أن يستنصروا على قوم بينهم وبين النبى ﷺ ميثاق ، فلا نصر لهم عليهم إلا على العدو الذى لا ميثاق لهم ، ثم أنزل الله بعد ذلك أن ألحق كل ذى رحم برحمه من المؤمنين الذين آمنوا ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا** ﴾ فجعل لكل إنسان من المؤمنين نصيبا مفروضا لقوله : ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ...** ﴾ الآية . وفى رواية لابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أولئك بعضهم أولياء بعض** ﴾ قال : يعنى فى الميراث ، جعل الله الميراث للمهاجرين والأنصار دون الأرحام ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء** ﴾ ما لكم من ميراثهم من شىء ﴿**حتى يهاجروا** (١) **وإن استنصروكم فى الدين** ﴾ يعنى : إن استنصر الأعراب المسلمون المهاجرين والأنصار على عدو لهم فعليهم أن ينصروهم إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، فكانوا يعملون على ذلك حتى أنزل الله هذه الآية: ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ فنسخت الآية التى قبلها ، وصارت المواريث لذوى الأرحام .

وأخرج أبو عبيد وأبو داود وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى هذه الآيات قال : كان المهاجر لا يتولى الأعرابى ولا يرثه وهو مؤمن ، ولا يرث الأعرابى المهاجر ، فنسختها هذه الآية: ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** ﴾ (٢) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه أيضا قال : قال رجل من المسلمين : لنورثن ذوى القربى منا من المشركين ، فنزلت : ﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء**

---

(١) فى المطبوعة : « يهاجرون » .

(٢) أبو داود فى الفرائض (٢٩٢٤) .

**بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير﴾**(١) . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «المهاجرون بعضهم أولياء بعض فى الدنيا والآخرة ، والطلقاء من قريش ، والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض فى الدنيا والآخرة » (٢) . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن أسامة عن النبى ﷺ قال : «لا يتوارث أهل ملتين ، ولا يرث مسلم كافرا ، ولا كافر مسلما » ثم قرأ : ﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض** ... ﴾ الآية (٣) .

وأخرج ابن سعد وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه وابن مردويه عن الزبير بن العوام قال : أنزل الله فينا خاصة معشر قريش : ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** ﴾ وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان ، فواخيناهم ووارثناهم فآخونا ، فآخى أبو بكر خارجة بن زيد ، وآخى عمر فلانا ، وآخى عثمان بن عفان رجلا من بنى زريق بن أسعد الزرقى ، قال الزبير : وآخيت أنا كعب ابن مالك ، ووارثونا ووارثناهم ، فلما كان يوم أحد قيل لى: قد قتل أخوك كعب بن مالك ، فجئته فانتقلته فوجدت السلاح قد ثقلته فيما يرى ، فوالله يا بنى لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيرى ، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار ، فرجعنا إلى مواريثنا (٤) . وأخرج أبو داود الطيالسى والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ، وورث بعضهم من بعض ، حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب (٥) .

---

(١) ابن جرير ١٠/ ٣٩ .

(٢) أحمد ٤/ ٣٦٣ ، وصححه الحاكم ٤/ ٨١ ووافقه الذهبى .

(٣) صححه الحاكم ٢/ ٢٤٠ ووافقه الذهبى .

(٤) صححه الحاكم ٤/ ٣٤٥ ووافقه الذهبى .

(٥) أبو داود الطيالسى (٢٦٧٦) والطبرانى (١١٧٤٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٣١ : « ورجاله رجال الصحيح».

# تفسير سورة براءة

هى مائة وثلاثون آية ، وقيل : مائة وسبع وعشرون آية ، ولها أسماء: منها سورة التوبة ؛ لأن فيها التوبة على المؤمنين، وتسمى الفاضحة لأنه مازال ينزل فيها : ومنهم، ومنهم حتى كادت أن لاتدع أحدا ، وتسمى البحوث؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين ، وتسمى المبعثرة : والبعثرة البحث ، وتسمى أيضا بأسماء أخر كالمقشقشة ؛ لكونها تقشقش من النفاق ، أى تبرئ منه ؛ والمخزية لكونها أخزت المنافقين ، والمثيرة لكونها تثير أسرارهم ، والحافرة لكونها تحفر عنها ، والمنكلة لما فيها من التنكيل لهم ، والمدمدمة لأنها تدمدم عليهم .

وهى مدنية . قال القرطبى : باتفاق (١) . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : نزلت براءة بعد فتح مكة . وأخرج ابن مردويه عنه قال : نزلت سورة التوبة بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير نحوه . وأخرج ابن المنذر عن قتادة نحوه أيضا . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى والنسائى وابن الضريس وابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن البراء قال : آخر آية نزلت ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ﴾ [النساء : ١٧٦ ] . وآخر سورة نزلت تامة براءة (٢) .

وقد اختلف العلماء فى سبب سقوط البسملة من أوّلها على أقوال :

الأوّل عن المبرد وغيره : أنه كان من شأن العرب إذا كان بينهم وبين قوم عهد ، فإذا أرادوا نقضه كتبوا إليهم كتابا ولم يكتبوا فيه بسملة ؛ فلما نزلت براءة بنقض العهد الذى كان بين النبى ﷺ والمشركين ، بعث بها النبى ﷺ علىّ بن أبى طالب فقرأها عليهم ولم يبسمل فى ذلك على ما جرت به عادة العرب . وأخرج أبوالشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : سألت علىّ بن أبى طالب : لم لا تكتب فى براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال: لأن بسم اللّه الرحمن الرحيم أمان ، وبراءة نزلت بالسيف . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود، والترمذى وحسنه، والنسائى ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المئين ، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطول ، ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ مما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء

---

(١) القرطبى ٤/ ٢٩٠٠ .

(٢) ابن أبى شيبة (١٠٢٦٢) والبخارى فى التفسير( ٤٦٠٥ ، ٤٦٥٤) وفى المغازى (٤٣٦٤) ومسلم فى الفرائض (١٦١٨/ ١١ ، ١٢) والنسائى فى التفسير (٢٣٢) وابن الضريس فى فضائل القرآن (١٩ ، ٢٠) والنحاس فى ناسخه ١٩٤ ، وابن جرير ٦/ ٢٩ والبيهقى فى الدلائل ٧/ ١٣٦ .

الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطول (١). وأخرج أبو الشيخ عن أبى رجاء قال : سألت الحسن عن الأنفال وبراءة أسورتان أو سورة ؟ قال : سورتان . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة قال : يسمون هذه السورة سورة التوبة ، وهى سورة العذاب . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس قال : فى هذه السورة هى الفاضحة ما زالت تنزل : ومنهم ، حتى ظننا أنه لا يبقى منا أحد إلا ذكر فيها. وأخرج أبو الشيخ عن عمر نحوه . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن زيد بن أسلم أن رجلا قال لعبد الله بن عمر سورة التوبة ، فقال ابن عمر: وأيتهن سورة التوبة ، ثم قال : وهل فعل بالناس الأفاعيل إلا هى ؟ ما كنا ندعوها إلا المقشقشة. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : يسمونها سورة التوبة ، وإنها لسورة عذاب . وأخرج ابن المنذر عن ابن إسحاق قال : كانت براءة تسمى فى زمن النبى ﷺ وبعده المبعثرة لما كشفت من سرائر الناس . وأخرج أبو الشيخ عن عبيد الله بن عمير قال : كانت براءة تسمى المنقرة نقرت عما فى قلوب المشركين . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الشعب عن أبى عطية الهمدانى قال : كتب عمر بن الخطاب : تعلموا سورة براءة وعلموا نساءكم سورة النور .

ومن جملة الأقوال فى حذف البسملة أنها كانت تعدل سورة البقرة أو قريبا منها ، وأنه لما سقط أولها سقطت البسملة، روى هذا عن مالك بن أنس وابن عجلان .

ومن جملة الأقوال فى سقوط البسملة أنهم لما كتبوا المصحف فى خلافة عثمان اختلف الصحابة فقال بعضهم : براءة والأنفال سورة واحدة ، وقال بعضهم : هما سورتان ، فتركت بينهما فرجة لقول من قال هما سورتان ، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال هما سورة واحدة ، فرضى الفريقان . قاله خارجة وأبوعصمة وغيرهما . وقول من جعلهما سورة واحدة أظهر ؛ لأنهما جميعا فى القتال ، وتعدان جميعا سابعة السبع الطول .

**﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) ﴾** .

---

(١) أحمد ١/ ٥٧ وأبو داود فى الصلاة (٧٨٦) والترمذى فى التفسير (٣٠٨٦) وقال : «حسن صحيح » والنسائى فى الكبرى فى فضائل القرآن (٨٠٠٧) ، وصححه الحاكم ٢/ ٣٣٠ ووافقه الذهبى .

قوله : ﴿ **براءة من اللّه ورسوله** ﴾ : برئت من الشيء أبرأ براءة ، وأنا منه برىء : إذا أزلته عن نفسك وقطعت سبب ما بينك وبينه ، وبراءة مرتفعة على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى هذه براءة ، ويجوز أن ترتفع على الابتداء لأنها نكرة موصوفة ، والخبر ﴿ **إلى الذين عاهدتم** ﴾ .وقرأ عيسى بن عمر « براءة » بالنصب على تقدير: اسمعوا براءة ، أو على تقدير : التزموا براءة ، لأن فيها معنى الإغراء ، و« من » فى قوله : ﴿ **من الله** ﴾ لابتداء الغاية متعلق بمحذوف وقع صفة ، أى واصلة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم . وقرأ روح وزيد بنصب ﴿ **رسوله** ﴾ ، وقرأ الباقون بالرفع . والعهد : العقد الموثق باليمين . والخطاب فى عاهدتم للمسلمين ، وقد كانوا عاهدوا مشركى مكة وغيرهم بإذن من الله ومن الرسول ﷺ ، والمعنى : الإخبار للمسلمين بأن اللّه ورسوله قد برئا من تلك المعاهدة بسبب ما وقع من الكفار من النقض ، فصار النبذ إليهم بعهدهم واجبا على المعاهدين من المسلمين ، ومعنى براءة اللّه سبحانه : وقوع الإذن منه سبحانه بالنبذ من المسلمين لعهد المشركين بعد وقوع النقض منهم ، وفى ذلك من التفخيم لشأن البراءة والتهويل لها والتسجيل على المشركين بالذلّ والهوان ما لا يخفى .

قوله : ﴿ **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ هذا أمر منه سبحانه بالسياحة بعد الإخبار بتلك البراءة ، والسياحة : السير ، يقال : ساح فلان فى الأرض يسيح سياحة وسيوحا وسيحانا ، ومنه سيح الماء فى الأرض وسيح الخيل ، ومنه قول طرفة بن العبد :

لو خفت هذا منك ما نلتنى     حتى ترى خيلا أمامى تسيح

ومعنى الآية : أن اللّه سبحانه بعد أن أذن بالنبذ إلى المشركين بعهدهم أباح للمشركين الضرب فى الأرض والذهاب إلى حيث يريدون والاستعداد للحرب هذه الأربعة الأشهر ، وليس المراد من الأمربالسياحة تكليفهم بها . قال محمد بن إسحاق وغيره : إن المشركين صنفان : صنف كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر فأمهل تمام أربعة أشهر ، والآخر كانت أكثر من ذلك فقصر على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه ، وهو حرب بعد ذلك للّه ولرسوله وللمؤمنين يقتل حيث يوجد ، وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر وانقضاؤه إلى عشر من ربيع الآخر ، فأما من لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأشهر الحرم ، وذلك خمسون يوما : عشرون من ذى الحجة وشهر محرم.وقال الكلبى:إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد دون أربعة أشهر،ومن كان عهده أكثر من ذلك فهو الذى أمر اللّه أن يتمّ له عهده بقوله:﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدّتهم** ﴾ ورجح هذا ابن جرير وغيره(١) ، وسيأتى فى آخر البحث من الرواية ما يتضح به معنى الآية.﴿ **واعلموا أنكم غير معجزى اللّه** ﴾ أى اعلموا أن هذا الإمهال ليس لعجز ، ولكن لمصلحة ليتوب من تاب ، وفى ذلك ضرب من التهديد كأنه قيل : افعلوا

(١) ابن جرير ٤٢/١٠ والقرطبى ٢٩٠٣/٤ .

فى هذه المدّة كل ما أمكنكم من إعداد الآلات والأدوات ، فإنكم لا تفوتون اللّه وهو مخزيكم ، أى مذلكم ومهينكم فى الدنيا بالقتل والأسر ، وفى الآخرة بالعذاب ، وفى وضع الظاهر موضع المضمر إشارة إلى أن سبب هذا الإخزاء هو الكفر ، ويجوز أن يكون المراد جنس الكافرين فيدخل فيه المخاطبون دخولا أوّليا .

قوله : ﴿ **وأذان من اللّه ورسوله إلى الناس يوم الحجّ الأكبر** ﴾ ارتفاع أذان على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو على أنه مبتدأ خبره ما بعده على ما تقدّم فى ارتفاع براءة ، والجملة هذه معطوفة على جملة : ﴿ **براءة من اللّه ورسوله** ﴾ وقال الزجاج : إن قوله : ﴿ **وأذان** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **براءة** ﴾ . واعترض عليه بأن الأمر لو كان كذلك لكان ﴿ **أذان**﴾ مخبر عنه بالخبر الأوّل ، وهو : ﴿ **إلى الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ وليس ذلك بصحيح . بل الخبر عنه هو : ﴿ **إلى الناس** ﴾ والأذان بمعنى : الإيذان وهو الإعلام ، كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء ، ومعنى قوله : ﴿ **إلى الناس**﴾ التعميم فى هذا ، أى أنه إيذان من اللّه إلى كافة الناس غير مختص بقوم دون قوم ، فهذه الجملة متضمنة للإخبار بوجوب الإعلام لجميع الناس ، والجملة الأولى متضمنة للإخبار بالبراءة إلى المعاهدين خاصة ، و ﴿ **يوم الحج** ﴾ ظرف لقوله : ﴿ **وأذان** ﴾ ، ووصفه بالأكبر لأنه يجتمع فيه الناس، أو لكون معظم أفعال الحج فيه .

وقد اختلف العلماء فى تعيين هذا اليوم المذكور فى الآية ، فذهب جمع ، منهم على بن أبى طالب وابن مسعود وابن أبى أوفى والمغيرة بن شعبة ومجاهد أنه يوم النحر ، ورجحه ابن جرير(١) . وذهب آخرون ، منهم عمر وابن عباس وطاوس أنه يوم عرفة . والأوّل أرجح ؛ لأن النبى ﷺ أمر من بعثه لإبلاغ هذا إلى المشركين أن يبلغهم يوم النحر(٢) . قوله : ﴿ **أن اللّه برىء من المشركين ورسوله** ﴾ قرئ بفتح « أن » على تقدير : بأن الله برىء من المشركين ، فحذفت الباء تخفيفا . وقرئ بكسرها ؛ لأن فى الإيذان معنى القول ، وارتفاع ﴿ **رسوله** ﴾ على أنه معطوف على موضع اسم « أن » ، أو على الضمير فى ﴿ **برىء** ﴾ ، أو على أنه مبتدأ وخبره محذوف، والتقدير : ورسوله برىء منهم . وقرأ الحسن وغيره : « ورسوله » بالنصب عطفا على لفظ اسم ﴿ **أن** ﴾ . وقرئ: « ورسوله » بالجرّ على أن الواو للقسم ، روى ذلك عن الحسن ، وهى قراءة ضعيفة جدا ، إذ لا معنى للقسم برسول الله ﷺ ها هنا مع ما ثبت من النهى عن الحلف بغير الله ، وقيل : أنه مجرور على الجوار .

قوله : ﴿ **فإن تبتم** ﴾ أى من الكفر ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ، قيل : وفائدة

---

(١) ابن جرير ١٠/ ٥٠ والقرطبى ٤/٢٩٠٨ .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :« بعثنى أبو بكر رضى الله عنه فى تلك الحجة فى مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى ألا يحج بعد العام مشرك . . . » إلى آخر الحديث . أخرجه البخارى فى التفسير (٤٦٥٦ ، ٤٦٥٧) .

هذا الالتفات زيادة التهديد ، والضمير فى قوله : ﴿ **فهو** ﴾ راجع إلى التوبة المفهومة من تبتم ﴿ **خير لكم** ﴾ مما أنتم فيه من الكفر ﴿**وإن توليتم** ﴾ أى أعرضتم عن التوبة وبقيتم على الكفر ﴿ **فاعلموا أنكم غير معجزى اللّه** ﴾ أى غير فائتين عليه،بل هو مدرككم فمجازيكم بأعمالكم . قوله : ﴿ **وبشر الذين كفروا بعذاب أليم** ﴾ هذا تهكم بهم ، وفيه من التهديد ما لا يخفى .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **براءة من اللّه ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ إلى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد قبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج ، ثم قال : إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحب أن أحجّ حتى لا يكون ذلك،فأرسل أبا بكر وعليا فطافا فى الناس بذى المجاز،وبأمكنتهم التى كانوا يبيعون بها، أو بالموسم كله ، فآذنوا أصحاب العهد أن يأمنوا أربعة أشهر، وهى : الأشهر الحرم المنسلخات المتواليات ، عشرون من آخر ذى الحجة إلى عشر تخلو من ربيع الآخر ، ثم لا عهد لهم وآذن الناس كلهم بالقتال إلى أن يموتوا (١) . وأخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد المسند ، وأبو الشيخ وابن مردويه عن علىّ قال : لما نزلت عشر آيات من براءة على (٢) النبىّ ﷺ دعا أبا بكر ليقرأها على أهل مكة ، ثم دعانى فقال لى : « أدرك أبا بكر ، فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه فاقرأه على أهل مكة » ، فلحقته فأخذت الكتاب منه ، ورجع أبوبكر وقال : يا رسول الله ، نزل فىّ شىء ؟ قال : « لا ، ولكن جبريل جاءنى فقال : لن يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك»(٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه ، وأبو الشيخ وابن مردويه من حديث أنس نحوه (٤) . وأخرج ابن مردويه من حديث سعد بن أبى وقاص نحوه أيضا .

وأخرج أحمد والنسائى وابن المنذر وابن مردويه عن أبى هريرة قال : كنت مع علىّ حين بعثه رسول اللّه ﷺ إلى أهل مكة ببراءة ، فكنا ننادى أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول اللّه ﷺ عهد فإن أجله وأمده إلى أربعة أشهر فإذا مضت الأربعة أشهر فإن اللّه برىء من المشركين ورسوله،ولا يحجّ هذا البيت بعد العام مشرك. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : بعثنى أبوبكر فى تلك الحجة فى مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى : ألا يحجّ بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ثم أردف النبى ﷺ علىّ بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة فأذن على فى يوم النحر ببراءة : ألا

---

(١) ابن جرير ١٠/ ٤٤ .
(٢) فى المطبوعة : «عن » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٣) ابن كثير فى تفسيره ٣/ ٣٥٩ ، ٣٦٠ وقال: « هذا إسناد ضعيف ، وليس المراد أن أبا بكر رضى الله عنه رجع من فوره بل بعد قضائه للمناسك التى أمره عليها رسول الله ﷺ كما جاء ذلك مبينًا فى رواية أخرى » ، وقال الهيثمى فى المجمع٧/ ٣٢:« رواه عبد الله بن أحمد وفيه محمد بن جابر السحيمى وهو ضعيف وقد وثق » .
(٤) الترمذى فى التفسير مختصرًا (٣٠٩٠) وقال : «حسن غريب » .

يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان [١]. وأخرج الترمذى وحسنه، وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر وأمره أن ينادى بهؤلاء الكلمات ، ثم أتبعه عليا وأمره أن ينادى بهؤلاء الكلمات ، فانطلقا فحجا ، فقام علىّ فى أيام التشريق فنادى : إن الله برىء من المشركين ورسوله فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ، ولا يحجنّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا مؤمن ؛ فكان علىّ ينادى ، فإذا أعيا قام أبو بكر ينادى بها [٢] . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وصححه ، وابن المنذر والنحاس ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن زيد بن تبيع [٣] قال : سألت عليا بأى شىء بعثت مع أبى بكر فى الحج ؟ قال : بعثت بأربع : لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يجتمع مؤمن وكافر بالمسجد الحرام بعد عامهم هذا ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدّته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر [٤] .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **براءة من اللّه ورسوله** ﴾ الآية قال : حدّ اللّه للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون فيها حيث شاؤوا ، وحدّ أجل من ليس له عهد انسلاخ الأربعة الأشهر الحرم من يوم النحر إلى انسلاخ المحرّم خمسين ليلة ، فإذا انسلخ الأشهر الحرم أمره أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا الإسلام ونقض ما سمى لهم من العهد والميثاق،وأذهب الشرط الأوّل ﴿ **إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام** ﴾ يعنى : أهل مكة . وأخرج النحاس عنه نحو هذا ، وقال : ولم يعاهد رسول اللّه ﷺ بعد هذا أحدا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم والنحاس عن الزهرى ﴿ **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ قال : نزلت فى شوال فهى الأربعة أشهر : شوّال ، وذو القعدة ، وذو الحجة والمحرّم[٥] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **وأذان من الله ورسوله** ﴾ قال : هو إعلام من اللّه ورسوله .

وأخرج الترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن علىّ قال : سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحجّ الأكبر فقال : يوم النحر[٦] . وأخرجه ابن أبى شيبة والترمذى وأبو الشيخ

(١) أحمد ٢/ ٢٩٩ والبخارى فى الصلاة (٣٦٩) ومسلم فى الحج (١٣٤٧/ ٤٣٥) وأبو داود فى المناسك (١٩٤٦) والنسائى فى المناسك ٥/ ٢٣٤ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٠٩١) وقال : « حسن غريب » وصححه الحاكم ٣/ ٥٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٣) كذا ، والصواب : « زيد بن يُثَيعْ » كما هو فى الترمذى والحاكم والبيهقى فى الدلائل .

(٤) الترمذى فى التفسير (٣٠٩٢) وقال : « حديث حسن » ، وصححه الحاكم ٣/ ٥٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٩٧ .

(٥) ابن جرير ١٠/ ٤٤ ، ٤٥ .

(٦) الترمذى فى التفسير (٣٠٨٨) .

عنه من قوله . وأخرج أبو داود والنسائى، والحاكم وصححه عن عبد اللّه بن قرط قال : قال رسول الله ﷺ : « أعظم الأيام عند اللّه يوم النحر ثم يوم القرّ » (١) . وأخرج ابن مردويه عن ابن أبى أوفى عن النبى ﷺ أنه قال : « يوم الأضحى هذا يوم الحج الأكبر». وأخرج البخارى تعليقا وأبو داود وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية، عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات فى الحجة التى حج فقال : « أىّ يوم هذا ؟ » قالوا : يوم النحر ، قال : « هذا يوم الحج الأكبر» (٢) . وأخرج البخارى ومسلم وأبوداود والنسائى وابن مردويه عن أبى هريرة قال : بعثنى أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى ألا يحجّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ويوم الحج الأكبر : يوم النحر ، والحج الأكبر : الحجّ ؛ وإنما قيل الأكبر : من أجل قول الناس الحجّ الأصغر ، فنبذ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام فلم يحجّ عام حجة الوداع التى حجّ فيها رسول الله ﷺ مشرك ، وأنزل اللّه فى العام الذى نبذ فيه أبو بكر إلى المشركين ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ﴾ (٣) الآية [ التوبة : ٢٨ ] .

وأخرج الطبرانى عن سمرة بن جندب . أن رسول الله ﷺ قال زمن الفتح : « إن هذا عام الحج الأكبر » ، قال : « اجتمع حجّ المسلمين وحجّ المشركين فى ثلاثة أيام متتابعات ، واجتمع النصارى واليهود فى ثلاثة أيام متتابعات ؛ فاجتمع حجّ المسلمين والمشركين والنصارى واليهود فى ستة أيام متتابعات ، ولم يجتمع منذ خلق السموات والأرض كذلك قبل العام ، ولا يجتمع بعد العام حتى تقوم الساعة » (٤) . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن أنه سئل عن يوم الحج الأكبر فقال : مالكم وللحج الأكبر ؟ ذاك عام حجّ فيه أبوبكر استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس ، واجتمع فيه المسلمون والمشركون فلذلك سمى الحج الأكبر ، ووافق عيد اليهود والنصارى . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال : الحجّ الأكبر اليوم الثانى من يوم النحر ، ألم تر أن الإمام يخطب فيه . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن المسور بن مخرمة ، أن رسول الله ﷺ قال يوم عرفة : « هذا يوم الحجّ الأكبر » . وأخرج ابن سعد وابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال : الحج الأكبر يوم عرفة . وأخرج ابن جرير عن أبى الصهباء البكرى قال : سألت علىّ ابن أبى طالب عن يوم الحج الأكبر فقال : يوم عرفة . وأخرج أبو عبيدة وابن المنذر وابن أبى

---

(١) أبو داود فى المناسك (١٧٦٥) وصححه الحاكم ٤/ ٢٢١ ووافقه الذهبى ،والقر: هو اليوم الذى يلى يوم النحر .

(٢) البخارى فى الحج (١٧٤٢) وأبو داود فى المناسك (١٩٤٥) وابن ماجه فى المناسك (٣٠٥٨) وابن جرير ١٠/ ٥٢، ٥٣ وأبو نعيم فى الحلية ٨/ ٢٧٤ .

(٣) البخارى فى الحج (١٦٢٢) وفى الجزية (٣١٧٧) ومسلم فى الحج (١٣٤٧/ ٤٣٥) وأبو داود فى المناسك (١٩٤٦) والنسائى فى المناسك ٥/ ٢٣٤ .

(٤) الطبرانى (٧٠٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ١٨١ : « رواه البزار وفيه يوسف بن خالد السمتى وهو ضعيف » .

حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن يوم عرفة يوم الحج الأكبر . وأخرج ابن جرير عن الزبير نحوه .

ولا يخفاك أن الأحاديث الواردة فى كون يوم النحر : هو يوم الحج الأكبر ، هى ثابتة فى الصحيحين وغيرهم من طرق ، فلا تقوى لمعارضتها هذه الروايات المصرحة بأنه يوم عرفة . وأخرج ابن أبى شيبة عن الشعبى أنه سئل : هذا الحج الأكبر ، فما الحج الأصغر ؟ قال : عمرة فى رمضان . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن إسحاق قال : سألت عبد الله بن شداد عن الحج الأكبر فقال : الحج الأكبر يوم النحر ، والحج الأصغر : العمرة . وأخرج ابن أبى شيبة عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن مسعود قال : سئل سفيان بن عيينة عن البشارة تكون فى المكروه فقال : ألم تسمع قوله : ﴿ **وبشر الذين كفروا بعذاب أليم** ﴾ .

**﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ (٦) ﴾** .

الاستثناء بقوله : ﴿ **إلا الذين عاهدتم** ﴾ قال الزجاج : إنه يعود إلى قوله : ﴿ **براءة** ﴾ والتقدير : براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين من المشركين إلا الذين لم ينقضوا العهد منهم . وقال فى الكشاف : إنه مستثنى من قوله : ﴿**فسيحوا**﴾ والتقدير : فقولوا لهم : فسيحوا إلا الذين عاهدتم ثم لم ينقصوكم فأتموا إليهم عهدهم . قال : والاستثناء بمعنى الاستدراك كأنه قيل بعد أن أمروا فى الناكثين : ولكن الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم(١) . وقد اعترض عليه بأنه قد تخلل الفاصل بين المستثنى والمستثنى منه ، وهو ﴿ **وأذان من الله**﴾ إلخ . وأجيب بأن ذلك لا يضرّ لأنه ليس بأجنبى . وقيل : إن الاستثناء من المشركين المذكورين قبله فيكون متصلا وهو ضعيف . قوله : ﴿ **ثم لم ينقصوكم شيئا** ﴾ أى لم يقع منهم أىّ نقص ، وإن كان يسيرا ، وقرأ عكرمة وعطاء بن يسار : « ينقضوكم » بالضاد المعجمة ، أى لم ينقضوا عهدكم ، وفيه دليل على أنه كان من أهل العهد من خاس بعهده ، ومنهم من ثبت عليه ، فأذن الله سبحانه لنبيه ﷺ بنقض عهد من نقض ، وبالوفاء لمن لم ينقض إلى مدّته ﴿ **ولم يظاهروا عليكم أحدا** ﴾ المظاهرة : المعاونة ، أى لم يعاونوا

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

عليكم أحدا من أعدائكم ﴿**فأتموا إليهم عهدهم**﴾ أى أدّوا إليهم عهدهم تاما غير ناقص ﴿**إلى مدتهم**﴾ التى عاهدتموهم إليها وإن كانت أكثر من أربعة أشهر ، ولا تعاملوهم معاملة الماكثين من القتال بعد مضى المدّة المذكورة سابقا ، وهى أربعة أشهر أو خمسون يوما على الخلاف السابق .

قوله : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ انسلاخ الشهر : تكامله جزءا فجزءا إلى أن ينقضى كانسلاخ الجلد عما يحويه ، شبه خروج المتزمن عن زمانه بانفصال المتمكن عن مكانه ، وأصله الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده . فاستعير لانقضاء الأشهر ، يقال : سلخت الشهر تسلخه سلخا وسلوخا بمعنى : خرجت منه ، ومنه قول الشاعر :

إذا ما سلخت الشهر أهللت مثله كفى قاتلا سلخى الشهور وإهلالى

ويقال : سلخت المرأة درعها : نزعته ، وفى التنزيل : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ [ يس : ٣٧ ] .

واختلف العلماء فى تعيين الأشهر الحرم المذكورة هاهنا ، فقيل : هى الأشهر الحرم المعروفة التى هى ذو القعدة، وذو الحجة ، ومحرّم ، ورجب : ثلاثة سرد ، وواحد فرد . ومعنى الآية على هذا وجوب الإمساك عن قتال من لا عهد له من المشركين فى هذه الأشهر الحرم. وقد وقع النداء والنبذ إلى المشركين بعهدهم يوم النحر ، فكان الباقى من الأشهر الحرم التى هى الثلاثة المسرودة خمسين يوما تنقضى بانقضاء شهر المحرم فأمرهم اللّه بقتل المشركين حيث يوجدون ، وبه قال جماعة من أهل العلم منهم الضحاك والباقر . وروى عن ابن عباس واختاره ابن جرير . وقيل : المراد بها شهور العهد المشار إليها بقوله : ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدّتهم** ﴾ وسميت حرما؛لأن اللّه سبحانه حرّم على المسلمين فيها دماء المشركين والتعرض لهم، وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم منهم مجاهد وابن إسحاق وابن زيد وعمرو بن شعيب . وقيل : هى الأشهر المذكورة فى قوله : ﴿ **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر**﴾ . وقد روى ذلك عن ابن عباس وجماعة ، ورجحه ابن كثير ، وحكاه عن مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وقتادة والسدّى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وسيأتى بيان حكم القتال فى الأشهر الحرم الدائرة فى كل سنة فى هذه السورة إن شاء اللّه.ومعنى:﴿ **حيث وجدتموهم** ﴾: فى أى مكان وجدتموهم من حلّ أو حرم . ومعنى ﴿ **خذوهم** ﴾ : الأسر فإن الأخيذ هو الأسير . ومعنى الحصر : منعهم من التصرّف فى بلاد المسلمين إلا بإذن منهم ، والمرصد : الموضع الذى يرقب فيه العدوّ ، يقال : رصدت فلانا أرصده ، أى رقبته ، أى اقعدوا لهم فى المواضع التى ترتقبونهم فيها . قال عامر بن الطفيل :

ولقد علمت وما أخالك عالما أن المنية للفتى بالمرصد

وقال النابغة :

أعاذل إن الجهل من لذة الفتى وإن المنايا للنفوس بمرصد

و﴿ كل ﴾ فى ﴿ كل مرصد ﴾ : منتصب على الظرفية وهو اختيار الزجاج ؛ وقيل هو منتصب بنزع الخافض، أى فى كل مرصد ، وخطأ أبو علىّ الفارسى الزجاج فى جعله ظرفا . وهذه الآية المتضمنة للأمر بقتل المشركين عند انسلاخ الأشهر الحرم عامة لكل مشرك لا يخرج عنها إلا من خصته السنة ، وهو المرأة والصبىّ والعاجز الذى لايقاتل ، وكذلك يخصص منها أهل الكتاب الذين يعطون الجزية على فرض تناول لفظ المشركين لهم ، وهذه الآية نسخت كل آية فيها ذكر الإعراض عن المشركين والصبر على أذاهم . وقال الضحاك وعطاء والسدّى : هى منسوخة بقوله : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ [ محمد : ٤ ] . وأن الأسير لا يقتل صبرا بل يمن عليه أويفادى ، وقال مجاهد وقتادة : بل هى ناسخة لقوله : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ وأنه لا يجوز فى الأسارى من المشركين إلا القتل . وقال ابن زيد : الآيتان محكمتان . قال القرطبى : وهو الصحيح لأن المنّ والقتل والفداء لم تزل من حكم رسول الله ﷺ فيهم من أوّل حرب جاء بهم وهو يوم بدر (١) . قوله: ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أى تابوا عن الشرك الذى هو سبب القتل وحققوا التوبة بفعل ما هو من أعظم أركان الإسلام ، وهو إقامة الصلاة ، وهذا الركن اكتفى به عن ذكر ما يتعلق بالأبدان من العبادات لكونه رأسها ، واكتفى بالركن الآخر المالى ، وهو إيتاء الزكاة عن كل ما يتعلق بالأموال من العبادات لأنه أعظمها ﴿ فخلوا سبيلهم ﴾ أى اتركوهم وشأنهم فلا تأسروهم ولا تحصروهم ولا تقتلوهم ﴿ إن اللّه غفور ﴾ لهم ﴿ رحيم ﴾ بهم .

قوله : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره ﴾ ، يقال : استجرت فلانا ، أى طلبت أن يكون جارا،أى محاميا ومحافظا من أن يظلمنى ظالم ، أو يتعرّض لى متعرّض.و ﴿ أحد ﴾ مرتفع بفعل مقدّر يفسره المذكور بعده ، أى وإن استجارك أحد استجارك ، وكرهوا الجمع بين المفسر والمفسر . والمعنى : وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرت بقتالهم فأجره ، أى كن جارا له مؤمنا محاميا ﴿ حتى يسمع كلام اللّه ﴾ منك ويتدبره حق تدبره ، ويقف على حقيقة ما تدعوا إليه ﴿ ثم أبلغه مأمنه ﴾ أى إلى الدار التى يأمن فيها بعد أن يسمع كلام اللّه إن لم يسلم ، ثم بعد أن تبلغه مأمنه قاتله فقد خرج من جوارك ورجع إلى ما كان عليه من إباحة دمه ، ووجوب قتله حيث يوجد ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم من الأمر بالإجارة

---

(١) القرطبى ٤/ ٢٩١٢ .

وما بعده ﴿ **بأنهم قوم لايعلمون** ﴾ أى بسبب فقدانهم للعلم النافع المميز بين الخير والشر فى الحال والمآل .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا الذين عاهدتم** ﴾ قال : هم قريش . وأخرج أيضا عن قتادة قال: هم مشركو قريش الذين عاهدهم نبىّ اللّه زمن الحديبية ، وكان بقى من مدتهم أربعة أشهر بعد يوم النحر ، فأمر نبيه أن يوفى بعهدهم هذا إلى مدتهم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن عباد بن جعفر فى قوله : ﴿ **إلا الذين عاهدتم** ﴾ قال : هم بنو جذيمة بن عامر من بنى بكر بن كنانة . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم** ﴾ قال : كان بقى لبنى مذحج وخزاعة عهد ، فهو الذى قال اللّه : ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدّتهم** ﴾ . وأخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله : ﴿ **إلا الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ قال : هؤلاء بنو ضمرة وبنو مدلج من بنى كنانة كانوا حلفاء للنبى ﷺ فى غزوة العُشَيْرَة من بطن ينبع ﴿ **ثم لم ينقصوكم شيئا** ﴾ ثم لم ينقصوا عهدكم بغدر ﴿ **ولم يظاهروا عليكم أحدا** ﴾ قال: لم يظاهروا عدوّكم عليكم ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدّتهم** ﴾ يقول : أجلهم الذى شرطتم لهم ﴿ **إن اللّه يحب المتقين** ﴾ يقول: الذين يتقون اللّه فيما حرّم عليهم فيوفون بالعهد . قال : فلم يعاهد النبى ﷺ بعد هؤلاء الآيات أحدا .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم** ﴾ قال : هى الأربعة : عشرون من ذى الحجة والمحرّم ، وصفر ، وشهر ربيع الأوّل ، وعشر من ربيع الآخر. قلت : مراد السدّى أن هذه الأشهر تسمى حرما لكون تأمين المعاهدين فيها يستلزم تحريم القتال ، لا أنها الأشهرالحرم المعروفة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى الآية قال : هى عشر من ذى القعدة وذو الحجة والمحرم ، سبعون ليلة . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : هى الأربعة الأشهر التى قال : ﴿**فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ . وأخرج ابن المنذر عن قتادة نحو قول السدّى السابق . وأخرج أبو داود فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ ثم نسخ واستثنى . فقال : ﴿**فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم** ﴾ ، وقال : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام اللّه** ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره** ﴾ يقول: من جاءك واستمع ما تقول ، واستمع ما أنزل إليك ، فهو آمن حين يأتيك فيسمع كلام اللّه حتى يبلغ مأمنه من حيث جاء . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله :

﴿ ثم أبلغه مأمنه ﴾ قال : إن لم يوافقه ما يقص عليه ويخبر به فأبلغه مأمنه ، وهذا ليس بمنسوخ . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ حتى يسمع كلام اللّه ﴾ أى كتاب اللّه . وأخرج أبوالشيخ عن سعيد بن أبى عروبة قال : كان الرجل يجىء إذا سمع كتاب اللّه وأقرّ به وأسلم فذاك الذى دعى إليه ، وإن أنكر ولم يقرّ به ردّ مأمنه ، ثم نسخ ذلك ، فقال : ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ [ التوبة : ٣٦ ] .

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ كيف يكون للمشركين عهد عند اللّه وعند رسوله ﴾ : الاستفهام هنا للتعجب المتضمن للإنكار، وعهد : اسم يكون ، وفى خبره ثلاثة أوجه : الأول : أنه كيف ، وقدم للاستفهام ؛ والثانى : للمشركين ، ﴿وعند ﴾ على هذين : ظرف للعهد ، أو ليكون ، أو صفة للعهد ؛ والثالث : أن الخبر عند اللّه ، وفى الآية إضمار، والمعنى : كيف يكون للمشركين عهد عند الله يأمنون به من عذابه . وقيل : معنى الآية : محال أن يثبت لهؤلاء عهد وهم أضداد لكم مضمرون للغدر فلا يطمعوا فى ذلك ولا يحدّثوا به أنفسهم ، ثم استدرك ، فقال : ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ﴾ أى لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ولم ينقضوا ولم ينكثوا فلا تقاتلوهم ، فما داموا مستقيمين لكم على العهد الذى بينكم وبينهم ﴿فاستقيموا لهم ﴾ قيل : هم بنو بكر . وقيل : بنو كنانة وبنو ضمرة ، وفى « ما » وجهان: أحدهما : أنها مصدرية زمانية ، والثانى : أنها شرطية ، وفى قوله : ﴿ إن اللّه يحبّ المتقين ﴾ إشارة إلى أن الوفاء بالعهد والاستقامة عليه من أعمال المتقين ، فيكون تعليلا للأمر بالاستقامة .

قوله : ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم ﴾ أعاد الاستفهام التعجيبى للتأكيد والتقرير ، والتقدير : كيف يكون لهم عهد عند اللّه وعند رسوله ؟ والحال أنهم إن يظهروا عليكم بالغلبة لكم ﴿ لا يرقبوا ﴾ أى لا يراعوا فيكم ﴿إلا ﴾ أى عهدا ﴿ولا ذمة ﴾. قال فى الصحاح : الإلّ : العهد والقرابة : ومنه قول حسان :

لعمرك أن إلك من قريش ... كإلّ السقب من رئل النعام

قال الزجاج : الإل عندى على ما توجبه اللغة يدور على معنى الحدة ، ومنه الإلة للحربة ، ومنه أذن مؤللة ، أى محددة، ومنه قولة طرفة بن العبد يصف أذنى ناقته بالحدة والانتصاب :

مؤللتان يعرف العتق منهما كسامعتى شاة بحومل مفرد

قال أبو عبيدة : الإلّ : العهد ، والذمة والنديم . وقال الأزهرى :هو اسم للّه بالعبرانية ، وأصله من الأليل ، وهو البريق، يقال : ألّ لونه يولّ إلا ، أى صفا ولمع . والذمة: العهد ، وجمعها: ذمم ،فمن فسر الإلّ بالعهد كان التكريرللتأكيد مع اختلاف اللفظين.وقال أبو عبيدة : الذمة: التذمم.وقال أبو عبيدة: الذمة: الأمان كما فى قوله ﷺ : « ويسعى بذمتهم أدناهم » (١) وروى عن أبى عبيدة أيضا أن الذمة ما يتذمم به ، أى ما يجتنب فيه الذّم. قوله : ﴿ **يرضونكم بأفواههم** ﴾ أى يقولون بألسنتهم ما فيه مجاملة ومحاسنة لكم طلبا لمرضاتكم وتطييب قلوبكم، وقلوبهم تأبى ذلك وتخالفه وتودّ ما فيه مساءتكم ومضرتكم ، كما يفعله أهل النفاق وذوو الوجهين ؛ ثم حكم عليهم بالفسق ، وهو التمرّد والتجرى ، والخروج عن الحق لنقضهم العهود ، وعدم مراعاتهم للعقود ، ثم وصفهم بقوله : ﴿ **اشتروا بآيات اللّه ثمنا قليلا** ﴾ أى استبدلوا بآيات القرآن التى من جملتها ما فيه الأمر بالوفاء بالعهود ثمنا قليلا حقيرا ، وهو ما آثروه من حطام الدنيا ﴿ **فصدّوا عن سبيله** ﴾ أى فعدلوا وأعرضوا عن سبيل الحق ، أو صرفوا غيرهم عنه .

قوله : ﴿ **لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة** ﴾ قال النحاس : ليس هذا تكريرًا ، ولكن الأوّل لجميع المشركين ، والثانى: لليهود خاصة ، والدليل على هذا : ﴿ **اشتروا بآيات اللّه ثمنا قليلا** ﴾ يعنى : اليهود . وقيل : هذا فيه مراعاة لحقوق المؤمنين على الإطلاق ، وفى الأوّل المراعاة لحقوق طائفة من المؤمنين خاصة : ﴿ **وأولئك هم المعتدون** ﴾ أى المجاوزون للحلال إلى الحرام بنقض العهد ، أو البالغون فى الشرّ والتمرد إلى الغاية القصوى : ﴿ **فإن تابوا** ﴾ عن الشرك والتزموا أحكام الإسلام ﴿ **فإخوانكم** ﴾ أى فهم إخوانكم ﴿ **فى الدين** ﴾ أى فى دين الإسلام ﴿ **ونفصل الآيات** ﴾ أى نبينها ونوضحها ﴿ **لقوم يعلمون** ﴾ بما فيها من الأحكام ويفهمونه ، وخص أهل العلم لأنهم المنتفعون بها، والمراد بالآيات : ما مرّ من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين على اختلاف أنواعهم .

وقد أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام** ﴾ قال: قريش. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل قال : كان النبى ﷺ عاهد أناسا من بنى ضمرة بن بكر وكنانة

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم فى الحج (١٣٧٠/٤٦٧) عن إبراهيم التيمى عن أبيه قال : خطبنا على بن أبى طالب فقال ، وذكره بطوله ، وذكره البخارى أيضا فى الفرائض (٦٧٥٥) وأبو داود فى المناسك (٢٠٣٤)

خاصة ، عاهدهم عند المسجد الحرام ، وجعل مدتهم أربعة أشهر ، وهم الذين ذكر الله ﴿ **إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم** ﴾ يقول : ما وفوا لكم بالعهد ففوا لهم. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: هم بنو جذيمة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام** ﴾ قال: هو يوم الحديبية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا ولا ذمة** ﴾ قال : الإلّ: القرابة، والذمة: العهد . وأخرج الفريابى وأبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : الإلّ: اللّه عزّ وجلّ . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة مثله .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **اشتروا بآيات اللّه ثمنا قليلا** ﴾ قال : أبوسفيان بن حرب أطعم حلفاءه وترك حلفاء محمد ﷺ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **فإن تابوا** ﴾ الآية يقول : إن تركوا اللات والعزّى وشهدوا أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه فإخوانكم فى الدين . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : حرّمت هذه الآية قتال أو دماء أهل الصلاة (١).

﴿ **وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾** ﴾ .

قوله : ﴿ **وإن نكثوا** ﴾ معطوف على ﴿ **فإن تابوا** ﴾ والنكث : النقض ، وأصله نقض الخيط بعد إبرامه ، ثم استعمل فى كل نقض ، ومنه نقض الأيمان والعهود على طريق الاستعارة . ومعنى : ﴿ **من بعد عهدهم** ﴾ أى من بعد أن عاهدوكم . والمعنى : أن الكفار إن نكثوا العهود التى عاهدوا بها المسلمين ، ووثقوا بها وضموا إلى ذلك الطعن فى دين الإسلام ، والقدح فيه فقد وجب على المسلمين قتالهم . وأئمة الكفر : جمع إمام ، والمراد : صناديد المشركين ، وأهل الرئاسة فيهم على العموم . وقرأ حمزة :« أإمة » وأكثر النحويين يذهب إلى أن هذا لحن ؛ لأن فيه الجمع بين همزتين فى كلمة واحدة . وقرأ الجمهور بجعل الهمزة الثانية

(١) ابن جرير ١٠/ ٦٢ .

بين بين ، أى بين مخرج الهمزة والياء . وقرئ بإخلاص الياء وهو لحن، كما قال الزمخشرى[١]. قوله : ﴿ إنهم لا أيمان لهم ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها ، والأيمان : جمع يمين فى قراءة الجمهور . وقرأ ابن عامر : « لا إيمان لهم » بكسر الهمزة . والمعنى على قراءة الجمهور : أن أيمان الكافرين وإن كانت فى الصورة يمينا فهى فى الحقيقة ليست بيمين . وعلى القراءة الثانية : أن هؤلاء الناكثين للأيمان الطاعنين فى الدين ليسوا من أهل الإيمان بالله حتى يستحقوا العصمة لدمائهم وأموالهم ، فقتالهم واجب على المسلمين . قوله :﴿ لعلهم ينتهون ﴾ أى عن كفرهم ونكثهم وطعنهم فى دين الإسلام . والمعنى : أن قتالهم يكون إلى الغاية هى الانتهاء عن ذلك .

وقد استدل بهذه الآية على أن الذمىّ إذا طعن فى الدين لا يقتل حتى ينكث العهد كما قال أبو حنيفة ، لأن اللّه إنما أمر بقتلهم بشرطين : أحدهما : نقض العهد ، والثانى : الطعن فى الدين . وذهب مالك والشافعى وغيرهما إلى أنه إذا طعن فى الدين قتل ؛ لأنه ينتقض عهده بذلك ، قالوا : وكذلك إذا حصل من الذمىّ مجرد النكث فقط من دون طعن فى الدين فإنه يقتل .

قوله : ﴿ ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ﴾ الهمزة الداخلة على حرف النفى للاستفهام التوبيخى مع مايستفاد منها من التحضيض على القتال والمبالغة فى تحقيقه ، والمعنى : أن من كان حاله كحال هؤلاء من نقض العهد وإخراج الرسول من مكة والبداءة بالقتال ، فهو حقيق بأن لا يترك قتاله ، وأن يوبخ من فرط فى ذلك . ثم زاد فى التوبيخ فقال : ﴿أتخشونهم﴾ فإن هذا الاستفهام للتوبيخ والتقريع ، أى تخشون أن ينالكم منهم مكروه فتتركون قتالهم لهذه الخشية، ثم بين ما يجب أن يكون الأمر عليه ، فقال : ﴿ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ أى هو أحق بالخشية منكم ، فإنه الضارّ النافع بالحقيقة ، ومن خشيتكم له أن تقاتلوا من أمركم بقتاله ، فإن قضية الإيمان توجب ذلك عليكم. ثم زاد فى تأكيد الأمر بالقتال فقال : ﴿ قاتلوهم ﴾ ورتب على هذا الأمر فوائد : الأولى : تعذيب اللّه للكفار بأيدى المؤمنين بالقتل والأسر . والثانية : إخزاؤهم ، قيل : بالأسر . وقيل : بما نزل بهم من الذل والهوان . والثالثة : نصر المسلمين عليهم وغلبتهم لهم . والرابعة : أن اللّه يشفى بالقتال صدور قوم مؤمنين ممن لم يشهد القتال ولا حضره . والخامسة : أنه سبحانه يذهب بالقتال غيظ قلوب المؤمنين الذى نالهم بسبب ما وقع من الكفار من الأمور الجالبة للغيظ وحرج الصدر .

فإن قيل : شفاء الصدور وإذهاب غيظ القلوب كلاهما بمعنى فيكون تكرارا . قيل فى الجواب : إن القلب أخص من الصدر . وقيل : إن شفاء الصدر إشارة إلى الوعد بالفتح ، ولا

(١) الكشاف ٢/ ٢٥١ .

ريب أن الانتظار لنجاز الوعد مع الثقة به فيهما شفاء للصدر، وأن إذهاب غيظ القلوب إشارة إلى وقوع الفتح ، وقد وقعت للمؤمنين ولله الحمد هذه الأمور كلها ، ثم قال: ﴿ **ويتوب الله على من يشاء** ﴾ وهو ابتداء كلام يتضمن الإخبار بما سيكون ، وهو أن بعض الكافرين يتوب عن كفره كما وقع من بعض أهل مكة يوم الفتح ، فإنهم أسلموا وحسن إسلامهم ، وهذا على قراءة الرفع فى ﴿ **يتوب**﴾، وهى قراءة الجمهور . وقرئ بنصب ﴿ **يتوب** ﴾ بإضمار أن ، ودخول التوبة فى جملة ما أجيب به الأمر من طريق المعنى . قرأ بذلك ابن أبى إسحاق وعيسى الثقفى والأعرج . فإن قيل : كيف تقع التوبة جزاء للمقاتلة ؟ وأجيب بأن القتال قد يكون سببا لها إذا كانت من جهة الكفار ، وأما إذا كانت من جهة المسلمين فوجهه : أن النصر والظفر من جهة الله يكون سببا لخلوص النية والتوبة عن الذنوب .

قوله : ﴿ **أم حسبتم أن تتركوا** ﴾ أم هذه هى المنقطعة التى بمعنى بل ، والهمزة والاستفهام للتوبيخ ، وحرف الإضراب للدلالة على الانتقال من كلام إلى آخر ، والمعنى : كيف يقع الحسبان منكم بأن تتركوا على ما أنتم عليه ، وقوله : ﴿ **أن تتركوا** ﴾ فى موضع مفعولى الحسبان عند سيبويه . وقال المبرد : إنه حذف الثانى ، والتقدير : أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تبتلوا بما يظهر به المؤمن والمنافق الظهور الذى يستحق به الثواب والعقاب ، وجملة ﴿ **ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم** ﴾ : فى محل نصب على الحال ، والمراد من نفى العلم نفى المعلوم ، والمعنى : كيف تحسبون أنكم تتركوا ولما يتبين المخلص منكم فى جهاده من غير المخلص ، وجملة :﴿ **ولم يتخذوا**﴾ معطوفة على جاهدوا داخلة معه فى حكم النفى واقعة فى حيز الصلة ، والوليجة : من الولوج : وهو الدخول ، ولج يلج ولوجا : إذا دخل ، فالوليجة: الدخيلة . قال أبو عبيدة : كل شىء أدخلته فى شىء ليس منه فهو وليجة . قال أبان ابن تغلب :

فبئس الوليجة للهاربيـ ـن والمعتدين وأهل الريب

وقال الفراء : الوليجة: البطانة من المشركين ، والمعنى واحد ، أى كيف تتخذون دخيلة أو بطانة من المشركين تفشون إليهم بأسراركم وتعلمونهم أموركم من دون الله ﴿ **والله خبير بما تعملون** ﴾ أى بجميع أعمالكم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإن نكثوا أيمانهم** ﴾ قال : عهدهم . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : يقول الله لنبيه : وإن نكثوا العهد الذى بينك وبينهم فقاتلهم إنهم أئمة الكفر. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **أئمة الكفر** ﴾ قال : أبو سفيان ابن حرب وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وسهيل بن عمرو، وهم الذين

نكثوا عهد الله وهموا بإخراج الرسول من مكة [١] . وأخرج ابن عساكر عن مالك بن أنس مثله. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿**فقاتلوا أئمة الكفر**﴾ قال : رؤوس قريش . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر قال : أبو سفيان بن حرب منهم. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنهم الديلم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة أنهم ذكروا عنده هذه الآية فقال : ما قوتل أهل هذه الآية بعد [٢] . وأخرج ابن مردويه عن علىّ نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى وابن مردويه عن حذيفة قال : ما بقى من أهل هذه الآية إلا ثلاثة ، ولا من المنافقين إلا أربعة ، فقال أعرابىّ : إنكم أصحاب محمد تخبروننا لا ندرى فما بال هؤلاء الذين ينقرون بيوتنا ويسترقون أعلاقنا ، قال : أولئك الفساق ، أجل لم يبق منهم إلا أربعة،أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده[٣] . والأولى أن الآية عامة فى كل رؤساء الكفار من غير تقييد بزمن معين أو بطائفة معينة اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومما يفيد ذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير أنه كان فى عهد أبى بكر الصديق إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال : إنكم ستجدون قوما مجوّفة رؤوسهم ، فاضربوا مقاعد الشيطان منهم بالسيوف ، فوالله لأن أقتل رجلا منهم أحبّ إلىّ من أن أقتل سبعين من غيرهم ، وذلك بأن الله يقول : ﴿ **فقاتلوا أئمة الكفر** ﴾ . وأخرج أبو الشيخ عن حذيفة : ﴿ **لا أيمان لهم**﴾ قال : لا عهود لهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عمار مثله .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ألا تـقاتلون قوما نكثوا أيمانهم** ﴾ قال : قتال قريش حلفاء النبىّ ﷺ وهمهم بإخراج الرسول ، زعموا أن ذلك عام عمرة النبى ﷺ فى العام التابع للحديبية ، نكثت قريش العهد عهد الحديبية ، وجعلوا فى أنفسهم إذا دخلوا مكة أن يخرجوا منها ؛ فذلك همهم بإخراجه ، فلم تتابعهم خزاعة على ذلك ، فلما خرج النبىّ ﷺ من مكة قالت قريش لخزاعة :عميتمونا عن إخراجه ، فقاتلوهم فقتلوا منهم رجالا .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : نزلت فى خزاعة ﴿ **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم** ﴾ الآية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة نحوه أيضا وقد ساق القصة ابن إسحاق فى سيرته ، وأورد فيها النظم الذى أرسلته خزاعة إلى النبىّ ﷺ ، وأوله :

يارب إنى ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا

---

(١) ابن جرير ١٠/٦٢ .
(٢) ابن أبى شيبة فى الفتن ( ١٨٩٩٥ ، ١٩٢٣٩ ) .
(٣) ابن أبى شيبة فى الفتن (١٩٢٣٨) والبخارى فى التفسير (٤٦٥٨) .

وأخرج القصة البيهقى فى الدلائل [(١)] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : الوليجة: البطانة من غير دينهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال : ﴿ وليجة ﴾ أى خيانة .

**﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) ﴾ .**

قرأ الجمهور : ﴿ يعمروا ﴾ بفتح حرف المضارعة وضم الميم من عمر يعمر . وقرأ ابن السميفع بضم حرف المضارعة من أعمر يعمر ، أى يجعلون لها من يعمرها . وقرأ ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن وسهم ويعقوب « مسجد الله » بالإفراد . وقرأ الباقون ﴿ مساجد ﴾ بالجمع ، واختارها أبو عبيدة . قال النحاس : لأنها أعمّ ، والخاص يدخل تحت العام ، وقد يحتمل أن يراد بالجمع المسجد الحرام خاصة ، وهذا جائز فيما كان من أسماء الأجناس كما يقال : فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرسا قال : وقد أجمعوا على الجمع فى قوله: ﴿ إنما يعمر مساجد الله ﴾ وروى عن الحسن البصرى : أنه تعالى إنما قال : ﴿ مساجد ﴾ والمراد : المسجد الحرام لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها ، فعامره كعامر جميع المساجد . قال الفراء : العرب قد تضع الواحد مكان الجمع كقولهم : فلان كثير الدرهم وبالعكس كقولهم : فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس إلا ملكا واحدا . والمراد بالعمارة إما المعنى الحقيقى أو المعنى المجازى ، وهو ملازمته والتعبد فيه ، وكلاهما ليس للمشركين ، أما الأول : فلأنه يستلزم المنة على المسلمين بعمارة مساجدهم، وأما الثانى : فلكون الكفار لا عبادة لهم مع نهيهم عن قربان المسجد الحرام ، ومعنى : ﴿ ما كان للمشركين ﴾ ما صح لهم وما استقام أن يفعلوا ذلك ، و ﴿ شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ حال ، أى ما كان لهم ذلك حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر بإظهار ما هو كفر من نصب الأوثان والعبادة لها وجعلها آلهة ، فإن هذا شهادة منهم على أنفسهم بالكفر وإن أبوا

(١) البيهقى فى الدلائل ٥/٧٠٦ .

ذلك بألسنتهم ، فكيف يجمعون بين أمرين متنافيين : عمارة المساجد التى هى من شأن المؤمنين ، والشهادة على أنفسهم بالكفر التى ليست من شأن من يتقرّب إلى اللّه بعمارة مساجده . وقيل : المراد بهذه الشهادة قولهم فى طوافهم : لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك . وقيل : شهادتهم على أنفسهم بالكفر: أن اليهودى يقول هو يهودى ، والنصرانى يقول هو نصرانى ، والصابئ يقول هو صابئ ، والمشرك يقول هو مشرك :﴿ **أولئك حبطت أعمالهم** ﴾ التى يفتخرون بها ويظنون أنها من أعمال الخير ، أى بطلت ولم يبق لها أثر ﴿ **وفى النار هم خالدون** ﴾ وفى هذه الجملة الإسمية مع تقديم الظرف المتعلق بالخبر تأكيد لمضمونها .

ثم بين سبحانه من هو حقيق بعمارة المساجد فقال : ﴿ **إنما يعمر مساجد اللّه من آمن باللّه واليوم الآخر** ﴾ وفعل ما هو من لوازم الإيمان من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿ **ولم يخش** ﴾ أحدا ﴿ **إلا اللّه** ﴾ فمن كان جامعًا بين هذه الأوصاف فهو الحقيق بعمارة المساجد ، لا من كان خاليًا منها أو من بعضها ، واقتصر على ذكر الصلاة والزكاة والخشية تنبيها بما هو من أعظم أمور الدين على ما عداه مما افترضه اللّه على عباده ؛ لأن كل ذلك من لوازم الإيمان ، وقد تقدّم الكلام فى وجه جمع المساجد وفى بيان ماهية العمارة ، ومن جوّز الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل العمارة هنا عليهما ، وفى قوله : ﴿ **فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾ حسم لأطماع الكفار فى الانتفاع بأعمالهم ، فإن الموصوفين بتلك الصفات إذا كان اهتداؤهم مرجوًا فقط ، فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشىء من تلك الصفات . وقيل : «عسى » من الله واجبة . وقيل : هى بمعنى خليق ، أى فخليق أن يكونوا من المهتدين . وقيل : إن الرجاء راجع إلى العبادة .

والاستفهام فى :﴿ **أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام** ﴾ للإنكار ، والسقاية والعمارة مصدران كالسعاية والحماية ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : أجعلتم أصحاب سقاية الحاج وعمارة المسجد ، أو أهلهما ﴿**كمن آمن** ﴾ حتى يتفق الموضوع والمحمول أو يكون التقدير فى الخبر ، أى جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كعمل من آمن أو كإيمان من آمن . وقرأ ابن أبى وجرة السعدى وابن الزبير وسعيد بن جبير :« أجعلتم سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام » جمع ساق وعامر ، وعلى هذه القراءة لا يحتاج إلى تقدير محذوف ، والمعنى : أن الله أنكر عليهم التسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الأعمال التى صورتها صورة الخير ، وإن لم ينتفعوا بها وبين إيمان المؤمنين وجهادهم فى سبيل اللّه ، وقد كان المشركون يفتخرون بالسقاية والعمارة ويفضلونهما على عمل المسلمين ، فأنكر اللّه عليهم ذلك ، ثم صرّح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين وتفاوتهم وعدم استوائهم فقال : ﴿ **لا يستوون عند اللّه** ﴾ أى لا تساوى تلك الطائفة الكافرة الساقية للحجيج العامرة للمسجد الحرام هذه الطائفة المؤمنة باللّه واليوم الآخر المجاهدة فى سبيله ، ودلّ سبحانه بنفى الاستواء على نفى الفضيلة التى يدّعيها المشركون ، أى

إذا لم تبلغ أعمال الكفار إلى أن تكون مساوية لأعمال المسلمين ، فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون ، ثم حكم عليهم بالظلم وأنهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك لا يستحقون الهداية من اللّه سبحانه ، وفى هذا إشارة إلى الفريق المفضول .

ثم صرّح بالفريق الفاضل فقال : ﴿ **الذين آمنوا** ﴾ إلى آخره ، أى الجامعون بين الإيمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس ﴿ **أعظم درجة عند اللّه** ﴾ وأحق بما لديه من الخير من تلك الطائفة المشركة المفتخرة بأعمالها المحيطة الباطلة . وفى قوله : ﴿ **عند اللّه** ﴾ تشريف عظيم للمؤمنين ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المتصفين بالصفات المذكورة ﴿**هم الفائزون** ﴾ أى المختصون بالفوز عند اللّه . ثم فسر الفوز بقوله : ﴿ **يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم** ﴾ والتنكير فى الرحمة والرضوان والجنات للتعظيم ، والمعنى : أنها فوق وصف الواصفين وتصوّر المتصوّرين . والنعيم المقيم : الدائم المستمر الذى لا يفارق صاحبه ، وذكر الأبد بعد الخلود تأكيد له ، وجملة : ﴿**إن اللّه عنده أجر عظيم**﴾ مؤكدة لما قبلها مع تضمنها للتعليل ، أى أعطاهم اللّه سبحانه هذه الأجور العظيمة لكون الأجر الذى عنده عظيم يهب منه ما يشاء لمن يشاء ، وهو ذو الفضل العظيم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله:﴿ **ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد اللّه** ﴾ وقال : ﴿ **إنما يعمر مساجد اللّه من آمن باللّه واليوم الآخر** ﴾ فنفى المشركين من المسجد ﴿ **من آمن باللّه** ﴾ يقول : من وحد اللّه وآمن بما أنزل اللّه ﴿ **وأقام الصلاة** ﴾ يعنى : الصلوات الخمس ﴿ **ولم يخش إلا اللّه** ﴾ . يقول : لم يعبد إلا اللّه ﴿ **فعسى أولئك** ﴾ يقول : أولئك هم المهتدون كقوله لنبيه ﷺ : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ [ الإسراء : ٧٩ ] . يقول : إن ربك سيبعثك مقاما محمودا ، وهى الشفاعة، وكل « عسى » فى القرآن فهى واجبة .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والدارمى،والترمذى وحسنه،وابن ماجة وابن المنذر، والبيهقى فى سننه عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه ﷺ:« إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان ، قال اللّه تعالى : ﴿ **إنما يعمر مساجد اللّه من آمن باللّه واليوم الآخر** ﴾ » (١) . وقد وردت أحاديث كثيرة فى استحباب ملازمة المساجد وعمارتها والتردّد إليها للطاعات .

وأخرج مسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان ، والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول اللّه ﷺ فى نفر من أصحابه فقال رجل منهم : ما أبالى أن لا أعمل للّه عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ، وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام ، وقال آخر : بل جهاد فى سبيل اللّه خير مما قلتم ،

(١) أحمد ٣/ ٦٨ ، ٧٦ والدارمى فى الصلاة ١/ ٢٧٨ والترمذى فى الإيمان (٢٦١٧) وقال : « غريب حسن » وفى التفسير (٣٠٩٣) إلا أنه قال: «يتعاهد الصلاة » وابن ماجة فى المساجد والجماعات (٨٠٢) والبيهقى ٣/ ٦٦ .

فزجرهم عمر ، وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فأستفتيه فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله: ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج** ﴾ إلى قوله: ﴿**لا يهدى القوم الظالمين**﴾[(١)].

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج** ﴾ الآية ، وذلك أن المشركين قالوا: عمارة بيت الله والقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد ، فكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره ، فذكر الله سبحانه استكبارهم وإعراضهم ، فقال لأهل الحرم من المشركين ﴿ قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون . مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾ [ المؤمنون : ٦٦ ، ٦٧ ] يعنى : أنهم كانوا يستكبرون بالحرم ، وقال : ﴿ به سامرا ﴾ : كانوا به يسمرون ويهجرون بالقرآن والنبى ﷺ ، فخير الإيمان بالله والجهاد مع نبىّ الله على عمران المشركين البيت وقيامهم على السعاية ولم يكن لينفعهم عند الله مع الشرك به ، وإن كانوا يعمرون بيته ويخدمونه قال الله : ﴿ **لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ يعنى : الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسماهم ظالمين بشركهم فلم تغن عنهم العمارة شيئا ، وفى إسناده العوفى وهو ضعيف .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قال العباس حين أسر يوم بدر : إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج ونفكّ العانى ، فأنزل الله : ﴿**أجعلتم سقاية الحاج**﴾ الآية ، يعنى : أن ذلك كان فى الشرك فلا أقبل ما كان فى الشرك [(٢)]. وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : نزلت فى علىّ بن أبى طالب والعباس. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الشعبى قال : تفاخر علىّ والعباس وشيبة فى السقاية والحجابة فأنزل الله : ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج**﴾ الآية[(٣)] ، وقد روى معنى هذا من طرق .

**﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾** .

(١) أحمد ٤/٢٦٩ ومسلم فى الإمارة (١٨٧٩/١١١) وابن جرير ١٠/٦٧ وابن حبان فى الجهاد (٤٥٧٢) .
(٢) ابن جرير ١٠/٦٧ . (٣) الواحدى ص١٣٩ .

الخطاب للمؤمنين كافة ، وهو حكم باق إلى يوم القيامة يدل على قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين ، وقالت طائفة من أهل العلم : إنها نزلت فى الحضّ على الهجرة ورفض بلاد الكفر ، فيكون الخطاب لمن كان من المؤمنين بمكة وغيرها من بلاد العرب ، نهوا بأن يوالوا الآباء والإخوة فيكونون لهم تبعا فى سكنى بلاد (١) الكفر إن استحبوا ،أى أحبوا ،كما يقال : استجاب ، بمعنى أجاب ، وهو فى الأصل : طلب المحبة ، وقد تقدّم تحقيق المقام فى سورة المائدة فى قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾ [ المائدة :٥١ ] ، ثم حكم على من يتولى من استحب الكفر على الإيمان من الآباء والإخوان بالظلم . فدل ذلك على أن تولى من كان كذلك من أعظم الذنوب وأشدّها،ثم أمر اللّه رسوله ﷺ بأن يقول لهم: ﴿ **إن كان آباؤكم** ﴾ إلى آخره . والعشيرة : الجماعة التى ترجع إلى عقد واحد ، وعشيرة الرجل : قرابته الأدنون ، وهم الذين يعاشرونه ، وهى اسم جمع . وقرأ أبو بكر وحماد : « عشيراتكم » بالجمع . قال الأخفش : لا تكاد العرب تجمع عشيرة على عشيرات ، وإنما يجمعونها على عشائر . وقرأ الحسن : « عشائركم » . وقرأ الباقون : ﴿**عشيرتكم** ﴾ . والاقتراف : الاكتساب ، وأصله : اقتطاع الشيء من مكانه ، والتركيب يدور على الدنو ، والكاسب يدنى الشيء من نفسه ويدخله تحت ملكه ، والتجارة الأمتعة التى يشترونها ليربحوا فيها . والكساد عدم النفاق لفوات وقت بيعها بالهجرة ومفارقة الأوطان . ومن غرائب التفسير ما روى عن ابن المبارك أنه قال : إن المراد بالتجارة فى هذه الآية البنات والأخوات إذا كسدن فى البيت لا يجدن لهنّ خاطبا ، واستشهد لذلك بقول الشاعر :

كسدن من الفقر فى قومهنّ ... وقد زادهن مقامى كسادا

وهذا البيت وإن كان فيه إطلاق الكساد على عدم وجود الخاطب لهنّ فليس فيه جواز إطلاق اسم التجارة عليهنّ . والمراد بالمساكن التى يرضونها : المنازل التى تعجبهم وتميل إليها أنفسهم ويرون الإقامة فيها أحبّ إليهم من المهاجرة إلى اللّه ورسوله ، و ﴿ **أحب** ﴾ خبر ﴿ **كان** ﴾ أى كانت هذه الأشياء المذكورة فى الآية أحب إليكم من اللّه ورسوله ومن الجهاد فى سبيل اللّه ﴿ **فتربصوا** ﴾ أى انتظروا ﴿ **حتى يأتى اللّه بأمره** ﴾ فيكم وما تقتضيه مشيئته من عقوبتكم ، وقيل المراد بأمر اللّه سبحانه : القتال . وقيل : فتح مكة وفيه بعد ، فقد روى أن هذه السورة نزلت بعد الفتح . وفى هذا وعيد شديد ويؤكده إبهام الأمر وعدم التصريح به لتذهب أنفسهم كل مذهب وتتردّد بين أنواع العقوبات ﴿ **واللّه لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ أى الخارجين عن طاعته ، النافرين عن امتثال أوامره ونواهيه .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : أمروا بالهجرة فقال العباس بن عبدالمطلب:أنا أسقى الحاج ، وقال طلحة أخو بنى عبد الدار :

(١) فى المطبوعة :« البلاد » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

أنا أحجب الكعبة فلا نهاجر ، فأنزلت ﴿لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى هذه الآية قال : هى الهجرة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ اقترفتموها ﴾ قال : أصبتموها. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ حتى يأتى اللّه بأمره ﴾ قال: بالفتح فى أمره بالهجرة ، هذا كله قبل فتح مكة . وأخرج البيهقى من حديث عبد اللّه بن شوذب قال : جعل أبو أبى عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله ، فأنزل اللّه ﴿ لا تجد قوما يؤمنون باللّه واليوم الآخر ﴾ الآية [المجادلة : ٢٢ ] ، وهى تؤكد معنى هذه الآية ، وقد تقدم بيان حكم الهجرة فى سورة النساء .

**﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧) ﴾ .**

المواطن : جمع موطن ، ومواطن الحرب : مقاماتها ، والمواطن التى نصر اللّه المسلمين فيها هى : يوم بدر ومابعده من المواطن التى نصر اللّه المسلمين على الكفار فيها قبل يوم حنين . ﴿ ويوم حنين ﴾ معطوف على ﴿مواطن﴾ بتقدير مضاف: إما فى الأول وتقديره : فى أيام مواطن ، أو فى الثانى وتقديره : وموطن يوم حنين ، لئلا يعطف الزمان على المكان، ورد بأنه لا استبعاد فى عطف الزمان على المكان فلا يحتاج إلى تقدير . وقيل : إن ﴿ يوم حنين ﴾ منصوب بفعل مقدر معطوف على ﴿ نصركم ﴾ أى ونصركم يوم حنين ، ورجح هذا صاحب الكشاف ، قال : وموجب ذلك أن قوله : ﴿ إذ أعجبتكم ﴾ بدل من ﴿ يوم حنين ﴾ ، فلو جعلت ناصبة هذا الظاهر لم يصح ؛ لأن كثرتهم لم تعجبهم فى جميع تلك المواطن ، ولم يكونوا كثيرا فى جميعها ، ورد بأن العطف لا يجب فيه تشارك المتعاطفين فى جميع ما ثبت للمعطوف ، كما تقول : جاءنى زيد وعمرو مع قومه . أو فى ثيابه أو على فرسه ، وقيل : إن ﴿ إذ أعجبتكم كثرتكم ﴾ ليس ببدل من ﴿ يوم حنين ﴾ بل منصوب بفعل مقدر، أى اذكروا إذ أعجبتكم كثرتكم . وحنين : واد بين مكة والطائف [١] ، وانصرف على أنه اسم للمكان ، ومن العرب من يمنعه على أنه اسم للبقعة ، ومنه قول الشاعر :

نصروا نبيهم وشدوا أزره بحنين يوم تواكل الأبطال

---

(١) راجع الكشاف ٢/ ٢٥٩ .

وإنما أعجب من أعجب المسلمين بكثرتهم لأنهم كانوا اثنى عشر ألفا . وقيل : أحد عشر ألفا . وقيل : ستة عشر ألفا فقال بعضهم : لن نغلب اليوم من قلة ، فوكلوا إلى هذه الكلمة فلم تغن الكثرة شيئا عنهم ، بل انهزموا ، وثبت رسول الله ﷺ ، وثبت معه طائفة يسيرة ، منهم : عمه العباس وأبو سفيان بن الحارث ، ثم تراجع المسلمون فكان النصر والظفر . والإغناء : إعطاء ما يدفع الحاجة ، أى لم تعطكم الكثرة شيئا يدفع حاجتكم ولم تفدكم . قوله : ﴿ **بما رحبت** ﴾ الرحب بضم الراء : السعة ، والرحب بفتح الراء : المكان الواسع ، والباء : بمعنى : «مع » ، و « ما » مصدرية ، ومحل الجار والمجرور النصب على الحال ، والمعنى : أن الأرض مع كونها واسعة الأطراف ضاقت عليهم بسبب ما حلّ بهم من الخوف والوجل . وقيل : إن الباء بمعنى : « على » أى على رحبها ﴿ **ثم وليتم مدبرين** ﴾ أى انهزمتم حال كونكم مدبرين ، أى مولين أدباركم جاعلين لها إلى جهة عدوكم .

قوله : ﴿ **ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين** ﴾ أى أنزل ما يسكنهم فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين بعد أن ولوا مدبرين . والمراد بالمؤمنين : هم الذين لم ينهزموا . وقيل : الذين انهزموا . والظاهر : جميع من حضر منهم ؛ لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا .

قوله : ﴿ **وأنزل جنودا لم تروها** ﴾ هم الملائكة . وقد اختلف فى عددهم على أقوال : قيل : خمسة آلاف . وقيل : ثمانية آلاف . وقيل : ستة عشر ألفا . وقيل غير ذلك ، وهذا لا يعرف إلا من طريق النبوّة . واختلفوا أيضا هل قاتلت الملائكة فى هذا اليوم أم لا ؟ وقد تقدم أن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر ، وأنهم إنما حضروا فى غير يوم بدر لتقوية قلوب المؤمنين ، وإدخال الرعب فى قلوب المشركين ﴿ **وعذب الذين كفروا** ﴾ بما وقع عليهم من القتل والأسر وأخذ الأموال وسبى الذرية ، والإشارة بقوله : ﴿ **وذلك** ﴾ إلى التعذيب المفهوم من عذب ، وسمى ما حل بهم من العذاب فى هذا اليوم جزاء مع أنه غير كاف بل لابد من عذاب الآخرة مبالغة فى وصف ما وقع عليهم وتعظيمًا له : ﴿ **ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء** ﴾ أى من بعد هذا التعذيب على من يشاء ممن هداه منهم إلى الإسلام ﴿ **والله غفور** ﴾ يغفر لمن أذنب فتاب ﴿ **رحيم** ﴾ بعباده يتفضل عليهم بالمغفرة لما اقترفوه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال: حنين ما بين مكة والطائف ، قاتل نبى الله هوازن وثقيف ، وعلى هوازن مالك بن عوف ، وعلى ثقيف عبد ياليل بن عمرو الثقفى . وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : لما اجتمع أهل مكة وأهل المدينة قالوا : الآن نقاتل حين اجتمعنا ، فكره رسول الله ﷺ ما قالوا وما أعجبهم من كثرتهم ، فالتقوا فهزموا حتى ما يقوم أحد منهم على أحد حتى جعل رسول الله ﷺ ينادى أحياء العرب : « إلىّ إلىّ » ، فوالله ما يعرج عليه أحد حتى أعرى موضعه ، فالتفت إلى الأنصار وهم ناحية فناداهم : « يا أنصار الله وأنصار رسوله ، إلى عباد الله ، أنا رسول الله » فجثوا يبكون وقالوا : يا رسول الله ، ورب

الكعبة إليك والله ؛ فنكسوا رؤوسهم يبكون وقدموا أسيافهم يضربون بين يدى رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليهم (١). وأخرج البيهقى فى الدلائل ، عن الربيع أن رجلا قال يوم حنين : لن نغلب من قلة ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ **ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم** ﴾ قال الربيع : وكانوا اثنى عشر ألفا ، منهم ألفان من أهل مكة (٢) . وأخرج الطبرانى ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال : كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، فولى عنه الناس وبقيت معه فى ثمانين رجلا من المهاجرين والأنصار . فكنا على أقدامنا نحوا من ثمانين قدما ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة ، ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضى قدما ، فقال : «ناولنى كفا من تراب » ، فناولته فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم ترابا ، وولى المشركون أدبارهم . ووقعة حنين مذكورة فى كتب السير والحديث بطولها وتفاصيلها فلا نطول بذلك (٣) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **وأنزل جنودا لم تروها** ﴾ قال : هم الملائكة ﴿ **وعذب الذين كفروا**﴾ قال : قتلهم بالسيف . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : في يوم حنين أمدّ الله رسوله بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، ويومئذ سمى الله الأنصار مؤمنين قال : فأنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين . وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن جبير بن مطعم قال : رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد (٤) الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم ، فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادى ، لم أشك أنها الملائكة ، ولم تكن إلا هزيمة القوم (٥) .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)** ﴾ .

---

(١) ابن إسحاق ٤١/٨٦ .

(٢) البيهقى فى الدلائل ٥/١٢٣ ، ١٢٤ .

(٣) أحمد ١/٤٥٣ ، ٤٥٤ وقال الشيخ شاكر فى تحقيقه للمسند ( ٤٣٣٦) : « إسناده صحيح » والطبرانى (١٠٣٥١) وصححه الحاكم ٢/١١٧ وقال الذهبى : « الحارث وعبد الله ذوا مناكير هذا منها ثم فيه إرسال » والبيهقى فى الدلائل ٥/١٤٢ وقال الهيثمي فى المجمع ٦/١٨٣ « رجال أحمد رجال الصحيح غير الحارث بن حصيرة وهو ثقة » .

(٤) فى المطبوعة : «النجاد » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ومن البيهقى وابن كثير وابن إسحاق . والبجاد : الكساء .

(٥) ابن إسحاق ٤/٩٢ والبيهقى فى الدلائل ٥/١٤٦ وابن كثير فى البداية والنهاية ٤/٣٣٢ .

النجس : مصدر لا يثنى ولا يجمع ، يقال: رجل نجس ، وامرأة نجس ، ورجلان نجس ، وامرأتان نجس ، ورجال نجس، ونساء نجس . ويقال : نجس ونجُس بكسر الجيم وضمها . ويقال : نِجْس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف من المحرك. قيل : لا تستعمل إلا إذا قيل معه رجس . وقيل : ذلك أكثرى لا كلىّ. و﴿ المشركون ﴾ مبتدأ ، وخبره : المصدر ، مبالغة فى وصفهم بذلك حتى كأنهم عين النجاسة ، أو على تقدير مضاف ، أى ذوو نجس ؛ لأن معهم الشرك وهو بمنزلة النجس . وقال قتادة ومعمر وغيرهما : إنهم وصفوا بذلك لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولايتجنبون النجاسات .

وقد استدل بالآية من قال بأن المشرك نجس الذات ، كما ذهب إليه بعض الظاهرية والزيدية، وروى عن الحسن البصرى وهو محكى عن ابن عباس . وذهب الجمهور من السلف والخلف ومنهم أهل المذاهب الأربعة إلى أن الكافر ليس بنجس الذات ؛ لأن اللّه سبحانه أحلّ طعامهم ، وثبت عن النبى ﷺ فى ذلك من فعله وقوله ما يفيد عدم نجاسة ذواتهم ، فأكل فى آنيتهم وشرب منها وتوضأ فيها وأنزلهم فى مسجده .

قوله : ﴿ فلا يقربوا المسجد الحرام ﴾ الفاء للتفريع ، فعدم قربانهم للمسجد الحرام متفرّع على نجاستهم . والمراد بالمسجد الحرام : جميع الحرم ، روى ذلك عن عطاء ، فيمنعون عنده من جميع الحرم ، وذهب غيره من أهل العلم إلى أن المراد المسجد الحرام نفسه فلا يمنع المشرك من دخول سائر الحرم .

وقد اختلف أهل العلم فى دخول المشرك غير المسجد الحرام من المساجد ؛ فذهب أهل المدينة إلى منع كل مشرك عن كل مسجد . وقال الشافعى : الآية عامة فى سائر المشركين خاصة فى المسجد الحرام ، فلا يمنعون من دخول غيره من المساجد . قال ابن العربى : وهذا جمود منه على الظاهر ، لأن قوله تعالى : ﴿ إنما المشركون نجس﴾ تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة، ويجاب عنه بأن هذا القياس مردود بربطه ﷺ لثمامة بن أثال فى مسجده ، وإنزال وفد ثقيف فيه . وروى عن أبى حنيفة مثل قول الشافعى ، وزاد أنه يجوز دخول الذمى سائر المساجد من غير حاجة ، وقيده الشافعى بالحاجة . وقال قتادة : إنه يجوز ذلك للذمى دون المشرك. وروى عن أبى حنيفة أيضا أنه يجوز لهم دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد . ونهى المشركين عن أن يقربوا المسجد الحرام هو نهى المسلمين عن أن يمكنوهم من ذلك ، فهو من باب قولهم : لا أرينك هاهنا .

قوله : ﴿ بعد عامهم هذا ﴾ فيه قولان : أحدهما : أنه سنة تسع ، وهى التى حج فيها أبو بكر على الموسم . والثانى : أنه سنة عشر قاله قتادة ، قال ابن العربى : وهو الصحيح الذى يعطيه مقتضى اللفظ ، ومن العجب أن يقال : إنه سنة تسع ، وهو العام الذى وقع فيه الأذان ، ولو دخل غلام رجل داره يوما فقال له مولاه : لا تدخل هذه الدار بعد يومك لم يكن

المراد اليوم الذى دخل فيه . انتهى . ويجاب عنه بأن الذى يعطيه مقتضى اللفظ هو خلاف ما زعمه ، فإن الإشارة بقوله : ﴿ **بعد عامهم هذا** ﴾ إلى العام المذكور قبل اسم الإشارة وهو عام النداء . وهكذا فى المثال الذى ذكره ، المراد النهى عن دخولها بعد يوم الدخول الذى وقع فيه الخطاب ، والأمر ظاهر لا يخفى ، ولعله أراد تفسير ما بعد المضاف إلى عامهم ولا شك أنه عام عشر ، وأما تفسير العام المشار إليه بهذا ، فلا شك ولا ريب أنه عام تسع ، وعلى هذا يحمل قول قتادة . وقد استدل من قال بأنه يجوز للمشركين دخول المسجد الحرام وغيره من المساجد بهذا القيد ، أعنى : قوله ﴿ **بعد عامهم هذا** ﴾ قائلا : إن النهى مختص بوقت الحج والعمرة فهم ممنوعون عن الحج والعمرة فقط لا عن مطلق الدخول . ويجاب عنه بأن ظاهر النهى عن القربان بعد هذا العام يفيد المنع من القربان فى كل وقت من الأوقات الكائنة بعده ، وتخصيص بعضها بالجواز يحتاج إلى مخصص . قوله : ﴿ **وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم اللّه من فضله** ﴾ العيلة : الفقر ، يقال : عال الرجل يعيل : إذا افتقر، قال الشاعر:

وما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنى متى يعيل

وقرأ علقمة وغيره من أصحاب ابن مسعود « عايلة » وهو مصدر : كالقايلة والعافية والعاقبة ؛ وقيل : معناه : خصلة شاقة ، يقال : عالنى الأمر يعولنى ، أى شقّ علىّ واشتد . وحكى ابن جرير الطبرى أنه يقال : عال يعول: إذا افتقر ، وكان المسلمون لما منعوا المشركين من الموسم وهم كانوا يجلبون إليه الأطعمة والتجارات ، قذف الشيطان فى قلوبهم الخوف من الفقر وقالوا : من أين نعيش ؟ فوعدهم اللّه أن يغنيهم من فضله . قال الضحاك : ففتح اللّه عليهم باب الجزية من أهل الذمة بقوله: ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون باللّه** ﴾ الآية . وقال عكرمة : أغناهم بإدرار المطر والنبات وخصب الأرض ، وأسلمت العرب فحملوا إلى مكة ما أغناهم اللّه به . وقيل : أغناهم بالفىء ، وفائدة التقييد بالمشيئة : التعليم للعباد بأن يقولوا ذلك فى كل ما يتكلمون به مما له تعلق بالزمن المستقبل ، ولئلا يفتروا عن الدعاء والتضرع ﴿ **إن اللّه عليم** ﴾ بأحوالكم ﴿ **حكيم** ﴾ فى إعطائه ومنعه ، ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن .

قوله : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون باللّه** ﴾ الآية ، فيه الأمر بقتال من جمع بين هذه الأوصاف . قال أبو الوفاء بن عقيل: إن قوله : ﴿ **قاتلوا** ﴾ أمر بالعقوبة ، ثم قال : ﴿ **الذين لا يؤمنون باللّه** ﴾ فبين الذنب الذى توجبه العقوبة ، ثم قال : ﴿ **ولا باليوم الآخر** ﴾ فأكد الذنب فى جانب الاعتقاد ، ثم قال : ﴿ **ولا يحرمون ما حرّم اللّه ورسوله** ﴾ فيه زيادة للذنب فى مخالفة الأعمال ، ثم قال : ﴿ **ولا يدينون دين الحق** ﴾ فيه إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة والأنفة عن الاستسلام ، ثم قال : ﴿ **من الذين أوتوا الكتاب** ﴾ تأكيد للحجة عليهم لأنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، ثم قال : ﴿ **حتى يعطوا الجزية** ﴾ فبين الغاية التى تمتد إليها العقوبة. انتهى .

قوله : ﴿ **من الذين أوتوا الكتاب** ﴾ بيان للموصول مع ما فى حيزه ، وهم أهل التوراة والإنجيل . قوله : ﴿ **حتى يعطوا الجزية عن يد** ﴾ الجزية وزنها فعلة من جزى يجزى : إذا كافأ عما أسدى إليه ، فكأنهم أعطوها جزاء عما منحوا من الأمن . وقيل : سميت جزية ؛ لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه ، أى يقضوه ، وهى فى الشرع : ما يعطيه المعاهد على عهده ،و ﴿ **عن يد** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والمعنى: عن يد مواتية غير ممتنعة . وقيل : معناه : يعطونها بأيديهم غير مستنيبين فيها أحدا . وقيل : معناه: نقد غير نسيئة . وقيل : عن قهر . وقيل : معناه : عن إنعام منكم عليهم ؛ لأن أخذها منهم نوع من أنواع الإنعام عليهم . وقيل : معناه : مذمومون . وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم الشافعى وأحمد وأبو حنيفة وأصحابه والثورى وأبو ثور إلى أنها لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب . وقال الأوزاعــى ومالك : إن الجزية تأخذ من جميع أجناس الكفرة كائنا من كان ، ويدخل فى أهل الكتاب على القول الأوّل المجوس . قال ابن المنذر : لا أعلم خلافا فى أن الجزية تؤخذ منهم .

واختلف أهل العلم فى مقدار الجزية ، فقال عطاء : لا مقدار لها ، وإنما تؤخذ على ما صولحوا عليه ، وبه قال يحيى بن آدم وأبو عبيد وابن جرير إلا أنه قال : أقلها دينار وأكثرها لا حد له . وقال الشافعى : دينار على الغنى والفقير من الأحرار البالغين لا ينقص منه شىء ، وبه قال أبو ثور . قال الشافعى : وإن صولحوا على أكثر من دينار جاز ، وإذا زادوا وطابت بذلك أنفسهم قبل منهم . وقال مالك : إنها أربعة دنانير على أهل الذهب . وأربعون درهما على أهل الورق ، الغنى والفقير سواء ، ولو كان مجوسيا لا يزيد ولا ينقص . وقال أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل : اثنا عشر وأربعة وعشرون وثمانية وأربعون . والكلام فى الجزية مقررّ فى مواطنه ، والحق من هذه الأقوال قد قررناه فى شرحنا للمنتقى وغيره من مؤلفاتنا .

قوله : ﴿ **وهم صاغرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والصغار : الذل ، والمعنى : إن الذمى يعطى الجزية حال كونه صاغرا ، قيل : وهو أن يأتى بها بنفسه ماشيا غير راكب ويسلمها وهو قائم ، والمتسلم قاعد . وبالجملة ينبغى للقابض للجزية أن يجعل المسلم لها حال قبضها صاغرا ذليلا .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله فى قوله: ﴿ **إنما المشركون نجس** ﴾ الآية قال: إلا أن يكون عبدا أو أحدا من أهل الذمة . وقد روى مرفوعا من وجه آخر أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ :« لا يدخل مسجدنا هذا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمكم » . قال ابن كثير : تفرد به أحمد مرفوعا . والموقوف أصح [1] . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن

(١) أحمد ٣/ ٣٣٩ ، ٣٩٢ ، وقال ابن كثير ٣/ ٣٨٢ : «تفرد به أحمد مرفوعا والموقوف أصح إسنادًا ».

أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام يتجرون به ، فلما نهوا عن أن يأتوا البيت ، قال المسلمون : فمن أين لنا الطعام ؟ فأنزل الله : ﴿ **وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء** ﴾ قال : فأنزل الله عليهم المطر ، وكثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم . وأخرج ابن مردويه عنه قال فأغناهم الله من فضله وأمرهم بقتال أهل الكتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: ﴿ **وإن خفتم عيلة** ﴾ قال : الفاقة . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **فسوف يغنيكم الله من فضله** ﴾ قال: بالجزية . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن الضحاك مثله . وأخرج نحوه عبد الرزاق عن قتادة . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **إنما المشركون نجس** ﴾ قال: قذر .وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا قال : من صافحهم فليتوضأ . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من صافح مشركا فليتوضأ أو ليغسل كفيه » .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى سننه ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله** ﴾ قال : نزلت هذه الآية حين أمر محمد ﷺ وأصحابه بغزوة تبوك (١) . وأخرج ابن المنذر عن ابن شهاب قال : نزلت فى كفار قريش والعرب : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ ، وأنزلت فى أهل الكتاب : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله** ﴾ الآية إلى قوله:﴿ **حتى يعطوا الجزية** ﴾ فكان أول من أعطى الجزية أهل نجران . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله** ﴾ يعنى : الذين لا يصدقون بتوحيد الله ﴿**ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله** ﴾ يعنى : الخمر والحرير ﴿ **ولا يدينون دين الحق** ﴾ يعنى : دين الإسلام ﴿ **من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ يعنى: مذللون . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **عن يد** ﴾ قال : عن قهر . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان بن عيينة فى قوله : ﴿ **عن يد** ﴾ قال : من يده ولا يبعث بها غيره . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى سنان فى قوله : ﴿ **عن يد** ﴾ قال :عن قدرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله ﴿ **وهم صاغرون** ﴾ قال: يمشون بها متلتلين . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : يلكزون (٢) وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سلمان فى الآية قال : غير محمودين .

﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ**

---

(١) ابن جرير : ١٠/ ٧٧ والبيهقى ٩/ ١٨٥ .

(٢) لكزه : ضربه بيده على صدره . وقيل : على جميع البدن . اللسان ٥/ ٤٠٦.

**عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)** ﴾ .

قولـه: ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن اللّه** ﴾ كلام مبتـدأ لبيان شرك أهل الكتابين و ﴿ **عزيـر**﴾ مبتدأ و ﴿ **ابن اللّه** ﴾ خبره ، وقد قرأ عاصم والكسائى ﴿ **عزير**﴾ بالتنوين ،وقرأ الباقون بترك التنوين لاجتماع العجمة والعلمية فيه. ومن قرأ بالتنوين فقد جعله عربيا. وقيل: إن سقوط التنوين ليس لكونه ممتنعا بل لاجتماع الساكنين ، ومنه قراءة من قرأ: ﴿ قل هو اللّه أحد. اللّه الصمد ﴾ [ الإخلاص: ١، ٢ ] قال أبو على الفارسى: وهو كثير فى الشعر ، وأنشد ابن جرير الطبرى :

لتجدينى بالأمير برا وبالقناة لامرا مكرا إذا غطيت السلمى فرا

وظاهر قوله : ﴿ **وقالت اليهود** ﴾ أن هذه المقالة لجميعهم . وقيل : هو لفظ خرج على العموم ، ومعناه : الخصوص لأنه لم يقل ذلك إلا البعض منهم . وقال النقاش : لم يبق يهودى يقولها بل قد انقرضوا . وقيل : إنه قال ذلك للنبى ﷺ جماعة منهم ، فنزلت الآية متضمنة لحكاية ذلك عن اليهود لأن قول بعضهم لازم لجميعهم . قوله : ﴿ **وقالت النصارى المسيح ابن اللّه** ﴾ قالوا هذا لما رأوا من إحيائه الموتى مع كونه من غير أب ، فكان ذلك سببا لهذه المقالة ، والأولى أن يقال: إنهم قالوا هذه المقالة لكون فى الإنجيل وصفه تارة بابن اللّه وتارة بابن الإنسان ، كما رأينا ذلك فى مواضع متعددة من الإنجيل ، ولم يفهموا أن ذلك لقصد التشريف والتكريم ، أو لم يظهر أن ذلك من تحريف سلفهم لغرض من الأغراض الفاسدة . قيل : وهذه المقالة إنما هى لبعض النصارى لا لكلهم .

قوله: ﴿ **ذلك قولهم بأفواههم** ﴾ الإشارة إلى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة . ووجه قوله بأفواههم مع العلم بأن القول لا يكون إلا الفم: بأن هذا القول لما كان ساذجا ليس فيه بيان ولا عضده برهان كان مجرد دعوى، لا معنى تحتها فارغة صادرة عنهم صدور المهملات التى ليس فيها إلا كونها خارجة من الأفواه، غير مفيدة لفائدة يعتد بها. وقيل: إن ذكر الأفواه لقصد التأكيد كما فى: كتبت بيدى ومشيت برجلى ، ومنه قوله تعالى: ﴿ يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ [ البقرة: ٧٩ ]، وقوله: ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ [ الأنعام : ٣٨ ] . وقال بعض أهل العلم إن اللّه سبحانه لم يذكر قولا مقرونا بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولا زورا كقوله: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ﴾ [ آل عمران: ١٦٧ ] وقوله: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ [الكهف: ٥ ] ، وقوله : ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ﴾ ، [ الفتح : ١١].

قوله : ﴿ **يـضاهئون قول الذين كفروا** ﴾ المضاهاة : المشابهة ، قيل : ومنه قول العرب

امرأة ضهياء ، وهى التى لا تحيض لأنها شابهت الرجال . قال أبو على الفارسى : من قال ﴿ يضاهئون ﴾ مأخوذ من قولهم امرأة ضهياء فقوله خطأ ؛ لأن الهمزة فى ضاهأ أصلية ، وفى ضهياء زائدة كحمراء ، وأصله يضاهئون وامرأة ضهياء . ومعنى مضاهاتهم لقول الذين كفروا فيه أقوال لأهل العلم : الأول : أنهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان فى قولهم: واللات والعزى ومناة بنات الله . القول الثانى : أنهم شابهوا قول من يقول من الكافرين : إن الملائكة بنات الله . الثالث : أنهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزيرا ابن الله وأن المسيح ابن الله . قوله : ﴿ قاتلهم الله ﴾ دعاء عليهم بالهلاك ؛ لأن من قاتله الله هلك . وقيل : هو تعجب من شناعة قولهم . وقيل : معنى قاتلهم الله : لعنهم الله ، ومنه قول أبان بن تغلب :

قاتلها الله تلحانى وقد علمت ... أنى لنفسى إفسادى وإصلاحى

وحكى النقاش أن أصل قاتل الله : الدعاء . ثم كثر فى استعمالهم حتى قالوه على التعجب فى الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء . وأنشد الأصمعى :

ياقاتل الله ليلى كيف تعجبنى ... وأخبر الناس أنى لا أباليها

﴿ أنى يؤفكون ﴾ أى كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل .

قوله : ﴿ اتخذوا أحبارهم (١) ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ الأحبار : جمع حبر . وهو الذى يحسن القول . ومنه ثوب محبر . وقيل : جمع حبر بكسر الحاء . قال يونس : لم أسمعه إلا بكسر الحاء . وقال الفراء : الفتح والكسر لغتان. وقال ابن السكيت : الحبر بالكسر: العالم. والحبر بالفتح : العالم. والرهبان : جمع راهب مأخوذ من الرهبة ، وهم علماء النصارى كما أن الأحبار علماء اليهود . ومعنى الآية : أنهم لما أطاعوه فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه كانوا بمنزلة المتخذين لهم أربابا لأنهم أطاعوهم كما تطاع الأرباب . قوله : ﴿ والمسيح ابن مريم ﴾ معطوف على رهبانهم ، أى اتخذه النصارى ربًا معبودًا . وفيه إشارة إلى أن اليهود لم يتخذوا عزيرا (٢) ربا معبودًا .

وفى هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد فى دين الله ، وتأثير ما يقوله الأسلاف على ما فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه ونطقت به كتبه وأنبياؤه ، هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أربابا من دون الله ، للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرموا ما حرموا وحللوا ما حللوا، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة ، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة ؛ والتمرة بالتمرة ، والماء بالماء ؛ فياعباد الله ، ويا أتباع محمد بن عبد الله ، ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانبا ، وعمدتم إلى رجال هم مثلكم فى تعبد الله لهم بهما وطلبه منهم للعمل بما دلا

(١) فى المطبوعة : «أحبار» . (٢) فى المخطوطة : «عزير» والصحيح «عزيرًا» بالنصب .

عليه وأفاده . فعلتم بما جاؤوا به من الآراء التى لم تعمد بعماد الحق ، ولم تعضد بعضد الدين ونصوص الكتاب والسنة ، تنادى بأبلغ نداء وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه ، فأعرتموهما آذانا صما ، وقلوبا غلفا ، وأفهاما مريضة ، وعقولا مهيضة ، وأذهانا كليلة ، وخواطر عليلة ، وأنشدتم بلسان الحال :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فدعوا ـ أرشدكم الله وإياى ـ كتبا كتبها لكم الأموات من أسلافكم ، واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم ومتعبدهم ومتعبدكم ومعبودهم ومعبودكم ، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاؤوكم به من الرأى بأقوال إمامكم وإمامهم وقدوتكم وقدوتهم ، وهو الإمام الأول محمد بن عبد الله ﷺ .

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن فى دينه كمخاطر (١)

اللهم هادى الضال ، مرشد التائه ، موضح السبيل ، اهدنا إلى الحق وأرشدنا إلى الصواب ، وأوضح لنا منهج الهداية.

قوله : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا** ﴾ هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، أى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا ، والحال أنهم ما أمروا إلا بعبادة الله وحده ، أو وما أمر الذين اتخذوهم أربابا من الأحبار والرهبان إلا بذلك، فكيف يصلحون لما أهلوهم له من اتخاذهم أربابا . قوله : ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ صفة ثانية لقوله : ﴿ **إلها** ﴾ : ﴿ **سبحانه عما يشركون** ﴾ أى تنزيها له عن الإشراك فى طاعته وعبادته .

قوله : ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم** ﴾ هذا كلام يتضمن ذكر نوع آخر من أنواع ضلالهم وبعدهم عن الحق وهو ما راموه من إبطال الحق بأقاويلهم الباطلة التى هى مجرد كلمات ساذجة ومجادلات زائفة، وهذا تمثيل لحالهم فى محاولة إبطال الحق ونبوة نبى الصدق ، بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم قد أنارت به الدنيا وانقشعت به الظلمة ليطفئه ويذهب أضواءه ﴿ **ويأبى الله إلا أن يتم نوره** ﴾ أى دينه القويم . وقد قيل : كيف دخلت إلا الاستثنائية على ﴿ **يأبى** ﴾ ، ولا يجوز كرهت أو بغضت إلا زيدا . قال الفراء : إنما دخلت لأن فى الكلام طرفا من الجحد . وقال الزجاج : إن العرب تحذف مع « أبى » . والتقدير : ويأبى الله كل شىء إلا أن يتم نوره . وقال على بن سليمان : إنما جاز هذا فى أبى ، لأنها منع أو امتناع فضارعت النفى . قال النحاس : وهذا أحسن .كما قال الشاعر :

وهل لى أم غيرها إن تركتها أبى الله إلا أن أكون لها ابنا

وقال صاحب الكشاف : إن أبى قد أجرى مجرى لم يرد: أى ولا يريد إلا أن يتم نوره .

---

(١) آبن : يقال : أبن الرجل يأبنه ويأبُنُهُ أبنا أى اتهمه وعابه . اللسان ٣/١٣.

قوله ﴿ **ولوكره الكافرون** ﴾ معطوف على جملة قبله مقدرة ، أى أبى اللّه إلا أن يتم نوره ولو لم يكره الكافرون ذلك ولو كرهوا (١) . ثم أكد هذا بقوله : ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى** ﴾ أى بما يهدى به الناس من البراهين والمعجزات والأحكام التى شرعها اللّه لعباده ﴿ **ودين الحق** ﴾ وهو الإسلام ﴿ **ليظهره** ﴾ أى ليظهر رسوله ، أو دين الحق بما اشتمل عليه من الحجج والبراهين ، وقد وقع ذلك وللّه الحمد ﴿ **ولو كره المشركون** ﴾ الكلام فيه كالكلام فى ﴿ **ولو كره الكافرون** ﴾ كما قدمنا ذلك .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : أتى رسول اللّه ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس بن قيس ومالك ابن الصيف ، فقالوا كيف نتبعك وقد (٢) تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن اللّه ؟ فأنزل اللّه ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن اللّه** ﴾ الآية (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عنه قال : كن نساء بنى إسرائيل يجتمعن بالليل فيصلين ويعتزلن ويذكرن ما فضل اللّه به بنى إسرائيل وما أعطاهم ، ثم سلط عليهم شر خلقه بختنصر ، فحرق التوراة وخرب بيت المقدس ، وعزير يومئذ غلام ، فقال عزير : أو كان هذا ؟ فلحق بالجبال والوحش فجعل يتعبد فيها . وجعل لا يخالط الناس. فإذا هو ذات يوم بامرأة عند قبر وهى تبكى . فقال : يا أمة ، اتقى اللّه واحتسبى واصبرى أما تعلمين أن سبيل الناس إلى الموت ؟ فقالت : يا عزير ، أتنهانى أن أبكى وأنت قد خلفت بنى إسرائيل ولحقت بالجبال والوحش ؟ ثم قالت : إنى لست بامرأة ولكنى الدنيا . وإنه سينبع فى مصلاك عين وتنبت شجرة ، فاشرب من ماء العين وكل من ثمر الشجرة ، فإنه سيأتيك ملكان فاتركهما يصنعان ما أرادا ، فلما كان من الغد نبعت العين ونبتت الشجرة، فشرب من ماء العين وأكل من ثمرة الشجرة ، وجاء ملكان ومعهما قارورة فيها نور فأوجراه ما فيها فألهمه اللّه التوراة ، فجاء فأملاه على الناس ، فعند ذلك قالوا : عزير ابن اللّه . تعالى اللّه عن ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فذكر قصة وفيها: أن عزيرا سأل اللّه بعد ما أنسى بنى إسرائيل التوراة ونسخها من صدورهم أن يرد الذى نسخ من صدره . فبينما هو يصلى نزل نور من اللّه عز وجل فدخل جوفه ، فعاد إليه الذى كان ذهب من جوفه من التوراة . فأذن فى قومه فقال : يا قوم قد آتانى اللّه التوراة وردها إلى .

وأخرج أبو الشيخ عن كعب قال : دعا عزير ربه أن يلقى التوراة كما أنزل على موسى فى قلبه فأنزلها اللّه عليه ، فبعد ذلك قالوا : عزير ابن اللّه . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال: ثلاث أشك فيهن : فلا أدرى عزير كان نبيا أم لا ؟ ولا أدرى ألعن تبع أم لا ؟ قال : ونسيت الثالثة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **يضاهئون** ﴾ قال: يشبهون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **قاتلهم**

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٦٥ . (٢) فى المطبوعة : « وقت » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٣) ابن إسحاق ٢/ ٢١١ وابن جرير ١٠/ ٧٨.

**الله** ﴾ قال : لعنهم الله وكل شىء فى القرآن قتل فهو لعن .

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد ، والترمذى وحسنه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عدى بن حاتم قال : أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ فى سورة براءة ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله** ﴾ فقال : « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم . ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه. وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه» (١). وأخرجه أيضا أحمد وابن جرير(٢) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى سننه عن أبى البخترى قال : سأل رجل حذيفة فقال : أرأيت قوله: ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله** ﴾ أكانوا يعبدونهم ؟ قال : لا ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه (٣) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك قال : أحبارهم : قراؤهم ، ورهبانهم : علماؤهم . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى مثله. وأخرج أيضا عن الفضيل بن عياض قال : الأحبار : العلماء، والرهبان : العباد.

وأخرج أيضا عن السدّى فى قوله : ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم** ﴾ قال : يريدون أن يطفئوا الإسلام بأقوالهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم** ﴾ يقول: يريدون أن يهلك محمد وأصحابه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : هم اليهود والنصارى . وأخرج أبوالشيخ عن السدّى ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى** ﴾ يعنى : بالتوحيد والإسلام والقرآن.

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)** ﴾ .

لما فرغ سبحانه من ذكر حال أتباع الأحبار والرهبان المتخذين لهم أربابا ذكر حال المتبوعين فقال : ﴿ **إن كثيرا من الأحبار** ﴾ إلى آخره ، ومعنى أكلهم لأموال الناس بالباطل : أنهم يأخذونها بالوجوه الباطلة كالرشوة ، وأثبت هذا للكثير منهم ؛ لأن فيهم من لم يتلبس بذلك، بل بقى على ما يوجبه دينه من غير تحريف ولا تبديل ولاميل إلى حطام الدنيا ، ولقد اقتدى بهؤلاء الأحبار والرهبان من علماء الإسلام من لا يأتى عليه الحصر فى كل زمان،فالله المستعان.

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٠٩٥) وقال : « غريب » .　　(٢) ابن جرير ١٠/ ٨٠ .
(٣) البيهقى فى الشعب (٩٣٩٤) وابن جرير ١٠/ ٨١ ، ٨٢ .

قوله : ﴿ **ويصدّون عن سبيل الله** ﴾ أى عن الطريق إليه وهو دين الإسلام ، أو عن ما كان حقا فى شريعتهم قبل نسخها بسبب أكلهم لأموال الناس بالباطل . قوله : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ قيل : هم المتقدّم ذكرهم من الأحبار والرهبان ، وأنهم كانوا يصنعون هذا الصنع . وقيل : هم من يفعل ذلك من المسلمين ، والأولى حمل الآية على عموم اللفظ فهو أوسع من ذلك . وأصل الكنز فى اللغة : الضم والجمع ، ولايختص بالذهب والفضة . قال ابن جرير : الكنز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض فى بطن الأرض كان أو على ظهرها . انتهى . ومنه ناقة كناز ، أى مكتنزة اللحم ، واكتنز الشيء : اجتمع .

واختلف أهل العلم فى المال الذى أديت زكاته هل يسمى كنزا أم لا ؟ فقال قوم: هو كنز ، وقال آخرون : ليس بكنز . ومن القائلين بالقول الأوّل أبو ذر ، وقيده بما فضل عن الحاجة . ومن القائلين بالقول الثانى عمر بن الخطاب وابن عمر وابن عباس وجابر وأبو هريرة وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، وهو الحق لما سيأتى من الأدلة المصرحة بأن ما أديت زكاته فليس بكنز.

قوله : ﴿ **ولا ينفقونها فى سبيل الله** ﴾ اختلف فى وجه إفراد الضمير مع كون المذكور قبله شيئين ، هما : الذهب والفضة ، فقال ابن الأنبارى : إنه قصد إلى الأعمّ الأغلب وهو الفضة قال : ومثله قوله تعالى : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة ﴾ [ البقرة : ٤٥ ] ردّ الكناية إلى الصلاة لأنها أعمّ ، ومثله قوله : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها﴾[الجمعة : ١١ ] أعاد الضمير إلى التجارة ؛ لأنها الأهم . وقيل : إن الضمير راجع إلى الذهب والفضة معطوفة عليه ، والعرب تؤنث الذهب وتذكره . وقيل : إن الضمير راجع إلى الكنوز المدلول عليها بقوله ﴿ **يكنزون** ﴾ . وقيل : إلى الأموال . وقيل : للزكاة . وقيل : إنه اكتفى بضمير أحدهما عن ضمير الآخر مع فهم المعنى . وهو كثير فى كلام العرب ، وأنشد سيبويه :

نحن بما عندنا وأنت بما ... عندك راض والرأى مختلف

ولم يقل : راضون ، ومثله قول الآخر :

رمانى بأمر كنت منه ووالدى ... بريا ومن أجل الطوى رمانى

ولم يقل : بريين ، ومثله قول حسان :

إن شرخ الشباب والشعر الأسـ ... ـود مالم يعاض كان جنونا

ولم يقل : يعاضا . وقيل : إن إفراد الضمير من باب الذهاب إلى المعنى دون اللفظ ؛ لأن كل واحد من الذهب والفضة جملة وافية ، وعدّة كثيرة ، ودنانير ودراهم . فهو كقوله : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ [ الحجرات : ٩ ] . وإنما خص الذهب والفضة بالذكر دون سائر الأموال لكونهما أثمان الأشياء . وغالب ما يكنز وإن كان غيرهما له حكمهما فى

تحريم الكنز . قوله : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ هو خبر الموصول . وهو من باب التهكم بهم كما فى قوله : تحية بينهم ضرب وجيع . وقيل : إن البشارة هى الخبر الذى يتغير له لون البشرة لتأثيره فى القلب ، سواء كان من الفرح أو من الغمّ .

ومعنى ﴿ يوم يحمى عليها فى نار جهنم ﴾ : أن النار توقد عليها وهى ذات حمى وحرّ شديد . ولو قال : يوم تحمى، أى الكنوز لم يعط هذا المعنى . فجعل الإحماء للنار مبالغة . ثم حذف النار وأسند الفعل إلى الجار كما تقول : رفعت القصة إلى الأمير ، فإن لم تذكر القصة قلت : رفع إلى الأمير . وقرأ ابن عامر : « تحمى » بالمثناة الفوقية ، وقرأ أبو حيوة : «فيكوى » بالتحتية . وخص الجباه ، والجنوب والظهور لكون التألم بكيها أشدّ لما فى داخلها من الأعْضاء الشريفة . وقيل : ليكون الكىّ فى الجهات الأربع : من قدّام ، وخلف ، وعن يمين ، وعن يسار . وقيل : لأن الجمال فى الوجه ، والقوّة فى الظهر والجنبين ، والإنسان إنما يطلب المال للجمال والقوّة . وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تكلف . قوله : ﴿ هذا ما كنزتم لأنفسكم ﴾ أى يقال لهم هذا ما كنزتم لأنفسكم ، أى كنزتموه لتنتفعوا به فهذا نفعه على طريقة التهكم والتوبيخ ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ ما : مصدرية أو موصولة، أى ذوقوا وباله، وسوء عاقبته ، وقبح مغبته ، وشؤم فائدته .

وقد أخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ إن كثيرا من الأحبار والرهبان ﴾ يعنى : علماء اليهود والنصارى ﴿ليأكلون أموال الناس بالباطل ﴾ والباطل : كتب كتبوها لم ينزلها الله فأكلوا بها أموال الناس . وذلك قول الله تعالى : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ﴾ [ البقرة : ٧٩ ] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ﴾ قال : هؤلاء الذين لا يؤدّون الزكاة من أموالهم ، وكل مال لا تؤدى زكاته كان على ظهر الأرض أو فى بطنها فهو كنز ، وكل مال أدّيت زكاته فليس بكنز ، كان على ظهر الأرض أو فى بطنها . وأخرجه عنه ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ من وجه آخر . وأخرج مالك وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر نحوه . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه مرفوعا . وأخرج ابن عدّى والخطيب عن جابر نحوه مرفوعا أيضا . وأخرج ابن أبى شيبة عنه موقوفا . وأخرج أحمد فى الزهد والبخارى وابن ماجة وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عمر فى الآية قال : إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت الزكاة جعلها الله طهرة للأموال ، ثم قال : ما أبالى لو كان عندى مثل أحد ذهبا أعلم عدده وأزكيه وأعمل فيه بطاعات الله[١] . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو الشيخ عن عمربن الخطاب قال : ليس بكنز ما أدّى زكاته . وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن أمّ سلمة مرفوعا نحوه[٢] .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٦١) وابن ماجة فى الزكاة (١٧٨٧) والبيهقى ٤/ ٨٢ .
(٢) البيهقى ٤/ ٨٣ .

وأخرج ابن أبى شيبة فى مسنده وأبو داود وأبو يعلى وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ كبر ذلك على المسلمين ، وقالوا: مايستطيع أحد منا لولده مالا يبقى بعده ، فقال عمر : أنا أفرج عنكم ، فانطلق عمر واتبعه ثوبان فأتى النبى ﷺ فقال : يا نبى الله ، إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية ، فقال : « إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم » ، فكبر عمر ، ثم قال له النبى ﷺ: « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرّته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته »(١). وقد أخرجه أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجة عن سالم بن أبى الجعد من غير وجه عن ثوبان (٢) . وحكى البخارى أن سالما لم يسمعه من ثوبان .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ قال : هم أهل الكتاب ، وقال : هى خاصة وعامة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن علىّ بن أبى طالب قال : أربعة آلاف فما دونها نفقة وما فوقها كنز . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عن أبى أمامة قال : حلية السيوف من الكنوز ما أحدّثكم إلا ما سمعت(٣) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عراك بن مالك وعمر بن عبد العزيز أنهما قالا فى قوله : ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ إنها نسختها الآية الأخرى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ الآية [ التوبة : ١٠٣ ]. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى زكاتها إلا جعل لها يوم القيامة صفائح ، ثم أحمى عليها فى نار جهنم ، ثم يكوى بها جنباه وجبهته وظهره فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله ، إما إلى الجنة ، وإما إلى النار»(٤) . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن زيد بن وهب قال : مررت على أبى ذّر بالربذة فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض ؟ فقال : كنا بالشام فقرأت : ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ الآية ، فقال معاوية : ما هذه فينا ، ما هذه إلا فى أهل الكتاب ، قلت : إنها لفينا وفيهم (٥) .

---

(١) أبو داود فى الزكاة (١٦٦٤) وأبو يعلى (٢٤٩٩) وصححه الحاكم ١/٤٠٩ على شرط الشيخين : ووافقه الذهبى، و٢/٣٣٣ ووافقه الذهبى أيضا ، والبيهقى ٤/ ٨٣ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٠٩٤) وقال : « حديث حسن » وابن ماجة فى النكاح (١٨٥٦) وقال فى الزوائد : « عبد الله بن عمرو بن مرة ضعفه النسائى ، ووثقه الحاكم وابن حبان » . وقال ابن معين : « لا بأس به » .

(٣) الطبرانى (٧٥٣٨) وقال الهيثمى فى المجمع : ٣/ ٧٠ ، « وفيه بقية وهو ثقة ولكنه مدلس » .

(٤) أحمد ٢/ ٢٦٢ ، ٢٧٦ ومسلم فى الزكاة (٩٨٧/ ٢٤) .

(٥) ابن أبى شيبة ٣/ ٢١٢ والبخارى فى الزكاة (١٤٠٦) .

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا** ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نوع آخر من قبائح الكفار وذلك أن الله سبحانه لما حكم فى كل وقت بحكم خاص غيروا تلك الأوقات بالنسىء والكبيسة فأخبرنا الله بما هو حكمه فقال: ﴿ **إن عدّة الشهور** ﴾ أى عدد شهور السنة عند الله فى حكمه وقضائه وحكمته اثنا عشر شهرا. قوله : ﴿ **فى كتاب الله**﴾ أى فيما أثبته فى كتابه . قال أبو على الفارسى : لا يجوز أن يتعلق فى ﴿ **فى كتاب الله**﴾ بقوله : ﴿ **عدة الشهور** ﴾ . للفصل بالأجنبى وهو الخبر ، أعنى ﴿ **اثنا عشر شهرا** ﴾ ، فقوله : ﴿ **فى كتاب الله** ﴾ ، وقوله : ﴿**يوم خلق**﴾ بدل من قوله : ﴿ **عند الله** ﴾ والتقدير : إن عدة الشهور عند الله فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، وفائدة الإبدالين تقرير الكلام فى الأذهان لأنه يعلم منه أن ذلك العدد واجب عند الله فى كتاب الله ، وثابت فى علمه فى أوّل ما خلق الله العالم . ويجوز أن يكون ﴿ **فى كتاب الله**﴾ صفة ﴿ **اثنا عشر** ﴾ أى اثنا عشر مثبتة فى كتاب الله وهو اللوح المحفوظ . وفى هذه الآية بيان أن اللهّ سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على هذا الترتيب المعروف يوم خلق السموات والأرض ، وأن هذا هو الذى جاءت به الأنبياء ونزلت به الكتب . وأنه لا اعتبار بما عند العجم والروم والقبط من الشهور التى يصطلحون عليها ويجعلون بعضها ثلاثين يوما ، وبعضها أكثر ، وبعضها أقل .

قوله: ﴿ **منها أربعة حرم** ﴾ هى ذى القعدة ،وذو الحجة،والمحرم،ورجب،ثلاثة سرد وواحد فرد.كما ورد بيان ذلك فى السنة المطهرة [١].قوله : ﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ أى كون هذه الشهور كذلك ومنها أربعة حرم هو الدين المستقيم،والحساب الصحيح، والعدد المستوفى . قوله: ﴿ **فلا تظلموا فيهن أنفسكم** ﴾ أى فى هذه الأشهر الحرم بإيقاع القتال فيها والهتك لحرمتها ، وقيل : إن الضمير يرجع إلى الشهور كلها الحرم وغيرها،وإن الله نهى عن الظلم فيها،والأوّل أولى .

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ لهذه الآية،ولقوله:﴿ يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ﴾ [ المائدة : ٢ ] ،

---

(١) أحمد ٥/ ٣٧ والبخارى فى التفسير (٤٦٦٢) وفى بدء الخلق (٣١٩٧) ومسلم فى القسامة (١٦٧٩/ ٢٩) وأبو داود فى الحج (١٩٤٧) وكلهم عن أبى بكرة رضى الله عنه .

ولقوله : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين**﴾ الآية ، وقد ذهب جماعة آخرون إلى أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم منسوخ بآية السيف . ويجاب عنه بأن الأمر بقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم كما فى الآية المذكورة ، فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد فى تحريم القتال فى الأشهر الحرم . كما هى مقيدة بتحريم القتال فى الحرم للأدلة الواردة فى تحريم القتال فيه . وأما ما استدلوا به من أنه ﷺ حاصر أهل الطائف فى شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما ، فقد أجيب عنه أنه لم يبتد محاصرتهم فى ذى القعدة بل فى شوّال،والمحرم إنما هو ابتداء القتال فى الأشهر الحرم لا إتمامه. وبهذا يحصل الجمع .

قوله : ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة** ﴾ أى جميعا ، وهو مصدر فى موضع الحال . قال الزجاج : مثل هذا من المصادر كعامة وخاصة لا يثنى ولا يجمع . ﴿ **كما يقاتلونكم كافة** ﴾ أى جميعا ، وفيه دليل على وجوب قتال المشركين ، وأنه فرض على الأعيان إن لم يقم به البعض . ﴿ **واعلموا أن اللّه مع المتقين** ﴾ أى ينصرهم ويثبتهم،ومن كان اللّه معه فهو الغالب ، وله العاقبة والغلبة .

قوله : ﴿ **إنما النسئ زيادة فى الكفر** ﴾ قرأ نافع فى رواية ورش عنه: « النسىّ » بياء مشدّدة بدون همز . وقرأ الباقون بياء بعدها همزة . قال النحاس : ولم يرو أحد عن نافع هذه القراءة إلا ورش وحده. وهو مشتق من نسأه ، وأنسأه: إذا أخره،حكى ذلك الكسائى.قال الجوهرى : النسىء فعيل بمعنى مفعول من قولك : نسأت الشىء فهو منسوء : إذا أخرته ، ثم تحوّل منسوء إلى نسىء كما تحوّل مقتول إلى قتيل .قال ابن جرير : فى النسىء بالهمزة معنى الزيادة يقال : نسأ ينسأ : إذا زاد . قال : ولا يكون بترك الهمزة إلا من النسيان كما قال تعالى : ﴿نسوا اللّه فنسيهم ﴾[ التوبة:٦٧] وردّ على نافع قراءته . وكانت العرب تحرّم القتال فى الأشهر الحرم المذكورة ، فإذا احتاجوا إلى القتال فيها قاتلوا فيها وحرّموا غيرها . فإذا قاتلوا فى المحرّم حرّموا بدله شهر صفر ، وهكذا فى غيره ، وكان الذى يحملهم على هذا أن كثيرا منهم إنما كانوا يعيشون بالغارة على بعضهم البعض ، ونهب ما يمكنهم نهبه من أموال من يغيرون عليه ، ويقع بينهم بسبب ذلك القتال . وكانت الأشهر الثلاثة المسرودة يضرّ بهم تواليها وتشتدّ حاجتهم وتعظم فاقتهم . فيحللون بعضها ويحرمون مكانه بقدره من غير الأشهر الحرم ، فهذا هومعنى النسىء الذى كانوا يفعلونه . وقد وقع الخلاف فى أوّل من فعل ذلك ، فقيل : هو رجل من بنى كنانة يقال له حذيفة بن عتيد . ويلقب القلمس ، وإليه يشير الكميت بقوله :

ألسنا الناسئين على معدّ　　　شهور الحلّ نجعلها حراما

وفيه يقول قائلهم :

ومنا ناسئ الشهر القلمس

وقيل : هو عمرو بن لحىّ . وقيل : هو نعيم بن ثعلبة من بنى كنانة وسمى اللّه سبحانه النسىء زيادة فى الكفر؛ لأنه نوع من أنواع كفرهم ، ومعصية من معاصيهم المنضمة إلى كفرهم باللّه وكتبه ورسله واليوم الآخر . قوله : ﴿**يضلّ به الذين كفروا**﴾ قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وابن عامر « يضلّ » على البناء للمعلوم . وقرأ الكوفيون على البناء للمجهول . ومعنى القراءة الأولى : أن الكفار يضلون بما يفعلونه من النسىء ، ومعنى القراءة الثانية : أن الذى سنّ لهم ذلك يجعلهم ضالين بهذه السنة السيئة ، وقد اختار القراءة الأولى أبوحاتم ، واختار القراءة الثانية أبوعبيد . وقرأ الحسن وأبو رجاء ويعقوب : « يضل » بضم الياء وكسر الضاد على أن فاعله الموصول ومفعوله محذوف . ويجوز أن يكون فاعله هو اللّه سبحانه ومفعوله الموصول . وقرئ بفتح الياء والضاد من ضل يضلّ . وقرئ « نضل » بالنون .

قوله : ﴿ **يحلونه عاما ويحرّمونه عاما** ﴾ الضمير راجع إلى النسىء ، أى يحلون النسىء عاما ويحرّمونه عاما، أو إلى الشهر الذى يؤخرونه ويقاتلون فيه ، أى يحلونه عاما بإبداله بشهر آخر من شهور الحل ، ويحرّمون عاما أى يحافظون عليه فلا يحلون فيه القتال بل يبقونه على حرمته . قوله : ﴿ **ليواطئوا عدّة ما حرّم اللّه** ﴾ أى لكى يواطئوا ، والمواطأة الموافقة ، يقال : تواطأ القوم على كذا ، أى توافقوا عليه واجتمعوا . والمعنى : إنهم لم يحلوا شهرًا إلا حرّموا شهرا لتبقى الأشهر الحرم أربعة. قال قطرب : معناه عمدوا إلى صفر فزادوه فى الأشهر الحرم وقرنوه بالمحرّم فى التحريم . وكذا قال الطبرى . قوله:﴿**فيحلوا ما حرّم اللّه** ﴾ أى من الأشهر الحرم التى أبدلوها بغيرها ﴿ **زين لهم سوء أعمالهم** ﴾ أى زين لهم الشيطان الأعمال السيئة التى يعملونها ، ومن جملتها النسىء . وقرئ على البناء للفاعل . ﴿ **واللّه لا يهدى القوم الكافرين** ﴾ أى المصرّين على كفرهم المستمرين عليه فلا يهديهم هداية توصلهم إلى المطلوب ، وأما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والإرشاد إليه فقد نصبها اللّهّ سبحانه لجميع عباده.

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى بكرة أن النبى ﷺ خطب فى حجته فقال : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرًا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذوالقعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » (١) . وأخرج نحوه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من حديث ابن عمر(٢) . وأخرج نحوه ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه من حديث ابن عباس . وأخرج نحوه أيضا البزار وابن جرير وابن مردويه من حديث أبى هريرة (٣) . وأخرجه أحمد وابن مردويه من حديث أبى حرة الرقاشى عن

---

(١) سبق تخريجه . فى المطبوعة « أبى بكر » ، والصواب: ما أثبتناه من المخطوطة ومن البخارى ومسلم وغيرهما .
(٢ ، ٣ ) ابن جرير ١٠/٨٨ .

عمه مرفوعا مطوّلا (١) .

وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ منها أربعة حرم ﴾ قال : المحرّم ، ورجب ، وذوالقعدة، وذو الحجة . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : إنما سمين حرما لئلا يكون فيهن حرب . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إن عدّة الشهور عند اللّه اثنا عشر شهراً فى كتاب اللّه ﴾ ثم اختصّ من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حرما ، وعظم حرماتهن ، وجعل الدين فيهن أعظم ، والعمل الصالح والأجر أعظم ﴿ فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم ﴾ قال: فى كلهنّ ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ يقول جميعا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل فى قوله : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ قال : نسخت هذه الآية كل آية فيها رخصة .

وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال : كانت العرب يحلون عاما شهرا وعاما شهرين ، ولا يصيبون الحج إلا فى كل سنة وعشرين سنة مرة ، وهى النسىء الذى ذكره اللّه فى كتابه ، فلما كان عام حجّ أبو بكر بالناس وافق ذلك العام ، فسماه اللّه الحجّ الأكبر ، ثم حج رسول اللّه ﷺ من العام المقبل ، واستقبل الناس الأهلة ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السموات والأرض»(٢). وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر قال : وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فقال : « إنما النسىء من الشيطان زيادة فى الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرّمونه عاما ، فكانوا يحرّمون المحرّم عاما ويستحلون صفر، ويحرّمون صفر عاما ويستحلون المحرّم ، وهى النسىء » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان جنادة بن عوف الكنانى يوافى الموسم كل عام ، وكان يكنى أبا ثمامة ، فينادى ألا إن أبا ثمامة لا يخاب ولا يعاب ، ألا وإن صفر الأوّل العام حلال فيحله للناس . فيحرم صفر عاما ، ويحرّم المحرّم عاما . فذلك قوله تعالى ﴿ إنما النسىء زيادة فى الكفر ﴾ الآية (٣). وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال:المحرّم كانوا يسمونه صفر ، وصفر يقولون : صفران الأوّل والآخر ، يحلّ لهم مرّة الأوّل ، ومرة الآخر . وأخرج ابن مردويه عنه قال : كانت النساءة حى من بنى مالك من كنانة من بنى فقيم ، فكان آخرهم رجلا يقال له : القلمس . وهو الذى أنشأ المحرم .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ

(١) أحمد ٥/ ٧٢ ، ٧٣ ، وذكر الطبرانى جزءًا منه (٣٦٠٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع : ٣/ ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٤/ ١١٩ ، ١٧٥ « أبو حرة الرقاشي وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وفيه على بن زيد وفيه كلام » ، وقد اعتمد الحافظ فى التقريب قول أبى داود فقال : « أبو حرة ثقة ، وعلى ضعيف، لكن للحديث شواهد » .

(٢) رواه الهيثمى فى المجمع عن عبد الله بن عمر وليس عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ٧/ ٣٢ وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات».

(٣) ابن جرير ١٠/ ٩١ ، ٩٢ .

أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) ﴾ .

قوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ لما شرح معايب أولئك الكفار عاد إلى ترغيب المؤمنين فى قتالهم ، والاستفهام فى ﴿مالكم ﴾ للإنكار والتوبيخ ، أى أىّ شىء يمنعكم عن ذلك ، ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتابا لمن تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام ، والنفر:هو الانتقال بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث . قوله : ﴿ اثاقلتم إلى الأرض ﴾ أصله تثاقلتم أدغمت التاء فى الثاء لقربها منها ، وجىء بألف الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالساكن ، ومثله : ادّاركوا ، واطيرتم ، واطيروا ، وأنشد الكسائى :

توالى الضجيع إذا ما اشتاقها حضرا عذب المذاق إذا ما اتابع القبل

وقرأ الأعمش « تثاقلتم » على الأصل ، ومعناه : تباطأتم ، وعدّى بـ « إلى » لتضمنه معنى الميل والإخلاد. وقيل : معناه: ملتم إلى الإقامة بأرضكم والبقاء فيها وقرئ : « آثاقلتم » على الاستفهام ، ومعناه : التوبيخ ،والعامل فى الظرف «ما» فى ﴿ مالكم ﴾ من معنى الفعل ، كأنه قيل: ما يمنعكم ، أو ما تصنعون إذا قيل لكم ؟ و﴿ إلى الأرض ﴾ متعلق بـ ﴿ اثاقلتم ﴾ وكما مرّ . قوله : ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا ﴾ أى بنعيمها بدلا من الآخرة كقوله تعالى:﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون ﴾ [ الزخرف : ٦٠ ] أى بدلا منكم ، ومثله قول الشاعر :

قلبت لنا من ماء زمزم شربة مبـردة باتت على طهيـان

أى بدلا من ماء زمزم ، والطهيان : عود ينصب فى ناحية الدار للهواء يعلق عليه الماء ليبرد ، ومعنى : ﴿ من الآخرة ﴾ أى فى جنب الآخرة ، وفى مقابلها ﴿ إلا قليل ﴾ أى إلا متاع حقير لا يعبأ به ، ويجوز أن يراد بالقليل العدم ، إذ لا نسبة للمتناهى الزائل إلى غير

المتناهى الباقى ، والظاهر أن هذا التثاقل لم يصدر من الكل ، إذ من البعيد أن يطبقوا جميعا على التباطؤ والتثاقل ، وإنما هو من باب نسبة ما يقع من البعض إلى الكل،وهو كثير شائع .

قوله : ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم** ﴾ هذا تهديد شديد ، ووعيد موكد لمن ترك النفير مع رسول الله ﷺ ﴿**يعذبكم عذابا أليما** ﴾ أى يهلككم بعذاب شديد مؤلم ، قيل : فى الدنيا فقط . وقيل : هو أعم من ذلك . قوله: ﴿ **ويستبدل قوما غيركم**﴾ أى يجعل لرسله بدلا منكم ممن لا يتباطأ عند حاجتهم إليهم . واختلف فى هؤلاء القوم من هم ؟ فقيل : أهل اليمن. وقيل : أهل فارس،ولا وجه للتعين بدون دليل. قوله: ﴿ **ولا تـضرّوه شيئا** ﴾ معطوف على ﴿ **يستبدل** ﴾، والضمير قيل : لله ، وقيل : للنبى ﷺ ، أى ولا تضرّوا الله بترك امتثال أمره بالنفيرشيئا ، أو لا تضرّوا رسول الله بترك نصره والنفير معه شيئا ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ ومن جملة مقدوراته تعذيبكم والاستبدال بكم .

قوله : ﴿ **إلا تنصروه فقد نصره الله** ﴾ أى إن تركتم نصره فالله متكفل به ، فقد نصره فى مواطن القلة ، وأظهره على عدوه بالغلبة والقهر ، أو فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد وقت إخراج الذين كفروا له حال كونه ﴿ **ثانى اثنين** ﴾ أى أحد اثنين ، وهما رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وقرئ بسكون الياء . قال ابن جنى : حكاها أبو عمرو بن العلاء ، ووجهها أن تسكن الياء تشبيها لها بالألف قال ابن عطية : فهى كقراءة الحسن ما بقى من الربا ، وكقول جرير :

هو الخليفة فارضوا ما رضيه لكم ماضى العزيمة ما فى حكمه جنف

قوله : ﴿ **إذ هما فى الغار** ﴾ بدل من ﴿ **إذ أخرجه** ﴾ بدل بعض ، والغار : ثقب فى الجبل المسمى ثورا ، وهو المشهور بغار ثور ، وهو جبل قريب من مكة ، وقصة خروجه ﷺ من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر ودخولهما الغار مشهورة مذكورة فى كتب السير والحديث . قوله : ﴿ **إذ يقول لصاحبه** ﴾ بدل ثان ، أى وقت قوله لأبى بكر ﴿ **لا تحزن إن الله معنا** ﴾ أى دع الحزن فإن الله بنصره وعونه وتأييده معنا ، ومن كان الله معه فلن يغلب ، ومن لا يغلب فيحق له أن لا يحزن . قوله : ﴿ **فأنزل الله سكينته عليه** ﴾ السكينة : تسكين جأشه وتأمينه حتى ذهب روعه وحصل له الأمن ، على أن الضمير فى ﴿ **عليه** ﴾ لأبى بكر ؛ وقيل : هو للنبى ﷺ ، ويكون المراد بالسكينة النازلة عليه : عصمته عن حصول سبب من أسباب الخوف له ، ويؤيد كون الضمير فى ﴿ **عليه** ﴾ للنبى ﷺ الضمير فى ﴿ **وأيده بجنود لم تروها** ﴾ فإنه للنبى ﷺ لأنه المؤيد بهذه الجنود التى هى الملائكة كما كان فى يوم بدر . وقيل : إنه لا محذور فى رجوع الضمير من ﴿ **عليه** ﴾ إلى أبى بكر ، ومن ﴿**وأيده**﴾ إلى النبى ﷺ ، فإن ذلك كثير فى القرآن وفى كلام العرب ﴿ **وجعل كلمة الذين كفروا السفلى** ﴾ أى كلمة الشرك ، وهى دعوتهم إليه،ونداؤهم للأصنام ﴿ **وكلمة الله هى العليا** ﴾ قرأ الأعمش ويعقوب بنصب «كلمة »

حملا على جعل ، وقرأ الباقون برفعها على الاستئناف . وقد ضعف قراءة النصب الفراء وأبو حاتم، وفى ضمير الفصل ، أعنى : ﴿ **هى** ﴾ تأكيد لفضل كلمته فى العلوّ وأنها المختصة به دون غيرها ، وكلمة اللّه هى كلمة التوحيد ، والدعوة إلى الإسلام ﴿ **واللّه عزيز حكيم** ﴾ أى غالب قاهر لا يفعل إلا ما فيه حكمة وصواب .

ثم لما توعد من لم ينفر مع الرسول ﷺ وضرب له من الأمثال ماذكره عقبه بالأمر الجزم فقال : ﴿ **انفروا خفافا وثقالا** ﴾ أى حال كونكم خفافا وثقالا ، قيل : المراد منفردين أو مجتمعين . وقيل : نشاطا وغير نشاط . وقيل : فقراء وأغنياء . وقيل : شبابا وشيوخا . وقيل : رجالا وفرسانا . وقيل : من لا عيال له ومن له عيال ، وقيل: من يسبق إلى الحرب كالطلائع ، ومن يتأخر كالجيش ، وقيل غير ذلك . ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعانى ، لأن معنى الآية : انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت . قيل : وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ﴾ [ التوبة : ٩١ ] . وقيل : الناسخ لها قوله : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ الآية [ التوبة : ١٢٢ ] . وقيل : هى محكمة وليست بمنسوخة ، ويكون إخراج الأعمى والأعرج بقوله : ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ﴾ [ النور : ٦١ ] . وإخراج الضعيف والمريض بقوله: ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ﴾ من باب التخصيص. لا من باب النسخ على فرض دخول هؤلاء تحت قوله : ﴿**خفافا وثقالا** ﴾ والظاهر عدم دخولهم تحت العموم . قوله : ﴿ **وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل اللّه** ﴾ فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والأموال وإيجابه على العباد . فالفقراء يجاهدون بأنفسهم ، والأغنياء بأموالهم وأنفسهم . والجهاد من آكد الفرائض وأعظمها . وهو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدّو وبدفعه ، فإن كان لا يقوم بالعدّو إلا جميع المسلمين فى قطر من الأرض أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى ما تقدّم من الأمر بالنفير والأمر بالجهاد ﴿ **خير لكم** ﴾ أى خير عظيم فى نفسه ، وخير من السكون والدعة ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ ذلك وتعرفون الأشياء الفاصلة وتميزونها عن المفضولة .

قوله: ﴿ **لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك** ﴾. قال الزجاج : لو كان المدعو إليه ، فحذف لدلالة ما تقدّم عليه ، والعرض : مايعرض من منافع الدنيا . والمعنى : غنيمة قريبة غير بعيدة ﴿ **وسفرا قاصدا** ﴾ عطف على ما قبله ، أى سفرا متوسطا بين القرب والبعد . وكل متوسط بين الإفراط والتفريط فهو قاصد ﴿ **ولكن بعدت عليهم الشقة** ﴾ قال أبوعبيدة وغيره : إن الشقة السفر إلى أرض بعيدة ، يقال : منه شقة شاقة ، قال : الجوهرى : الشقة بالضم من الثياب، والشقة أيضا : السفر البعيد ، وربما قالوه بالكسر . والمراد بهذا غزوة تبوك فإنها كانت سفرة بعيدة شاقة. وقرأ عيسى بن عمر: «بعدت عليهم الشقة » بكسر العين والشين ﴿ **وسيحلفون باللّه** ﴾ أى المتخلفون عن غزوة تبوك حال كونكم قائلين : ﴿ **لو استطعنا لخرجنا معكم** ﴾ أى

لو قدرنا على الخروج ووجدنا ما نحتاج إليه فيه مما لا بدّ منه ﴿ **لخرجنا معكم** ﴾ هذه الجملة سادّة مسدّ جواب القسم والشرط. قوله: ﴿ **يهلكون أنفسهم** ﴾ هو بدل من قوله : ﴿ **سيحلفون** ﴾ لأن من حلف كاذبا فقد أهلك نفسه أو يكون حالا ، أى مهلكين أنفسهم موقعين لها موقع الهلاك ﴿ **والله يعلم إنهم لكاذبون** ﴾ فى حلفهم الذى سيحلفون به لكم .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا** ﴾ الآية ، قال : هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح ، وحين أمرهم بالنفير فى الصيف وحين خرفت النخل وطابت الثمار واشتهوا الظلال وشق عليهم المخرج . فأنزل الله ﴿ **انفروا خفافا وثقالا** ﴾ (١) .

وأخرج أبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما** ﴾ قال : إن رسول الله ﷺ استنفر حيا من أحياء العرب فتثاقلوا عنه ، فأنزل الله هذه الآية فأمسك عنهم المطر فكان ذلك عذابهم (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما** ﴾ وقد كان تخلف عنه أناس فى البدو يفقهون قومهم ، فقال المؤمنون : قد بقى ناس فى البوادى وقالوا : هلك أصحاب البوادى ، فنزلت ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ . وأخرج أبو داود وابن أبى حاتم والنحاس ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله :﴿ **إلا تنفروا** ﴾ الآية قال : نسختها ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ (٣) .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إلا تنصروه فقد نصره الله** ﴾ قال : ذكر ما كان من أوّل شأنه حين بعث . يقول : فأنا فاعل ذلك به ؛ وناصره كما نصرته إذ ذاك وهو ثانى اثنين . وأخرج أبو نعيم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب وعروة ؛ أنهم ركبوا فى كل وجه يعنى المشركين يطلبون النبى ﷺ ، وبعثوا إلى أهل المياه يأمرونهم ويجعلون لهم الحمل العظيم ، وأتوا على ثور الجبل الذى فيه الغار والذى فيه النبى ﷺ حتى طلعوا فوقه ، وسمع رسول الله ﷺ وأبو بكر أصواتهم ، فأشفق أبو بكر وأقبل عليه الهمّ والخوف ، فعند ذلك يقول له رسول الله ﷺ ﴿ **لا تحزن إن الله معنا** ﴾ ودعا رسول الله ﷺ فنزلت عليه السكينة من الله﴿ **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين**﴾ الآية (٤). وأخرج ابن شاهين وابن مردويه وابن عساكر عن حبشى بن جنادة قال: قال أبو بكر : يارسول الله ، لو أن أحدا من المشركين رفع قدمه لأبصرنا ، فقال : « يا أبا بكر ، لا تحزن إن الله معنا » . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهرى فى قوله : ﴿ **إذ هما فى الغار** ﴾ قال :

---

(١) ابن جرير ١٠/ ٩٤ .

(٢) أبو داود فى الجهاد (٢٥٠٦) وابن جرير ١٠/ ٩٥ وصححه الحاكم ٢/ ١١٨ وقال : « وعبد المؤمن بن خالد الحنفى من ثقات المراوزة » ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٩/ ٤٨ .

(٣) أبو داود فى الجهاد (٢٥٠٥) والبيهقى ٩/ ٤٧ .

(٤) البيهقى فى الدلائل ٢/ ٤٧٨ .

هو الغار الذى فى الجبل الذى يسمى ثورًا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، وابن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فأنزل الله سكينته عليه** ﴾ قال : على أبى بكر لأن النبىّ ﷺ لم تزل معه السكينة . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : دخل النبىّ ﷺ وأبو بكر غار حراء ، فقال أبو بكر للنبىّ ﷺ : لو أن أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرنى وإياك ، فقال ﷺ : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما يا أبا بكر ؟ إن الله أنزل سكينته عليك وأيدنى بجنود لم يروها » . وأخرج الخطيب فى تاريخه عن حبيب بن أبى ثابت ﴿ **فأنزل الله سكينته عليه** ﴾ قال : على أبى بكر ، فأما النبىّ ﷺ فقد كانت عليه السكينة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وجعل كلمة الذين كفروا السفلى** ﴾ قال: هى الشرك بالله ﴿ **وكلمة الله هى العليا** ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وأخرج الفريابى وأبو الشيخ عن أبى الضحى قال : أوّل ما أنزل من براءة ﴿ **انفروا خفافا وثقالا** ﴾ ثم نزل أوّلها وآخرها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن أبى مالك نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ﴿ **خفافا وثقالا** ﴾ قال : نشاطا وغير نشاط . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحكم فى الآية قال : مشاغيل وغير مشاغيل . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : فى العسر واليسر . وأخرج ابن المنذر عن زيد بن أسلم قال: فتيانا وكهولا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن عكرمة قال : شبابا وشيوخا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : قالوا : إن فينا الثقيل وذا الحاجة والضيعة والشغل فأنزل الله : ﴿ **انفروا خفافا وثقالا** ﴾ وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافا وثقالا ، وعلى ما كان منهم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى قال : جاء رجل زعموا أنه المقداد ، وكان عظيما سمينا ، فشكا إليه وسأله أن يأذن له فأبى ، فنزلت : ﴿ **انفروا خفافا وثقالا** ﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتدّ على الناس شأنها فنسخها الله ، فقال : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ﴾ الآية [ التوبة : ٩١ ] .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : إن رسول الله ﷺ قيل له : ألا تغزو بنى الأصفر لعلك أن تصيب ابنة عظيم الروم ؟ فقال رجلان : قد علمت يا رسول الله ، أن النساء فتنة فلا تفتنا بهنّ فأذن لنا ، فأذن لهما ، فلما انطلقنا قال أحدهما: إن هو إلا شحمة لأوّل آكل ، فسار رسول الله ﷺ ولم ينزل عليه شىء فى ذلك ، فلما كان ببعض الطريق نزل عليه وهو على بعض المياه ﴿ **لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك** ﴾ ونزل عليه : ﴿**عفا الله عنك لم أذنت لهم**﴾. ونزل عليه : ﴿ **إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ ونزل عليه : ﴿ إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ [ التوبة : ٩٥ ] (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **لو كان عرضا قريبا** ﴾ قال: غنيمة قريبة ، ﴿ **ولكن بعدت**

---

(١) ابن جرير ١١ / ٣.

عليهم الشقة ﴾ قال : المسير . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ قال : لقد كانوا يستطيعون الخروج ولكن كان تبطئة من عند أنفسهم وزهادة فى الجهاد .

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) ﴾ .

الاستفهام فى: ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ للإنكار من الله تعالى على رسوله ﷺ ، حيث وقع منه الإذن لما استأذنه فى القعود قبل أن يتبين من هو صادق منهم فى عذره الذى أبداه، ومن هو كاذب فيه . وفى ذكر العفو عنه ﷺ ما يدلّ على أن هذا الإذن الصادر منه كان خلاف الأولى ، وفى هذا عتاب لطيف من الله سبحانه . وقيل : إن هذا عتاب له ﷺ فى إذنه للمنافقين بالخروج معه ، لا فى إذنه لهم بالقعود عن الخروج . والأوّل أولى ، وقد رخص له سبحانه فى سورة النور بقوله :﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ﴾ [ النور : ٦٢ ] . ويمكن أن يجمع بين الآيتين بأن العتاب هنا متوجه إلى الإذن قبل الاستثبات حتى يتبين الصادق من الكاذب ، والإذن هنالك متوجه إلى الإذن بعد الاستثبات والله أعلم . وقيل : إن قوله : ﴿ عفا الله عنك ﴾ هى افتتاح كلام كما تقول : أصلحك الله وأعزّك ورحمك كيف فعلت كذا ، وكذا حكاه مكى والنحاس والمهدوى ، وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على عفا الله عنك ، وعلى التأويل الأوّل لا يحسن . ولا يخفاك أن التفسير الأوّل هو المطابق لما يقتضيه اللفظ على حسب اللغة العربية ، ولا وجه لإخراجه عن معناه العربى ، وفى الآية دليل على جواز الاجتهاد منه ﷺ ، والمسألة مدوّنة فى الأصول ، وفيها أيضا دلالة على مشروعية الاحتراز عن العجلة والاغترار بظواهر الأمور ،و « حتى » فى ﴿ حتى يتبين لك الذين صدقوا ﴾ للغاية ، كأنه قيل : لم سارعت إلى الإذن لهم ، وهلا تأنيت حتى يتبين لك صدق من هو صادق منهم فى العذر الذى أبداه ، وكذب من هو كاذب منهم فى ذلك ؟

ثم ذكر سبحانه أنه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله ﷺ فى القعود عن الجهاد ،

بل كان من عادتهم أنه ﷺ إذا أذن لواحد منهم بالقعود شق عليه ذلك . فقال : ﴿ **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا** ﴾ وهذا أن معنى الآية ألا يجاهدوا على حذف حرف النفى ؛ وقيل : المعنى : لا يستأذنك المؤمنون فى التخلف كراهة الجهاد . وقيل : إن معنى الاستئذان فى الشىء الكراهة له ، وأما على ما يقتضيه ظاهر اللفظ فالمعنى : لا يستأذنك المؤمنون فى الجهاد بل دأبهم أن يبادروا إليه من غير توقف ولا ارتقاب منهم لوقوع الإذن منك فضلا عن أن يستأذنك فى التخلف . قال الزجاج: ﴿ **أن يجاهدوا** ﴾ فى موضع نصب بإضمار فى ، أى فى أن يجاهدوا ﴿ **واللّه عليم بالمتقين** ﴾ وهم هؤلاء الذين لم يستأذنوا ﴿ **إنما يستأذنك** ﴾ فى القعود عن الجهاد ، والتخلف عنه ﴿ **الذين لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر** ﴾ وهم المنافقون ، ذكر الإيمان باللّه أوّلا ، ثم باليوم الآخر ثانيا فى الموضعين ، لأنهما الباعثان على الجهاد فى سبيل اللّه. قوله: ﴿ **وارتابت قلوبهم** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **الذين لا يؤمنون** ﴾ وجاء بالماضى للدلالة على تحقق الريب فى قلوبهم ، وهو الشك . قوله : ﴿ **فهم فى ريبهم يتردّدون** ﴾ أى فى شكهم الذى حلّ بقلوبهم يتحيرون ، والتردّد : التحير . والمعنى : فهؤلاء الذين يستأذنوك ليسوا بمؤمنين بل مرتابين حائرين لا يهتدون إلى طريق الصواب ، ولا يعرفون الحق .

قوله : ﴿ **ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له[1]عدّة** ﴾ أى لو كانوا صادقين فيما يدّعونه ويخبرونك به من أنهم يريدون الجهاد معك ، ولكن لم يكن معهم من العدّة للجهاد ما يحتاج إليه لما تركوا إعداد العدّة وتحصيلها قبل وقت الجهاد كما يستعد لذلك المؤمنون ، فمعنى هذا الكلام : أنهم لم يريدوا الخروج أصلا ولا استعدّوا للغزو . والعدّة : ما يحتاج إليه المجاهد من الزاد والراحلة والسلاح . قوله : ﴿ **ولكن كره اللّه انبعاثهم** ﴾ أى ولكن كره اللّه خروجهم فتثبطوا عن الخروج .فيكون المعنى : ما خرجوا ولكن تثبطوا ، لأن كراهة اللّه انبعاثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج ، والانبعاث : الخروج ، أى حبسهم اللّه عن الخروج معك وخذلهم ، لأنهم قالوا : إن لم يؤذن لنا فى الجلوس أفسدنا وحرّضنا على المؤمنين . وقيل : المعنى : لو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة ، ولكن ما أرادوه لكراهة اللّه له . قوله : ﴿ **وقيل اقعدوا مع القاعدين** ﴾ قيل : القائل لهم هو الشيطان بما يلقيه إليهم من الوسوسة . وقيل : قاله بعضهم لبعض . وقيل : قاله رسول الله ﷺ غضبا عليهم . وقيل : هو عبارة عن الخذلان ، أى أوقع اللّه فى قلوبهم القعود خذلانا لهم . ومعنى ﴿ **مع القاعدين** ﴾ أى مع أولى الضرر من العميان والمرضى والنساء والصبيان ، وفيه من الذمّ لهم والإزراء عليهم والتنقص بهم ما لا يخفى .

قوله : ﴿ **لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا** ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين عن تخلف المنافقين ، والخبال: الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف .قيل:هذا الاستثناء

---

(١) فى المطبوعة :« لهم ».

منقطع ، أى ما زادوكم قوّة ، ولكن طلبوا الخبال . وقيل : المعنى : لا يزيدونكم فيما تردّدون فيه من الرأى إلا خبالا فيكون متصلا . وقيل : هو استثناء من أعمّ العام ، أى ما زادوكم شيئا إلا خبالا ، فيكون الاستثناء من قسم المتصل ؛ لأن الخبال من جملة ما يصدق عليه الشىء . قوله : ﴿**ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة**﴾ الإيضاع : سرعة السير ، ومنه قول ورقة بن نوفل :

يا ليتنى فيها جذع أخبّ فيها وأضع

يقال : أوضع البعير : إذا أسرع السير . وقيل : الإيضاع : سير الخبب ، والخلل : الفرجة بين الشيئين ، والجمع الخلال ، أى الفرج التى تكون بين الصفوف ، والمعنى : لسعوا بينكم بالإفساد بما يختلقونه من الأكاذيب المشتملة على الإرجاف والنمائم الموجبة لفساد ذات البين . قوله : ﴿ **يبغونكم الفتنة** ﴾ يقال : بغيته كذا : طلبته له ، وأبغيته كذا : أعنته على طلبه. والمعنى : يطلبون لكم الفتنة فى ذات بينكم بما يصنعونه من التحريش والإفساد . وقيل : الفتنة هنا الشرك . وجملة : ﴿**وفيكم سماعون لهم**﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أنّ فيكم من يستمع ما يقولونه من الكذب فينقله إليكم فيتأثر من ذلك الاختلاف بينكم ، والفساد لإخوانكم ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾ وبما يحدث منهم لو خرجوا معكم ، لذلك اقتضت حكمته البالغة ألا يخرجوا معكم ، وكره انبعاثهم معكم، ولا ينافى حالهم هذا لو خرجوا مع رسول الله ﷺ ما تقدّم من عتابه على الإذن لهم فى التخلف ، لأنه سارع إلى الإذن لهم ، ولم يكن قد علم من أحوالهم لو خرجوا أنهم يفعلون هذه الأفاعيل ، فعوتب ﷺ على تسرعه إلى الإذن لهم قبل أن يتبين له الصادق منهم فى عذره من الكاذب ، ولهذا قال الله سبحانه فيما يأتى فى هذه السورة : ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا﴾ الآية [ التوبة : ٨٣ ] ، وقال فى سورة الفتح : ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم﴾ إلى قوله : ﴿ قل لن تتبعونا ﴾ [الفتح: ١٥ ] .

قوله : ﴿ **لقد ابتغوا الفتنة من قبل** ﴾ أى لقد طلبوا الإفساد والخبال وتفريق كلمة المؤمنين وتشتيت شملهم من قبل هذه الغزوة التى تخلفوا عنك فيها . كما وقع من عبد الله بن أبىّ وغيره ﴿ **ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾. وقوله : ﴿ **وقلبوا لك الأمور** ﴾ أى صرّفوها من أمر إلى أمر ، ودبروا لك الحيل والمكائد ، ومنه قول العرب : حوّل قلب : إذا كان دائرا حول المكائد والحيل يدير الرأى فيها ويتدبره . وقرئ : «وقلبوا » بالتخفيف ﴿ **حتى جاء الحق** ﴾ أى إلى غاية هى مجىء الحق ، وهو النصر لك والتأييد ﴿ **وظهر أمر الله**﴾ بإعزاز دينه وإعلاء شرعه وقهر أعدائه . وقيل : الحق : القرآن ﴿ **وهم كارهون** ﴾ أى والحال أنهم كارهون لمجىء الحق وظهور أمر الله ، ولكن كان ذلك على رغم منهم . ﴿ **ومنهم** ﴾ أى من المنافقين ﴿ **من يقول** ﴾ لرسول الله ﷺ ﴿ **ائذن لى** ﴾ فى التخلف عن الجهاد ﴿ **ولا تفتنى** ﴾ أى

لا توقعنى فى الفتنة ، أى الإثم إذا لم تأذن لى فتخلفت بغير إذنك؛ وقيل : معناه : لا توقعنى فى الهلكة بالخروج ﴿ **ألا فى الفتنة سقطوا** ﴾ أى فى نفس الفتنة سقطوا ، وهى فتنة التخلف عن الجهاد ، والاعتذار الباطل . والمعنى : أنهم ظنوا أنهم بالخروج أو بترك الإذن لهم يقعون فى الفتنة ، وهم بهذا التخلف سقطوا فى الفتنة العظيمة . وفى التعبير بالسقوط ما يشعر بأنهم وقعوا فيها وقوع من يهوى من أعلى إلى أسفل ، وذلك أشدّ من مجرّد الدخول فى الفتنة، ثم توعدهم على ذلك فقال: ﴿**وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** ﴾ أى مشتملة عليهم من جميع الجوانب لا يجدون عنها مخلصا ، ولا يتمكنون من الخروج منها بحال من الأحوال .

وقد أخرج عبد الرزاق فى المصنف ، وابن جرير عن عمرو بن ميمون قال : اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشىء : إذنه للمنافقين ، وأخذه من الأسارى ، فأنزل الله : ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم** ﴾ (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عون بن عبد الله قال : ما سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة فقال : ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم** ﴾ (٢) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **عفا الله عنك** ﴾ الآية قال : ناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا . وأخرج النحاس فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم** ﴾ الثلاث الآيات ، قال : نسخها ﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ﴾ [ النور : ٦٢ ] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والنحاس فى ناسخه عنه فى قوله : ﴿ **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله** ﴾ الآية . قال: هذا تعيير للمنافقين حين استأذنوا فى القعود عن الجهاد بغير عذر ، وعذر الله المؤمنين فقال : ﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ﴾ (٣) [ النور : ٦٢ ] . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عنه أيضا فى قوله : ﴿ **لا يستأذنك** ﴾ الآيتين قال : نسختها الآية التى فى سورة النور ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ﴾ إلى ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ [النور: ٦٢]. فجعل الله النبى ﷺ بأعلى النظرين فى ذلك ، من غزا غزا فى فضيلة ، ومن قعد قعد فى غير حرج إن شاء الله (٤) .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **ولكن كره الله انبعاثهم** ﴾ قال : خروجهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فثبطهم** ﴾ قال : حبسهم. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **لو خرجوا فيكم ما**

---

(١) عبد الرزاق (٩٤٠٣) وابن جرير ١٠/ ١٠٠ .
(٢) ابن أبى شيبة ( ١٦٠٦٩) .
(٣) ابن جرير ١٠ / ١٠٠ .
(٤) البيهقى ٩/ ١٧٣ ، ١٧٤ .

**زادوكم إلا خبالا** ﴾ قال : هؤلاء المنافقون فى غزوة تبوك . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولأوضعوا خلالكم** ﴾ قال : لأسرعوا بينكم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ولأوضعوا خلالكم** ﴾ قال : لأرفضوا ﴿ **يبغونكم الفتنة** ﴾ يبطئونكم ، عبد الله بن نبتل ، وعبد الله بن أبى بن سلول ، ورفاعة بن تابوت ، وأوس بن قيظى ﴿ **وفيكم سماعون لهم** ﴾ محدثون لهم بأحاديثكم غير منافقين ، وهم عيون للمنافقين .

وأخرج ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة عن ابن عباس قال : لما أراد النبى ﷺ أن يخرج إلى غزوة تبوك قال لجد بن قيس : « يا جد بن قيس (١) ، ما تقول فى مجاهدة بنى الأصفر ؟» فقال : يا رسول الله ، إنى امرؤ صاحب نساء ، ومتى أرى نساء بنى الأصفر أفتتن ، فأذن لى ولا تفتنى ، فأنزل الله ﴿ **ومنهم من يقول ائذن لى** ﴾ الآية (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله نحوه ، وأخرج ابن مردويه عن عائشة نحوه أيضا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تفتنى** ﴾ قال : لا تخرجنى ﴿ **ألا فى الفتنة سقطوا** ﴾ يعنى : فى الخروج . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولا تفتنى** ﴾ قال : لا تؤثمنى ﴿ **ألا فى الفتنة** ﴾ قال : ألا فى الإثم ، وقصة تبوك مذكورة فى كتب الحديث والسير فلا نطول بذكرها (٣) .

**﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) ﴾** .

---

(١) فى المطبوعة : « جر بن قيس » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٢) الطبرانى (٢١٥٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٣٣ : « وفيه يحيى الحمانى وهو ضعيف » .
(٣) راجع : سيرة ابن هشام ٤/ ١٥٥ ـ ١٧٩ والبداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٣ ـ ١٧ .

قوله : ﴿ **إن تصبك حسنة** ﴾ أى حسنة كانت بأى سبب اتفق ، كما يفيده وقوعها فى حيز الشرط ، وكذلك القول فى المصيبة ، وتدخل الحسنة والمصيبة الكائنة فى القتال كما يفيده السياق دخولا أوليا ، فمن جملة ما تصدق عليه الحسنة : الغنيمة والظفر . ومن جملة ما تصدق عليه المصيبة : الخيبة والانهزام ، وهذا ذكر نوع آخر من خبث ضمائر المنافقين وسوء أفعالهم ، والإخبار بعظيم عداوتهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ، فإن المساءة بالحسنة ، والفرح بالمصيبة من أعظم ما يدل على أنهم فى العداوة قد بلغوا إلى الغاية ، ومعنى ﴿ **تولوا** ﴾ : رجعوا إلى أهلهم عن مقامات الاجتماع ومواطن التحدث حال كونهم فرحين بالمصيبة التى أصابت المؤمنين ، ومعنى قولهم : ﴿ **قد أخذنا أمرنا من قبل** ﴾ أى احتطنا لأنفسنا وأخذنا بالحزم ، فلم نخرج إلى القتال كما خرج المؤمنون حتى نالهم ما نالهم من المصيبة .

ثم لما قالوا هذا القول أمر الله رسوله ﷺ بأن يجيب عليهم بقوله : ﴿ **لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا** ﴾ أى فى اللوح المحفوظ ، أو فى كتابه المنزل علينا ، وفائدة هذا الجواب أن الإنسان إذا علم أن ما قدره الله كائن ، وأن كل ما ناله من خير أو شر إنما هو بقدر الله وقضائه هانت عليه المصائب ، ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشفى الحسدة . ﴿ **هو مولانا** ﴾ أى ناصرنا وجاعل العاقبة لنا ومظهر دينه على جميع الأديان . والتوكل على الله تفويض الأمور إليه ، والمعنى : أن من حق المؤمنين أن يجعلوا توكلهم مختصا بالله سبحانه لا يتوكلون على غيره . وقرأ طلحة بن مصرف : « يصيبنا » بتشديد الياء . وقرأ أعين قاضى الرى : «يصيبنا » بنون مشددة ، وهو لحن لأن الخبر لا يؤكد ، ورد بمثل قوله تعالى : ﴿ هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾ [ الحج : ١٥ ] . وقال الزجاج : معناه : لا يصيبنا إلا ما اختصنا الله من النصرة عليكم أو الشهادة ، وعلى هذا القول يكون قوله : ﴿ **قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين** ﴾ تكريرا لغرض التأكيد ، والأول أولى حتى يكون كل واحد من الجوابين اللذين أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب عليهم بهما مفيدا لفائدة غير فائدة الآخر ، والتأسيس خير من التأكيد ، ومعنى ﴿ **هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين** ﴾ : هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخصلتين الحسنيين : إما النصرة أو الشهادة ، وكلاهما مما يحسن لدينا ، والحسنى : تأنيث الأحسن ، ومعنى الاستفهام : التقريع والتوبيخ ﴿ **ونحن نتربص بكم** ﴾ إحدى المساءتين لكم: إما ﴿ **أن يصيبكم الله بعذاب من عنده** ﴾ أى قارعة نازلة من السماء فيسحتكم بعذابه . ﴿ **أو** ﴾ بعذاب لكم ﴿ **بأيدينا** ﴾ أى بإظهار الله لنا عليكم بالقتل والأسر والنهب والسبى . والفاء فى ﴿ **فتربصوا** ﴾ فصيحة ، والأمر للتهديد كما فى قوله : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان : ٤٩ ] أى تربصوا بنا ما ذكرنا من عاقبتنا فنحن معكم متربصون ما هو عاقبتكم فستنظرون عند ذلك ما يسرنا ويسوؤكم . وقرأ البزى وابن فليح : « هل تربصون » بإظهار اللام وتشديد التاء . وقرأ الكوفيون بإدغام اللام فى التاء . وقرأ الباقون بإظهار اللام وتخفيف التاء .

قوله : ﴿ **قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم** ﴾ هذا الأمر معناه الشرط والجزاء ؛ لأن الله سبحانه لا يأمرهم بما لا يتقبله منهم ، والتقدير : إن أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل منكم . وقيل : هو أمر فى معنى الخبر ، أى أنفقتم طوعا أو كرها لن يتقبل منكم ، فهو كقوله : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ [ التوبة : ٨٠ ] وفيه الإشعار بتساوى الأمرين فى عدم القبول ، وانتصاب طوعا أو كرها على الحال فهما مصدران فى موقع المشتقين ، أى أنفقوا طائعين من غير أمر من الله ورسوله أو مكرهين بأمر منهما . وسمى الأمر منهما إكراها لأنهم منافقون لا يأتمرون بالأمر ، فكانوا بأمرهم الذى لا يأتمرون به كالمكرهين على الإنفاق ، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم أو مكرهين منهم ، وجملة : ﴿ **إنكم كنتم قوما فاسقين** ﴾ تعليل لعدم قبول إنفاقهم ، والفسق : التمرد والعتو ، وقد سبق بيانه لغة وشرعا .

ثم بين سبحانه السبب المانع من قبول نفقاتهم فقال : ﴿ **وما منعهم** (١) **أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله** ﴾ أى كفرهم بالله وبرسوله جعل المانع من القبول ثلاثة أمور ، الأول : الكفر ، الثانى : أنهم لا يصلون فى حال من الأحوال إلا فى حال الكسل والتثاقل ؛ لأنهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا ، فصلاتهم ليست إلا رياء للناس وتظهراً بالإسلام الذى يبطنون خلافه ، والثالث : أنهم لا ينفقون أموالهم إلا وهم كارهون ، ولا ينفقونها طوعا لأنهم يعدون إنفاقها وضعا لها فى مضيعة لعدم إيمانهم بما وعد الله ورسوله .

قوله : ﴿ **فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم** ﴾ الإعجاب بالشىء : أن يسر به سرورا راض به متعجب من حسنه ، قيل : مع نوع من الافتخار ، واعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه ؛ والمعنى : لا تستحسن ما معهم من الأموال والأولاد ﴿ **إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا** ﴾ بما يحصل معهم من الغم والحزن عند أن يغنمها المسلمون ويأخذوها قسرا من أيديهم مع كونها زينة حياتهم وقرة أعينهم ، وكذا فى الآخرة يعذبهم بعذاب النار بسبب عدم الشكر لربهم الذى أعطاهم ذلك ، وترك ما يجب عليهم من الزكاة فيها ، والتصدق بما يحق التصدق به . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة لأنهم منافقون ، فهم ينفقون كارهين فيعذبون بما ينفقون ، قوله : ﴿ **وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ الزهوق : الخروج بصعوبة ، والمعنى : أن الله يريد أن تزهق أنفسهم وتخرج أرواحهم حال كفرهم لعدم قبولهم لما جاءت به الأنبياء وأرسلت به الرسل ، وتصميمهم على الكفر وتماديهم فى الضلالة .

ثم ذكر الله سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين فقال : ﴿ **ويحلفون بالله إنهم لمنكم** ﴾ أى من جملتكم فى دين الإسلام والانقياد لرسول الله ﷺ ولكتاب الله سبحانه ﴿ **وما هم منكم** ﴾ فى ذلك إلا بمجرد ظواهرهم دون بواطنهم ﴿ **ولكنهم قوم يفرقون** ﴾ أى يخافون أن

---

(١) فى المطبوعة : « معهم » .

ينزل بهم ما نزل بالمشركين من القتل والسبى ، فيظهرون لكم الإسلام تقية منهم لا عن حقيقة ﴿ **لو يجدون ملجأ** ﴾ يلتجئون إليه ويحفظون نفوسهم فيه منكم من حصن أو غيره ﴿ **أو مغارات** ﴾ جمع مغارة ، من غار يغير . قال الأخفش : ويجوز أن يكون من أغار يغير ، والمغارات : الغيران والسراديب ، وهى المواضع التى يستتر فيها ، ومنه غار الماء وغارت العين، والمعنى : لو وجدوا أمكنة يغيبون فيها أشخاصهم هربا منكم ﴿ **أو مدخلا** ﴾ من الدخول ، أى مكانا يدخلون فيه من الأمكنة التى ليست مغارات . قال النحاس : الأصل فيه متدخل ، قلبت التاء دالا ، وقيل : أصله : مدتخل . وقرأ أبى : « متدخلا » ، وروى عنه أنه قرأ : «مندخلا» بالنون . وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق وابن محيصن : « أو مدخلا » بفتح الميم وإسكان الدال. قال الزجاج : ويقرأ : « أو مدخلا » بضم الميم وإسكان الدال . وقرأ الباقون بتشديد الدال مع ضم الميم ﴿ **لولوا إليه** ﴾ أى لا لتجؤوا إليه وأدخلوا أنفسهم فيه ، والحال أنهم ﴿**يجمحون** ﴾ أى يسرعون إسراعا لا يردهم شىء ، من جمع الفرس : إذا لم يرده اللجام ، ومنه قول الشاعر :

سبوح جموح وإحضارها كمعمعة السعف الموقد

والمعنى : لو وجدوا شيئا من هذه الأشياء المذكورة لولوا إليه مسرعين هربا من المسلمين . وقد أخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله قال : جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبى ﷺ أخبار السوء يقولون : إن محمدا وأصحابه قد جهدوا فى سفرهم وهلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبى وأصحابه ، فساءهم ذلك فأنزل الله : ﴿ **إن تصبك حسنة تسؤهم** ﴾ الآية . وأخرج سنيد وابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **إن تصبك حسنة تسؤهم** ﴾ يقول : إن يصبك فى سفرك هذه الغزوة ـ تبوك ـ حسنة تسؤهم قال : الجد وأصحابه ، يعنى : الجد بن قيس .

وأخرج أبو الشيخ عن السدى ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا** ﴾ قال : إلا ما قضى الله لنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين** ﴾ قال : فتح أو شهادة . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **أو بأيدينا** ﴾ قال : القتل بالسيوف . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قال الجد بن قيس : إنى إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن ولكن أعينك بمالى ، قال : ففيه نزلت : ﴿ **قل أنفقوا طوعا أو كرها** ﴾ الآية [(١)] .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **فلا تعجبك أموالهم**﴾ قال : هذه من تقاديم الكلام ، يقول : لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا ، إنما

(١) ابن جرير ١٠/ ١٠٧ .

يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة ، وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **وتزهق أنفسهم وهم كافرون**﴾ قال : تزهق أنفسهم فى الحياة الدنيا ﴿ **وهم كافرون** ﴾ قال: هذه آية فيها تقديم وتأخير . وأخرج أبو حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **فلا تعجبك** ﴾ يقول : لا يغررك ﴿**وتزهق** ﴾ قال : تخرج أنفسهم ، قال : فى الدنيا وهم كافرون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لو يجدون ملجأ** ﴾ الآية ، قال : الملجأ : الحرز فى الجبال ، والمغارات : الغيران ، والمدخل : السرب . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى ﴿ **وهم يجمحون** ﴾ قال : يسرعون .

**﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ .**

قوله : ﴿ **ومنهم من يلزمك** ﴾: هذا ذكر نوع آخر من قبائحهم ، يقال : لمزه يلمزه : إذا عابه . قال الجوهرى : اللمز : العيب ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها ، وقد لمزه يَلْمِزه ويَلْمُزه، ورجل لماز ، ولمزة ، أى عياب . قال الزجاج : لمزت الرجل ألمِزه و ألُمزه ، بكسر الميم وضمها : إذا عبته ، وكذا همزته . ومعنى الآية : ومن المنافقين من يعيبك فى الصدقات، أى فى تفريقها وقسمتها ، وروى عن مجاهد أنه قال : معنى ﴿ **يلزمك** ﴾ : يرزؤك ويسألك ، والقول عند أهل اللغة هو الأول كما قال النحاس . وقرئ : « يلمزك » بضم الميم ، و« يلمزك» بكسرها مع التشديد . وقرأ الجمهور بكسرها مخففة . ﴿ **فإن أعطوا منها** ﴾ أى من الصدقات بقدر ما يريدون ﴿ **رضوا** ﴾ بما وقع من رسول الله ﷺ ولم يعيبوه ، وذلك لأنه لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا ، وليسوا من الدين فى شىء ﴿ **وإن لم يعطوا منها** ﴾ أى من الصدقات ما يريدونه ويطلبونه ﴿ **إذا هم يسخطون** ﴾ أى وإن لم يعطوا فاجؤوا السخط ، وفائدة إذا الفجائية: أن الشرط مفاجئ للجزاء وهاجم عليه . وقد نابت إذا الفجائية مناب فاء الجزاء . ﴿**ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله** ﴾ أى ما فرضه الله لهم وما أعطاهم رسول الله ﷺ من الصدقات ، وجواب « لو » محذوف أى لكان خيرا لهم فإن فيما أعطاهم الخير العاجل والآجل ﴿ **وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله** ﴾ أى قالوا هذه المقالة عند أن أعطاهم رسول الله ﷺ ما هو لهم ، أى كفانا الله ، سيعطينا من فضله ويعطينا رسوله بعد هذا

ما نرجوه ونؤمله ﴿ **إنا إلى الله راغبون** ﴾ فى أن يعطينا من فضله ما نرجوه .

قوله : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء** ﴾ لما لمز المنافقون رسول الله ﷺ فى قسمة الصدقات بين الله لهم مصرفها دفعا لطعنهم وقطعا لشغبهم ، و ﴿ **إنما** ﴾ من صيغ القصر ، وتعريف الصدقات للجنس ، أى جنس هذه الصدقات مقصور على هذه الأصناف المذكورة لا يتجاوزها ، بل هى لهم لا لغيرهم .

وقد اختلف أهل العلم هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الأصناف الثمانية ، أو يجوز صرفها إلى البعض دون البعض على حسب ما يراه الإمام أو صاحب الصدقة ؟ فذهب إلى الأول الشافعى وجماعة من أهل العلم ، وذهب إلى الثانى مالك وأبو حنيفة ، وبه قال عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران . قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم : احتج الأولون بما فى الآية من القصر وبحديث زياد بن الحرث الصدائى عند أبى داود والدارقطنى قال : أتيت النبى ﷺ فبايعته ، فأتى رجل فقال : أعطنى من الصدقة ، فقال له : « إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أصناف ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك » . وأجاب الآخرون بأن ما فى الآية من القصر إنما هو لبيان الصرف والمصرف ، لا لوجوب استيعاب الأصناف ، وبأنه فى إسناد الحديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقى وهو ضعيف . ومما يؤيد ما ذهب إليه الآخرون قوله تعالى : ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ [البقرة : ٢٧١ ] . والصدقة تطلق على الواجبة كما تطلق على المندوبة . وصح عنه ﷺ أنه قال : « أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها فى فقرائكم » (١) . وقد ادعى مالك الإجماع على القول الآخر . قال ابن عبد البر : يريد إجماع الصحابة فإنه لا يعلم له مخالفا منهم .

قوله : ﴿ **للفقراء** ﴾: قدمهم ؛ لأنهم أحوج من البقية على المشهور لشدة فاقتهم وحاجتهم. وقد اختلف أهل العلم فى الفرق بين الفقير والمسكين على أقوال : فقال يعقوب بن السكيت والقتيبى ويونس بن حبيب : إن الفقير أحسن حالا من المسكين ، قالوا : لأن الفقير هو الذى له بعض ما يكفيه ويقيمه ، والمسكين الذى لا شىء له ، وذهب إلى هذا قوم من أهل الفقه منهم أبو حنيفة . وقال آخرون بالعكس ، فجعلوا المسكين أحسن حالا من الفقير ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين ﴾ [ الكهف : ٧٩ ] . فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر . وربما ساوت جملة من المال ، ويؤيده تعوذ النبى ﷺ من الفقر مع قوله: « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا » (٢) . وإلى هذا ذهب الأصمعى وغيره من أهل

---

(١) جزء من حديث ابن عباس قال : إن النبى ﷺ بعث معاذا إلى اليمن فقال. . . وذكر الحديث ، وهو فى البخارى فى الزكاة ( ١٣٩٥ ) .

(٢) جزء من حديث أنس رضى الله عنه ، وهو فى الترمذى فى الزهد ( ٢٣٥٢ ) وقال : « غريب » .

اللغة ، وحكاه الطحاوى عن الكوفيين ، وهو أحد قولى الشافعى وأكثر أصحابه . وقال قوم : إن الفقير والمسكين سواء لا فرق بينهما وهو أحد قولى الشافعى ، وإليه ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك ، وبه قال أبو يوسف . وقال قوم : الفقير المحتاج المتعفف ، والمسكين : السائل . قاله الأزهرى ، واختاره ابن شعبان ، وهو مروى عن ابن عباس . وقد قيل غير هذه الأقوال مما لا يأتى الاستكثار منه بفائدة يعتد بها . والأولى فى بيان ماهية المسكين ما ثبت عن رسول اله ﷺ عند البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة ؛ أن رسول اله ﷺ قال : «ليس المسكين بهذا الطواف الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان » ، قالوا : فما المسكين يا رسول الله ؟ قال : « الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئا » (١) .

قوله : ﴿ والعاملين عليها ﴾: أى السعاة والجباة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة ؛ فإنهم يستحقون منها قسطا . وقد اختلف فى القدر الذى يأخذونه منها ، فقيل : الثمن ، روى ذلك عن مجاهد والشافعى . وقيل : على قدر أعمالهم من الأجرة ، روى ذلك عن أبى حنيفة وأصحابه . وقيل : يعطون من بيت المال قدر أجرتهم، روى ذلك عن مالك ، ولا وجه لهذا، فإن الله قد أخبر بأن لهم نصيبا من الصدقة فكيف يمنعون منها ويعطون من غيرها ؟ واختلفوا هل يجوز أن يكون العامل هاشميا أم لا ؟ فمنعه قوم ، وأجازه آخرون . قالوا : ويعطى من غير الصدقة .

قوله : ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ : هم قوم كانوا فى صدر الإسلام ، فقيل : هم الكفار الذين كان النبى ﷺ يتألفهم ليسلموا ، وكانوا لا يدخلون فى الإسلام بالقهر والسيف ، بل بالعطاء . وقيل : هم قوم أسلموا فى الظاهر ولم يحسن إسلامهم، فكان رسول الله ﷺ يتألفهم بالعطاء وقيل: هم من أسلم من اليهود والنصارى ، وقيل : هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع ، أعطاهم النبى ﷺ ليتألفوا أتباعهم على الإسلام وقد أعطى النبى ﷺ جماعة ممن أسلم ظاهرا كأبى سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ، أعطى كل واحد منهم مائة من الإبل تألفهم بذلك ، وأعطى آخرين دونهم .

وقد اختلف العلماء هل سهم المؤلفة قلوبهم باق بعد ظهور الإسلام أم لا ؟ فقال عمر والحسن والشعبى : قد انقطع هذا الصنف بعزة الإسلام وظهوره ، وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأى . وقد ادعى بعض الحنفية أن الصحابة أجمعت على ذلك . وقال جماعة من العلماء : سهمهم باق لأن الإمام ربما احتاج أن يتألف على الإسلام . وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين . قال يونس : سألت الزهرى عنهم فقال : لا أعلم نسخ ذلك، وعلى القول الأول يرجع سهمهم لسائر الأصناف .

(١) البخارى فى الزكاة ( ١٤٧٦ ، ١٤٧٩ ) ومسلم فى الزكاة ( ١٠٣٩ / ١٠١، ١٠٢ ) ومالك فى الموطأ فى صفة النبى ﷺ (٧) .

قوله : ﴿ **وفى الرقاب** ﴾ أى : فى فك الرقاب بأن يشترى رقابا ثم يعتقها . روى ذلك عن ابن عباس وابن عمر ، وبه قال مالك وأحمد بن حنبل وإسحق وأبو عبيد . وقال الحسن البصرى ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعى والزهرى وابن زيد : إنهم المكاتبون يعانون من الصدقة على مال الكتابة ، وهو قول الشافعى وأصحاب الرأى ورواية عن مالك ، والأولى حمل ما فى الآية على القولين جميعا لصدق الرقاب على شراء العبد وإعتاقه ، وعلى إعانة المكاتب على مال الكتابة . قوله : ﴿ **والغارمين** ﴾ هم الذين ركبتهم الديون(١) ولا وفاء عندهم بها ، ولا خلاف فى ذلك إلا من لزمه دين فى سفاهة ؛ فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب . وقد أعان النبى ﷺ من الصدقة من تحمل حمالة وأرشد إلى إعانته منها . قوله : « ﴿ **وفى سبيل الله** ﴾ هم الغزاة والمرابطون يعطون من الصدقة ما ينفقون فى غزوهم ومرابطتهم وإن كانوا أغنياء ، وهذا قول أكثر العلماء . وقال ابن عمر : هم الحجاج والعمار ، وروى عن أحمد وإسحق أنهما جعلا الحج من سبيل الله . وقال أبو حنيفة وصاحباه : لا يعطى الغازى إلا إذا كان فقيرا منقطعا به .

قوله : ﴿ **وابن السبيل** ﴾ هو المسافر ، والسبيل : الطريق ، ونسب إليها المسافر لملازمته إياها ، والمراد الذى انقطعت به الأسباب فى سفره عن بلده ومستقره فإنه يعطى منها وإن كان غنيا فى بلده . وإن وجد من يسلفه . وقال مالك : إذا وجد من يسلفه فلا يعطى . قوله : ﴿ **فريضة من الله** ﴾ مصدر مؤكد ؛ لأن قوله : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء** ﴾ معناه : فرض الله الصدقات لهم . والمعنى : أن كون الصدقات مقصورة على هذه الأصناف هو حكم لازم فرضه الله على عباده ونهاهم عن مجاوزته ﴿ **والله عليم** ﴾ بأحوال عباده ﴿ **حكيم** ﴾ فى أفعاله ؛ وقيل : إن ﴿**فريضة** ﴾ منتصبة بفعل مقدر ، أى فرض الله ذلك فريضة . قال فى الكشاف : فإن قلت : لم عدل عن اللام إلى « فى » فى الأربعة الآخرة ؟ قلت : للإيذان بأنها أرسخ فى استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره(٢) ، وقيل : النكتة فى العدول أن الأصناف الأربعة الأول يصرف المال إليهم حتى يتصرفوا به كما شاؤوا ، وفى الأربعة الأخيرة لا يصرف المال إليهم ، بل يصرف إلى جهات الحاجات المعتبرة فى الصفات التى لأجلها استحقوا سهم الزكاة ، كذا قيل .

وقد أخرج البخارى والنسائى وابن جريج وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : بينما رسول الله ﷺ يقسم قسما إذ جاءه ابن ذى الخويصرة التيمى فقال : اعدل يا رسول الله ، فقال : « ويحك ، ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ » فقال عمر ابن الخطاب : ائذن لى فأضرب عنقه فقال النبى ﷺ : « دعه ، فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية »

---

(١) فى المطبوعة : « الذنوب » .
(٢) الكشاف ٢/ ٢٨٣ .

الحديث [١] حتى قال : وفيهم نزلت : ﴿ **ومنهم من يلمزك فى الصدقات** ﴾ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ﴿ **ومنهم من يلمزك** ﴾ قال: يرزؤك ويسألك. وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال : يطعن عليك . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : لما قسم النبى ﷺ غنائم حنين سمعت رجلا يقول : إن هذه لقسمة ما أريد بها الله ، فأتيت النبى ﷺ وذكرت ذلك له ، فقال : « رحمة الله على موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر » ، ونزل : ﴿ **ومنهم من يلمزك فى الصدقات** ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نسخت هذه الآية كل صدقة فى القرآن : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء** ﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وأبو الشيخ عن حذيفة فى قوله : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء** ﴾ الآية قال : إن شئت جعلتها فى صنف واحد من الأصناف الثمانية التى سمى الله أو صنفين أو ثلاثة. وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى العالية والحسن وعطاء وإبراهيم وسعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ عن قتادة قال : الفقير الذى به زمانة ، والمسكين : المحتاج الذى ليس به زمانة . وأخرج ابن أبى شيبة عن عمر فى قوله : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء** ﴾ قال : هم زمنى أهل الكتاب . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والعاملين عليها** ﴾ قال : السعاة أصحاب الصدقة .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والمؤلفة قلوبهم** ﴾ قال : هم قوم كانوا يأتون رسول الله ﷺ قد أسلموا ، وكان يرضخ لهم من الصدقات ، فإذا أعطاهم من الصدقة فأصابوا منها خيرا قالوا : هذا دين صالح ، وإن كان غير ذلك عابوه وتركوه . وأخرج البخارى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى سعيد قال : بعث على بن أبى طالب من اليمن إلى النبى ﷺ بذهيبة فيها تربتها ، فقسمها بين أربعة من المؤلفة : الأقرع بن حابس الحنظلى، وعلقمة بن علاثة العامرى ، وعيينة بن بدر الفزارى ، وزيد الخيل الطائى ؛ فقالت قريش والأنصار: يقسم بين صناديد أهل نجد ويدعنا ؟ فقال النبى ﷺ : « إنما أتألفهم »[٢] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الزهرى أنه سئل عن المؤلفة قلوبهم قال : من أسلم من يهودى أو نصرانى ، قلت : وإن كان موسرا ؟ قال : وإن كان موسرا . وأخرج هؤلاء عن أبى جعفر قال : « ليس اليوم مؤلفة قلوبهم . وأخرج هؤلاء أيضا عن الشعبى مثله .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله : ﴿ **وفى الرقاب** ﴾ قال : هم المكاتبون . وأخرج ابن المنذر عن النخعى نحوه . وأخرج أيضا عن عمر بن عبد الله قال : سهم الرقاب نصفان : نصف لكل مكاتب ممن يدعى الإسلام ، والنصف الآخر يشترى به رقاب ممن صلى

---

(١) البخارى فى الأنبياء ( ٣٣٤٤ ) وفى المغازى ( ٤٣٥١ ) ومسلم فى الزكاة ( ١٠٦٤/ ١٤٣، ١٤٤، ١٤٧، ١٤٨ ) وأبو داود فى السنة (٤٧٦٤) وابن جرير ١٠/ ١٠٩ .

(٢) البخارى فى التوحيد (٧٤٣٢) وفى الأنبياء (٣٣٤٤) .

وصام وقدم إسلامه من ذكر وأنثى يعتقون لله. وأخرج ابن أبى شيبة وأبو عبيد وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان لا يرى بأسا أن يعطى الرجل من زكاته فى الحج وأن يعتق منها رقبة . وأخرج ابن أبى شيبة عن الزهرى أنه سئل عن الغارمين قال : أصحاب الدين .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى جعفر فى قوله : ﴿**والغارمين**﴾ قال : هو الذى يسأل فى دم أو جائحة تصيبه ﴿ **وفى سبيل الله** ﴾ قال : هم المجاهدون ﴿ **وابن السبيل** ﴾ قال : المنقطع به يعطى قدر ما يبلغه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ابن السبيل : هو الضيف الفقير الذى ينزل بالمسلمين . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ: « لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة : العامل عليها ، أو الرجل اشتراها بماله ، أو غارم ، أو غاز فى سبيل الله ، أو مسكين تصدق عليه فأهدى منها لغنى » [١] . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والترمذى عن عبدالله بن عمر عن النبى ﷺ قال : « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى » [٢] . وأخرج أحمد عن رجل من بنى هلال قال : سمعت رسول الله ﷺ فذكر مثله[٣] . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى عن عبيد الله بن عدى بن الخيار [٤] قال : أخبرنى رجلان أنهما أتيا رسول الله ﷺ فى حجة الوداع وهو يقسم الصدقة فسألاه منها ، فرفع فينا البصر وخفضه فرآنا جلدين ، فقال : « إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب»[٥] .

**﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) ﴾** .

---

(١) ابن أبى شيبة ٣/ ٢١٠ وأبو داود فى الزكاة (١٦٣٧) وابن ماجة فى الزكاة (١٨٤١) .

(٢) ابن أبى شيبة ٣/ ٢٠٧ وفى الرد على أبى حنيفة١٤/ ٢٧٥ (١٨٣٥٧) وأبو داود فى الزكاة (١٦٣٤) والترمذى فى الزكاة (٦٥٢) وقال : «حديث حسن » .

(٣) أحمد ٥/ ٣٧٥ .

(٤) فى المطبوعة : «عبد الله بن عدى بن الجبار» وفى المخطوطة : عبد الله بن عدى بن الخيار» ، والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج التالية فى الهامش التالى .

(٥) ابن أبى شيبة ٣/ ٢٠٨ وأبوداود فى الزكاة( ١٦٣٣) والنسائى فى الزكاة ٥/ ٩٩ ، ١٠٠ .

قوله : ﴿ ومنهم ﴾ هذا نوع آخر مما حكاه الله من فضائح المنافقين وقبائحهم ، وذلك أنهم كانوا يقولون للنبى ﷺ على وجه الطعن والذم ﴿ هو أذن ﴾ قال الجوهرى : يقال : رجل أذن : إذا كان يسمع مقال كل أحد ، يستوى فيه الواحد والجمع ومرادهم ، أقمأهم الله ، أنهم إذا آذوا النبى وبسطوا فيه ألسنهم ، وبلغه ذلك اعتذروا له وقبل ذلك منهم ، لأنه يسمع كل ما يقال له فيصدقه ، وإنما أطلقت العرب على من يسمع ما يقال له فيصدقه أنه أذن مبالغة ، لأنهم سموه بالجارحة التى هى آلة السماع ، حتى كأن جملته أذن سامعة ، ونظيره قولهم للربيئة : عين ، وإيذاؤهم له هو قولهم : ﴿ هو أذن ﴾ لأنهم نسبوه إلى أنه يصدق كل ما يقال له ولا يفرق بين الصحيح والباطل اغترارا منهم بحلمه عنهم وصفحه عن جناياتهم كرما وحلما وتغاضيا ، ثم أجاب الله عن قولهم هذا ، فقال : ﴿ قل أذن خير لكم ﴾ بالإضافة على قراءة الجمهور . وقرأ الحسن بالتنوين ، وكذا قرأ عاصم فى رواية أبى بكر عنه ، كأنه قيل : نعم هو أذن ، ولكن نعم الأذن هو لكونه أذن خير لكم وليس بأذن فى غير ذلك ، كقولهم رجل صدق ، يريدون الجودة والصلاح ، والمعنى : أنه يسمع الخير ولا يسمع الشر . وقرئ «أذن» بسكون الذال وضمها ، ثم فسر كونه أذن خير بقوله : ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ أى يصدق بالله ويصدق المؤمنين لما علم فيهم من خلوص الإيمان ، فتكون اللام فى ﴿ للمؤمنين ﴾ للتقوية ، كما قال الكوفيون ، أو متعلقة بمصدر محذوف . كما قال المبرد . وقرأ الجمهور : ﴿ورحمة ﴾ بالرفع عطف على أذن . وقرأ حمزة بالخفض عطفا على خير . والمعنى على القراءة الأولى : هو أنه أذن خير ، وأنه هو رحمة للمؤمنين ، وعلى القراءة الثانية : أنه أذن خير وأذن رحمة . قال النحاس : وهذا عند أهل العربية بعيد ، يعنى قراءة الجر لأنه قد تباعد بين الاسمين ، وهذا يقبح فى المخفوض ، والمعنى : أن النبى ﷺ أذن خير للمنافقين ﴿ ورحمة ﴾ لهم حيث لم يكشف أسرارهم ولا فضحهم، فكأنه قال : هو أذن كما قلتم لكنه أذن خير لكم لا أذن سوء ، فسلم لهم قولهم فيه إلا أنه فسره بما هو مدح له وثناء عليه ، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته ، ومعنى : ﴿ للذين آمنوا منكم ﴾ أى الذين أظهروا الإيمان وإن لم يكونوا مؤمنين حقيقة ﴿ والذين يؤذون رسول الله ﴾ ﷺ بما تقدم من قولهم : هو أذن ، ونحو ذلك مما يصدق عليه أنه أذية لرسول الله ﷺ ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ أى شديد الألم . وقرأ ابن أبى عبلة : «ورحمة للمؤمنين » بالنصب على أنها علة لمعلل محذوف ، أى ورحمة لكم يأذن لكم .

ثم ذكر أن من قبائح المنافقين إقدامهم على الأيمان الكاذبة ، فقال : ﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ﴾ والخطاب للمؤمنين . وذلك أن المنافقين كانوا فى خلواتهم يطعنون على المؤمنين وعلى النبى ﷺ فإذا بلغ ذلك إلى رسول الله وإلى المؤمنين جاء المنافقون فحلفوا على أنهم لم يقولوا ما بلغ عنهم قاصدين بهذه الأيمان الكاذبة أن يرضوا رسول الله ومن معه من المؤمنين فنعى الله ذلك عليهم ، وقال : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ أى هما أحق بذلك من

إرضاء المؤمنين بالأيمان الكاذبة ، فإنهم لو اتقوا الله وآمنوا به وتركوا النفاق لكان ذلك أولى لهم ، وإفراد الضمير فى ﴿ **يرضوه** ﴾ إما للتعظيم للجناب الإلهى بإفراده بالذكر أو لكونه لا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله ، فإرضاء الله إرضاء لرسوله ؛ أو المراد: الله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك ، كما قال سيبويه ، ورجحه النحاس ، أو لأن الضمير موضوع موضع اسم الإشارة ؛ فإنه يشار به إلى الواحد والمتعدد ، أو الضمير راجع إلى المذكور ، وهو يصدق عليهما . وقال الفراء : المعنى : ورسوله أحق أن يرضوه . ﴿ **والله** ﴾ افتتاح كلام كما تقول : ما شاء الله وشئت ، وهذه الجملة ، أعنى : ﴿ **والله ورسوله أحق أن يرضوه** ﴾ ، فى محل نصب على الحال ، وجواب ﴿ **إن كانوا مؤمنين** ﴾ محذوف ، أى إن كانوا مؤمنين فليرضوا الله ورسوله .

قوله : ﴿ **ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم** ﴾ . قرأ الحسن وابن هرمز : « ألم تعلموا » بالفوقية . وقرأ الباقون بالتحتية ، والمحاددة : وقوع هذا فى حد ، وذلك فى حد كالمشاققة ، يقال : حاد فلان فلانا : أى صار فى حد غير حده ﴿ **فإن له نار جهنم** ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى فحق أن له نار جهنم . وقال الخليل وسيبويه : إن « أن » الثانية مبدلة من الأولى ، وزعم المبرد أن هذا القول مردود ، وأن الصحيح ما قال الجرمى أن الثانية مكررة للتوكيد لما طال الكلام . وقال الأخفش : المعنى: فوجوب النار له ، وأنكره المبرد وقال : هذا خطأ من أجل أن «أن» المفتوحة المشددة لا يبتدأ بها ويضمر الخبر . وقرئ بكسر الهمزة . قال سيبويه ، وهى قراءة جيدة ، وأنشد :

وإنى إذا ملت ركابى مناخها     فإنى على حظى من الأمر جامح

وانتصاب ﴿**خالدا**﴾ على الحال ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما ذكر من العذاب ، وهو مبتدأ وخبره ﴿**الخزى العظيم** ﴾ أى الخزى البالغ إلى الغاية التى لا يبلغ إليها غيره ، وهو الذل والهوان .

قوله : ﴿ **يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة** ﴾ قيل : هو خبر وليس بأمر . وقال الزجاج : معناه : ليحذر . فالمعنى على القول الأول: أن المنافقين كانوا يحذرون نزول القرآن فيهم ، وعلى الثانى : الأمر لهم بأن يحذروا ذلك ، و﴿**أن تنزل** ﴾ فى موضع نصب ، أى من أن تنزل . ويجوز على قول سيبويه أن يكون فى موضع خفض على تقدير « من » وإعمالها ، ويجوز أن يكون النصب على المفعولية . وقد أجاز سيبويه : حذرت زيدا ، وأنشد :

حذر أمورا لا تضير وآمن     ما ليس ينجيه من الأقدار

ومنع من النصب على المفعولية المبرد . ومعنى : ﴿ **عليهم** ﴾ أى على المؤمنين فى شأن المنافقين ، على أن الضمير للمؤمنين ، والأولى أن يكون الضمير للمنافقين ، أى فى شأنهم ﴿**تنبئهم** ﴾ أى المنافقين ﴿ **بما فى قلوبهم**﴾ مما يسرونه فضلا عما يظهرونه ، وهم وإن كانوا

عالمين بما فى قلوبهم فالمراد من إنباء السورة لهم إطلاعهم على أن المؤمنين قد علموا بما فى قلوبهم ، ثم أمر الله رسوله بأن يجيب عليهم ، فقال : ﴿ **قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون** ﴾ هو أمر تهديد ، أى افعلوا الاستهزاء إن الله مخرج ما تحذرون من ظهوره حتى يطلع عليه المؤمنون ، إما بإنزال سورة . أو بإخبار رسوله بذلك أو نحو ذلك .

قوله : ﴿ **ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب** ﴾ أى ولئن سألتهم عما قالوه من الطعن فى الدين وثلب المؤمنين بعد أن يبلغ إليك ذلك ويطلعك الله عليه ليقولن : إنما كنا نخوض ونلعب ، ولم نكن فى شىء من أمرك ولا أمر المؤمنين . ثم أمره الله أن يجيب عنهم فقال : ﴿ **قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون** ﴾ والاستفهام : للتقريع والتوبيخ، وأثبت وقوع ذلك منهم ولم يعبأ بإنكارهم ، لأنهم كانوا كاذبين فى الإنكار ، بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم حيث جعل المستهزأ به ، والباء لحرف النفى ، فإن ذلك إنما يكون بعد وقوع الاستهزاء وثبوته ، ثم قال : ﴿ **لا تعتذروا**﴾ نهيا لهم عن الاشتغال بالاعتذارات الباطنة ، فإن ذلك غير مقبول منهم . وقد نقل الواحدى عن أئمة اللغة : أن معنى الاعتذار : محو أثر الذنب وقطعه ، من قولهم : اعتذر المنزل : إذا درس ، واعتذرت المياه : إذا انقطعت ﴿ **قد**(١) **كفرتم** ﴾ أى أظهرتم الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المذكور ﴿ **بعد إيمانكم** ﴾ أى بعد إظهاركم الإيمان مع كونكم تبطنون الكفر ﴿ **إن نعف عن طائفة منكم** ﴾ وهم من أخلص الإيمان وترك النفاق وتاب عنه . قال الزجاج : الطائفة فى اللغة : الجماعة . قال ابن الأنبارى : ويطلق لفظ الجمع على الواحد عند العرب ﴿ **نعذب طائفة** ﴾ بسبب ﴿ **أنهم كانوا مجرمين** ﴾ مصرين على النفاق لم يتوبوا منه . قرئ : ﴿ **نعذب** ﴾ بالنون وبالتاء الفوقية على البناء للمفعول وبالتحتية على البناء للفاعل ، وهو الله سبحانه .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان نبتل بن الحارث يأتى رسول الله ﷺ فيجلس إليه فيسمع منه ، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذى قال لهم : إنما محمد أذن ، من حدثه بشىء صدقه ، فأنزل الله فيه : ﴿ **ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن** ﴾ (٢) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد بن صامت ومخشى بن حمير ووديعة بن ثابت ، فأرادوا أن يقعوا فى النبى ﷺ فنهى بعضهم بعضا وقالوا : إنا نخاف أن يبلغ محمدا فيقع بكم ، فقال بعضهم : إنما محمد أذن نحلف له فيصدقنا فنزل:﴿**ومنهم الذين يؤذون النبى** ﴾ (٣) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **هو أذن**﴾ يعنى : أنه يسمع من كل أحد قال الله تعالى : ﴿ **أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين** ﴾ يعنى : يصدق بالله ويصدق المؤمنين . وأخرج الطبرانى وابن عساكر وابن مردويه عن عمير بن

(١) فى المطبوعة : «فقد» . (٢) ابن إسحاق ٤/ ١٩٤ ، والواحدى ص ١٤٣ .
(٣) أسباب النزول للواحدى ص ١٤٣ .

سعد قال : فى أنزلت هذه الآية ﴿ **ويقولون هو أذن** ﴾ وذلك أن عمير بن سعد كان يسمع أحاديث أهل المدينة ، فيأتى النبى ﷺ فيساره حتى كانوا يتأذون بعمير بن سعد وكرهوا مجالسته ، وقال : ﴿ **هو أذن** ﴾ فأنزلت فيه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلا من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، ولئن كان ما يقول محمد حقا لهم شر من الحمير ، فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت شر من الحمار ، فسعى بها الرجل إلى نبى الله ﷺ فأخبره ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : «ما حملك على الذى قلت؟» فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **يحلفون بالله لكم ليرضوكم** ﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى مثله ، وسمى الرجل المسلم عامر بن قيس من الأنصار .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك : ﴿ **ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله** ﴾ يقول : يعادى الله ورسوله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يحذر المنافقون** ﴾ الآية قال: يقولون القول فيما بينهم ، ثم يقولون عسى الله أن لا يفشى علينا هذا . وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن شريح بن عبيد أن رجلا قال لأبى الدرداء: يا معشر القراء ما بالكم أجبن منا وأبخل إذا سئلتم ، وأعظم لقما إذا أكلتم ؟ فأعرض عنه أبو الدرداء ولم يرد عليه بشىء فأخبر بذلك عمر بن الخطاب ، فانطلق عمر إلى الرجل الذى قال ذلك، فقال بثوبه وخنقه وقاده إلى النبى ﷺ ، فقال الرجل : إنما كنا نخوض ونلعب ، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ ﴿**ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبدالله بن عمر قال : قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس يوما : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، لا أرغب بطونا ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل فى المجلس : كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن . قال عبد الله : فأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه وهو يقول : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، والنبى ﷺ يقول : ﴿ **أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون** ﴾ (١) . وأخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم والعقيلى فى الضعفاء وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب فى رواية مالك عن ابن عمر ، فقال : رأيت عبد الله بن أبى وهو يشتد قدام النبى ﷺ والأحجار تنكبه وهو يقول : يا محمد إنما كنا نخوض ونلعب والنبى ﷺ يقول : ﴿ **أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون** ﴾ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : بينما رسول الله ﷺ فى غزوة إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين ، فقالوا : أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات ، فأطلع الله نبيه على ذلك ، فقال نبى الله ﷺ : « احبسوا على هؤلاء الركب» ، فأتاهم فقال :

---

(١) ابن جرير ١٠/١١٩ .

« قلتم كذا » . قالوا يا نبى الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم ما تسمعون. وقد روى نحو هذا من طرق عن جماعة من الصحابة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن نعف عن طائفة**﴾ قال : الطائفة : الرجل والنفر .

**﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)﴾** .

قوله : ﴿ **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض** ﴾ ذكر هاهنا جملة أحوال المنافقين ، وأن ذكورهم فى ذلك كإناثهم ، وأنهم متناهون فى النفاق والبعد عن الإيمان ، وفيه إشارة إلى نفى أن يكونوا من المؤمنين ، ورد لقولهم: ﴿**ويحلفون بالله إنهم لمنكم** ﴾ ثم فصل ذلك المجمل ببيان مضادة حالهم لحال المؤمنين (١) فقال : ﴿ **يأمرون بالمنكر** ﴾ وهو كل قبيح عقلا أو شرعا ﴿ **وينهون عن المعروف** ﴾ وهو كل حسن عقلا أو شرعا . قال الزجاج : هذا متصل بقوله : ﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ﴾ [التوبة: ٥٦] أى ليسوا من المؤمنين ، ولكن بعضهم من بعض ، أى متشابهون فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ﴿ **ويقبضون أيديهم** ﴾ أى يشحون فيما ينبغى إخراجه من المال فى الصدقة والصلة والجهاد فالقبض كناية عن الشح ، كما أن البسط كناية عن الكرم . والنسيان الترك ، أى تركوا ما أمرهم به ، فتركهم من رحمته وفضله ، لأن النسيان الحقيقى لا يصح إطلاقه على الله سبحانه ، وإنما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة المعروفة فى علم البيان ، ثم حكم عليهم بالفسق ، أى الخروج عن طاعة الله إلى معاصيه ، وهذا التركيب يفيد أنهم هم الكاملون فى الفسق . ثم بين مآل حال أهل النفاق والكفر بأنه ﴿**نار جهنم** ﴾ و﴿ **خالدين فيها** ﴾ حال مقدرة أى مقدرين الخلود . وفى هذه الآية دليل على أن وعد يقال فى الشر كما يقال فى الخير . ﴿ **هى حسبهم** ﴾ أى كافيتهم لا يحتاجون إلى زيادة على عذابها ، « و » مع ذلك فقد ﴿**لعنهم الله** ﴾ أى طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿ **ولهم عذاب مقيم** ﴾ أى نوع آخر من العذاب دائم لا ينفك عنهم .

---

(١) فى المطبوعة « المنافقين » ، والصحيح ما أثبتناه .

قوله : ﴿ **كالذين من قبلكم** ﴾ شبه حال المنافقين بالكفار الذين كانوا من قبلهم ملتفتا من الغيبة إلى الخطاب، والكاف محلها رفع على خبرية مبتدأ محذوف ، أى أنتم مثل الذين من قبلكم ، أو محلها نصب ، أى فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم من الأمم . وقال الزجاج : التقدير وعد الله الكفار نار جهنم وعدا كما وعد الذين من قبلكم ؛ وقيل : المعنى : فعلتم كأفعال الذين من قبلكم فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فحذف المضاف . ثم وصف حال أولئك الكفار الذين من قبلهم ، وبين وجه تشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين والكفار المعاصرين للنبى ﷺ ﴿ **قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا**[(١)] ﴾ أى تمتعوا ﴿ **بخلاقهم** ﴾ أى نصيبهم الذى قدره الله لهم من ملاذ الدنيا ﴿**فاستمتعم** ﴾ [(٢)] أنتم ﴿ **بخلاقكم** ﴾ أى نصيبكم الذى قدره الله لكم ﴿ **كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم** ﴾ أى انتفعتم به كما انتفعوا به ، والغرض من هذا التمثيل ذم هؤلاء المنافقين والكفار بسبب مشابهتهم لمن قبلهم من الكفار فى الاستمتاع بما رزقهم الله . وقد قيل : ما فائدة ذكر الاستمتاع بالخلاق فى حق الأولين مرة ، ثم فى حق المنافقين ثانيا ، ثم تكريره فى حق الأولين ثالثا ؟ وأجيب بأنه تعالى ذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ، وحرمانهم عن سعادة الآخرة بسبب استغراقهم فى تلك الحظوظ ، فلما قرر تعالى هذا عاد فشبه حال المنافقين بحالهم فيكون ذلك نهاية فى المبالغة .

قوله : ﴿ **وخضتم كالذى خاضوا** ﴾ معطوف على ما قبله ، أى كالفوج الذى خاضوا ، أو كالخوض الذى خاضوا . وقيل : أصله كالذين فحذفت النون ، والأولى أن يقال : إن «الذى » اسم موصول مثل من وما ، يعبر به عن الواحد والجمع، يقال : خضت الماء أخوضه خوضا وخياضا ، والموضع مخاضة ، وهو ما جاز الناس فيه مشاة وركبانا ، وجمعها المخاض والمخاوض . ويقال منه : خاض القوم فى الحديث وتخاوضوا فيه ، أى تفاوضوا فيه ، والمعنى: خضتم فى أسباب الدنيا واللهو واللعب . وقيل : فى أمر محمد ﷺ بالتكذيب ، أى دخلتم فى ذلك ، والإشارة بقوله : ﴿**أولئك** ﴾ إلى المتصفين بهذه الأوصاف من المشبهين ، والمشبه بهم ﴿ **حبطت أعمالهم** ﴾ أى بطلت ، والمراد بالأعمال ما عملوه مما هو فى صورة طاعة، لا هذه الأعمال المذكورة هنا فإنها من المعاصى ، ومعنى : ﴿ **فى الدنيا و الآخرة** ﴾ أنها باطلة على كل حال : أما بطلانها فى الدنيا فلأن ما يترتب على أعمالهم فيها لا يحصل لهم بل يصير ما يرجونه من الغنى فقرا ، ومن العز ذلا ، ومن القوة ضعفا ، وأما فى الآخرة فلأنهم يصيرون إلى عذاب النار ولا ينتفعون بشىء مما عملوه من الأعمال التى يظنونها طاعة وقربة ﴿ **وأولئك هم الخاسرون** ﴾ أى المتمكنون فى الخسران الكاملون فيه فى الدنيا والآخرة .

﴿ **ألم يأتهم** ﴾ أى المنافقين ﴿ **نبأ الذين من قبلهم** ﴾ أى خبرهم الذى له شأن ، وهو ما

---

(١) فى المطبوعة : « استعمتوا » .  (٢) فى المطبوعة : « ما استمعتم » .

فعلوه وما فعل بهم ، ولما شبه حالهم بحالهم فيما سلف على الإجمال فى المشبه بهم ذكر منهم ههنا ست طوائف قد سمع العرب أخبارهم ، لأن بلادهم وهى الشام قريبة من بلاد العرب ، فالاستفهام للتقرير ، وأولهم : قوم نوح وقد أهلكوا بالإغراق ، وثانيهم : قوم عاد وقد أهلكوا بالريح العقيم ، وثالثهم : قوم ثمود وقد أخذوا بالصيحة، ورابعهم : قوم إبراهيم وقد سلط الله عليهم البعوض ، وخامسهم : أصحاب مدين وهم قوم شعيب وقد أخذتهم الرجفة ، وسادسهم : أصحاب المؤتفكات وهى قرى قوم لوط وقد أهلكهم الله بما أمطر عليهم من الحجارة ، وسميت مؤتفكات ؛ لأنها انقلبت بهم حتى صار عاليها سافلها ، والائتفاك : الانقلاب ﴿ **أتتهم رسلهم بالبينات** ﴾ أى رسل هذه الطوائف الست . وقيل : رسل أصحاب المؤتفكات لأن رسولهم لوط وقد بعث إلى كل قرية من قراهم رسولا ، والفاء فى ﴿ **فما كان الله ليظلمهم** ﴾ للعطف على مقدر يدل عليه الكلام ، أى فكذبوهم فأهلكهم الله فما ظلمهم بذلك ، لأنه قد بعث إليهم رسله فأنذروهم وحذروهم ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ بسبب مافعلوه من الكفر بالله وعدم الانقياد لأنبيائه ، وهذا التركيب يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان مستمرا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يأمرون بالمنكر** ﴾ قال : هو التكذيب ، قال : وهو أنكر المنكر ﴿**وينهون عن المعروف** ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما أنزل الله ، وهو أعظم المعروف . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ويقبضون أيديهم** ﴾ قال : لا يبسطونها بنفقة فى حق . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ قال : تركوا الله فتركهم من كرامته وثوابه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **كالذين من قبلكم** ﴾ قال : صنيع الكفار كالكفار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿ **كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وخضتم كالذى خاضوا** ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل أشبهناهم ، والذى نفسى بيده لتتبعنهم حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿**بخلاقهم**﴾ قال : بدينهم . وأخرجا أيضا عن أبى هريرة قال : الخلاق : الدين . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **فاستمتعوا بخلاقهم** ﴾ قال : بنصيبهم فى الدنيا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **وخضتم كالذى خاضوا** ﴾ قال : لعبتم كالذى لعبوا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **والمؤتفكات** ﴾ قال : قوم لوط ائتفكت بهم أرضهم ، فجعل عاليها سافلها .

---

(١) ابن جرير ١٠/١٢٢ .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ أى قلوبهم متحدة فى التوادد والتحابب والتعاطف بسبب ما جمعهم من أمر الدين وضمهم من الإيمان بالله ، ثم بين أوصافهم الحميدة كما بين أوصاف من قبلهم من المنافقين فقال : ﴿**يأمرون بالمعروف** ﴾ أى بما هو معروف فى الشرع غير منكر . ومن ذلك توحيد الله سبحانه وترك عبادة غيره ﴿ **وينهون عن المنكر** ﴾ أى عما هو منكر فى الدين غير معروف ، وخصص إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر من جملة العبادات لكونهما الركنين العظيمين فيما يتعلق بالأبدان والأموال ، وقد تقدم معنى هذا ﴿ **ويطيعون الله**﴾ فى صنع ما أمرهم بفعله أو نهاهم عن تركه ، والإشارة بـ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المؤمنين والمؤمنات المتصفين بهذه الأوصاف ، والسين فى ﴿**سيرحمهم الله** ﴾ للمبالغة فى إنجاز الوعد ﴿**إن الله عزيز** ﴾ لا يغالب ﴿ **حكيم** ﴾ فى أقواله وأفعاله .

ثم ذكر تفصيل ما يدخل تحت الرحمة إجمالا باعتبار الرحمة فى الدار الآخرة فقال : ﴿**وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ والإظهار فى موقع الإضمار لزيادة التقرير ؛ ومعنى جرى الأنهار من تحت الجنات : أنها تجرى تحت أشجارها وغرفها ، وقد تقدم تحقيقه فى البقرة . ﴿ **ومساكن طيبة** ﴾ أى منازل يسكنون فيها من الدر والياقوت، و﴿ **جنات عدن** ﴾ يقال : : عدن بالمكان : إذا أقام به ، ومنه : المعدن . قيل : هى أعلى الجنة . وقيل: أوسطها ، وقيل : قصور من ذهب لا يدخلها إلا نبى أو صديق أو شهيد . وصف الجنة بأوصاف ، الأول : جرى الأنهار من تحتها ، والثانى : أنهم فيها خالدون ، والثالث : طيب مساكنها ، والرابع : أنها دار عدن ، أى إقامة غير منقطعة ، هذا على ما هو معنى عدن لغة . وقيل: هو علم ، والتنكير فى ﴿ **رضوان**﴾ للتحقير ، أى ورضوان حقير يستر « من» رضوان ﴿ **الله أكبر** ﴾ من ذلك كله الذى أعطاهم الله إياه . وفيه دليل على أنه لا شىء من النعم وإن جلت وعظمت يماثل رضوان الله سبحانه ، وأن أدنى رضوان منه لا يساويه شىء من اللذات الجسمانية وإن كانت على غاية ليس وراءها غاية . اللهم ارض عنا رضا لا يشوبه سخط ولايكدره نكد ، يا من بيده الخير كله دقه وجله . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم مما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات ﴿ **هو الفوز العظيم** ﴾ دون كل فوز مما يعده الناس فوزا .

وقد أخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **يأمرون بالمعروف** ﴾ قال : يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله والنفقات فى سبيل الله وما كان من طاعة الله ﴿ **وينهون عن المنكر** ﴾ عن

الشرك والكفر قال : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة من فرائض الله كتبها الله على المؤمنين . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ قال : إخاؤهم فى الله يتحابون بجلال الله والولاية لله ، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الأحاديث ما هو معروف (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن الحسن قال : سألت عمران بن حصين وأبا هريرة عن تفسير قوله تعالى : ﴿**ومساكن طيبة فى جنات عدن**﴾ قالا : على الخبير سقطت ، سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: «قصر من لؤلؤة فى الجنة ، فى ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء ، فى كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء ، فى كل بيت سبعون سريرا ، على كل سرير سبعون فراشا من كل لون ، على كل فراش امرأة من الحور العين ، فى كل بيت سبعون مائدة ، فى كل مائدة سبعون لونا من كل طعام ، فى كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة فيعطى المؤمن من القوة فى كل غداة ما يأتى على ذلك كله ». وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **جنات عدن**﴾ قال : معدن الرجل الذى يكون فيه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : معدنهم فيها أبدا. وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿**ورضوان من الله أكبر**﴾ يعنى : إذا أخبروا أن الله عنهم راض ، فهو أكبر عندهم من التحف والتسنيم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون: ربنا ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحدا من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : يا ربنا وأى شىء أفضل من ذلك ؟ قال : أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبدا » (٢) .

**﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾** .

الأمر للنبى ﷺ بهذا الجهاد أمر لأمته من بعده ، وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم حتى يسلموا . وجهاد المنافقين يكون بإقامة الحجة عليهم حتى يخرجوا عنه ويؤمنوا بالله . وقال الحسن : إن جهاد المنافقين بإقامة الحدود عليهم ، واختاره قتادة . قيل فى توجيهه : إن المنافقين كانوا أكثر من يفعل موجبات الحدود . قال ابن العربى : إن هذه دعوى لا برهان عليها ،

---

(١) من هذه الأحاديث ما رواه ابن مسعود عن رسول الله ﷺ فى حديث طويل وهذا جزء منه : « كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا » رواه أبو داود والترمذى وقال : « حسن » .

(٢) البخارى فى التوحيد ( ٧٥١٨ ) ومسلم فى الجنة ( ٩/٢٨٢٩ ) والترمذى فى الجنة ( ٢٥٥٥ ) وقال : « حسن صحيح » .

وليس العاصى بمنافق ، إنما المنافق بما يكون فى قلبه من النفاق دائما لا بما تتلبس به الجوارح ظاهرا ، وأخبار المحدودين تشهد بسياقتها أنهم لم يكونوا منافقين . قوله : ﴿ **واغلظ عليهم** ﴾ الغلظ : نقيض الرأفة ، وهو شدة القلب وخشونة الجانب ، قيل : وهذه الآية نسخت كل شىء من العفو والصلح والصفح ، ثم ذكر من خصال المنافقين أنهم يحلفون الأيمان الكاذبة ، فقال : ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا** ﴾ .

وقد اختلف أئمة التفسير فى سبب نزول هذه الآية ، فقيل : نزلت فى الجلاس بن سويد ابن الصامت ووديعة بن ثابت[1] ، وذلك أنه لما كثر نزول القرآن فى غزوة تبوك فى شأن المنافقين وذمهم ، فقالا : لئن كان محمد صادقا على إخواننا الذين هم ساداتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير ، فقال له عامر بن قيس : أجل والله إن محمدا لصادق مصدق ، وإنك لشر من الحمار ؛ وأخبر عامر بذلك النبى ﷺ، وجاء الجلاس فحلف بالله أن عامرا لكاذب ، وحلف عامر لقد قال ، وقال : اللهم أنزل على نبيك شيئا فنزلت . وقيل : إن الذى سمع ذلك عاصم بن عدى . وقيل : حذيفة . وقيل : بل سمعه ولد امرأته ، أى امرأة الجلاس ، واسمه عمير بن سعد ، فهم الجلاس بقتله لئلا يخبر بخبره . وقيل : إن هذه الآية نزلت فى عبد الله بن أبى رأس المنافقين لما قال : ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل :سمن كلبك يأكلك [2]، و﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ [ المنافقون:٨] . فأخبر النبى ﷺ بذلك ، فجاء عبد الله بن أبى فحلف أنه لم يقله . وقيل: إنه قول جميع المنافقين وأن الآية نزلت فيهم ، وعلى تقدير أن القائل واحد أو اثنان فنسبة القول إلى جميعهم هى باعتبار موافقة من لم يقل ولم يحلف من المنافقين لمن قد قال وحلف . ثم رد الله على المنافقين وكذبهم وبين أنهم حلفوا كذبا ، فقال : ﴿**ولقد قالوا كلمة الكفر** ﴾ وهى ما تقدم بيانه على اختلاف الأقوال السابقة ﴿ **وكفروا بعد إسلامهم** ﴾ أى كفروا بهذه الكلمة بعد إظهارهم للإسلام وإن كانوا كفارا فى الباطن . والمعنى : أنهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة إسلامهم.

قوله : ﴿ **وهموا بما لم ينالوا** ﴾ قيل : هو همهم بقتل رسول الله ﷺ ليلة العقبة فى غزوة تبوك . وقيل : هموا بعقد التاج على رأس عبد الله بن أبى . وقيل : هو هم الجلاس بقتل من سمعه يقول تلك المقالة ، فأخبر رسول الله ﷺ . قوله: ﴿**وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله** ﴾ أى وما عابوا وأنكروا إلا ما هو حقيق بالمدح والثناء . وهو إغناء الله لهم من فضله ، والاستثناء مفرغ من أعم العام ، وهو من باب قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

ومن باب قول الشاعر :

ما نقموا من بنى أمية إلا ... أنهم يحلمون إن غضبوا

فهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم . وقد كان هؤلاء المنافقون فى ضيق من العيش . فلما

(١) أسباب النزول للواحدى ص ١٤٣ وهو الجلاس بن سويد بن الصامت الأنصارى ، كان متهما بالنفاق نزل فيه : ﴿ فإن يتوبوا يك خيرا لهم ﴾ فتاب الجلاس وحسنت توبته . الإصابة ١/ ٢٤١ .

(٢) فى المطبوعة : «يأكك» ، والصحيح ما أثبتناه .

قدم النبى ﷺ المدينة اتسعت معيشتهم وكثرت أموالهم . قوله : ﴿ **فإن يتوبوا يك خيرا لهم** ﴾ أى فإن تحصل منهم التوبة والرجوع إلى الحق يكن ذلك الذى فعلوه من التوبة خيرا لهم فى الدين والدنيا . وقد تاب الجلاس بن سويد وحسن إسلامه ، وفى ذلك دليل على قبول التوبة من المنافق والكافر .

وقد اختلف العلماء فى قبولها من الزنديق ، فمنع من قبولها مالك وأتباعه ، لأنه لا يعلم صحة توبته إذ هو فى كل حين يظهر التوبة والإسلام . ﴿ **وإن يتولوا** ﴾ أى يعرضوا عن التوبة والإيمان ﴿ **يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا** ﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال « و » فى ﴿ **الآخرة** ﴾ بعذاب النار ﴿ **وما لهم فى الأرض من ولى** ﴾ يواليهم ﴿**ولانصير**﴾ينصرهم .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن كعب بن مالك قال : لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين قال الجلاس : والله لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شر من الحمير ، فسمعها عمير ابن سعد. فقال : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلى وأحسنهم عندى أثرا وأعزهم على أن يدخل عليه شىء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ، ولئن سكت عنها لتهلكنى، ولإحداهما أشد على من الأخرى ، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس ، فحلف بالله ما قال ولكن كذب على عمير ، فأنزل الله : ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا** ﴾ الآية(١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن أنس بن مالك قال : سمع زيد بن أرقم رجلا من المنافقين يقول والنبى ﷺ يخطب : إن كان هذا صادقا لنحن شر من الحمير ؛ قال زيد : هو والله صادق وأنت شر من الحمار ، فرفع ذلك إلى النبى ﷺ فجحد القائل ، فأنزل الله : ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا** ﴾ الآية(٢). وأخرج ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالسا فى ظل شجرة فقال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعينى شيطان، فإذا جاءكم فلا تكلموه » ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «علام تشتمنى أنت وأصحابك »، فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، وأنزل الله: ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا**﴾ الآية (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلين اقتتلا ، أحدهما من جهينة والآخر من غفار ، وكانت جهينة حلفاء الأنصار،فظهر الغفارى على الجهنى، فقال عبد الله بن أبى للأوس : انصروا أخاكم ، والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك ، والله ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ [ المنافقون : ٨ ] . فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله

---

(١) ابن إسحاق ٢/ ١٦٠ ، ١٦١ والصواب والله أعلم أنه من كلام ابن إسحاق وليس من كلام كعب . والمشهور فى القصة أنها كانت فى غزوة بنى المصطلق كما قال ابن كثير٣/ ٤٢٤ .

(٢) البيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٨٢ من رواية عامر بن قيس . (٣) ابن جرير ١٠/ ١٢٨ .

﴿يحلفون بالله﴾ الآية[١] . وفى الباب أحاديث مختلفة فى سبب نزول هذه الآية ، وفيما ذكرناه كفاية .

وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ قال : هم رجل يقال له الأسود بقتل النبى ﷺ . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ وهموا بما لم ينالوا﴾ قال: أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبى بتاج . وأخرج ابن ماجة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : قتل رجل على عهد رسول الله ﷺ فجعل ديته اثنى عشر ألفا ، وذلك قوله : ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ قال : بأخذهم الدية[٢] .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

اللام الأولى وهى : ﴿ لئن آتانا ﴾ الله ﴿ من فضله ﴾ لام القسم ، واللام الثانية وهى : ﴿ لنصدقن ﴾ لام الجواب للقسم والشرط . ومعنى ﴿ لنصدقن ﴾ : لنخرج الصدقة ، وهى أعم من المفروضة وغيرها ﴿ ولنكونن من الصالحين ﴾ أى من جملة أهل الصلاح من المؤمنين القائمين بواجبات الدين التاركين لمحرماته ﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴾ أى لما أعطاهم ما طلبوا من الرزق بخلوا به ، أى بما آتاهم من فضله فلم يتصدقوا بشىء منه كما حلفوا به ﴿وتولوا ﴾ أى أعرضوا عن طاعة الله وإخراج صدقات ما أعطاهم الله من فضله ، والحال أنهم ﴿معرضون﴾ فى جميع الأوقات قبل أن يعطيهم الله ما أعطاهم من الرزق وبعده .

قوله : ﴿ فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ﴾ الفاعل : هو الله سبحانه ، أى فأعقبهم الله بسبب البخل الذى وقع منهم والإعراض نفاقا كائنا فى قلوبهم ، متمكنا منها ، مستمرا فيها إلى يوم يلقون الله عز وجل . وقيل : إن الضمير يرجع إلى البخل ، أى فأعقبهم البخل بما عاهدوا الله عليه نفاقا كائنا فى قلوبهم إلى يوم يلقون بخلهم ، أى جزاء بخلهم . ومعنى ﴿ فأعقبهم ﴾ : أن الله سبحانه جعل النفاق المتمكن فى قلوبهم إلى تلك الغاية عاقبة ما وقع منهم من البخل ، والباء فى ﴿ بما أخلفوا الله ما وعدوه ﴾ للسببية ، أى بسبب إخلافهم لما وعدوه من التصدق والصلاح ، وكذلك الباء فى ﴿ وبما كانوا يكذبون ﴾ أى وبسبب تكذيبهم بما جاء به رسول الله ﷺ .

---

(١) ابن جرير ١٠/١٢٨ . (٢) ابن ماجة فى الديات (٢٦٣٢) وابن جرير ١٠/١٢٩ والبيهقى ٨/٧٨ .

ثم أنكر عليهم فقال : ﴿ **ألم يعلموا** ﴾ أى المنافقون . وقرئ بالفوقية خطابا للمؤمنين . ﴿ **أن الله يعلم سرهم ونجواهم** ﴾ أى جميع ما يسرونه من النفاق وجميع ما يتناجون به فيما بينهم من الطعن على النبى ﷺ وعلى أصحابه، وعلى دين الإسلام ﴿ **وأن الله علام الغيوب** ﴾ فلا يخفى عليه شىء من الأشياء المغيبة كائنا ماكان، ومن جملة ذلك ما يصدر عن المنافقين .

قوله : ﴿ **الذين يلمزون المطوعين** ﴾ الموصول محله النصب ، أو الرفع على الذم ، أو الجر بدلا من الضمير فى سرهم ونجواهم ، ومعنى ﴿ **يلمزون** ﴾ :يعيبون . وقد تقدم تحقيقه ، والمطوعين أى المتطوعين ، والتطوع : التبرع ، والمعنى : أن المنافقين كانوا يعيبون المسلمين إذا تطوعوا بشىء من أموالهم وأخرجوه للصدقة فكانوا يقولون : ما أغنى الله عن هذا ، ويقولون: ما فعلوا هذا إلا رياء ، ولم يكن لله خالصا ، و﴿ **فى الصدقات** ﴾ متعلق بيلمزون ، أى يعيبونهم فى شأنها . قوله : ﴿ **والذين لا يجدون إلا جهدهم** ﴾ معطوف على المطوعين ، أى يلمزون المتطوعين ، ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم . وقيل : معطوف على المؤمنين ، أى يلمزون المتطوعين من المؤمنين ، ومن الذين لا يجدون إلا جهدهم ، وقرئ : «جهدهم» بفتح الجيم ، والجهد بالضم : الطاقة ، وبالفتح : المشقة . وقيل : هما لغتان ومعناهما واحد وقد تقدم بيان ذلك . والمعنى : أن المنافقين كانوا يعيبون فقراء المؤمنين الذين كانوا يتصدقون بما فضل عن كفايتهم . قوله : ﴿ **فيسخرون منهم**﴾ معطوف على ﴿ **يلمزون** ﴾ أى يستهزئون بهم لحقارة ما يخرجونه فى الصدقة مع كون ذلك جهد المقل وغاية ما يقدر عليه ويتمكن منه . قوله : ﴿ **سخر الله منهم** ﴾ أى جازاهم على ما فعلوه من السخرية بالمؤمنين بمثل ذلك فسخر الله منهم بأن أهانهم وأذلهم وعذبهم ، والتعبير بذلك من باب المشاكلة كما فى غيره . وقيل: هو دعاء عليهم بأن يسخر الله بهم كما سخروا بالمسلمين ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ أى ثابت مستمر شديد الألم . وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والعسكرى فى الأمثال والطبرانى وابن منده والباوردى وأبو نعيم وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر عن أبى أمامة الباهلى قال : جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، قال : « ويلك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه » قال : يا رسول الله، ادع الله أن يرزقنى مالا ، قال : «ويحك يا ثعلبة ، أما تحب أن تكون مثلى ، فلو شئت أن يسير ربى هذه الجبال معى ذهبا لسارت » . فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالا ، فوالذى بعثك بالحق إن آتانى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه ، قال : « ويحك يا ثعلبة ، قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه » ، قال : يا رسول الله ، ادع الله تعالى . فقال رسول الله ﷺ: « اللهم ارزقه مالا » . قال : فاتخذ غنما فنمت كما تنمو الدود حتى ضاقت بها المدينة . فتنحى بها فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله ﷺ ولا يشهدها بالليل ، ثم نمت كما تنمو الدود فتنحى بها ، فكان لا يشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول الله ﷺ ، ثم نمت كما تنمو الدود فضاق بها مكانه . فتنحى بها فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله ﷺ ، فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار ، وفقده رسول الله ﷺ فسأل عنه . فأخبروه أنه اشترى غنما ، وأن المدينة ضاقت به وأخبروه خبره ، فقال رسول الله ﷺ : « ويح ثعلبة بن حاطب ، ويح ثعلبة بن حاطب » ؛ ثم إن الله تعالى أمر رسوله أن يأخذ

الصدقات ، وأنزل : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ الآية [ التوبة : ١٠٣ ] فبعث رسول الله ﷺ رجلين ، رجلا من جهينة ورجلا من بنى سلمة يأخذان الصدقات ، وكتب لهما أسنان الإبل والغنم كيف يأخذانها على وجوهها ، وأمرهما أن يمرا على ثعلبة بن حاطب وبرجل من بنى سليم، فخرجا فمرا بثعلبة فسألا الصدقة ، فقال : أرياني كتابكما ، فنظر فيه فقال : ما هذه إلا جزية، انطلقا حتى تفرغا ثم مرا إلى ، فانطلقا ، وسمع بهما السلمى فاستقبلهما بخيار إبله ، فقالا : إنما عليك دون هذا ، فقال : ما كنت أتقرب إلى الله إلا بخير مالى ، فقبلا ، فلما فرغا مرا بثعلبة ، فقال : أرياني كتابكما ، فنظر فيه فقال : ما هذه إلا جزية ، انطلقا حتى أرى رأيى ، فانطلقا حتى قدما المدينة ، فلما رآهما رسول الله ﷺ قال قبل أن يكلمهما : «ويح ثعلبة بن حاطب » ، ودعا للسلمى بالبركة ، وأنزل الله : ﴿ **ومنهم من عاهد الله** ﴾ الثلاث الآيات ، قال : فسمع بعض أقارب ثعلبة ، فأتى ثعلبة فقال : ويحك يا ثعلبة أنزل فيك كذا وكذا ، قال: فقدم ثعلبة على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله هذه صدقة مالى ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله قد منعنى أن أقبل منك » ، فجعل يبكى ويحثى التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ : « هذا عملك بنفسك ، أمرتك فلم تطعنى » ، فلم يقبل منه رسول الله ﷺ حتى مضى، ثم أتى أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر ، اقبل منى صدقتى ، فقد عرفت منزلتى من الأنصار ، فقال أبو بكر : لم يقبلها رسول الله ﷺ وأقبلها ؟ فلم يقبلها أبو بكر ؛ ثم ولى عمر بن الخطاب فأتاه فقال : يا أبا حفص يا أمير المؤمنين ، اقبل منى صدقتى، قال : ويثقل عليه بالمهاجرين والأنصار وأزواج النبى ﷺ ، فقال عمر : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر أقبلها أنا ؟ فأبى أن يقبلها ؛ ثم ولى عثمان فسأله أن يقبل صدقته ، فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقبلها منه ، فهلك فى خلافة عثمان ، وفيه نزلت : ﴿ **الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات** ﴾ قال : وذلك فى الصدقة ، وهذا الحديث هو مروى من حديث معاذ بن رفاعة عن على بن زيد عن أبى عبدالرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الله بن يزيد بن معاوية عن أبى أمامة الباهلى (١) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومنهم من عاهد الله**﴾ الآية ، وذلك أن رجلا كان يقال له ثعلبة من الأنصار أتى مجلسا فأشهدهم فقال : لئن آتانى الله من فضله آتيت كل ذى حق حقه ، وتصدقت منه ، وجعلت منه للقرابة ؛ فابتلاه الله فآتاه من فضله فأخلف ما وعده، فأغضب الله بما أخلفه ما وعده ، فقص الله شأنه فى القرآن (٢) . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أن رجلا من الأنصار هو الذى قال هذا ، فمات ابن عم له فورث منه مالا فبخل به ولم يف بما عاهد الله عليه ، فأعقبه

(١) الطبرانى (٧٨٧٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٣٤ ، ٣٥: « وفيه على بن يزيد الألهانى وهو متروك » وابن جرير ١٠/ ١٣٠ ، ١٣١ ، والواحدى فى أسباب النزول ١٤٥ ، ١٤٦ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٨٩ ـ ٢٩٢ .
وهذا الحديث مشهور بين أهل التفسير ، وإنما يروى موصولا بأسانيد ضعاف ، فإن كان امتناعه من قبول توبته وقبول صدقته محفوظا ، فكأنه عرف نفاقه قديما ثم زيادة نفاقه وموته عليه ثم أنزل الله تعالى عليه من الآية حديثا فلم ير كونه من أهل الصدقة فلم يأخذها منه . وذكرها ابن كثير فى التاريخ وفى التفسير .

(٢) ابن جرير ١٠/ ١٣٠ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٨٩ .

بذلك نفاقا فى قلبه إلى أن يلقاه ، قال ذلك ﴿ **بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون** ﴾ .
وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى مسعود (١) قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشىء كثير ، فقالوا : مراء ؛ وجاء أبو عقيل بنصف صاع ، فقال المنافقون : إن الله لغنى عن صدقة هذا ، فنزلت ﴿ **الذين يلمزون المطوعين** ﴾ الآية (٢) ، وفى الباب روايات كثيرة . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿**الذين يلمزون المطوعين** ﴾ أى يطعنون على المطوعين .

﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)** ﴾ .

أخبر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن صدور الاستغفار منه للمنافقين وعدمه سواء ، وذلك لأنهم ليسوا بأهل لاستغفاره ﷺ ولا للمغفرة من الله سبحانه لهم ، فهو كقوله تعالى : ﴿ قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم﴾ [ التوبة : ٥٣ ] ثم قال : ﴿ **إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ وفيه بيان لعدم المغفرة من الله سبحانه للمنافقين وإن أكثر النبى ﷺ من الاستغفار لهم ، وليس المراد من هذا : أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولا كما فى سائر مفاهيم الأعداد ، بل المراد بهذا : المبالغة فى عدم القبول . فقد كانت العرب تجرى ذلك مجرى المثل فى كلامهاعند إرادة التكثير ، والمعنى : أنه لن يغفر الله لهم وإن استغفرت لهم استغفارا بالغا فى الكثرة غاية المبالغ . وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن التقييد بهذا العدد المخصوص يفيد قبول الزيادة عليه ، ويدل لذلك ما سيأتى عن النبى ﷺ أنه قال : « لأزيدن على السبعين » . وذكر بعضهم لتخصيص السبعين وجها فقال : إن السبعة عدد شريف ؛ لأنها عدد السموات والأرضين والبحار والأقاليم والنجوم السيارة والأعضاء وأيام الأسبوع ، فصير كل واحد من السبعة إلى عشرة ؛ لأن الحسنة بعشرة أمثالها . وقيل : خصت السبعون بالذكر لأنه ﷺ كبر على عمه الحمزة سبعين تكبيرة ، فكأنه قال : إن تستغفر لهم سبعين مرة بإذاء تكبيراتك على حمزة . وانتصاب ﴿ **سبعين** ﴾ على المصدر كقولهم : ضربته عشرين ضربة . ثم علل عدم المغفرة لهم بقوله : ﴿ **ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله** ﴾ أى ذلك الامتناع بسبب كفرهم بالله ورسوله ﴿ **والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ أى المتمردين الخارجين عن الطاعة المتجاوزين

---

(١) فى المخطوطة «ابن مسعود» ، والصحيح ما أثبتناه كما فى مراجع التخريج .
(٢) البخارى فى الزكاة (١٤١٥) وفى التفسير (٤٦٦٨) ومسلم فى الزكاة (١٠١٨/ ٧٢) والنسائى فى التفسير (٢٤٣) .

لحدودها ، والمراد هنا الهداية الموصلة إلى المطلوب ، لا الهداية التى بمعنى الدلالة وإراءة الطريق.

ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين فقال : ﴿ **فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله** ﴾ المخلفون : المتروكون ، وهم الذين استأذنوا رسول الله ﷺ من المنافقين ، فأذن لهم وخلفهم بالمدينة فى غزوة تبوك ، أو الذين خلفهم الله وثبطهم ، أو الشيطان أو كسلهم أو المؤمنون ، ومعنى ﴿ **بمقعدهم** ﴾ أى بقعودهم يقال : قعد قعودا ومقعدا ، أى جلس ، وأقعده غيره ، ذكر معناه الجوهرى فهو متعلق بفرح ، أى فرح المخلفون بقعودهم ، ﴿ **وخلاف رسول الله** ﴾ منتصب على أنه ظرف لمقعدهم . قال الأخفش ويونس : الخلاف بمعنى الخلف ، أى بعد رسول الله ﷺ ، وذلك أن جهة الأمام التى يقصدها الإنسان تخالفها جهة الخلف . وقال قطرب والزجاج : معنى خلاف رسول الله مخالفة الرسول حين سار وأقاموا فانتصابه على أنه مفعول له ، أى قعدوا لأجل المخافة ، أو على الحال مثل : وأرسلها العراك ، أى مخالفين له، ويؤيد ما قاله الأخفش ويونس قراءة أبى حيوة : « خلف رسول الله » . قوله : ﴿ **وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله** ﴾ سبب ذلك الشح بالأموال والأنفس ، وعدم وجود باعث الإيمان ، وداعى الإخلاص ووجود الصارف عن ذلك ، وهو ما هم فيه من النفاق ، وفيه تعريض بالمؤمنين الباذلين لأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله لوجود الداعى معهم ، وانتفاء الصارف عنهم ﴿ **وقالوا لا تنفروا فى الحر** ﴾ أى قال المنافقون لإخوانهم هذه المقالة تثبيطا لهم، وكسرا لنشاطهم ، وتواصيا بينهم بالمخالفة لأمر الله ورسوله ، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم : ﴿ **نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون** ﴾ والمعنى : أنكم أيها المنافقون كيف تفرون من هذا الحر اليسير ، ونار جهنم التى ستدخلونها خالدين فيها أبدا أشد حرا مما فررتم منه ، فإنكم إنما فررتم من حر يسير فى زمن قصير ، ووقعتم فى حر كثير فى زمن كبير ، بل غير متناه أبد الآبدين ، ودهر الداهرين .

فكنت كالساعى إلى مثعب       موائلا من سبل الراعد

وجواب « لو » فى ﴿ **لو كانوا يفقهون** ﴾ مقدر ، أى لو كانوا يفقهون أنها كذلك لما فعلوا ما فعلوا .

قوله : ﴿ **فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا** ﴾ هذان الأمران معناهما الخبر ، والمعنى : فسيضحكون قليلا ، ويبكون كثيرا ، وإنما جىء بهما على لفظ الأمر للدلالة على أن ذلك أمر محتوم لا يكون غيره . وقليلا وكثيرا منصوبان على المصدرية أو الظرفية ، أى ضحكا قليلا وبكاء كثيرا . أو زمانا قليلاً وزمانًا كثيرا ﴿ **جزاء بما كانوا يكسبون** ﴾ أى جزاء بسبب ما كانوا يكسبونه من المعاصى ، وانتصاب ﴿ **جزاء** ﴾ على المصدرية ، أى يجزون جزاء ﴿ **فإن رجعك الله إلى طائفة منهم** ﴾ الرجع متعد كالرد والرجوع لازم ، والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها وإنما قال: ﴿ **إلى طائفة** ﴾ لأن جميع من أقام بالمدينة لم يكونوا منافقين بل كان فيهم غيرهم من المؤمنين لهم أعذار صحيحة ، وفيهم من المؤمنين من لا عذر له ، ثم عفا عنهم رسول الله

ﷺ . وتاب الله عليهم كالثلاثة الذين خلفوا ، وسيأتى بيان ذلك . وقيل : إنما قال : ﴿ **إلى طائفة** ﴾ لأن منهم من تاب على النفاق ، وندم على التخلف ﴿ **فاستأذنوك للخروج** ﴾ معك فى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه ﴿ **فقل** ﴾ لهم ﴿ **لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا** ﴾ أى قل لهم ذلك عقوبة لهم ، ولما فى استصحابهم من المفاسد كما تقدم فى قوله : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ﴾ [ التوبة : ٤٧ ] . وقرئ بفتح الياء من « معى » فى الموضعين . وقرئ بسكونها فيهما ، وجملة : ﴿ **إنكم رضيتم بالقعود أول مرة** ﴾ للتعليل ، أى لن تخرجوا معى ، ولن تقاتلوا ، لأنكم رضيتم بالقعود والتخلف أول مرة ، وهى غزوة تبوك. والفاء فى ﴿ **فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ لتفريع ما بعدها على ما قبلها ، والخالفين جمع خالف ، كأنهم خلفوا الخارجين ، والمراد بهم: من تخلف عن الخروج . وقيل : المعنى : فاقعدوا مع الفاسدين . من قولهم : فلان خالف أهل بيته إذا كان فاسدا فيهم ، من قولك :خلف اللبن ، أى فسد بطول المكث فى السقاء . وذكر معناه الأصمعى . وقرئ :« فاقعدوا مع الخلفين » وقال الفراء : معناه : المخالفين .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عروة أن عبد الله بن أبى قال : لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله ، وهو القائل ﴿ ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ [المنافقون : ٨ ] . فأنزل الله : ﴿**استغفر لهم أو لا تستغفر لهم** ﴾ فقال النبى ﷺ : «لأزيدن على السبعين »، فأنزل الله : ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾[1] [ المنافقون : ٦ ] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد نحوه [2] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه . وأخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن أبى حاتم والنحاس وابن حبان وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : لما توفى عبد الله بن أبى دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام عليه ، فلما وقف قلت : أعلى عدو الله عبد الله بن أبى القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ، أعدد أيامه ، ورسول الله ﷺ يتبسم حتى إذا أكثرت قال : « يا عمر أخر عنى ، إنى قد خيرت ، قد قيل لى : ﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها » . ثم صلى عليه رسول الله ﷺ ومشى معه حتى قام على قبره ، حتى فرغ منه ، فعجبت لى ولجرأتى على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم . فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ **ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره** ﴾ فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعد حتى قبضه الله عز وجل [3] .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **فرح المخلفون** ﴾ الآية قال : عن

---

(١) ابن جرير ١٠/١٣٨ . (٢) ابن أبى شيبة ١٤/٤٢٨ (١٨٦٨٤) وابن جرير ١٠/١٣٨.
(٣) أحمد ١/١٦ والبخارى فى التفسير (٤٦٧١) وفى الجنائز (١٣٦٦) والترمذى فى التفسير (٣٠٩٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » والنسائى فى التفسير (٢٤٥) وأبو نعيم فى الحلية ١/٤٣.

غزوة تبوك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا معه ، وذلك فى الصيف ، فقال رجال : يا رسول الله ، الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلا تنفروا فى الحر ، فقال الله : ﴿ **قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون** ﴾ فأمره بالخروج (١) . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فليضحكوا قليلا وليبكواكثيرا** ﴾ قال : هم المنافقون والكفار الذين اتخذوا دينهم هزوا ولعبا . يقول الله : فليضحكوا قليلا فى الدنيا ، وليبكوا كثيرا فى الآخرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **فإن رجعك الله إلى طائفة منهم** ﴾ قال : ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر رجلا من المنافقين وفيهم قيل ما قيل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ قال : هم الرجال الذين تخلفوا عن الغزو .

**﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٨٧) ﴾** .

قوله :﴿ **مات** ﴾ صفة لأحد ، و ﴿ **أبدا** ﴾ ظرف لتأبيد النفى . قال الزجاج : معنى قوله: ﴿ **ولا تقم على قبره** ﴾ أن رسول الله ﷺ كان إذا دفن الميت وقف على قبره ، ودعا له ، فمنع ها هنا منه ؛ وقيل : معناه : لا تقم بمهمات إصلاح قبره . وجملة : ﴿ **إنهم كفروا** ﴾ : تعليل للنهى ، وإنما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر ؛ لأن الكافر قد يكون عدلا فى دينه، والكذب والنفاق والخداع والجبن والخبث مستقبحة فى كل دين ، ثم نهى رسوله عن أن تعجبه أموالهم وأولادهم ، وهو تكرير لما سبق فى هذه السورة وتقرير لمضمونه . وقيل : إن الآية المتقدمة فى قوم ، وهذه فى آخرين . وقيل : هذه فى اليهود . والأولى فى المنافقين ، وقيل : غير ذلك . وقد تقدم فى الآية الأولى جميع ما يحتاج إليه فى تفسير هذه الآية .

ثم عاد الله سبحانه إلى توبيخ المنافقين ، فقال : ﴿ **وإذا أنزلت سورة** ﴾ أى من القرآن ، ويجوز أن يراد بعض السورة، وأن يراد تمامها ، وقيل : هى هذه السورة ، أى سورة براءة ، و«أن» فى ﴿ **أن آمنوا بالله** ﴾ مفسرة لما فى الإنزال من معنى القول ؛ أو مصدرية حذف منها الجار ، أى بأن آمنوا ، وإنما قدّم الأمر بالإيمان لأن الاشتغال بالجهاد لا يفيد إلا بعد الإيمان : ﴿ **استأذنك أولو الطول منهم** ﴾ أى ذوو الفضل والسعة ، من طال عليه طولا ، كذا قال ابن عباس والحسن ، وقال الأصم : الرؤساء والكبراء المنظورإليهم ، وخصهم بالذكر لأن الذم لهم

(١) ابن جرير ١٠/١٣٩ .

ألزم ، إذ لا عذر لهم فى القعود ﴿ **وقالوا ذرنا**﴾ أى اتركنا ﴿ **نكن مع القاعدين** ﴾ أى المتخلفين عن الغزو من المعذورين كالضعفاء والزمنى ، والخوالف : النساء اللاتى يخلفن الرجال فى القعود فى البيوت . جمع خالفة ، وجوز بعضهم أن يكون جمع خالف ، وهو من لا خير فيه ﴿ **وطبع على قلوبهم** ﴾ هو كقوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ [ البقرة : ٧ ] وقد مر تفسيره ﴿ **فهم لا يفقهون** ﴾ شيئا مما فيه نفعهم وضرهم ، بل هم كالأنعام .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال : لما توفى عبد الله بن أبى بن سلول أتى ابنه عبد الله رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ﷺ ، فقام عمر فأخذ ثوبه فقال : يا رسول الله ، أتصلى عليه ، وقد نهاك الله أن تصلى على المنافقين ؟ فقال : « إن ربى خيرنى وقال : ﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ وسأزيد على السبعين » فقال : إنه منافق ، فصلى عليه فأنزل الله : ﴿ **ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا** ﴾ الآية، فترك الصلاة عليهم [(١)] . وأخرج ابن ماجة والبزار وابن جرير وابن مردويه عن جابر قال : مات رأس المنافقين بالمدينة فأوصى أن يصلى عليه النبى ﷺ وأن يكفنه فى قميصه ، فجاء ابنه إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إن أبى أوصى أن يكفن فى قميصك ، فصلى عليه وألبسه قميصه وقام على قبره ، فأنزل الله ﴿**ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره** ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿**أولو الطول** ﴾ قال : أهل الغنى. وأخرج هؤلاء عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **رضوا بأن يكونوا مع الخوالف** ﴾ قال : مع النساء . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال : رضوا بأن يقعدوا كما قعدت النساء . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : الخوالف النساء .

﴿ **لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)** ﴾ .

المقصود من الاستدراك بقوله : ﴿ **لكن الرسول** ﴾ إلى آخره الإشعار بأن تخلف هؤلاء غير ضائر ، فإنه قد قام بفريضة الجهاد من هو خير منهم وأخلص نية كما فى قوله : ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾ [ الأنعام : ٨٩ ] . وقد تقدم بيان الجهاد بالأموال والأنفس ، ثم ذكر منافع الجهاد فقال : ﴿**وأولئك لهم الخيرات** ﴾ وهى جمع خير فيشمل منافع الدنيا والدين ، وقيل : المراد به : النساء الحسان ، كقوله تعالى : ﴿فيهن خيرات حسان ﴾ [الرحمن: ٧٠ ] ومفرده خيرة بالتشديد ، ثم خففت مثل هينة وهينة : وقد تقدم معنى

(١) البخارى فى التفسير ( ٤٦٧٢ ) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم ( ٢٧٧٤ / ٣) والترمذى فى التفسير (٣٠٩٨) وقال : « هذا حديث صحيح » والنسائى فى التفسير ( ٢٤٤ ) وابن ماجة فى الجنائز ( ١٥٢٣ ) .

الفلاح والمراد هنا : الفائزون بالمطلوب، وتكرير اسم الإشارة لتفخيم شأنهم وتعظيم أمرهم ، والجنات: البساتين . وقد تقدم بيان جرى الأنهار من تحتها، وبيان الخلود والفوز ، والإشارة بقوله :﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدم من الخيرات والفلاح ، وإعداد الجنات الموصوفة بتلك الصفة، ووصف الفوز بكونه عظيمًا يدل على أنه الفرد الكامل من أنواع الفوز .

وقد أخرج القرطبى فى تفسيره عن الحسن أنه قال : الخيرات : هن النساء الحسان (١) .

**﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) ﴾ .**

قرأ الأعرج والضحاك : « المعذرون » بالتخفيف، من أعذر ، ورواها أبوكريب عن أبى بكر عن عاصم ورواها أصحاب القراءات عن ابن عباس . قال فى الصحاح : وكان ابن عباس يقرأ : « وجاء المعذرون » مخففة من أعذر ، ويقول: واللّه هكذا أنزلت . قال النحاس : إلا أن مدارها على الكلبى ، وهى من أعذر : إذا بالغ فى العذر ، ومنه :« من أنذر فقد أعذر » أى بالغ فى العذر . وقرأ الجمهور : ﴿ **المعذرون** ﴾ بالتشديد ففيه وجهان ، أحدهما : أن يكون أصله المعتذرون فأدغمت التاء فى الذال ، وهم الذين لهم عذر ، ومنه قول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

فالمعذرون على هذا : هم المحقون فى اعتذارهم . وقد روى هذا عن الفراء والزجاج وابن الأنبارى ، وقيل : هو من عذر، وهو الذى يعتذر ولا عذر له ، يقال : عذر فى الأمر : إذا قصر واعتذر بما ليس بعذر ، ذكره الجوهرى وصاحب الكشاف : فالمعذرون على هذا : هم المبطلون ، لأنهم اعتذروا بأعذار باطلة لا أصل لها . وروى عن الأخفش والفراء وأبى حاتم وأبى عبيد أنه يجوز كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها للاتباع ، والمعنى: أنه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاؤوا به من الأعذار بحق أو بباطل على كلا التفسيرين لأجل أن يأذن لهم رسول اللّه ﷺ بالتخلف عن الغزو ، وطائفة أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزو لغير عذر ، وهم منافقو الأعراب الذين كذبوا اللّه ورسوله ، ولم يؤمنوا ، ولا صدقوا ، ثم توعدهم اللّه سبحانه. فقال : ﴿ **سيصيب الذين كفروا منهم**﴾ أى من الأعراب ، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة ، والذين لم يعتذروا ، بل كذبوا باللّه ورسوله ﴿**عذاب أليم** ﴾ أى كثير الألم فيصدق على عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وجاء المعذرون من الأعراب** ﴾ أى أهل العذر منهم ، وروى ابن أبى حاتم عنه نحو ذلك . وأخرج ابن الأنبارى فى كتاب ( الأضداد ) عنه أيضا أنه كان يقول : « لعن اللّه المعذرين » ويقرأ بالتشديد كأن الأمر عنده أن المعذر

(١) القرطبى ٥/ ٣٠٦٣ .

بالتشديد : هو المظهر للعذر اعتلالا من غير حقيقة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن إسحاق فى قوله : ﴿ **وجاء المعذرون من الأعراب** ﴾ قال : ذكر لى أنهم نفر من بنى غفار جاؤوا فاعتذروا ، منهم خفاف بن إيماء ؛ وقيل : هم رهط عامر بن الطفيل قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طيئ على أهالينا ومواشينا .

﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٩٣)** ﴾ .

لما ذكر سبحانه المعذرين ذكر بعدهم أهل الأعذار الصحيحة المسقطة للغزو . وبدأ بالعذر فى أصل الخلقة . فقال : ﴿**ليس على الضعفاء** ﴾ وهم أرباب الزمانة والهرم والعمى والعرج ونحو ذلك ، ثم ذكر العذر العارض فقال : ﴿ **ولا على المرضى** ﴾ والمراد بالمرضى : كل ما يصدق عليه اسم المرض لغة أو شرعا . وقيل : إنه يدخل فى المرضى الأعمى ، والأعرج ونحوهما . ثم ذكر العذر الراجع إلى المال لا إلى البدن فقال : ﴿ **ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون** ﴾ أى ليست لهم أموال ينفقونها فيما يحتاجون إليه من التجهز للجهاد، فنفى سبحانه عن هؤلاء الحرج ، وأبان أن الجهاد مع هذه الأعذارساقط عنهم غير واجب عليهم مقيدا بقوله : ﴿ **إذا نصحوا لله ورسوله** ﴾ وأصل النصح إخلاص العمل من الغش . ومنه التوبة النصوح . قال نفطويه : نصح الشىء : إذا خلص . ونصح له القول ، أى أخلصه له . والنصح لله: الإيمان به والعمل بشريعته ، وترك ما يخالفها كائنًا ما كان، ويدخل تحته دخولا أوليا نصح عباده . ومحبة المجاهدين فى سبيله ، وبذل النصيحة لهم فى أمر الجهاد ، وترك المعاونة لأعدائهم بوجه من الوجوه ؛ ونصيحة الرسول ﷺ : التصديق بنبوته وبما جاء به ، وطاعته فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه . وموالاة من والاه ، ومعاداة من عاداه ، ومحبته وتعظيم سنته ، وإحياؤها بعد موته بما تبلغ إليه القدرة . وقد ثبت فى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ قال : «الدين النصيحة » ثلاثا ، قالوا : لمن ؟ قال : «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(١) وجملة : ﴿ **ما على المحسنين من سبيل** ﴾ مقررة لمضمون ما سبق ، أى ليس على المعذورين الناصحين من سبيل ، أى طريق عقاب ومؤاخذة . و« من » مزيدة للتأكيد ، وعلى هذا فيكون لفظ ﴿**المحسنين** ﴾ موضوعا فى موضع الضمير الراجع إلى المذكورين سابقا ، أو

---

(١) أحمد ٣٥١/١ ، ٢٩٧/٢ والبخارى فى الإيمان ( ٥٧ ) ومسلم فى الإيمان ( ٩٥/٥٥ ) وأبو داود فى الأدب (٤٩٤٤) والترمذى فى البر والصلة ( ١٩٢٦ ) وقال: « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى ١٥٦/٧، ١٥٧ .

يكون المراد : ما على جنس المحسنين من سبيل وهؤلاء المذكورون سابقا من جملتهم فتكون الجملة تعليلية ، وجملة ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ تذييلية . وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ [ البقرة : ٢٨٦ ] ، وقوله: ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ [ النور : ٦١ ] .

وإسقاط التكليف عن هؤلاء المعذورين لا يستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو لهم الذى عذرهم الله عنه مع رغبتهم إليه لولا حبسهم العذر عنه ، ومنه حديث أنس عند أبى داود وأحمد ، وأصله فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لقد تركتم بعدكم قوما ما سرتم من مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديا إلا وهم معكم فيه »، قالوا : يا رسول الله ، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ فقال: «حبسهم العذر» (١) . وأخرجه أحمد ومسلم من حديث جابر (٢) .

ثم ذكر الله سبحانه من جملة المعذورين من تضمنه قوله : ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه** ﴾ والعطف على جملة ﴿ **ما على المحسنين** ﴾ أى ولا على الذين إذا ما أتوك إلى آخره من سبيل ، ويجوز أن تكون عطفا على الضعفاء ، أى ولا على إذا ما أتوك إلى آخره حرج . والمعنى : أن من جملة المعذورين هؤلاء الذين أتوك لتحملهم على ما يركبون عليه فى الغزو فلم تجد ذلك الذى طلبوه منك . قيل : وجملة ﴿ **لا أجد ما أحملكم عليه** ﴾ فى محل نصب على الحال من الكاف فى ﴿ **أتوك** ﴾ بإضمار قد ، أى إذا ما أتوك قائلا . لا أجد . وقيل : هى بدل من أتوك . وقيل : جملة معترضة بين الشرط والجزاء ، والأول أولى . وقوله : ﴿**تولوا** ﴾ جواب « إذا » وجملة : ﴿ **وأعينهم تفيض من الدمع** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى تولوا عنك لما قلت لهم : لا أجد ما أحملكم عليه حال كونهم باكين ، و﴿**حزنا**﴾ منصوب على المصدرية ، أو على العلية ، أو الحالية ، و ﴿ **أن لا يجدوا** ﴾ مفعول له ، وناصبه ﴿ **حزنا** ﴾ وقال الفراء : إن « لا » بمعنى ليس ، أى حزنا أن ليس يجدوا . وقيل : المعنى : حزنا على ألا يجدوا . وقيل : المعنى : حزنا أنهم لا يجدون ما ينفقون ، لا عند أنفسهم ولا عندك .

ثم ذكر الله سبحانه من عليه السبيل من المتخلفين فقال : ﴿ **إنما السبيل** ﴾ أى طريق العقوبة والمؤاخذة ﴿**على الذين يستأذنوك** ﴾(٣) فى التخلف عن الغزو ، والحال أنهم ﴿**أغنياء**﴾ أى يجدون ما يحملهم وما يتجهزون به، وجملة : ﴿**رضوا بأن يكونوا مع الخوالف** ﴾ مستأنفة كأنه قيل : ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء ، وقد تقدم تفسير الخوالف قريبا . وجملة : ﴿ **وطبع الله على قلوبهم** ﴾ معطوفة على ﴿ **رضوا** ﴾ أى السبب الاستئذان مع الغنى أمران : أحدهما :

---

(١) أحمد ٣/١٠٣ ، ١٦٠ ، ١٨٢، ٢١٤ والبخارى فى المغازى ( ٤٤٢٣ ) وأبو داود فى الجهاد ( ٢٥٠٨ ) وابن ماجة فى الجهاد ( ٢٧٦٤ ) .

(٢) أحمد ٣/ ٣٠٠ ، ٣٤١ .

(٣) فى المطبوعة : « يستأذنوك » والصواب ما أثبتناه .

الرضا بالصفقة الخاسرة ، وهى أن يكونوا مع الخوالف ، والثانى : الطبع من اللّه على قلوبهم، **﴿فهم﴾** بسبب هذا الطبع **﴿ لا يعلمون ﴾** ما فيه الربح لهم حتى يختاروه على ما فيه الخسر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم والدارقطنى فى الأفراد ، وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول اللّه ﷺ فنزلت براءة ، فكنت أكتب ما أنزل عليه ، فإنى لواضع القلم عن أذنى إذ أمرنا بالقتال فجعل رسول اللّه ﷺ ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال : كيف بى يا رسول اللّه ، وأنا أعمى ؟ فنزلت : **﴿ ليس على الضعفاء ﴾** الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : أنزلت هذه الآية فى عابد بن عمر المزنى [١] . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال : نزل من عند قوله : **﴿ عفا الله عنك ﴾** إلى قوله : **﴿ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ﴾** فى المنافقين . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : **﴿ ما على المحسنين من سبيل﴾** قال : ما على هؤلاء من سبيل بأنهم نصحوا لله ورسوله ولم يطيقوا الجهاد فعذرهم اللّه وجعل لهم من الأجر ما جعل للمجاهدين . ألم تسمع أن اللّه يقول: ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ﴾ [النساء: ٩٥ ]. فجعل اللّه للذين عذر من الضعفاء ، وأولى الضرر والذين لا يجدون ما ينفقون من الأجر مثل ما جعل للمجاهدين . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : **﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾** قال : واللّه لأهل الإساءة ﴿غفور رحيم﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : **﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك ﴾** الآية ، قال: أمر رسول اللّه ﷺ أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد اللّه بن مغفل المزنى ، فقالوا : يا رسول اللّه ، احملنا ، فقال:«واللّه ما أجد ما أحملكم عليه » ، فتولوا ولهم بكاء ، وعزيز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملا ، فأنزل اللّه عذرهم : **﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك ﴾** الآية . وأخرج ابن سعد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عبد اللّه بن مغفل قال : إنى لا أجد الرهط الذين ذكر اللّه **﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾** الآية. وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال : هم سبعة نفر : من بنى عمر بن عوف سالم بن عمير،من بنى واقف حرمىّ بن عمرو ، ومن بنى مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى ، ومن بنى المعلى سلمان بن صخر ، ومن بنى حارثة عبد الرحمن بن زيد أبو عبلة ، ومن بنى سلمة عمرو بن غنمة وعبد اللّه بن عمرو المزنى . وقد اتفق الرواة على بعض هؤلاء السبعة . واختلفوا فى البعض ولا يأتى التطويل فى ذلك بكثير فائدة .

وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الزهرى ويزيد بن رومان وعبد اللّه بن أبى بكر ، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم ؛ أن رجالا من المسلمين أتوا رسول اللّه ﷺ وهم

(٤) ابن جرير : ١٠/ ١٤٥.

البكاؤون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم ، ثم ذكروا أسماءهم ، وفيه : فاستحملوا رسول الله ﷺ ، وكانوا أهل حاجة قال : ﴿ **لا أجد ما أحملكم عليه** ﴾ . وأخرج أبوالشيخ وابن مردويه عن الحسن قال : كان معقل بن يسار من البكائين الذين قال الله: ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم** ﴾ الآية. وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس بن مالك فى قوله : ﴿ **لا أجد ما أحملكم عليه** ﴾ قال : الماء والزاد . وأخرج ابن المنذر عن على بن صالح قال : حدثنى مشيخة من جهينة . قالوا : أدركنا الذين سألوا رسول الله ﷺ الحملان ، فقالوا : ما سألناه إلا الحملان على النعال . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن إبراهيم بن أدهم عمن حدثه فى قوله : ﴿**ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم** ﴾ قال : ما سألوه الدواب ما سألوه إلا النعال . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن بن صالح فى الآية قال : استحملوه النعال . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إنما السبيل على الذين يستأذنونك** ﴾ قال : هى وما بعدها إلى قوله : ﴿**إن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** ﴾ فى المنافقين .

**﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩) ﴾** .

قوله : ﴿ **يعتذرون إليكم** ﴾ إخبار من الله سبحانه عن المنافقين المعتذرين بالباطل بأنهم يعتذرون إلى المؤمنين إذا رجعوا من الغزو ، وهذا كلام مستأنف ، وإنما قال :﴿ **إليهم** ﴾ أى إلى المعتذرين بالباطل ولم يقل : إلى المدينة ؛ لأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم لا الرجوع إلى المدينة ، وربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول إليها . ثم أخبر الله سبحانه رسوله ﷺ بما يجيب به عليهم ، فقال : ﴿ **قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم** ﴾ فنهاهم أولا عن الاعتذار بالباطل ، ثم علله بقوله : ﴿ **لن نؤمن لكم** ﴾ أى لن نصدقكم ، كأنهم ادعوا أنهم صادقون فى اعتذارهم ، لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به ، فإذا عرف أنه لا يصدق ترك الاعتذار ، وجملة ﴿ **قد نبأنا الله من أخباركم** ﴾ تعليلية للتى قبلها ، أى لا يقع منا تصديق

لكم لأن اللّه قد أعلمنا بالوحى ما هو مناف لصدق اعتذاركم ، وإنما خص الرسول ﷺ بالجواب عليهم . فقال : ﴿قل لا تعتذروا﴾ مع أن الاعتذار منهم كائن إلى جميع المؤمنين ، لأنه ﷺ رأسهم ، والمتولى لما يرد عليهم من جهة الغير. ويحتمل أن يكون المراد بالضمير فى قوله: ﴿إليكم﴾ هو الرسول ﷺ على التأويل المشهور فى مثل هذا .

قوله :﴿ وسيرى اللّه عملكم ﴾ أى ما ستفعلونه من الأعمال فيما بعد هل تقلعون عما أنتم عليه الآن من الشر أم تبقون عليه ؟ وقوله : ﴿ ورسوله ﴾ معطوف على الاسم الشريف . ووسط مفعول الرؤية إيذانا بأن رؤية اللّه سبحانه لما سيفعلونه من خير أو شر هى التى يدور عليها الإثابة أو العقوبة . وفى جملة : ﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب ﴾ إلى آخرها تخويف شديد . لما هى مشتملة عليه من التهديد ، ولا سيما ما اشتملت عليه من وضع المضمر ، لإشعار ذلك بإحاطته بكل شىء يقع منهم مما يكتمونه ويتظاهرون به ، وإخباره لهم به ومجازاتهم عليه.

ثم ذكر أن هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكدون ما جاؤوا به من الأعذار الباطلة بالحلف عند رجوع المؤمنين إليهم من الغزو . وغرضهم من هذا التأكيد هو أن يعرض المؤمنون عنهم فلا يوبخونهم ، ولا يؤاخذونهم بالتخلف ، ويظهرون الرضا عنهم ، كما يفيده ذكر الرضا من بعد. وحذف المحلوف عليه لكون الكلام يدل عليه ، وهو اعتذارهم الباطل . وأمر المؤمنين بالإعراض عنهم المراد به تركهم والمهاجرة لهم . لا الرضا عنهم والصفح عن ذنوبهم . كما تفيده جملة : ﴿ إنهم رجس﴾ الواقعة علة للأمر بالإعراض ، والمعنى : أنهم فى أنفسهم رجس لكون جميع أعمالهم نجسة . فكأنها قد صيرت ذواتهم رجسا. أو أنهم ذوو رجس ، أى ذوو أعمال قبيحة. ومثله : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ [ التوبة : ٢٨ ] . وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متأهلين لقبول الإرشاد إلى الخير ، والتحذير من الشر . فليس لهم إلا الترك . وقوله: ﴿ومأواهم جهنم ﴾ من تمام التعليل . فإن من كان من أهل النار لا يجدى فيه الدعاء إلى الخير. والمأوى : كل مكان يأوى إليه الشىء ليلا أو نهارا . وقد أوى فلان إلى منزله يأوى أويا وإيواء. و ﴿ جزاء ﴾ منصوب على المصدرية، أو على العلية . والباء فى ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ للسببية ، وجملة : ﴿ يحلفون لكم ﴾ بدل مما تقدم ، وحذف هنا المحلوف به لكونه معلوما مما سبق ، والمحلوف عليه لمثل ما تقدم . وبين سبحانه أن مقصدهم بهذا الحلف هو رضا المؤمنين عنهم . ثم ذكر ما يفيد أنه لا يجوز الرضا عن هؤلاء المعتذرين بالباطل . فقال : ﴿ فإن ترضوا عنهم ﴾ كما هو مطلوبهم مساعدة لهم ﴿ فإن اللّه لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ وإذا كان هذا هو ما يريده اللّه سبحانه من عدم الرضا على هؤلاء الفسقة العصاة ، فينبغى لكم أيها المؤمنون أن لا تفعلوا خلاف ذلك بل واجب عليكم أن لا ترضوا عنهم على أن رضاكم عنهم

لو وقع لكان غير معتد به ولا مفيد لهم . والمقصود من إخبار اللّه سبحانه بعدم رضاه عنهم نهى المؤمنين عن ذلك ؛ لأن الرضا على من لا يرضى اللّه عليه مما لا يفعله مؤمن .

قوله : ﴿ **الأعراب أشد كفرا ونفاقا** ﴾ : لما ذكر الله سبحانه أحوال المنافقين بالمدينة ذكر حال من كان خارجا عنها من الأعراب ، وبين أن كفرهم ونفاقهم أشد من كفر غيرهم ومن نفاق غيرهم ؛ لأنهم أقسى قلبا ، وأغلظ طبعا ، وأجفى قولا، وأبعد عن سماع كتب اللّه ، وما جاءت به رسله . والأعراب : هم من سكن البوادى بخلاف العرب ، فإنه عام لهذا النوع من بنى آدم سواء سكنوا البوادى أو القرى ، هكذا قال أهل اللغة . ولهذا قال سيبويه : إن الأعراب صيغة جمع وليست بصيغة جمع العرب . قال النيسابورى : قال أهل اللغة : رجل عربى إذا كان نسبه إلى العرب ثابتا ، وجمعه عرب كالمجوسى والمجوس . واليهودى واليهود ؛ فالأعرابى إذا قيل له : يا عربى ، فرح ، وإذا قيل للعربى : يا أعرابى ، غضب. وذلك أن من استوطن القرى العربية فهو عربى ، ومن نزل البادية فهو أعرابى ، ولهذا لا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار : أعراب . وإنما هم عرب ، قال : قيل : إنماسمى العرب عربا ؛لأن أولاد إسماعيل عليه السلام نشؤوا بالعرب ، وهى من تهامة فنسبوا إلى بلدهم ، وكل من يسكن جزيرة العرب وينطق بلسانهم فهو منهم . وقيل : لأن ألسنتهم معربة عما فى ضمائرهم ، ولما فى لسانهم من الفصاحة والبلاغة . انتهى. ﴿ **وأجدر**﴾ معطوف على ﴿ **أشد** ﴾ . ومعناه : أخلق ، يقال : فلان جدير بكذا ، أى خليق به ، وأنت جدير أن تفعل كذا ، والجمع جدر أو جديرون ، وأصله من جدر الحائط ، وهو رفعه بالبناء. والمعنى : أنهم أحق وأخلق بألا يعلموا حدود ما أنزل اللّه من الشرائع والأحكام ، لبعدهم عن مواطن الأنبياء وديار التنزيل . ﴿ **واللّه عليم** ﴾ بأحوال مخلوقاته على العموم . وهؤلاء منهم ﴿**حكيم**﴾ فيما يجازيهم به من خير وشر .

قوله : ﴿ **ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما** ﴾ هذا تنويع لجنس إلى نوعين ، الأول : هؤلاء ، والثانى : ﴿**ومن الأعراب من يؤمن باللّه** ﴾ والمغرم : الغرامة والخسران ، وهو ثانى مفعولى يتخذ لأنه بمعنى الجُعل ، والمعنى : اعتقد أن الذى ينفقه فى سبيل اللّه غرامة وخسران، وأصل الغرم والغرامة : ما ينفقه الرجل وليس بلازم له فى اعتقاده ، ولكنه ينفقه للرياء والتقية ؛ وقيل : أصل الغرم : اللزوم كأنه اعتقد أنه يلزمه لأمر خارج لا تنبعث له النفس . و ﴿ **الدوائر** ﴾ جمع دائرة ، وهى الحالة المنقلبة عن النعمة إلى البلية . وأصلها ما يحيط بالشيء ، ودوائر الزمان : نوبه وتصاريفه ودوله ، وكأنها لا تستعمل إلا فى المكروه ، ثم دعا سبحانه عليهم بقوله: ﴿ **عليهم دائرة السوء** ﴾ وجعل ما دعا به عليهم مماثلا لما أرادوه بالمسلمين . و ﴿ **السوء** ﴾ بالفتح عند جمهور القراء مصدر أضيفت إليه الدائرة للملابسة كقولك: رجل صدق. وقرأ أبو عمرو وابن كثير بضم السين ، وهو المكروه. قال الأخفش: أى

عليهم دائرة الهزيمة والشرّ . وقال الفراء : ﴿عليهم دائرة السوء ﴾ : العذاب والبلاء . قال : والسوء بالفتح مصدر سؤته سوءا ومساءة ، وبالضم اسم لا مصدر ، وهو كقولك : دائرة البلاء والمكروه . ﴿والله سميع﴾ لما يقولونه ﴿ عليم ﴾ بما يضمرونه .

قوله : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ هذا النوع الثانى من أنواع الأعراب كما تقدم ، أى يصدق بهما ﴿ ويتخذ ما ينفق ﴾ أى يجعل ما ينفقه فى سبيل الله ﴿ قربات ﴾ وهى جمع قربة . وهى ما يتقرب به إلى الله سبحانه ، تقول منه قربت لله قربانا ، والجمع قرب وقربات ، والمعنى : أنه يجعل ما ينفقه سببا لحصول القربات ﴿ عند الله ﴾ و سببا لـ ﴿صلوات الرسول ﴾ أى لدعوات الرسول لهم ، لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين ، ومنه قوله: ﴿وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم ﴾ [ التوبة : ١٠٣ ] ومنه قوله ﷺ : «اللهم صل على آل أبى أوفى » (١) . ثم إنه سبحانه بين بأن ما ينفقه هذا النوع من الأعراب تقربا إلى الله مقبول واقع على الوجه الذى أرادوه فقال :﴿ ألا إنها قربة لهم ﴾ فأخبر سبحانه بقبولها خبرًا مؤكدا باسمية الجملة ، وحرفى التنبيه والتحقيق ، وفى هذا من التطييب لخواطرهم ، والتطمين لقلوبهم ما لا يقادر قدره ، مع ما يتضمنه من النعى على من يتخذ ما ينفق مغرما ، والتوبيخ له بأبلغ وجه ، والضمير فى ﴿ إنها ﴾ راجع إلى « ما » فى﴿ ما ينفق ﴾ ، وتأنيثه باعتبار الخبر . وقرأ نافع فى رواية عنه :« قُربة » بضم الراء ، وقرأ الباقون بسكونها تخفيفا ، ثم فسر سبحانه القربة بقوله : ﴿ سيدخلهم الله فى رحمته ﴾ والسين لتحقيق الوعد .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ قال : أخبرنا أنكم لو خرجتم ما زدتمونا إلا خبالا ، وفى قوله : ﴿ فأعرضوا عنهم ﴾ قال : لما رجع النبى ﷺ قال للمؤمنين: «لا تكلموهم ولا تجالسوهم»، فأعرضوا عنهم كما أمر الله . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ لتعرضوا عنهم ﴾ قال : لتجاوزوا عنهم . وأخرج أبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ الأعراب أشد كفرا ونفاقا ﴾ قال : من منافقى المدينة ﴿ وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ يعنى : الفرائضَ وما أمر به من الجهاد. وأخرج أبو الشيخ عن الكلبى أن هذه الآية نزلت فى أسد وغطفان . وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: « من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن »(٢) وإسناد أحمد هكذا : حدثنا عبد الرحمن ابن مهدى ، حدثنا سفيان عن أبى موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس عن النبى ﷺ

---

(١) أحمد ٤/ ٣٥٣ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ والبخارى فى الدعوات ( ٦٣٣٢ ) ومسلم فى الزكاة ( ١٠٧٨/ ١٧٦ ) وأبو داود فى الزكاة ( ١٥٩٠ ) والنسائى ٥/ ٣١ وابن ماجة فى الزكاة ( ١٧٩٦ ) .

(٢) أحمد ١/ ٣٥٧ وأبو داود فى الصيد (٢٨٥٩) والترمذى فى الفتن ( ٢٢٥٦ ) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » والنسائى ٧/ ١٩٥، ١٩٦ والبيهقى فى الشعب (٩٤٠٣) ط. الكتب العلمية . عن أبى هريرة وليس عن ابن عباس .

فذكره . قال فى التقريب : وأبو موسى عن وهب بن منبه مجهول من السادسة ، ووهم من قال : إنه إسرائيل بن موسى . وقال الترمذى بعد إخراجه : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثورى . وأخرج أبو داود والبيهقى من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد أحد من سلطانه قربا إلا ازداد من الله بعدا » (١) .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما** ﴾ قال: يعنى بالمغرم أنه لا يرجو له ثوابا عند الله ولا مجازاة ، وإنما يعطى من يعطى من الصدقات كرها . ﴿ **ويتربص بكم الدوائر** ﴾ المهلكات . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى الآية قال : هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين إنما ينفقون رياء اتقاء على أن يغزوا ويحاربوا، ويقاتلوا ، ويرون نفقاتهم مغرما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ومن الأعراب من يؤمن بالله** ﴾ قال : هم بنو مقرن من مزينة ، وهم الذين قال الله : ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن معقل قال : كنا عشرة ولد مقرن . فنزلت فينا : ﴿ **ومن الأعراب من يؤمن بالله** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وصلوات الرسول** ﴾ يعنى استغفار النبى ﷺ .

﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)** ﴾ .

---

(١) أحمد ٢/ ٣٧١ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ وأبو داود فى الصيد (٢٨٦٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ٢٤٩ : «رواه أحمد والبزار ، وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح خلا الحسن بن الحكم النخعى وهو ثقة » .

لما ذكر سبحانه أصناف الأعراب ذكر المهاجرين والأنصار . وبين أن منهم السابقين إلى الهجرة . وأن منهم التابعين لهم . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قرأ : «والأنصار » بالرفع على ﴿ **والسابقون** ﴾ وقرأ سائر القراء من الصحابة فمن بعدهم بالجر . قال الأخفش : الخفض فى الأنصار الوجه ؛ لأن السابقين منهم يدخلون فى قوله : ﴿**والسابقون**﴾ وفى الآية تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهم الذين صلوا القبلتين فى قول سعيد بن المسيب وطائفة . أو الذين شهدوا بيعة الرضوان. وهى بيعة الحديبية فى قول الشعبى. أو أهل بدر فى قول محمد بن كعب وعطاء بن يسار . ولا مانع من حمل الآية على هذه الأصناف كلها . قال أبو منصور البغدادى : أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة. ثم الستة الباقون . ثم البدريون . ثم أصحاب أحد . ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية .

قوله: ﴿ **والذين اتبعوهم بإحسان** ﴾ قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « الذين اتبعوهم» محذوف الواو وصفا للأنصار على قراءته برفع الأنصار . فراجعه فى ذلك زيد بن ثابت . فسأل أبى بن كعب فصدق زيدا فرجع عمر عن القراءة المذكورة كما رواه أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه . ومعنى ﴿ **الذين اتبعوهم بإحسان** ﴾ : الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار . وهم المتأخرون عنهم من الصحابة فمن بعدهم إلى يوم القيامة، وليس المراد بهم التابعين اصطلاحًا ، وهم كل من أدرك الصحابة ولم يدرك النبى ﷺ، بل هم من جملة من يدخل تحت الآية ، فتكون «من» فى قوله : ﴿ **من المهاجرين** ﴾ على هذا للتبعيض ، وقيل : إنها للبيان ، فيتناول المدح جميع الصحابة ، ويكون المراد بالتابعين : من بعدهم من الأمة إلى يوم القيامة . وقوله :﴿**بإحسان** ﴾ قيد للتابعين ، أى والذين اتبعوهم متلبسين بإحسان فى الأفعال والأقوال اقتداء منهم بالسابقين الأولين . قوله : ﴿ **رضى الله عنهم** ﴾ خبر للمبتدأ وما عطف عليه . ومعنى رضاه سبحانه عنهم : أنه قبل طاعاتهم وتجاوز عنهم ولم يسخط عليهم ﴿ **ورضوا عنه** ﴾ بما أعطاهم من فضله . ومع رضاه عنهم فقد ﴿ **أعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار** ﴾ فى الدار الآخرة . وقرأ ابن كثير :« تجرى من تحتها الأنهار » بزيادة «من ». وقرأ الباقون بحذفها والنصب على الظرفية، وقد تقدم تفسير جرى الأنهار من تحت الجنات، وتفسير الخلود والفوز .

قوله : ﴿ **وممن حولكم من الأعراب منافقون** ﴾ هذا عود إلى شرح أحوال المنافقين من أهل المدينة ، ومن يقرب منها من الأعراب ، ﴿ **وممن حولكم** ﴾ خبر مقدم ، و ﴿ **من الأعراب** ﴾ بيان ، وهو فى محل نصب على الحال ، ﴿**ومنافقون**﴾ هو المبتدأ . قيل : وهؤلاء الذين هم حول المدينة من المنافقين هم جهينة ومزينة وأشجع وغفار . وجملة ﴿**ومن أهل المدينة مردوا على النفاق** ﴾ معطوفة على الجملة الأولى عطف جملة على جملة . وقيل : إن من أهل المدينة عطف على الخبر فى الجملة الأولى . فعلى الأول يكون المبتدأ مقدرًا ، أى ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق ، وعلى الثانى يكون التقدير : وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة

منافقون مردوا ، ولكون جملة ﴿مردوا على النفاق﴾ مستأنفة لا محل لها ، وأصل مرد وتمرد: اللين والملاسة والتجرد ، فكأنهم تجردوا للنفاق، ومنه : غصن أمرد : لا ورق عليه ، وفرس أمرد : لا شعر فيه ، وغلام أمرد : لا شعر بوجهه ، وأرض مرداء : لا نبات فيها ، وصرح ممرد : مجرد ؛ فالمعنى : أنهم أقاموا على النفاق وثبتوا عليه ولم ينثنوا عنه . قال ابن زيد : معناه : لجوا فيه وأتوا غيره ، وجملة : ﴿ لا تعلمهم ﴾ مبينة للجملة الأولى ، وهى ﴿ مردوا على النفاق ﴾ أى ثبتوا عليه ثبوتا شديدا ومهروا فيه حتى خفى أمرهم على رسول الله ﷺ فكيف سائر المؤمنين ؟ والمراد عدم علمه ﷺ بأعيانهم لا من حيث الجملة ، فإن للنفاق دلائل لا تخفى عليه ﷺ، وجملة: ﴿ نحن نعلمهم ﴾ مقررة لما قبلها لما فيها من الدلالة على مهارتهم فى النفاق ورسوخهم فيه على وجه يخفى على البشر . ولا يظهر لغير الله سبحانه لعلمه بما يخفى وما تجنه الضمائر وتنطوى عليه السرائر . ثم توعدهم سبحانه فقال: ﴿ سنعذبهم مرتين﴾ قيل : المراد بالمرتين : عذاب الدنيا بالقتل والسبى ، وعذاب الآخرة ، وقيل : الفضيحة بانكشاف نفاقهم، والعذاب فى الآخرة . وقيل : المصائب فى أموالهم وأولادهم . وعذاب القبر ، وقيل غير ذلك مما يطول ذكره مع عدم الدليل على أنه المراد بعينه . والظاهر أن هذا العذاب المكرر هو فى الدنيا بما يصدق عليه اسم العذاب ، وأنهم يعذبون مرة بعد مرة ، ثم يردون بعد ذلك إلى عذاب الآخرة ، وهو المراد بقوله : ﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ ومن قال : إن العذاب فى المرة الثانية هو عذاب الآخرة قال : معنى قوله ﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ : أنهم يردون بعد عذابهم فى النار كسائر الكفار إلى الدرك الأسفل منها، أو أنهم يعذبون فى النار عذابا خاصا بهم دون سائر الكفار . ثم يردون بعد ذلك إلى العذاب الشامل لهم ولسائر الكفار .

ثم ذكر سبحانه حال طائفة من المسلمين وهم المخلطون فى دينهم فقال : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ وهو معطوف على قوله : ﴿ منافقون ﴾ أى وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة قوم آخرون . ويجوز أن يكون ﴿آخرون﴾ مبتدأ ، واعترفوا بذنوبهم صفته ، و﴿خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ خبره ، والمعنى : أن هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو لغير عذر مسوغ للتخلف ثم ندموا على ذلك ، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون ، بل تابوا واعترفوا بالذنب ورجوا أن يتوب الله عليهم . والمراد بالعمل الصالح : ما تقدم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام وخروجهم إلى الجهاد فى سائر المواطن . والمراد بالعمل السيئ : هو تخلفهم عن هذه الغزوة ، وقد أتبعوا هذا العمل السيئ عملا صالحا ، وهو الاعتراف به والتوبة عنه ، وأصل الاعتراف :الإقرار بالشىء . ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضى والعزم على تركه فى الحال والاستقبال ، وقد وقع منهم ما يفيد هذا كما سيأتى بيانه إن شاء الله . ومعنى الخلط : أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء . ويجوز أن تكون الواو بمعنى الباء كقولك : بعت الشاة شاة ودرهما[١] : أى بدرهم . وفى قوله : ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ دليل على أنه

(١) فى المطبوعة : «دردهما » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التوبة ، أو أن مقدمة التوبة وهى الاعتراف قامت مقام التوبة. وحرف الترجى وهو « عسى »هو فى كلام اللّه سبحانه يفيد تحقيق الوقوع ؛ لأن الإطماع من الله سبحانه إيجاب لكونه أكرم الأكرمين ﴿ **إن اللّه غفور رحيم**﴾ أى يغفر الذنوب ويتفضل على عباده.

قوله : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة** ﴾ اختلف أهل العلم فى هذه الصدقة المأمور بها ، فقيل: هى صدقة الفرض. وقيل : هى مخصوصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها ؛ لأنهم بعد التوبة عليهم عرضوا أموالهم على رسول اللّه ﷺ فنزلت هذه الآية، و « من » للتبعيض على التفسيرين ، والآية مطلقة مبينة بالسنة المطهرة . والصدقة مأخوذة من الصدق ، إذ هى دليل على صدق مخرجها فى إيمانه . قوله : ﴿ **تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ الضمير فى الفعلين للنبى ﷺ ، أى تطهرهم وتزكيهم يا محمد بما تأخذه من الصدقة منهم . وقيل : الضمير فى ﴿**تطهرهم**﴾ للصدقة ، أى تطهرهم هذه الصدقة المأخوذة منهم. والضمير فى ﴿ **تزكيهم** ﴾ للنبى ﷺ ، أى تزكيهم يا محمد بالصدقة المأخوذة . والأول أولى لما فى الثانى من الاختلاف فى الضميرين فى الفعلين المتعاطفين ، وعلى الأول فالفعلان منتصبان على الحال ، وعلى الثانى فالفعل الأول صفة لصدقة ، والثانى حال منه ﷺ . ومعنى التطهير : إذهاب ما يتعلق بهم من أثر الذنوب . ومعنى التزكية : المبالغة فى التطهير . قال الزجاج : والأجود أن تكون المخاطبة للنبى ﷺ، أى فإنك يا محمد تطهرهم وتزكيهم بها على القطع والاستئناف ، ويجوز الجزم على جواب الأمر ، والمعنى : أن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم . وقد قرأ الحسن : بجزم «تطهرهم ». وعلى هذه القراءة فيكون ﴿**وتزكيهم** ﴾ على تقدير مبتدأ ، أى وأنت تزكيهم بها . قوله : ﴿ **وصل عليهم** ﴾ أى ادع لهم بعد أخذك لتلك الصدقة من أموالهم. قال النحاس : وحكى أهل اللغة جميعًا فيما علمناه أن الصلاة فى كلام العرب :الدعاء . ثم علل سبحانه أمره لرسوله ﷺ بالصلاة على من يأخذ منه الصدقة فقال :﴿ **إن صلواتك سكن لهم** ﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائى ﴿**صلاتك** ﴾ بالتوحيد . وقرأ الباقون بالجمع ، والسكن : ما تسكن إليه النفس وتطمئن به .

قوله : ﴿ **ألم يعلموا أن اللّه هو يقبل التوبة عن عباده** ﴾ لما تاب اللّه سبحانه على هؤلاء المذكورين سابقا . قال اللّه: ﴿ **ألم يعلموا** ﴾ أى غير التائبين ، أو التائبون قبل أن يتوب اللّه عليهم ويقبل صدقاتهم ﴿ **أن اللّه هو يقبل التوبة**﴾ لاستغنائه عن طاعة المطيعين ، وعدم مبالاته بمعصية العاصين . وقرئ :« ألم تعلموا » بالفوقية ، وهو إما خطاب للتائبين ، أو لجماعة من المؤمنين ، ومعنى ﴿ **ويأخذ الصدقات** ﴾ ، أى يتقبلها منهم ، وفى إسناد الأخذ إليه سبحانه بعد أمره لرسوله ﷺ بأخذها تشريف عظيم لهذه الطاعة ولمن فعلها . وقوله : ﴿ **وأن اللّه هو التواب الرحيم**﴾ معطوف على قوله: ﴿ **أن اللّه هو يقبل التوبة عن عباده** ﴾ مع تضمنه لتأكيد ما اشتمل عليه المعطوف عليه ، أى أن هذا شأنه سبحانه . وفى صيغة المبالغة فى التواب وفى

الرحيم مع توسيط ضمير الفصل ، والتأكيد من التبشير لعباده والترغيب لهم مالا يخفى .

قوله : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾ فيه تخويف وتهديد ، أى إن عملكم لا يخفى على الله ولا على رسوله ولا على المؤمنين ، فسارعوا إلى أعمال الخير وأخلصوا أعمالكم لله عز وجل ، وفيه أيضا ترغيب وتنشيط ، فإن من علم أن عمله لا يخفى سواء كان خيرًا أو شرا رغب إلى أعمال الخير ، وتجنب أعمال الشر ، وما أحسن قول زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

والمراد بالرؤية هنا : العلم بما يصدر منهم من الأعمال ، ثم جاء سبحانه بوعيد شديد فقال: ﴿ **وستردون إلى عالم الغيب والشهادة** ﴾ أى وستردون بعد الموت إلى الله سبحانه الذى يعلم ما تسرونه وما تعلنونه وما تخفونه وما تبدونه . وفى تقديم الغيب على الشهادة إشعار بسعة علمه عز وجل ، وأنه لا يخفى عليه شيء ، ويستوى عنده كل معلوم ثم ذكر سبحانه ما سيكون عقب ردهم إليه فقال : ﴿ **فينبئكم** ﴾ أى يخبركم ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ فى الدنيا ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ويتفضل على من يشاء من عباده .

قوله : ﴿ **وآخرون مرجون لأمر الله** ﴾ ذكر سبحانه ثلاثة أقسام فى المتخلفين : الأول : المنافقون الذين مردوا على النفاق ، والثانى : التائبون المعترفون بذنوبهم ، الثالث : الذين بقى أمرهم موقوفا فى تلك الحال ، وهم المرجون لأمر الله ، من أرجيته وأرجأته : إذا أخرته . قرأ حمزة والكسائى ونافع وحفص : ﴿ **مرجون** ﴾ بالواو من غير همزة وقرأ الباقون بالهمزة المضمومة بعد الجيم ، والمعنى : أنهم مؤخرون فى تلك الحال لا يقطع لهم بالتوبة ولا بعدمها، بل هم على ما يتبين من أمر الله سبحانه فى شأنهم ﴿ **إما يعذبهم** ﴾ إن بقوا على ما هم عليه ولم يتوبوا ﴿ **وإما يتوب عليهم** ﴾ إن تابوا توبة صحيحة وأخلصوا إخلاصا تاما . والجملة فى محل نصب على الحال ، والتقدير : ﴿ **وآخرون مرجون لأمر الله** ﴾ حال كونهم ، إما معذبين، وإما متوبا عليهم ﴿ **والله عليم** ﴾ بأحوالهم ﴿ **حكيم** ﴾ فيما يفعله بهم من خير أو شر .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، وأبو نعيم فى المعرفة عن أبى موسى؛ أنه سئل عن قوله : ﴿**والسابقون الأولون** ﴾ فقال : هم الذين صلوا القبلتين جميعا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم عن سعيد بن المسيب مثله . وأخرج ابن المنذر وأبو نعيم عن الحسن ومحمد بن سيرين مثله أيضا . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : هم أبو بكر وعمر وعلى وسلمان وعمار بن ياسر . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة عن الشعبى قال : هم من أدرك بيعة الرضوان . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿**والذين اتبعوهم بإحسان** ﴾ قال : التابعون . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : هم من بقى من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة . وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن أبى صخر حميد بن زياد

قال : قلت لمحمد بن كعب القرظى : أخبرنى عن أصحاب رسول الله ﷺ وإنما أريد الفتن ، قال : إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبى ﷺ وأوجب لهم الجنة فى كتابه محسنهم ومسيئهم، قلت له : وفى أى موضع أوجب الله لهم الجنة فى كتابه ؟ قال : ألا تقرؤون قوله تعالى : ﴿**والسابقون الأولون**﴾ الآية أوجب لجميع أصحاب النبى ﷺ الجنة والرضوان ، وشرط على التابعين شرطا لم يشرطه فيهم ، قلت : وما اشترط عليهم ؟ قال : اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان. يقول: يقتدون بهم فى أعمالهم الحسنة، ولا يقتدون بهم فى غير ذلك . قال أبو صخر : فوالله لكأنى لم أقرأها قبل ذلك وما عرفت تفسيرها حتى قرأها على محمد بن كعب(١) . وأخرج ابن مردويه من طريق الأوزاعى قال : حدثنى يحيى بن أبى كثير والقاسم ومكحول وعبدة بن أبى لبابة وحسان بن عطية أنهم سمعوا جماعة من أصحاب النبى ﷺ يقولون : لما أنزلت هذه الآية : ﴿ **والسابقون الأولون** ﴾ إلى قوله : ﴿**ورضوا عنه**﴾ قال رسول الله ﷺ : « هذا لأمتى كلهم ، وليس بعد الرضا سخط » .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وممن حولكم من الأعراب**﴾ الآية ، قال : قام رسول الله ﷺ يوم جمعة خطيبا ، فقال : « قم يا فلان ، فاخرج فإنك منافق ، اخرج يا فلان فإنك منافق » ، فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم ، ولم يكن عمر بن الخطاب يشهد تلك الجمعة لحاجة كانت له، فلقيهم عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة ، وظن الناس قد انصرفوا ، واختبؤوا هم من عمر ، وظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فدخل عمر المسجد فإذا الناس لم ينصرفوا . فقال له رجل : أبشر يا عمر فقد فضح الله المنافقين اليوم ، فهو العذاب الأول ، والعذاب الثانى عذاب القبر (٢) . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ **وممن حولكم من الأعراب** ﴾ قال : جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **مردوا على النفاق** ﴾ قال : أقاموا عليه ولم يتوبوا كما تاب آخرون . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال : ماتوا عليه : عبد الله بن أبى ، وأبو عامر الراهب ، والجد بن قيس . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿**سنعذبهم مرتين**﴾ قال : بالجوع والقتل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى مالك قال : بالجوع وعذاب القبر . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عن قتادة قال : عذاب فى القبر ، وعذاب فى النار . وقد روى عن جماعة من السلف نحو هذا فى تعيين العذابين . والظاهر ما قدمنا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا**﴾ قال : كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم

---

(١) فى المطبوعة : «ابن كعب » بدون « محمد » .

(٢) ابن جرير ١١/ ٨ .

أنفسهم بسوارى المسجد ، وكان مر النبى ﷺ إذا رجع عليهم فلما رآهم قال : «من هؤلاء الموثقون أنفسهم ؟ » قالوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله ، حتى تطلقهم وتعذرهم ، قال : « وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذى يطلقهم ، رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين » ، فلما بلغهم ذلك قالوا : ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذى يطلقنا ، فنزلت : ﴿ **عسى الله أن يتوب عليهم** ﴾ و«عسى » من الله واجب ، فلما نزلت أرسل إليهم النبى ﷺ فأطلقهم وعذرهم ، فجاؤوا بأموالهم فقالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا ، قال : « ما أمرت أن آخذ أموالكم » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم** ﴾ يقول : استغفر لهم ﴿ **إن صلواتك سكن لهم** ﴾ يقول : رحمة لهم ، فأخذ منهم الصدقة واستغفر لهم ، وكانوا ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم بالسوارى فأرجئوا سنة لا يدرون أيعذبون أو يتاب عليهم ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ **لقد تاب الله على النبى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ إلى قوله: ﴿ **ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم** ﴾ يعنى : إن استقاموا (١). وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله سواء . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن مجاهد فى قوله: ﴿ **اعترفوا بذنوبهم** ﴾ قال : هو أبولبابة إذ قال لقريظة ما قال وأشار إلى حلقه بأن محمدا يذبحكم إن نزلتم على حكمه ، والقصة مذكورة فى كتب السير . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿ **خلطوا عملا صالحا** ﴾ قال غزوهم مع رسول الله ﷺ ﴿ **وآخر سيئا**﴾ قال : تخلفهم عنه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وصل عليهم** ﴾ قال : استغفر لهم من ذنوبهم التى كانوا أصابوها ﴿ **إن صلواتك سكن لهم**﴾ قال : رحمة لهم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن أبى أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى بصدقة قال : « اللهم صل على آل فلان » فأتاه أبى بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى»(٢) .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله**﴾ قال : هذا وعيد من الله عز وجل . وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والحاكم ، والبيهقى فى الشعب ، وابن أبى الدنيا ، والضياء فى المختارة عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة ، لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان » (٣) . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ **وآخرون**

---

(١) ابن جرير ١١/ ١٠ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٧٢ . (٢) سبق تخريجه .
(٣) أحمد ٣/ ٢٨ وأبو يعلى (١٣٧٨) وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٦٩٤٠) .

**مرجون لأمر الله﴾** قال : هم الثلاثة الذين خلفوا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : هم هلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكعب بن مالك من الأوس والخزرج . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **إما يعذبهم** ﴾ يقول: يميتهم على معصية ﴿ **وإما يتوب عليهم** ﴾ فأرجأ أمرهم ثم نسخها فقال : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ .

**﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) ﴾** .

لما ذكر الله أصناف المنافقين وبين طرائقهم المختلفة عطف على ما سبق هذه الطائفة منهم ، وهم الذين اتخذوا مسجدا ضرارا ، فيكون التقدير : ومنهم الذين اتخذوا ، على أن ﴿ **الذين** ﴾ مبتدأ ، وخبره « منهم » المحذوف ، والجملة معطوفة على ما تقدمها ، ويجوز أن يكون الموصول فى محل نصب على الذم . وقرأ المدنيون وابن عامر « الذين اتخذوا » بغير واو ، فتكون قصة مستقلة ، الموصول مبتدأ ، وخبره ﴿ **لا تقم** ﴾ قاله الكسائى . وقال النحاس : إن الخبر هو ﴿ **لا يزال بنيانهم الذى بنوا** ﴾ وقيل : الخبر محذوف ، والتقدير : يعذبون ، وسيأتى بيان هؤلاء البانين لمسجد الضرار .

و ﴿ **ضرارا** ﴾ منصوب على المصدرية ، أو على العلية . ﴿ **وكفرا وتفريقا وإرصادا** ﴾ معطوفة على ﴿**ضرارا**﴾. فقد أخبر الله سبحانه أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة: الأوّل : الضرار لغيرهم ، وهو المضاررة . الثانى : الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام ، لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق . الثالث : التفريق بين المؤمنين ؛ لأنهم أرادوا ألا يحضروا مسجد قباء فتقل جماعة المسلمين ، وفى ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة ما لا يخفى. الرابع : الإرصاد لمن حارب الله ورسوله ، أى الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله . قال الزجاج : الإرصاد : الانتظار . وقال ابن قتيبة : الإرصاد الانتظار مع العداوة . وقال الأكثرون: هو الإعداد ، والمعنى متقارب. يقال : أرصدت لكذا : إذا أعددته مرتقبا له به . وقال أبو زيد : يقال : رصدته وأرصدته فى الخير ، وأرصدت له فى الشرّ . وقال ابن الأعرابى: لا يقال إلا أرصدت ، ومعناه: ارتقبت، والمراد بمن حارب الله ورسوله : المنافقون ،

ومنهم أبو عامر الراهب ، أى أعدوه لهؤلاء وارتقبوا به وصولهم وانتظروهم ليصلوا فيه حتى يباهوا بهم المؤمنين ، وقوله: ﴿**من قبل**﴾ متعلق بـ ﴿ **اتخذوا** ﴾ أى اتخذوا مسجدا من قبل أن ينافق هؤلاء ويبنوا مسجد الضرار . أو متعلق بـ ﴿ **حارب** ﴾ أى لمن وقع منه الحرب لله ولرسوله من قبل بناء مسجد الضرار .

قوله : ﴿ **وليحلفنّ إن أردنا إلا الحسنى** ﴾ أى ما أردنا إلا الخصلة الحسنى ، وهى الرفق بالمسلمين ، فردّ الله عليهم بقوله : ﴿ **والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ فيما حلفوا عليه . ثم نهى الله سبحانه رسوله ﷺ عن الصلاة فى مسجد الضرار ، فقال :﴿ **لا تقم فيه أبدا** ﴾ أى فى وقت من الأوقات ، والنهى عن القيام فيه يستلزم النهى عن الصلاة فيه . وقد يعبر عن الصلاة بالقيام، يقال : فلان يقوم الليل ، أى يصلى ، ومنه الحديث الصحيح : « من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدّم من ذنبه » (١) . ثم ذكر الله سبحانه علة النهى عن القيام فيه بقوله : ﴿ **لمسجد أسس على التقوى من أوّل يوم أحقّ أن تقوم فيه** ﴾ واللام فى ﴿ **لمسجد** ﴾ لام القسم ، وقيل : لام الابتداء . وفى ذلك تأكيد لمضمون الجملة ، وتأسيس البناء : تثبيته ورفعه . ومعنى تأسيسه على التقوى : تأسيسه على الخصال التى تتقى بها العقوبة.

واختلف العلماء فى المسجد الذى أسس على التقوى ، فقالت طائفة : هو مسجد قباء كما روى عن ابن عباس والضحاك والحسن والشعبى وغيرهم . وذهب آخرون إلى أنه مسجد النبى ﷺ . والأول أرجح لما سيأتى قريبا إن شاء الله .

و ﴿ **من أول يوم** ﴾ متعلق بأسس ، أى أسس على التقوى من أول يوم من أيام تأسيسه . قال بعض النحاة : إن ﴿**من**﴾ هنا بمعنى منذ ، أى منذ أوّل يوم ابتدئ ببنائه . وقوله : ﴿ **أحق أن تقوم فيه** ﴾ خبر المبتدأ ، والمعنى : لو كان القيام فى غيره جائزا لكان هذا أولى بقيامك فيه للصلاة ولذكر الله ، لكونه أسس على التقوى من أوّل يوم ، ولكون ﴿**فيه رجال يحبون أن يتطهروا** ﴾ وهذه الجملة مستأنفة لبيان أحقية قيامه ﷺ فيه ، أى كما أن هذا المسجد أولى من جهة المحل فهو أولى من جهة الحال فيه ، ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، أى حال كون فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، ويجوز أن تكون صفة أخرى لمسجد . ومعنى محبتهم للتطهر : أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه عند عروض موجبه . وقيل : معناه : يحبون التطهر من الذنوب بالتوبة والاستغفار . والأوّل أولى . وقيل : يحبون أن يتطهروا بالحمى المطهرة من الذنوب فحموا جميعا ، وهذا ضعيف جدا . ومعنى محبة الله لهم الرضا عنهم ، والإحسان إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه .

---

(١) أحمد ٢/ ٢٨١ ، ٤٠٨ ، ٤٢٣ ، ٤٧٣ ، ٤٨٦ ، ٥٢٩ والبخارى فى الإيمان ( ٣٧ ) ومسلم فى صلاة المسافرين ( ٧٥٩ / ١٧٣ ) وأبو داود فى الصلاة ( ١٣٧١ ) والترمذى فى الصوم ( ٨٠٨ ) وقال : « حسن صحيح » والنسائى ٣/ ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٤/ ١٥٤ ـ ١٥٧ ، ٨/ ١١٨ ، والدارمى ٢/ ٢٦ .

ثم بين سبحانه أن بين الفريقين بونا بعيدا ، فقال : ﴿ **أفمن أسس بنيانه** ﴾ والهمزة للإنكار التقريرى ، والبنيان مصدر كالعمران ، وأريد به المبنى ، والجملة مستأنفة ، والمعنى : أن من أسس بناء دينه على قاعدة قوية محكمة ، وهى تقوى اللّه ورضوانه خير ممن أسس دينه على ضدّ ذلك ، وهو الباطل والنفاق ، والموصول مبتدأ ، وخبره ﴿ **خير** ﴾ ، وقرئ : «أسس بنيانه » على بناء الفعل للفاعل ، ونصب بنيانه ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة ، وقرئ على البناء للمجهول ، وقرئ : « أساس بنيانه » بإضافة أساس إلى بنيانه ، وقرئ : « أسّ بنيانه » والمراد : أصول البناء . وحكى أبو حاتم قراءة أخرى وهى : « آساس بنيانه » على الجمع ، ومنه :

أصبح الملك ثابت الآساس بالبهاليل من بنى العباس

والشفا : الشفير ، والجرف : ما يتجرف بالسيول ، وهى الجوانب التى تنجرف بالماء ، والاجتراف : اقتلاع الشىء من أصله ، وقرئ بضم الراء من « جرف » وبإسكانها . والهار : الساقط ، يقال : هار البناء : إذا سقط ، وأصله : هائر كما قالوا : شاك السلاح وشائك ، كذا قال الزجاج . وقال أبو حاتم : إن أصله : هاور . قال فى شمس العلوم : الجرف ما جرف السيل أصله ، وأشرف أعلاه فإن انصدع أعلاه فهو الهار اهـ . جعل اللّه سبحانه هذا مثلا لما بنوا عليه دينهم الباطل المضمحل بسرعة ، ثم قال : ﴿ **فانهار به فى نار جهنم** ﴾ وفاعل فانهار ضمير يعود على الجرف ، أى فانهار الجرف بالبنيان فى النار، ويجوز أن يكون الضمير فى ﴿ **به** ﴾ يعود إلى ﴿ **من** ﴾ وهو البانى ، والمعنى : أنه طاح الباطل بالبناء ، أو البانى فى نار جهنم . وجاء بالانهيار الذى هو للجرف ترشيحا للمجاز . وسبحان اللّه ما أبلغ هذا الكلام، وأقوى تراكيبه ، وأوقع معناه ، وأفصح مبناه .

ثم ذكر سبحانه أن بنيانهم هذا موجب لمزيد ريبهم . واستمرار ترددهم وشكهم فقال : ﴿**لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم** ﴾ أى شكا فى قلوبهم ونفاقا . ومنه قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء اللّه للمرء مذهب

وقيل : معنى الريبة : الحسرة والندامة ، لأنهم ندموا على بنيانه . وقال المبرد : أى حرارة وغيظا . وقد كان هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار منافقين شاكين فى دينهم . ولكنهم ازدادوا بهدم رسول الله ﷺ نفاقا وتصميما على الكفر ، ومقتا للإسلام لما أصابهم من الغيظ الشديد والغضب العظيم بهدمه ، ثم ذكر سبحانه ما يدل على استمرار هذه الريبة ودوامها، وهو قوله : ﴿ **إلا أن تقطع قلوبهم** ﴾ أى لا يزال هذا إلا أن تتقطع قلوبهم قطعا ، وتتفرّق أجزاء : إما بالموت أو بالسيف، والمقصود أن هذه الريبة دائمة لهم ماداموا أحياء ، ويجوز أن يكون ذكر

التقطع تصويرا لحال زوال الريبة . وقيل : معناه : إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم . وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص ويعقوب وأبو جعفر بفتح حرف المضارعة. وقرأ الجمهور بضمها . وروى عن يعقوب أنه قرأ : « تقطع » بالتخفيف ، والخطاب للنبى ﷺ ، أى إلا أن تقطع يا محمد قلوبهم . وقرأ أصحاب عبد الله بن مسعود : « ولو تقطعت قلوبهم » . وقرأ الحسن ويعقوب وأبو حاتم : « إلى أن تقطع » على الغاية ، أى لا يزالون كذلك إلى أن يموتوا .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله ﴿**والذين اتخذوا مسجدا ضرارا**﴾ قال : هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدا ، فقال لهم أبو عامر الراهب : ابنوا مسجدكم واستمدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم . فآتى بجند من الروم . فأخرج محمدا وأصحابه ؛ فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبى ﷺ فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلى فيه وتدعو بالبركة ، فأنزل الله : ﴿ **لا تقم فيه أبدا** ﴾ (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه قال : لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء خرج رجال من الأنصار منهم بجدح جدّ عبد الله ابن حنيف ووديعة بن حزام ومجمع بن جارية الأنصارى فبنوا مسجد النفاق . فقال رسول الله ﷺ لبجدح : « ويلك يا بجدح ، ما أردت إلى ما أرى » ، فقال : يارسول الله ، والله ما أردت إلا الحسنى وهو كاذب ، فصدّقه رسول الله ﷺ وأراد أن يعذره ، فأنزل الله تعالى : ﴿**والذين اتخذوا مسجدا ضرار وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب اللّه ورسوله**﴾ يعنى : رجلا يقال له أبو عامر كان محاربا لرسول الله ﷺ وكان قد انطلق إلى هرقل ، وكانوا يرصدون إذا قدم أبو عامر أن يصلى فيه ، وكان قد خرج من المدينة محاربا للّه ولرسوله (٢) .

وأخرج ابن إسحاق وابن مردويه عنه أيضا قال : دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ، فقال مالك لعاصم : أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى ، فدخل على أهله فأخذ سعفات من نار ثم خرجوا يشتدّون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فحرقوه وهدموه . وخرج أهله فتفرّقوا عنه . فأنزل اللّه هذه الآية . ولعل فى هذه الرواية حذفا بين قوله ﷺ دعا رسول الله ﷺ مالك ابن الدخشم وبين قوله : فقال مالك لعاصم (٣) ، ويبين ذلك ما أخرج ابن إسحاق وابن مردويه عن أبى رهم كلثوم بن الحصين الغفارى ، وكان من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة، قال : أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذى أوان ، بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك . فقالوا : يا رسول

---

(١) ابن جرير ١١/ ١٩ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٢) ابن جرير ١١/ ١٩ .

(٣) ابن إسحاق : ١٧١ ، ١٧٢ .

الله، إنا بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة الشاتية والليلة المطيرة ، وإنا نحبّ أن تأتينا فتصلى لنا فيه ؛ قال : « إنى على جناح سفر » ، ولو قدمنا إن شاء اللّه أتيناكم فصلينا لكم فيه ؛ فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بنى سالم بن عوف ومعن بن عدى ، وأخاه عاصم بن عدى أحد بنى العجلان ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه ، فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنظرنى حتى أخرج إليك ، فدخل إلى أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا ، ثم خرجا يشتدان . وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه . ونزل فيهم من القرآن ما نزل : ﴿ **والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا** ﴾ إلى آخر القصة . واخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم : إن الذين بنوا مسجد الضرار كانوا اثنى عشر رجلا ، وذكرا أسماءهم .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد ومسلم والترمذى والنسائى وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن خزيمة وابن حبان وأبوالشيخ والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى سعيد الخدرى قال : اختلف رجلان : رجل من بنى خدرة ، وفى لفظ : تماريت أنا ورجل من بنى عمرو بن عوف فى المسجد الذى أسس على التقوى ، فقال الخدرى : هو مسجد رسول الله ﷺ ، وقال العمرى : هو مسجد قباء ، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال : «هو هذا المسجد » لمسجد رسول الله ﷺ ، وقال : « فى ذلك خير كثير » يعنى مسجد قباء(١). وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد ، والزبير بن بكار فى أخبار المدينة ، وأبو يعلى، وابن حبان والطبرانى ، والحاكم فى الكنى ، وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدى نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد ، وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب ، والضياء فى المختارة عن أبى بن كعب قال : سألت النبى ﷺ عن المسجد الذى أسس على التقوى قال : «هو مسجدى هذا » (٢) . وأخرج الطبرانى ، والضياء المقدسى فى المختارة ، عن زيد بن ثابت، مرفوعاً مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن مردويه والطبرانى من طريق عروة بن الزبير عن زيد ابن ثابت قال : المسجد الذى أسس على التقوى من أوّل يوم مسجد النبى ﷺ . قال عروة : مسجد النبى ﷺ خير منه ، إنما أنزلت فى مسجد قباء . وأخرج ابن أبى شيبة وابن مردويه عن ابن عمر قال : المسجد الذى أسس على التقوى : مسجد النبى ﷺ . وأخرج المذكوران عن أبى سعيد الخدرى مثله . وقد روى عن جماعة غير هؤلاء مثل قولهم . وأخرج ابن جرير وابن

---

(١) ابن أبى شيبة ٢/ ٣٧٢ وأحمد ٣/ ٢٣ ، ٢٤ ، ٩١ ، ومسلم فى الحج ( ١٣٩٨/ ٥١٤ ) والترمذى فى الصلاة (٣٢٣ ) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وفى التفسير ( ٣٠٩٩ ) وقال الترمذى : « حسن صحيح غريب» والنسائى فى التفسير (٢٤٨) وابن جرير ١١/ ٢١ وابن حبان ( ١٦٠٤ ) ، وصححه الحاكم ٢/ ٣٣٤ ووافقه الذهبى، و البيهقى فى الدلائل ٢/ ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥/ ٢٦٣ ــ ٢٦٤ .

(٢) ابن أبى شيبة ٢/ ٣٧٣ .

المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أنه مسجد قباء . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله .

ولا يخفاك أن النبى ﷺ قد عين هذا المسجد الذى أسس على التقوى ، وجزم بأنه مسجده ﷺ كما قدمنا من الأحاديث الصحيحة ، فلا يقاوم ذلك قول فرد من الصحابة ولا جماعة منهم ولا غيرهم ، ولا يصح لإيراده فى مقابله ما قد صحّ عن النبى ﷺ ، ولا فائدة فى إيراد ما ورد فى فضل الصلاة فى مسجد قباء ، فإن ذلك لا يستلزم كونه المسجد الذى أسس على التقوى ، على أن ما ورد فى فضائل مسجده ﷺ أكثر مما ورد فى فضل مسجد قباء بلا شك ولا شبهة تعمّ .

وأخرج أبو داود والترمذى وابن ماجة وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : نزلت هذه الآية فى أهل قباء : ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا** ﴾ قال : وكانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ، وفى إسناده يونس بن الحارث ، وهو ضعيف (١) . وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى أهل قباء: ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا** ﴾ بعث رسول اللّه ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال : ما هذا الطهور الذى أثنى اللّه عليكم ؟ فقالوا : يا رسول الله ، ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه ، أو قال : مقعدته ، فقال النبى ﷺ : « هو هذا » . وأخرج أحمد وابن خزيمة والطبرانى والحاكم وابن مردويه عن عويم بن ساعدة الأنصارى ؛ أن النبى ﷺ أتاهم فى مسجد قباء فقال : « إن الله قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذى تتطهرون به ؟ » قالوا : واللّه يا رسول الله ما نعلم شيئا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود ، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا (٢) . رواه أحمد عن حسن بن محمد ، حدّثنا أبو أويس حدثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة فذكره . وقد أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه . وأخرج ابن ماجه وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن الجارود فى المنتقى ، والدارقطنى والحاكم وابن مردويه وابن عساكر عن طلحة بن نافع قال : حدثنى أبو أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك أن هذه الآية لما نزلت : ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الأنصار ، إن الله قد أثنى عليكم خيرا فى الطهور فما طهوركم هذا ؟» قالوا : نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ، قال : « فهل مع ذلك غيره ؟»

---

(١) أبو داود فى الطهارة ( ٤٤ ) والترمذى فى التفسير ( ٣١٠٠ ) وقال : « حديث غريب » وابن ماجة فى الطهارة (٣٥٧) .

(٢) أحمد ٣/ ٤٢٢ وابن خزيمة ( ٨٣ ) والطبرانى ( ١١٠٦٥ ) ، وصححه الحاكم ١/ ١٥٥ ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٢١٧: « إسناده حسن إلا أن ابن إسحاق مدلس وقد عنعنه » .

قالوا : لا ، غير أن أحدنا إذا خرج إلى الغائط أحبّ أن يستنجى بالماء ، قال : « هو ذاك فعليكموه » (١) .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والبخارى فى تاريخه وابن جرير والبغوى فى معجمه ، والطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة عن محمد بن عبد الله بن سلام عن أبيه قال : لما أتى رسول الله ﷺ المسجد الذى أسس على التقوى مسجد قباء فقال : « إن الله قد أثنى عليكم فى الطهور خيرا أفلا تخبرونى ؟ يعنى : قوله تعالى : ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين** ﴾ ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا لنجده مكتوبا علينا فى التوراة الاستنجاء بالماء ، ونحن نفعله اليوم (٢) . وإسناد أحمد فى هذا الحديث هكذا : حدّثنا يحيى بن آدم حدّثنى مالك ، يعنى ابن مغول ، سمعت سيارا أبا الحكم عن شهر بن حوشب عن محمد بن عبد الله بن سلام . وقد روى عن جماعة من التابعين فى ذكر سبب نزول الآية نحو هذا . ولا يخفاك أن بعض هذه الأحاديث ليس فيه تعيين مسجد قباء وأهله ، وبعضها ضعيف ، وبعضها لا تصريح فيه بأن المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجد قباء ، وعلى كل حال لا تقاوم تلك الأحاديث المصرحة بأن المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجد النبى ﷺ فى صحتها وصراحتها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فانهار به فى نار جهنم** ﴾ قال : يعنى قواعده فى نار جهنم. وأخرج مسدد فى مسنده وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : لقد رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حيث انهار على عهد رسول الله ﷺ .

وأخرج ابن المنذر ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم** ﴾ قال : يعنى الشك ﴿ **إلا أن تقطع قلوبهم** ﴾ يعنى الموت . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن حبيب بن أبى ثابت فى قوله : ﴿ **ريبة فى قلبوهم** ﴾ قال : غيظا فى قلوبهم ﴿ **إلا أن تقطع قلوبهم** ﴾ قال : إلى أن يموتوا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان فى قوله : ﴿ **إلا أن تقطع قلوبهم** ﴾ قال : إلا أن يتوبوا .

**﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) ﴾** .

---

(١) ابن ماجة فى الطهارة ( ٣٥٥ ) والدارقطنى ١/ ٦٢ وصححه الحاكم ٢/ ٣٣٤ ووافقه الذهبى .
(٢) ابن أبى شيبة ١/ ١٥٣ وأحمد ٦/ ٦ وابن جرير ١١/ ٢٢ .

لما شرح فضائح المنافقين وقبائحم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك . وذكر أقسامهم . وفرع على كل قسم منها ما هو لائق به عاد على بيان فضيلة الجهاد والترغيب فيه . وذكر الشراء تمثيل كما فى قوله : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ [ البقرة : ١٦ ] مثل سبحانه إثابة المجاهدين بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله بالشراء، وأصل الشراء بين العباد: هو إخراج الشيء عن الملك بشيء آخر مثله أو دونه أو أنفع منه ، فهؤلاء المجاهدون باعوا أنفسهم من الله بالجنة التى أعدها للمؤمنين ، أى بأن يكونوا من جملة أهل الجنة . ومن يسكنها فقد جادوا بأنفسهم ، وهى أنفس الأعلاق (١) . والجود بها غاية الجود :

يجود بالنفس أن ضن الجبان بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وجاد الله عليهم بالجنة ، وهى أعظم ما يطلبه العباد . ويتوسلون إليه بالأعمال ؛ والمراد بالأنفس هنا أنفس المجاهدين. وبالأموال ما ينفقونه فى الجهاد . قوله : ﴿ **يقاتلون فى سبيل الله**﴾ بيان للبيع الذى يقتضيه الاشتراء المذكور كأنه قيل : كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة؟ فقيل : يقاتلون فى سبيل الله ، ثم بين هذه المقاتلة فى سبيل الله بقوله : ﴿ **فيقتلون ويقتلون** ﴾ والمراد أنهم يقدمون على قتل الكفار فى الحرب ويبذلون أنفسهم فى ذلك ، فإن فعلوا فقد استحقوا الجنة ، وإن لم يقع القتل عليهم بعد الإبلاء فى الجهاد والتعرض للموت بالإقدام على الكفار . قرأ الأعمش والنخعى وحمزة والكسائى وخلف بتقديم المبنى للمفعول على المبنى للفاعل . وقرأ الباقون بتقديم المبنى للفاعل على المبنى للمفعول . وقوله : ﴿ **وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن** ﴾ إخبار من اللّه سبحانه أن فريضة الجهاد واستحقاق الجنة بها قد ثبت الوعد بها من اللّه فى التوراة والإنجيل كما وقع فى القرآن ، وانتصاب ﴿ **وعدا** ﴾ و﴿**حقا**﴾ على المصدرية أو الثانى نعت للأوّل ، و ﴿ **فى التوراة** ﴾ متعلق بمحذوف ، أى وعدا ثابتا فيها .

قوله : ﴿ **ومن أوفى بعهده من الله** ﴾ فى هذا من تأكيد الترغيب للمجاهدين فى الجهاد ، والتنشيط لهم على بذل الأنفس والأموال ما لا يخفى فإنه أولا أخبر بأنه قد اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وجاء بهذه العبارة الفخيمة ، وهى كون الجنة قد صارت ملكا لهم ، ثم أخبر ثانيا بأنه قد وعد بذلك فى كتبه المنزلة ، ثم أخبر بأنه بعد هذا الوعد الصادق لابد من حصول الموعود به فإنه لا أحد أوفى بعهده من الله سبحانه ، وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد، ثم زادهم سروراً وحبوراً ، فقال: ﴿ **فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به** ﴾ أى أظهروا السرور بذلك ، والبشارة هى إظهار السرور ، وظهوره يكون فى بشرة الوجه ، ولذا يقال : أسارير الوجه ، أى التى يظهر فيها السرور . وقد تقدم إيضاح هذا ، والفاء لترتيب الاستبشار على ما قبله . والمعنى : أظهروا السرور بهذا البيع الذى بايعتم به الله عز وجل فقد ربحتم فيه ربحا لم يربحه أحد من الناس إلا من فعل مثل فعلكم ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك**﴾ إلى الجنة ، أو إلى نفس البيع الذى ربحوا فيه الجنة ، ووصف الفوز وهو الظفر بالمطلوب

---

(١) علق بقلبه علاقة وهو الحب اللازم للقلب . اللسان ١٠/ ٢٦٢ .

بالعظم يدل على أنه فوز لا فوز مثله .

قوله : ﴿ **التائبون** ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى هم التائبون ، يعنى : المؤمنون ، والتائب الراجع ، أى هم الراجعون إلى طاعة الله عن الحالة المخالفة للطاعة . وقال الزجاج : الذى عندى أن قوله : ﴿ **التائبون العابدون** ﴾ رفع بالابتداء وخبره مضمر ، أى التائبون ومن بعدهم إلى آخر الآية لهم الجنة أيضا وإن لم يجاهدوا . قال : وهذا أحسن ، إذ لو كانت هذه أوصافا للمؤمنين المذكورين فى قوله : ﴿ **اشترى من المؤمنين** ﴾ لكان الوعد خاصا بمجاهدين ، وقد ذهب إلى ما ذهب إليه الزجاج من أن هذا الكلام منفصل عما قبله طائفة من المفسرين ، وذهب آخرون إلى أن هذه الأوصاف راجعة إلى المؤمنين فى الآية الأولى ، وأنها على جهة الشرط ، أى لا يستحق الجنة بتلك المبايعة إلا من كان من المؤمنين على هذه الأوصاف . وفى مصحف عبد الله بن مسعود : التائبين العابدين إلى آخرها ـ وفيه وجهان : أحدهما: أنها أوصاف للمؤمنين ، الثانى : أن النصب على المدح . وقيل : إن ارتفاع هذه الأوصاف على البدل من ضمير ﴿**يقاتلون** ﴾ ، وجوز صاحب الكشاف أن يكون ﴿ **التائبون** ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿**العابدون**﴾ القائمون بما أمروا به من عبادة الله مع الإخلاص و ﴿ **الحامدون** ﴾ الذين يحمدون الله سبحانه على السراء والضراء ، و ﴿ **السائحون** ﴾ قيل : هم الصائمون ، وإليه ذهب جمهور المفسرين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ عابدات سائحات ﴾ [ التحريم : ٥ ] وإنما قيل للصائم سائح ؛ لأنه يترك اللذات كما يتركها السائح فى الأرض ، ومنه قول أبى طالب بن عبد المطلب :

وبالسائحين لا يذوقون فطرة ... لربهم والراكدات العوامل

وقال آخر :

تـراه يصـلى لـيـله ونهـاره ... يظل كثير الذكر لله سائحا

قال الزجاج : ومذهب الحسن أن السائحين ها هنا هم الذين يصومون الفرض ؛ وقيل: إنهم الذين يديمون الصيام . وقال عطاء : السائحون المجاهدون . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : السائحون المهاجرون . وقال عكرمة : هم الذين يسافرون لطلب الحديث والعلم . وقيل : هم الجائلون بأفكارهم فى توحيد ربهم وملكوته وما خلق من العبر . والسياحة فى اللغة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء ، وهى مما يعين العبد على الطاعة لانقطاعه عن الخلق ، ولما يحصل له من الاعتبار بالتفكر فى مخلوقات الله سبحانه ، و ﴿ **الراكعون الساجدون** ﴾ معناه المصلون ، و ﴿ **الآمرون بالمعروف** ﴾ القائمون بأمر الناس بما هو معروف فى الشريعة ﴿ **والناهون عن المنكر** ﴾ القائمون بالإنكار على من فعل منكراً ، أى شيئا ينكره الشرع ﴿ **والحافظون لحدود الله** ﴾ القائمون بحفظ شرائعه التى أنزلها فى كتبه وعلى لسان رسله، وإنما أدخل الواو فى الوصفين الآخرين ، وهما : ﴿ **والناهون عن المنكر والحافظون** ﴾ إلخ ، لأن

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمنزلة خصلة واحدة ، ثم عطف عليه الحافظون بالواو لقربه . وقيل : إن العطف فى الصفات يجيء بالواو وبغيرها كقوله : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ [غافر : ٢ ] . وقيل : إن الواو زائدة . وقيل : هى واو الثمانية المعروفة عند النحاة ، كما فى قوله تعالى: ﴿ ثيبات وأبكارا ﴾ [التحريم:٥] وقوله : ﴿ وفتحت أبوابها﴾ [الزمر : ٧٣ ] وقوله : ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ [ الكهف : ٢٢ ] وقد أنكروا الثمانية؛ أبو على الفارسى وناظره فى ذلك ابن خالويه ﴿ **وبشر المؤمنين** ﴾ الموصوفين بالصفات السابقة .

وقد أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا : قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، قال : « أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » ، قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : « الجنة » ، قال : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت : ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم** ﴾ الآية (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر ابن عبد الله قال: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو فى المسجد : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم** ﴾ فكبر الناس فى المسجد ، فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفى ردائه على عاتقه فقال : يا رسول الله ، أنزلت هذه الآية ؟ قال : « نعم » ، فقال الأنصارى : بيع ربيح لا نقيل ، ولا نستقيل . وقد أخرج ابن سعد عن عبادة بن الصامت ؛ أن النبى ﷺ اشترط فى بيعة العقبة على من بايعه من الأنصار : أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، والسمع والطاعة ، ولا ينازعوا فى الأمر أهله . ويمنعون منه أنفسهم وأهليهم ، قالوا : نعم ؛ قال قائل الأنصار : نعم ، هذا لك يا رسول الله . فما لنا ؟ قال : « الجنة » . وأخرجه ابن سعد أيضا من وجه آخر وليس فى قصة العقبة ما يدل على أنها سبب نزول الآية .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس قال : من مات على هذه التسع فهو فى سبيل الله ﴿ **التائبون العابدون** ﴾ إلى آخر الآية . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن المنذر عن ابن عباس قال : الشهيد من كان له التسع الخصال المذكورة فى هذه الآية . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : العابدون الذين يقيمون الصلاة . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عنه أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : « أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء » (٢) .

وأخرج ابن جرير عن عبيد بن عمير قال : سئل النبى ﷺ عن السائحين فقال : « هم الصائمون » (٣) . وأخرج الفريابى وابن جرير ، والبيهقى فى شعب الإيمان من طريق عبيد بن

(١) ابن جرير ١١/ ٢٦ . (٢) البيهقى فى الشعب ( ٤٠٦٣ ) . (٣) ابن جرير ١١/ ٢٨ .

عمير عن أبى هريرة مرفوعا مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه وابن النجار ، من طريق أبى صالح ، عن أبى هريرة مرفوعا مثله . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا مثله . وقد روى عن أبى هريرة موقوفا ، وهو أصح من المرفوع من طريقه ، وحديث عبيد بن عمير مرسل ، وقد أسنده من طريق أبى هريرة فى الرواية الثانية . وقد روى من قول جماعة من الصحابة مثل هذا : منهم عائشة عند ابن جرير وابن المنذر ، ومنهم ابن عباس عند ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبى الشيخ ، ومنهم ابن مسعود عند هؤلاء المذكورين قبله . وروى نحو ذلك عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى أمامة أن رجلا استأذن رسول الله ﷺ فى السياحة فقال : « إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله » [1] وصححه عبد الحق . وأخرج أبو الشيخ عن الربيع فى هذه الآية قال : هذه أعمال قال فيها أصحاب النبى ﷺ : إن الله قضى على نفسه فى التوراة والإنجيل والقرآن لهذه الأمة أن من قتل منهم على هذه الأعمال كان عند الله شهيدا ، ومن مات منهم عليها فقد وجب أجره على الله . وأخرج ابن المنذر عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : الشهيد من لو مات على فراشه دخل الجنة . قال : وقال ابن عباس : من مات وفيه تسع فهو شهيد . وقرأ هذه الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم** ﴾ يعنى بالجنة ، ثم قال ﴿**التائبون** ﴾ إلى قوله ﴿ **والحافظون لحدود الله** ﴾ يعنى القائمين على طاعة الله ، وهو شرط اشترطه الله على أهل الجهاد . وإذا وفوا لله بشرطه وفى لهم بشرطهم .

**﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ﴾** .

لما بين الله سبحانه فى أول السورة وما بعده أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة بين سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيدا ، وصرح بأن ذلك متحتم ، ولو كانوا أولى قربى . وأن القرابة فى مثل هذا الحكم لا تأثير لها . وقد ذكر أهل التفسير أن ﴿ **ما كان** ﴾ فى القرآن يأتى على وجهين : الأول : على النفى نحو : ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ﴾ [آل عمران: ١٤٥ ] والآخر : على معنى النهى نحو : ﴿ ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ﴾ [الأحزاب :٣٥] و ﴿ **ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين** ﴾ وهذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار ، وتحريم الاستغفار لهم ، والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافرا ، ولا ينافى

(١) أبو داود فى الجهاد ( ٢٤٨٦ ) والطبرانى ( ٧٧٦٠ ) وصححه الحاكم ٢/ ٧٣ ووافقه الذهبى والبيهقى فى الشعب ( ٣٩٢٢ ) .

هذا ما ثبت عنه ﷺ فى الصحيح أنه قال يوم أحد حين كسر المشركون رباعيته وشجوا وجهه : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » (١) ؛ لأنه يمكن أن يكون ذلك قبل أن يبلغه تحريم الاستغفار للمشركين . وعلى فرض أنه قد كان بلغه كما يفيده سبب النزول ، فإنه قبل يوم أحد بمدة طويلة . وسيأتى . فصدور هذا الاستغفار منه لقومه إنما كان على سبيل الحكاية عمن تقدمه من الأنبياء كما فى صحيح مسلم عن عبد الله . قال : كأنى أنظر إلى النبى ﷺ يحكى نبياً من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : « رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون »(٢). وفى البخارى : أن النبى ﷺ ذكر نبيا قبله شجه قومه ، فجعل النبى ﷺ يخبر عنه بأنه قال : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » (٣) . قوله : ﴿ **من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم** ﴾ هذه الجملة تتضمن التعليل للنهى عن الاستغفار . والمعنى : أن هذا التبين موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا ، وعدم الاعتداد بالقرابة لأنهم ماتوا على الشرك . وقد قال سبحانه: ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ [ النساء : ٤٨ ] . فطلب المغفرة لهم فى حكم المخالفة لوعد الله ووعيده .

قوله : ﴿ **وما كان استغفار إبراهيم لأبيه** ﴾ الآية : ذكر الله سبحانه السبب فى استغفار إبراهيم لأبيه أنه كان لأجل وعد تقدم من إبراهيم لأبيه بالاستغفار له ، ولكنه ترك ذلك وتبرأ منه لما تبين له أنه عدو لله ، وأنه غير مستحق للاستغفار ، وهذا يدل على أنه إنما وعده قبل أن يتبين له أنه من أهل النار . ومن أعداء الله ، فلا حاجة إلى السؤال الذى يورده كثير من المفسرين أنه كيف خفى ذلك على إبراهيم فإنه لم يخف عليه تحريم الاستغفار لمن أصر على الكفر ومات عليه ، وهو لم يعلم ذلك إلا بإخبار الله سبحانه له بأنه عدو الله . فإن ثبوت هذه العدواة تدل على الكفر ، وكذلك لم يعلم نبينا ﷺ بتحريم ذلك إلا بعد أن أخبره الله بهذه الآية ، وهذا حكم إنما يثبت بالسمع لا بالعقل . وقيل : المراد من استغفار إبراهيم لأبيه : دعاؤه إلى الإسلام ، وهو ضعيف جدا . وقيل : المراد بالاستغفار فى هذه الآية : النهى عن الصلاة على جنائز الكفار ، فهو كقوله : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ﴾ [التوبة : ٨٤] ولا حاجة إلى تفسير الاستغفار بالصلاة ولا ملجئ إلى ذلك ، ثم ختم الله سبحانه هذه الآية بالثناء العظيم على إبراهيم ، فقال : ﴿ **إن إبراهيم لأواه** ﴾ وهو كثير التأوه كما تدل على ذلك صيغة المبالغة .

وقد اختلف أهل العلم فى معنى الأواه ، فقال ابن مسعود وعبيد بن عمير : إنه الذى يكثر الدعاء . وقال الحسن وقتادة : إنه الرحيم بعباد الله . وروى عن ابن عباس : أنه المؤمن بلغة الحبشة . وقال الكلبى : إنه الذى يذكر الله فى الأرض القفر (٤) . وروى مثله عن ابن المسيب. وقيل : الذى يكثر الذكر لله من غير تقييد ، روى ذلك عن عقبة بن عامر . وقيل : هو الذى

---

(١) أحمد ١/ ٤٤١ والطبرانى ( ٥٦٩٤ ) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ١٢٠ : « ورجاله رجال الصحيح » .
(٢) مسلم فى الجهاد (١٧٩٢ / ١٠٥ ) . (٣) البخارى فى الأنبياء (٣٤٧٧) ، وفى استتابة المرتدين (٦٩٢٩) .
(٤) القفر : الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا ناس ولا كلأ . اللسان ٥/ ١١٠ .

يكثر التلاوة ، حكى ذلك عن ابن عباس . وقيل: إنه الفقيه ، قاله مجاهد والنخعى . وقيل : المتضرع الخاضع ، روى ذلك عن عبد الله بن شداد بن الهاد . وقيل هو الذى إذا ذكر خطاياه استغفر لها ، روى ذلك عن أبى أيوب . وقيل : هو الشفيق ، قاله عبد العزيز بن يحيى . وقيل : إنه المعلم للخير . وقيل : إنه الراجع عن كل ما يكرهه الله ، قاله عطاء . والمطابق لمعنى الأواه لغة أن يقال : إنه الذى يكثر التأوه من ذنوبه ، فيقول مثلا : آه من ذنوبى آه مما أعاقب به بسببها ونحو ذلك ، وبه قال الفراء ، وهو مروى عن أبى ذر . ومعنى التأوه : هو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء . قال فى الصحاح : وقد أوه الرجل تأويها ، وتأوه تأوها إذا قال أوه ، والاسم منه آهة بالمدّ ، قال :

إذا ما قمت أرحلها بليل        تأوه آهة الرجل الحزين

و ﴿ **الحليم** ﴾ الكثير الحلم كما تفيده صيغة المبالغة ، وهو الذى يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى . وقيل : الذى لا يعاقب أحدا قط إلا لله .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت الوفاة أبا طالب دخل النبى ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أمية فقال النبى ﷺ : « أى عم ، قل لا إله إلا اللّه أحاج لك بها عند اللّه » ، فقال أبو جهل وعبد اللّه بن أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فجعل رسول الله ﷺ يعرضها عليه وأبو جهل وعبد الله يعاندانه بتلك المقالة . فقال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله . فقال النبى ﷺ : « لأستغفرن لك مالم أنه عنك » . فنزلت : ﴿ **ما كان للنبى** ﴾ الآية : وأنزل الله فى أبى طالب: ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾ (١). وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى والنسائى وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، والضياء فى المختارة عن علىّ قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت : تستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه ؟ فذكرت ذلك للنبى ﷺ فنزلت: ﴿ **ما كان للنبى** ﴾ الآية (٢) . وأخرج ابن سعد ، وابن عساكر ، عن علىّ قال : أخبرت النبى ﷺ بموت أبى طالب ، فبكى ، فقال : « اذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه » ، ففعلت ، وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له أياماً ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه : ﴿ **ما كان للنبى** ﴾ الآية .

وقد روى كون سبب نزول الآية استغفار النبى ﷺ لأبى طالب من طرق كثيرة : منها عن

---

(١) البخارى فى الجنائز ( ١٣٦٠ ) و فى مناقب الأنصار ( ٣٨٨٤ ) وفى التفسير ( ٤٦٧٥ ) ومسلم فى الإيمان (٢٤/ ٣٩ ) والنسائى٤/ ٩٠، ٩١.

(٢) أحمد ١/ ١٣٠ ، ١٣١ والترمذى فى التفسير ( ٣١٠١ ) وقال : « حديث حسن » والنسائى ٤/ ٩١ وابن جرير ١١/ ٣٢ ، وصححه الحاكم ٢/ ٣٣٥ والبيهقى فى الشعب ( ٩٣٧٨ ) ط : الكتب العلمية .

محمد بن كعب عند ابن أبى حاتم وأبى الشيخ وهو مرسل . ومنها عن عمرو بن دينار عند ابن جرير وهو مرسل أيضا . ومنها عن سعيد بن المسيب عند ابن جرير ، وهو مرسل أيضا . ومنها عن عمر بن الخطاب عند ابن سعد وأبى الشيخ وابن عساكر . ومنها عن الحسن البصرى عند ابن عساكر وهو مرسل . وروى أنها نزلت بسبب زيارة النبى ﷺ لقبر أمه واستغفاره لها من طريق ابن عباس عند الطبرانى [(١)] وابن مردويه ومن طريق ابن مسعود عند ابن أبى حاتم والحاكم [(٢)] وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، وعن بريدة عند ابن مردويه ، وما فى الصحيحين مقدم على مالم يكن فيهما على فرض أنه صحيح . فكيف وهو ضعيف غالبهُ .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس ، فى قوله ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ إلى قوله: ﴿ كما ربيانى صغيرا﴾ [ الإسراء : ٢٣، ٢٤ ] . قال : ثم استثنى فقال : ﴿ **ما كان للنبى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إلا عن موعدة وعدها إياه** ﴾.

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله ﴿ **فلما تبين له أنه عدو لله** ﴾ قال : تبين له حين مات وعلم أن التوبة قد انقطعت منه . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، وأبو بكر الشافعى فى فوائده ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما مات تبين له أنه عدو لله فتبرأ منه . وأخرج ابن مردويه عن جابر ، أن رجلا كان يرفع صوته بالذكر ، فقال رجل : لو أن هذا خفض صوته ؟ فقال رسول الله ﷺ : « دعه فإنه أوّاه » . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن عقبة بن عامر ؛ أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له ذو النجادين : « إنه أواه » ، وذلك أنه كان يكثر ذكر الله بالقرآن والدعاء . وأخرجه أيضا أحمد قال : حدثنا موسى بن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن علىّ بن رباح عن عقبة بن عامر فذكره . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال : قال رجل : يا رسول الله ، ما الأواه ؟ قال : « الخاشع المتضرع الدعاء » [(٣)] . وهذا إن ثبت وجب المصير إليه وتقديمه على ما ذكره أهل اللغة فى معنى الأواه ، وإسناده عند ابن جرير هكذا : حدّثنى المثنى حدثنى الحجاج ابن منهال حدثنا عبد الحميد بن بهرام حدثنا شهر بن حوشب عن عبد الله بن شداد فذكره . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ **إن إبراهيم لأواه حليم** ﴾ قال : كان من حلمه أنه كان إذا أذاه الرجل من قومه قال له : هداك الله .

**﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١١٦) لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ**

(١) الطبرانى ( ١٢٠٤٩ ) .
(٢) صححه الحاكم ٢/ ٣٣٦ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى . (٣) ابن جرير ١١/ ٣٧ .

**مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)** ﴾ .

لما نزلت الآية المتقدمة فى النهى عن الاستغفار للمشركين ، خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله بسبب ذلك الاستغفار ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ **وما كان الله ليضل قوما** ﴾ إلخ ، أى أن الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم ، ولا يسميهم ضلالا بعد أن هداهم إلى الإسلام ، والقيام بشرائعه مالم يقدموا على شيء من المحرمات بعد أن يتبين لهم أنه محرم ، وأما قبل أن يتبين لهم ذلك فلا إثم عليهم ولايؤاخذون به ، ومعنى : ﴿ **حتى يبين لهم ما يتقون** ﴾ حتى يتبين لهم ما يجب عليهم اتقاؤه من محرمات الشرع ﴿ **إن الله بكل شيء عليم** ﴾ مما يحل لعباده ويحرم عليهم ، ومن سائر الأشياء التى خلقها ، ثم بين لهم أن له سبحانه ملك السموات والأرض لا يشاركه فى ذلك مشارك ، ولا ينازعه منازع يتصرف فى ملكه بما شاء من التصرفات التى من جملتها أنه يحيى من قضت مشيئته بإحيائه ، ويميت من قضت مشيئته بإماتته ، وما لعباده من دونه من ولى يواليهم ولا نصير ينصرهم ، فلا يستغفروا للمشركين ولوكانوا أولى قربى ، فإن القرابة لا تنفع شيئا ولا تؤثر أثرا ، بل التصرف فى جميع الأشياء لله وحده .

قوله : ﴿ **لقد تاب الله على النبى** ﴾ فيما وقع منه ﷺ من الإذن فى التخلف ، أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين ، وليس من لازم التوبة أن يسبق الذنب ممن وقعت منه أوله ، لأن كل العباد محتاج إلى التوبة والاستغفار ، وقد تكون التوبة منه تعالى على النبى من باب أنه ترك ماهو الأولى والأليق كما فى قوله : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة : ٤٣ ] . ويجوز أن يكون ذكر النبى ﷺ لأجل التعريض للمذنبين بأن يتجنبوا الذنوب ويتوبوا عما قد لابسوه منها، وكذلك تاب الله سبحانه على المهاجرين والأنصار فيما قد اقترفوه من الذنوب . ومن هذا القبيل ما صح عنه ﷺ من قوله : « إن الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (١) ثم وصف سبحانه المهاجرين والأنصار بأنهم الذين اتبعوا النبى ﷺ فلم يتخلفوا عنه ، وساعة العسرة هى غزوة تبوك ، فإنهم كانوا فى عسرة شديدة ، فالمراد بالساعة جميع أوقات تلك الغزاة ، ولم يرد ساعة بعينها ، والعسرة: صعوبة الأمر .

قوله: ﴿ **من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم** ﴾ فى ﴿ **كاد**﴾ ضمير الشأن، و ﴿ **قلوب** ﴾

---

(١) البخارى فى المغازى ( ٤٢٧٤ ) وفى الجهاد ( ٣٠٠٧ ) وفى التفسير ( ٤٨٩٠ ) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٩٤/ ١٦١ ) والترمذى فى التفسير ( ٣٣٠٥ ) وقال : « حسن صحيح » .

مرفوع بـ **﴿تزيغ﴾** عند سيبويه . وقيل : هى مرفوعة بـ **﴿ كاد ﴾** ويكون التقدير : من بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ . وقرأ الأعمش وحمزة وحفص : « يزيغ » بالتحتية . قال أبو حاتم : من قرأ بالياء التحتية فلا يجوز له أن يرفع القلوب بـ **﴿ كاد ﴾** . قال النحاس : والذى لم يجزه جائز عند غيره على تذكير الجمع ، ومعنى **﴿ تزيغ ﴾** : تتلف بالجهد والمشقة والشدة . وقيل : معناه : تميل عن الحق وتترك المناصرة والممانعة . وقيل : معناه : تهم بالتخلف عن الغزو لما هم فيه من الشدة العظيمة . وفى قراءة ابن مسعود : « من بعد ما زاغت » وهم المتخلفون على هذه القراءة ، وفى تكرير التوبة عليهم بقوله : **﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾** تأكيد ظاهر واعتناء بشأنها ، هذا إن كان الضمير راجعا إلى من تقدم ذكر التوبة عنهم ، وإن كان الضمير إلى الفريق فلا تكرار .

قوله : **﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾** أى وتاب على الثلاثة الذين خلفوا ، أى أخروا ولم تقبل توبتهم فى الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم . قال ابن جرير : معنى خلفوا : تركوا ، يقال : خلفت فلانا فارقته . وقرأ عكرمة بن خالد : « خلفوا » بالتخفيف ، أى أقاموا بعد نهوض رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الغزو . وقرأ جعفر بن محمد « خالفوا » وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك . ومرارة بن الربيع أو ابن ربيعة العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، وكلهم من الأنصار ، لم يقبل النبى ﷺ توبتهم حتى نزل القرآن بأن الله قد تاب عليهم . وقيل : معنى **﴿خلفوا﴾**: فسدوا ، مأخوذ من خلوف الفم . قوله : **﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾** معناه : أنهم أخروا عن قبول التوبة إلى هذه الغاية ، وهى وقت أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، و « ما » مصدرية ، أى برحبها، لإعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم من كل أحد ، لأن النبى ﷺ نهى الناس أن يكالموهم ، والرحب : الواسع، يقال : منزل رحب ورحيب ورحاب . وفى هذه الآية دليل على جواز هجران أهل المعاصى تأديبا لهم لينزجروا عن المعاصى . ومعنى ضيق أنفسهم عليهم : أنها ضاقت صدورهم بما نالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الجفوة ، وعبر بالظن فى قوله : **﴿ وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ﴾** عن العلم ، أى علموا أن لا ملجأ يلجؤون إليه قط إلا إلى الله سبحانه بالتوبة والاستغفار . قوله : **﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾** أى رجع عليهم بالقبول والرحمة ، وأنزل فى القرآن التوبة عليهم ليستقيموا أو وفقهم للتوبة فيما يستقبل من الزمان إن فرطت منهم خطيئة ليتوبوا عنها ويرجعوا إلى الله فيها ويندموا على ما وقع منهم **﴿ إن الله هو التواب ﴾** أى الكثير القبول لتوبة التائبين ، **﴿ الرحيم ﴾** أى الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده. قوله : **﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾** هذا الأمر بالكون مع الصادقين بعد قصة الثلاثة فيه الإشارة إلى أن هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق ما حصل من توبة الله ، وظاهر الآية الأمر للعباد على العموم .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: **﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم ﴾**

قال : نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى . قال : لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم ، ولكن ما كان الله ليعذب قوما بذنب أذنبوه ﴿ **حتى يبين لهم ما يتقون** ﴾ قال: حتى ينهاهم قبل ذلك . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : بيان الله للمؤمنين فى الاستغفار للمشركين خاصة . وفى بيانه طاعته ومعصيته عاما (١) ما فعلوا أو تركوا .

وأخرج ابن جرير وابن خزيمة وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس ، أنه قال لعمر بن الخطاب : حدثنا من شأن ساعة العسرة ، فقال : خرجنا مع رسول الله إلى تبوك فى قيظ شديد ، فنزلنا منزلا فأصبنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ، إن الله قد عودك فى الدعاء خيرا فادع لنا ، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء ، فأهطلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر (٢) . وقد وقع الاتفاق بين الرواة أن ساعة العسرة هى غزوة تبوك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن منده وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن جابر بن عبد الله فى قوله : ﴿**وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ قال : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكلهم من الأنصار . وأخرج ابن منده وابن عساكر عن ابن عباس مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن كعب بن مالك قال : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر منها فى الناس وأشهر ، ثم ذكر القصة الطويلة المشهورة فى كتب الحديث والسير (٣) ، وهى معلومة عند أهل العلم فلا نطول بذكرها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ قال: يعنى : خلفوا عن التوبة لم يتب عليهم حين تاب الله على أبى لبابة وأصحابه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن عساكر عن عكرمة نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن نافع فى قوله : ﴿ **وكونوا مع الصادقين**﴾ قال : نزلت فى الثلاثة الذين خلفوا ، قيل لهم : كونوا مع محمد وأصحابه . وأخرج ابن

---

(١) فى المطبوعة: «غامض» ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) ابن جرير ١١/ ٤٠ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٣١ .

(٣) البخارى فى التفسير ( ٤٦٧٧ ) ومسلم فى التوبة ( ٢٧٦٩/ ٥٣ ) وأبو داود ( ٢٢٠٢ ) والنسائى فى التفسير ( ٢٥٢ ) .

جرير عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **وكونوا مع الصادقين** ﴾ قال : مع أبى بكر وعمر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن الضحاك فى الآية قال: مع أبى بكر وعمر وأصحابهما . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : مع على بن أبى طالب . وأخرج ابن عساكر عن أبى جعفر قال : مع الثلاثة الذين خلفوا .

﴿ **مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)** ﴾ .

فى قوله : ﴿ **ما كان لأهل المدينة** ﴾ إلخ زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله ﷺ وتحريم التخلف عنه ، أى ما صح وما استقام لأهل المدينة ﴿ **ومن حولهم من الأعراب** ﴾ كمزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار ﴿ **أن يتخلفوا عن رسول الله** ﴾ ﷺ فى غزوة تبوك ، وإنما خصهم الله سبحانه لأنهم قد استنفروا فلم ينفروا ، بخلاف غيرهم من العرب فإنهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله ﷺ ﴿ **ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه**﴾ أى وما كان لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه فيشحون بها ويصونونها ، ولا يشحون بنفس رسول الله ويصونونها كما شحوا بأنفسهم وصانوها ، يقال : رغبت عن كذا، أى ترفعت عنه ، بل واجب عليهم أن يكابدوا معه المشاق ، ويجاهدوا بين يديه أهل الشقاق ، ويبذلوا أنفسهم دون نفسه ، وفى هذا الإخبار معنى الأمر لهم مع ما يفيده إيراده على هذه الصيغة من التوبيخ لهم والتقريع الشديد . والتهييج لهم ، والإزراء عليهم . والإشارة بقوله: ﴿**ذلك** ﴾ إلى ما يفيده السياق من وجوب المتابعة لرسول الله ﷺ ، أى ذلك الوجوب عليهم بسبب أنهم مثابون على أنواع المتاعب وأصناف الشدائد . والظمأ : العطش . والنصب: التعب . والمخمصة : المجاعة الشديدة التى يظهر عندها ضمور البطن . وقرأ عبيد بن عمير «ظماء » بالمد . وقرأ غيره بالقصر ، وهما لغتان مثل خطأ وخطاء . و « لا » فى هذه المواضع زائدة للتأكيد . ومعنى ﴿ **فى سبيل الله** ﴾ فى طاعة الله .

قوله : ﴿ **ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار** ﴾ أى لا يدوسون مكانا من أمكنة الكفار بأقدامهم أو بحوافر خيولهم أو بأخفاف رواحلهم ، فيحصل بسبب ذلك الغيظ للكفار . والموطئ : اسم مكان ، ويجوز أن يكون مصدرا ﴿ **ولا ينالون من عدوٍ نيلا** ﴾ أى يصيبون من عدوهم قتلا أو أسرا أو هزيمة أو غنيمة ، وأصله : من نلت الشىء أنال ، أى أصيب . قال الكسائى : هو من قولهم : أمر منيل منه ، وليس هو من التناول ، إنما التناول من نلته بالعطية . قال غيره :

نلت أنول من العطية ، ونلته أناله : أدركته ، والضمير فى ﴿ **به** ﴾ يعود إلى كل واحد من الأمور المذكورة ، والعمل الصالح : الحسنة المقبولة ، أى إلا كتبه الله لهم حسنة مقبولة يجازيهم بها ، وجملة : ﴿ **إن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ فى حكم التعليل لما سبق مع كونه يشمل كل محسن ويصدق على المذكورين هنا صدقا أوليا .

قوله : ﴿ **ولا ينفقون نفقة** ﴾ معطوف على ما قبله ، أى ولا يقع منهم الإنفاق فى الحرب وإن كان شيئا صغيرا يسيرا ﴿ **ولا يقطعون واديا** ﴾ وهو فى الأصل كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل ، والعرب تقول : واد وأودية على غير قياس . قال النحاس : ولا يعرف فيما علمت فاعل وأفعله ﴿ **إلا كتب لهم** ﴾ أى كتب لهم ذلك الذى عملوه من النفقة والسفر فى الجهاد ﴿ **ليجزيهم الله** ﴾ به ﴿ **أحسن ما كانوا يعملون** ﴾ أى أحسن جزاء ما كانوا يعملون من الأعمال ، ويجوز أن يكون فى قوله : ﴿ **إلا كتب لهم** ﴾ ضمير يرجع إلى عمل صالح . وقد ذهب جماعة إلى أن هذه الآية منسوخة بالآية المذكورة بعدها ،هى قوله : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ فإنها تدل على جواز التخلف من البعض مع القيام بالجهاد من البعض ، وسيأتى .

وقد أخرج ابن أبى حاتم من طريق عمر بن مالك عن بعض الصحابة قال : لما نزلت : ﴿ **ما كان لأهل المدينة** ﴾ الآية ، قال رسول الله ﷺ : « والذى بعثنى بالحق لولا ضعفاء الناس ما كانت سرية إلا كنت فيها » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿**ما كان لأهل المدينة** ﴾ قال هذا حين كان الإسلام قليلا لم يكن لأحد أن يتخلف عن رسول الله ﷺ ، فلما كثر الإسلام وفشا قال الله : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأوزاعى وعبدالله بن المبارك وإبراهيم بن محمد الفزارى وعيسى بن يوسف السبيعى ؛ أنهم قالوا فى قوله تعالى : ﴿ **ولا ينالون من عدو نيلا** ﴾ قالوا : هذه الآية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة .

**﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾ .**

اختلف المفسرون فى معنى ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ : فذهب جماعة إلى أنه من بقية أحكام الجهاد ؛ لأنه سبحانه لما بلغ فى الأمر بالجهاد والانتداب إلى الغزو كان المسلمون إذا بعث رسول الله ﷺ سرية من الكفار ينفرون جميعا ويتركون المدينة خالية ، فأخبرهم الله سبحانه بأنه ما كان لهم ذلك ، أى ما صح لهم ولا استقام أن ينفروا جميعا ، بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرقة ويبقى من عدا هذه الطائفة النافرة . قالوا : ويكون الضمير

فى قوله : ﴿ليتفقهوا﴾ عائدا إلى الفرقة الباقية . والمعنى : أن الطائفة من هذه الفرقة تخرج إلى الغزو ، ومن بقى من الفرقة يقفون لطلب العلم ، ويعلمون الغزاة إذا رجعوا إليهم من الغزو ، أو يذهبون فى طلبه إلى المكان الذى يجدون فيه من يتعلمون منه ليأخذوا عنه الفقه فى الدين وينذروا قومهم وقت رجوعهم إليهم . وذهب آخرون إلى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد ، وهى حكم مستقل بنفسه فى مشروعية الخروج لطلب العلم والتفقه فى الدين ، جعله الله سبحانه متصلا بما دل على إيجاب الخروج إلى الجهاد ، فيكون السفر نوعين : الأول سفر الجهاد . والثانى : السفر لطلب العلم . ولا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون إذا لم يجد الطالب من يتعلم منه فى الحضر من غير سفر . والفقه : هو العلم بالأحكام الشرعية ، وبما يتوصل به إلى العلم بها من لغة ونحو وصرف وبيان وأصول . ومعنى ﴿ فلولا نفر ﴾ : فهلا نفر ، والطائفة فى اللغة الجماعة . وقد جعل الله سبحانه الغرض من هذا هو التفقه فى الدين ، وإنذار من لم يتفقه ، فجمع بين المقصدين الصالحين والمطلبين الصحيحين ، وهما تعلم العلم وتعليمه ، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين ، فهو طالب لغرض دنيوى لا لغرض دينى ، فهو كما قلت :

وطالب الدنيا بعلم الدين أى بائس ... كمن غدا لنعله يمسح بالقلانس

ومعنى ﴿ لعلهم يحذرون ﴾ : الترجى لوقوع الحذر منهم عن التعريض فيما يجب فعله فيترك ، أو فيما يجب تركه فيفعل . ثم أمر سبحانه المؤمنين بأن يجتهدوا فى مقاتلة من يليهم من الكفار ، وأن يأخذوا فى حربهم بالغلظة والشدة والجهاد واجب لكل الكفار ، وإن كان الابتداء بمن يلى المجاهدين منهم أهم وأقدم ، ثم الأقرب فالأقرب ؛ ثم أخبرهم الله بما يقوى عزائمهم ويثبت أقدامهم فقال : ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ أى بالنصرة لهم وتأييدهم على عدوهم ومن كان الله معه لم يقم له شىء .

وقد أخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : نسخ هؤلاء الآيات : ﴿ انفروا خفافا وثقالا ﴾ [ التوبة : ٤١ ] و ﴿ إن لا تنفروا يعذبكم ﴾ [التوبة: ٣٩ ] قوله : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ يقول : لتنفر طائفة وتمكث طائفة مع رسول الله ﷺ ، فالماكثون مع رسول الله ﷺ هم الذين يتفقهون فى الدين وينذرون إخوانهم إذا رجعوا إليهم من الغزو ، ولعلهم يحذرون ما نزل من بعدهم من قضاء الله فى كتابه وحدوده . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عنه نحوه من طريق أخرى بسياق أتم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى هذه الآية قال : ليست هذه الآية فى الجهاد ، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين أجدبت بلادهم ، فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يخلوا بالمدينة من الجهد ويقبلوا بالإسلام وهم كاذبون ، فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم ، فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا بمؤمنين .

فردهم إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله : ﴿ **ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ وفى الباب روايات عن جماعة من التابعين .

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **قاتلوا الذين يلونكم** ﴾ قال : الأدنى ، فالأدنى . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر، أنه سئل عن غزو الديلم فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿ **قاتلوا الذين يلونكم من الكفار** ﴾ قال: « الروم » . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وليجدوا فيكم غلظة** ﴾ قال : شدة .

﴿ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)** ﴾ .

قوله : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة** ﴾ : حكاية منه سبحانه لبقية فضائح المنافقين ، أى إذا ما أنزل الله على رسوله ﷺ سورة من كتابه العزيز فمن المنافقين ﴿ **من يقول** ﴾ لإخوانه منهم ﴿**أيكم زادته هذه** ﴾ السورة النازلة ﴿ **إيمانا** ﴾ يقولون هذا : استهزاء بالمؤمنين ، ويجوز أن يقولوه: لجماعة من المسلمين قاصدين بذلك صرفهم عن الإسلام وتزهيدهم فيه ، و﴿**أيكم**﴾ مرفوع بالابتداء وخبره زادته . وقد تقدم بيان معنى السورة . ثم حكى الله سبحانه بعد مقالتهم هذه أن المؤمنين زادتهم إيمانا إلى إيمانهم ، والحال أنهم يستبشرون مع هذه الزيادة بنزول الوحى وما يشتمل عليه من المنافع الدينية والدنيوية ﴿ **وأما الذين فى قلوبهم مرض** ﴾ وهم المنافقون ﴿**فزادتهم** ﴾ السورة المنزلة ﴿ **رجسا إلى رجسهم** ﴾ أى خبثا إلى خبثهم الذين هم عليه من الكفر وفساد الاعتقاد ، وإظهار غير ما يضمرونه وثبتوا على ذلك واستمروا عليه إلى أن ماتوا كفارا منافقين . والمراد بالمرض هنا : الشك والنفاق ؛ وقيل : المعنى : زادتهم إثما إلى إثمهم.

قوله : ﴿ **أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين** ﴾ قرأ الجمهور :﴿ **يرون** ﴾ بالتحتية . وقرأ حمزة ويعقوب بالفوقية خطابا للمؤمنين . وقرأ الأعمش : « أو لم يروا » . وقرأ طلحة بن مصرف : « أولا ترى » خطابا لرسول الله ﷺ ، وهى قراءة ابن مسعود .

ومعنى ﴿ **يفتنون** ﴾ : يختبرون ، قاله ابن جرير وغيره أو يبتليهم الله سبحانه بالقحط والشدة، قاله مجاهد . وقال ابن عطية بالأمراض والأوجاع . وقال قتادة والحسن بالغزو والجهاد مع النبى ﷺ ويرون ما وعد الله من النصر ﴿ **ثم لا يتوبون** ﴾ بسبب ذلك ﴿ **ولا هم يذكرون** ﴾ و « ثم» لعطف ما بعدها على يرون ، والهمزة فى أولا يرون للإنكار والتوبيخ ، والواو للعطف على مقدر ، أى لا ينظرون ولا يرون ، وهذا تعجيب من الله سبحانه للمؤمنين من حال المنافقين وتصلبهم فى النفاق وإهمالهم للنظر والاعتبار .

ثم ذكر الله سبحانه ما كانوا يفعلونه عند نزول السورة بعد ذكره لما كانوا يقولونه ، فقال : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض** ﴾ أى نظر بعض المنافقين إلى البعض الآخر قائلين : ﴿ **هل يراكم من أحد** ﴾ من المؤمنين لننصرف عن المقام الذى ينزل فيه الوحى ، فإنه لا صبر لنا على استماعه ، ولنتكلم بما نريد من الطعن والسخرية والضحك . وقيل: المعنى: وإذا نزلت سورة ذكر الله فيها فضائح المنافقين ومخازيهم قال بعض من يحضر مجلس رسول الله ﷺ للبعض الآخر منهم : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا إلى منازلهم. وحكى ابن جرير عن بعض أهل العلم أنه قال : ﴿**نظر**﴾ فى هذه الآية موضوع موضع قال ، أى قال بعضهم لبعض : هل يراكم من أحد ؟ قوله : ﴿ **ثم انصرفوا**﴾ أى عن ذلك المجلس إلى منازلهم ، أو عن ما يقتضى الهداية والإيمان إلى ما يقتضى الكفر والنفاق ، ثم دعا الله سبحانه عليهم ، فقال : ﴿ **صرف الله قلوبهم** ﴾ أى صرفها عن الخير وما فيه الرشد لهم والهداية ، وهو سبحانه مصرف القلوب ومقلبها . وقيل : المعنى : أنه خذلهم عن قبول الهداية. وقيل : هو دعاء لا يراد به وقوع مضمونه كقولهم : قاتله الله ، ثم ذكر سبحانه السبب الذى لأجله انصرفوا عن مواطن الهداية ، أو السبب الذى لأجله استحقوا الدعاء عليهم بقوله : ﴿**صرف الله قلوبهم**﴾ فقال : ﴿ **بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ ما يسمعونه لعدم تدبرهم وإنصافهم .

ثم ختم الله سبحانه هذه السورة بما يهون عنده بعض ما اشتملت عليه من التكاليف الشاقة ، فقال : ﴿ **لقد جاءكم** ﴾ يا معشر العرب ﴿ **رسول** ﴾ أرسله الله إليكم له شأن عظيم ﴿ **من أنفسكم** ﴾ من جنسكم فى كونه عربيا وإلى كون هذه الآية خطابا للعرب ذهب جمهور المفسرين . وقال الزجاج : هى خطاب لجميع العالم . والمعنى: ﴿**لقد جاءكم رسول من** ﴾ جنسكم فى البشرية ﴿ **عزيز عليه ما عنتم** ﴾ « ما » مصدرية ، والمعنى : شاق عليه عنتكم لكونه من جنسكم ومبعوثا لهدايتكم . والعنت : التعب لهم والمشقة عليهم بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه ، أو بعذاب الآخرة بالنار ، أو بمجموعهما ﴿ **حريص عليكم** ﴾ أى شحيح عليكم بأن تدخلوا النار ، أو حريص على إيمانكم . والأول أولى ، وبه قال الفراء . والرؤوف والرحيم قد تقدم بيان معناهما ، أى هذا الرسول ﴿**بالمؤمنين** ﴾ منكم أيها العرب أو الناس ﴿ **رؤوف**

**رحيــم** ﴾ ثم قال مخاطبا لرسوله ومسليا له ، ومرشدا له إلى ما يقوله عند أن يعصى ﴿ **فإن تولوا** ﴾ أى أعرضوا عنك ولم يعملوا بما جئت به ولا قبلوه ﴿ **فقل** ﴾ يا محمد ﴿**حسبى الله** ﴾ أى كافى الله سبحانه المنفرد بالألوهية ﴿ **عليه توكلت** ﴾ أى فوضت جميع أمورى ﴿**وهو رب العرش العظيم**﴾ وصفه بالعظم ، لأنه أعظم المخلوقات . وقد قرأ الجمهور بالجر على أنه صفة لعرش . وقرأ ابن محيصن بالرفع صفة لرب . وقد رويت هذه القراءة عن ابن كثير .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا**﴾ قال: كان إذا نزلت سورة آمنوا بها فزادهم الله إيمانا وتصديقا وكانوا بها يستبشرون . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدي فى قوله : ﴿ **رجسا إلى رجسهم** ﴾ قال : شكا إلى شكهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **أولا يرون أنهم يفتنون** ﴾ قـال: يقتلـون . وأخـرج ابن أبى شيبة وابن جريـر وابن المـنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه وقال : بالسنة والجوع . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : بالعدو . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : بالغزو فى سبيل الله . وأخرج أبو الشيخ عن بكار بن مالك قال : يمرضون فى كل عام مرة أو مرتين . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد قال : كانت لهم فى كل عام كذبة أو كذبتان. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة قال : كنا نسمع فى كل عام كذبة أو كذبتين، فيضل بها فئام من الناس كثير .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **نظر بعضهم إلى بعض** ﴾ قال : هم المنافقون . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : لاتقولوا انصرفنا من الصلاة ، فإن قوما انصرفوا صرف الله قلوبهم ولكن قولوا : قضينا الصلاة . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر نحوه . وأقول : الانصراف يكون عن الخير كما يكون عن الشر . وليس فى إطلاقه هنا على رجوع المنافقين عن مجلس الخير ما يدل على أنه لا يطلق إلا على نحو ذلك وإلا لزم أن كل لفظ يستعمل فى لغة العرب فى الأمور المتعددة إذا استعمل فى القرآن فى حكاية ما وقع من الكفار لا يجوز استعماله فى حكاية ما وقع عن أهل الخير كالرجوع والذهاب والدخول والخروج والقيام والقعود . واللازم باطل بالإجماع ، فالملزوم مثله ، ووجه الملازمة ظاهر لا يخفى .

وأخرج عبد بن حميد والحارث بن أبى أسامة فى مسنده وابن المنذر وابن مردويه ، وأبو نعيم فى دلائل النبوة ، وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾ قال : ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبى ﷺ مضريها وربيعها ويمانيها . وأخرج ابن سعد عنه فى قوله : ﴿ **من أنفسكم** ﴾ قال : قد ولدتموه يا معشر العرب . وأخرج

عبد الرزاق فى المصنف ، وابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه ، وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ قال : لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية ، وقال رسول الله ﷺ : « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » (١) وهذا فيه انقطاع ، ولكنه قد وصله الحافظ الرامهرمزى فى كتابه الفاصل بين الراوى والواعى . فقال : حدثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد حدثنا ابن أبى عمر حدثنا محمد بن جعفر ابن محمد قال : أشهد على أبى يحدثنى عن أبيه عن جده عن على بن أبى طالب قال : قال رسول الله ﷺ : « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى » (٢). وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ فقال على بن أبى طالب : يا رسول الله ، ما معنى ﴿ **من أنفسكم** ﴾ ؟ قال : «نسبا وصهرا وحسبا ، ليس فى ولا فى آبائى من لدن آدم سفاح كلنا نكاح » . وأخرج الحاكم عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ قرأ : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ يعنى: من أعظمكم قدرا (٣) . وأخرج ابن سعد عنه نحو حديث على الأول . وأخرج الطبرانى عنه أيضا نحوه . وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن عائشة نحوه . وفى الباب أحاديث بمعناه ، ويؤيده ما فى صحيح مسلم وغيره من حديث واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشًا ، واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم»(٤).

وأخرج أحمد والترمذى وحسنه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله حين خلق الخلق جعلنى من خير خلقه ، ثم حين فرقهم جعلنى فى خير الفريقين ، ثم حين خلق القبائل جعلنى من خيرهم قبيلة ، وحين خلق الأنفس جعلنى من خير أنفسهم ، ثم حين خلق البيوت جعلنى من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم بيتا وخيرهم نفسا » (٥) وفى الباب أحاديث . وأخرج ابن أبى شيبة وإسحاق بن راهويه وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل من طريق يوسف ابن مهران عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال : آخر آية أنزلت على النبى ﷺ ، وفى لفظ : آخر ما أنزل من القرآن : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾ إلى آخر الآية ، وروى عنه نحوه

(١) ابن جرير : ١١/ ٥٦ .

(٢) البيهقى ٧/ ١٩٠ ، وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ٢١٧ : « رجاله ثقات إلا محمد بن جعفر بن محمد بن على فقد تكلم فيه وصحح له الحاكم».

(٣)صححه الحاكم ٢/ ٢٤٠ على شرط الشيخين ، وسكت عنه الذهبى .

(٤) أحمد ٤/ ١٠٧ ومسلم فى الفضائل ( ١/٢٢٧٦ ) والترمذى فى المناقب ( ٣٦٠٥ ) وقال: « هذا حديث حسن صحيح » .

(٥) أحمد ١/ ٢١٠ ، والترمذى فى المناقب ( ٣٦٠٧ ) وقال : « حديث حسن » والبيهقى فى الدلائل ١/ ١٦٧ ، ١٦٨ .

من طريق أخرى أخرجها عبدالله بن أحمد فى زوائد المسند ، وابن الضريس فى فضائله ، وابن أبى داود فى المصاحف ، وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل، والخطيب فى تلخيص المتشابه ، والضياء فى المختارة . وأخرج ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاءته جهينة فقالوا له : إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا نأمنك وتأمنا قال : « ولم سألتم هذا ؟ » قالوا : نطلب الأمن ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فإن تولوا فقل حسبى الله** ﴾ يعنى : الكفار تولوا عن النبى ﷺ . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : إنما سمى العرش عرشا لارتفاعه ، وقد رويت أحاديث كثيرة فى صفة العرش وماهيته وقدره .

وإلى هنا انتهى الثلث الأول من التفسير المسمى: « فتح القدير » الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير بقلم مؤلفه : محمد بن على الشوكانى ، غفر الله لهما . وكان تمام هذا الثلث فى نهار يوم الثلاثاء لعله يوم عشرين من شهر محرم سنة ١٢٢٧ هـ .

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين .

الحمد لله : انتهى سماعا على مؤلفه . أطال الله مدته فى شهر جمادى الأولى من سنة ١٢٣٥ هـ .

**يحيى بن على الشوكانى**

غفر الله لهما آمين

## تفسير سورة يونس

• هى مكية إلا ثلاث آيات من قوله : ﴿ **فإن كنت فى شك** ﴾ إلى آخرهنّ ، هكذا روى القرطبى فى تفسيره عن ابن عباس . وحكى عن مقاتل أنها مكية إلا آيتين ، وهى قوله : ﴿**فإن كنت فى شك** ﴾ فإنها نزلت فى المدينة. وحكى عن الكلبى أنها مكية إلا قوله : ﴿ **ومنهم من لا يؤمن به** ﴾ فإنها نزلت بالمدينة . وحكى عن الحسن وعكرمة وعطاء وجابر أنها مكية من غير استثناء . وأخرج النحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة يونس بمكة . وأخرج أبوالشيخ عن ابن سيرين قال : كانت سورة يونس بعد السابعة . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إن اللّه أعطانى الرائيات إلى الطواسين مكان الإنجيل ». وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن الأحنف قال : صليت خلف عمر غداة فقرأ يونس وهود وغيرهما .

**﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) ﴾** .

قوله : ﴿ **الر** ﴾ قد تقدّم الكلام مستوفى على هذه الحروف الواقعة فى أوائل السور فى أول سورة البقرة فلا نعيده ، ففيه ما يغنى عن الإعادة . وقد قرأ بالإمالة أبو عمرو وحمزة وخلف وغيرهم . وقرأ جماعة من غير إمالة . وقد قيل: إن معنى ﴿ **الر** ﴾ : أنا اللّه أرى . قال النحاس : ورأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول ، لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب ، وأنشد :

بالخير خيرات وإن شرافا

أى وإن شرّا فشرّ . وقال الحسن وعكرمة :﴿ **الر** ﴾ قسم . وقال سعيد عن قتادة : ﴿**الر**﴾ اسم للسورة . وقيل :غير ذلك مما فيه تكلف لعلم ما استأثر اللهّ بعلمه ، وقد اتفق القراء على أن ﴿ **الر** ﴾ ليس بآية . وعلى أن ﴿ طه ﴾ آية ، وفى مقنع أبى عمرو الدانى أن العادّين لطـه آية هم الكوفيون فقط ، قيل : ولعل الفرق أن ﴿ **الر** ﴾ لا يشاكل مقاطع الآى التى بعده . والإشارة بقوله : ﴿ **تلك** ﴾ إلى ما تضمنته السورة من الآيات، والتبعيد للتعظيم ،

واسم الإشارة مبتدأ وخبره ما بعده . وقال مجاهد وقتادة : أراد التوراة والإنجيل وسائر الكتب المتقدمة، فإن تلك إشارة إلى غائب مؤنث. قيل : ﴿ **تلك** ﴾ بمعنى هذه ، أى هذه آيات الكتاب الحكيم ، وهو القرآن . ويؤيد كون الإشارة إلى القرآن أنه لم يجر للكتب المتقدمة ذكر . وأن الحكيم من صفات القرآن لا من صفات غيره ، و﴿ **الحكيم** ﴾ المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام ، قاله أبو عبيدة وغيره . وقيل : الحكيم معناه : الحاكم فهو فعيل بمعنى فاعل ، كقوله : ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ [ البقرة : ٢١٣ ]. وقيل : الحكيم بمعنى المحكوم فيه فهو فعيل بمعنى مفعول ، أى حكم اللّه فيه بالعدل والإحسان، قاله الحسن وغيره . وقيل : الحكيم ذو الحكمة لاشتماله عليها .

والاستفهام فى قوله : ﴿ **أكان للناس عجبا** ﴾ لإنكار العجب مع ما يفيده من التقريع والتوبيخ . واسم كان ﴿ **أن أوحينا** ﴾ وخبرها ﴿ **عجبا** ﴾ أى أكان إيحاؤنا عجبا للناس . وقرأ ابن مسعود : « عجب » على أنه اسم كان ، على أن كان تامة ، و﴿ **أن أوحينا** ﴾ بدل من عجب . وقرئ بإسكان الجيم من ﴿ **رجل** ﴾ فى قوله : ﴿**إلى رجل منهم** ﴾ أى من جنسهم وليس فى هذا الإيحاء إلى رجل من جنسهم ما يقتضى العجب فإنه لا يلابس الجنس ويرشده ويخبره عن اللّهّ سبحانه إلا من كان من جنسه ، ولو كان من غير جنسهم لكان من الملائكة أو من الجنّ ويتعذر المقصود حينئذ من الإرسال؛ لأنهم لا يأنسون إليه ولا يشاهدونه . ولو فرضنا تشكله لهم وظهوره ، فإما أن يظهر فى غير شكل النوع الإنسانى ، وذلك أوحش لقلوبهم وأبعد من أنسهم ، أو فى الشكل الإنسانى فلا بدّ من إنكارهم لكونه فى الأصل غير إنسان ، هذا إن كان العجب منهم لكونه من جنسهم . وإن كان لكونه يتيما أو فقيرا . فذلك لا يمنع من أن يكون من كان كذلك جامعا من خصال الخير والشرف ما لا يجمعه غيره ، وبالغا فى كمال الصفات إلى حدّ يقصرّ عنه من كان غنيا ، أو كان غير يتيم . وقد كان لرسول اللّه ﷺ قبل أن يصطفيه اللّه بإرساله من خصال الكمال عند قريش ما هو أشهر من الشمس وأظهر من النهار، حتى كانوا يسمونه الأمين . قوله: ﴿ **أن أنذر الناس** ﴾ فى موضع نصب بنزع الخافض، أى بأن أنذر الناس . وقيل : هى المفسرة لأن فى الإيحاء معنى القول . وقيل : هى المخففة من الثقيلة . قوله : ﴿ **قدم صدق** ﴾ أى منزل صدق ، وقال الزجاج : درجة عالية . ومنه قول ذى الرمة :

لكم قدم لا ينكر الناس أنها ... مع الحسب العالى طمت [١] على البحر

وقال ابن الأعرابى : القدم المتقدّم فى الشرف . وقال أبو عبيدة والكسائى : كل سابق من خير أو شر فهو عند العرب قدم ، يقال : لفلان قدم فى الإسلام ، وله عندى قدم صدق ، وقدم خير ، وقدم شرّ ، ومنه قول العجاج:

---

(١) طم الأمر طما : علا وغلب ، ومنه قيل للقيامة : الطامة . اللسان ١٢/ ٣٧٠ .

زلّ بنو العوام عند آل الحكم وتـركـوا الملـك لملـك ذى قـــدم

وقال ثعلب :القدم كل ما قدمت من خير . وقال ابن الأنبارى :القدم كناية عن العمل الذى لا يقع فيه تأخير ولا إبطاء . وقال قتادة : سلف صدق ، وقال الربيع : ثواب صدق . وقال الحسن : هو محمد ﷺ ، وقال الحكيم الترمذى : قدمه ﷺ فى المقام المحمود ، وقال مقاتل : أعمالا قدّموها واختاره ابن جرير ، ومنه قول الوضاح :

صـل لذى العرش واتخذ قدما ينجيـك يـــوم الخصـام والـزلل

وقيل : غير ما تقدّم مما لا حاجة إلى التطويل بإيراده . قوله :﴿ **قال الكافرون إن هذا لساحر مبين** ﴾ . قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائى وخلف والأعمش وابن محيصن : ﴿**لساحر** ﴾ على أنهم أرادوا رسول اللّه ﷺ باسم الإشارة . وقرأ الباقون « لسحر » على أنهم أرادوا القرآن . وقد تقدّم معنى السحر فى البقرة . وجملة : ﴿ **قال الكافرون** ﴾ مستأنفة كأنه قيل : ماذا صنعوا بعد التعجب ؛ وقال القفال : فيه إضمار . والتقدير : فلما أنذرهم قال الكافرون ذلك .

ثم إن اللّه سبحانه جاء بكلام يبطل به العجب الذى حصل للكفار من الإيحاء إلى رجل منهم فقال : ﴿ **إن ربكم اللّه الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام** ﴾ أى من كان له هذا الاقتدار العظيم الذى تضيق العقول عن تصورّه كيف يكون إرساله لرسول إلى الناس من جنسهم محلا للتعجب مع كون الكفار يعترفون بذلك ، فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة بهذا الرسول ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية فى الأعراف فى قوله : ﴿ إن ربكم اللّه الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ [ الأعراف : ٥٤ ] . فلا نعيده هنا ، ثم ذكر ما يدل على مزيد قدرته وعظيم شأنه فقال : ﴿ **يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه**﴾ وترك العاطف لأن جملة : ﴿ **يدبر** ﴾ كالتفسير والتفصيل لما قبلها ، وقيل : هى فى محل نصب على الحال من ضمير استوى . وقيل: مستأنفة جواب سؤال مقدّر . وأصل التدبير: النظر فى أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المقبول . وقال مجاهد : يقضيه ويقدرّه وحده . وقيل : يبعث الأمر . وقيل : ينزل الأمر . وقيل : يأمر به ويمضيه ، والمعنى متقارب ، واشتقاقه من الدبر ، والأمر: الشأن ، وهو أحوال ملكوت السموات والأرض والعرش وسائر الخلق . قال الزجاج : إن الكفار الذين خوطبوا بهذه الآية كانوا يقولون : إن الأصنام شفعاؤنا عند اللّه ، فردّ اللّه عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع إليه فى شىء إلا بعد إذنه ؛ لأنه أعلم بموضع الحكمة والصواب . وقد تقدّم معنى الشفاعة فى البقرة . وفى هذا بيان لاستبداده بالأمور فى كل شىء سبحانه وتعالى ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى فاعل هذه الأشياء من الخلق والتدبير ، أى الذى فعل هذه الأشياء العظيمة ﴿ **اللّه ربكم** ﴾ واسم الإشارة مبتدأ وخبره الاسم الشريف ، و﴿ **ربكم** ﴾ بدل منه أو بيان له أو خبر ثان ، وفى هذه الجملة زيادة تأكيد لقوله :

﴿ إن ربكم اللّه الذى خلق السموات والأرض ﴾ ثم أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن بين لهم أنه الحقيق بها دون غيره لبديع صنعه وعظيم اقتداره . فكيف يعبدون الجمادات التى لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ؟ والاستفهام فى قوله : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ للإنكار والتوبيخ والتقريع ، لأن من له أدنى تذكر وأقلّ اعتبار يعلم بهذا ولا يخفى عليه .

ثم بين لهم ما يكون آخر أمرهم بعد الحياة الدنيا ، فقال : ﴿ إليه مرجعكم جميعا ﴾ وفى هذا من التهديد والتخويف ما لا يخفى ، وانتصاب ﴿ وعد اللّه ﴾ على المصدر ، لأن فى قوله : ﴿ إليه مرجعكم جميعا ﴾ معنى الوعد أو هو منصوب بفعل مقدر ، والمراد بالمرجع : الرجوع إليه سبحانه إما بالموت أو بالبعث أو بكل واحد منهما، ثم أكد ذلك الوعد بقوله:﴿ حقا ﴾ فهو تأكيد لتأكيد فيكون فى الكلام من الوكادة ما هو الغاية فى ذلك . وقرأ ابن أبى عبلة : «وعد اللّه حق » على الاستئناف ، ثم علل سبحانه ما تقدّم بقوله : ﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أى إن هذا شأنه يبتدئ خلقه من التراب ثم يعيده إلى التراب ، أو معنى الإعادة الجزاء يوم القيامة . قال مجاهد : ينشئه ثم يميته ، ثم يحييه للبعث . وقيل : ينشئه من الماء ثم يعيده من حال إلى حال . وقرأ يزيد بن القعقاع : أنه يبدأ الخلق بفتح الهمزة ، فتكون الجملة فى موضع نصب بما نصب به وعد اللّه ، أى وعدكم أنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ويجوز أن يكون التقدير : لأنه يبدأ الخلق ، وأجاز الفراء ان تكون « أن » فى موضع رفع فتكون اسما . قال أحمد بن يحيى بن ثعلب يكون التقدير :حقا إبداؤه الخلق ، ثم ذكر غاية ما يترتب على الإعادة فقال : ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ أى بالعدل الذى لا جور فيه ﴿ والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ يحتمل أن يكون الموصول الآخر معطوفا على الموصول الأوّل ، أى ليجزى الذين آمنوا ويجزى الذين كفروا وتكون جملة : ﴿لهم شراب من حميم ﴾ فى محل نصب على الحال هى وما عطف عليها ، أى وعذاب أليم ، ويكون التقدير هكذا : ويجزى الذين كفروا حال كون لهم هذا الشراب وهذا العذاب ، ولكن يشكل على ذلك أن هذا الشراب وهذا العذاب الأليم هما من الجزاء . ويمكن أن يقال : إن الموصول فى ﴿والذين كفروا﴾ مبتدأ وما بعده خبر . فلا يكون معطوفا على الموصول الأوّل ، والباء فى ﴿ بما كانوا يكفرون﴾ للسببية، أى بسبب كفرهم ، والحميم : الماء الحار ، وكل مسخن عند العرب فهو حميم .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله :﴿ الر ﴾ قال : فواتح [ السور ] (١) أسماء من أسماء اللّه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، وابن النجار فى تاريخه عنه قال : فى قوله : ﴿ الر ﴾ أنا اللّه أرى . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك مثله أيضا . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ قال : يعنى هذه .

---

(١) سقطت من المطبوعة لفظ ( السور ) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **تلك آيات الكتاب** ﴾ قال : الكتب التى خلت قبل القرآن.

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما بعث الله محمدا ﷺ رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم . فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد . فأنزل الله ﴿ **أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم** ﴾ الآية ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ﴾ الآية [النحل : ٤٣ ] . فلما كرّر الله سبحانه عليهم الحجج (١) قالوا : وإذا كان بشرا ، فغير محمد كان أحق بالرسالة ﴿ لولا (٢) نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [ الزخرف : ٣١ ] .يقول : أشرف من محمد ، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة ، ومسعود بن عمرو الثقفى من الطائف ، فأنزل الله ردًا عليهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ الآية [ الزخرف ٣٢ ] (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم** ﴾ قال: ما سبق لهم من السعادة فى الذكر الأوّل . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : أجرا حسنا بما قدّموا من أعمالهم . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود قال : القدم هو العمل الذى قدموا . قال الله سبحانه : ﴿ ونكتب (٤) ما قدموا وآثارهم ﴾ [ يس : ١٢ ] . والآثار: ممشاهم . قال : مشى رسول الله ﷺ بين اسطوانتين (٥) من مسجدهم ثم قال : هذا أثر مكتوب . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى فى قوله : ﴿ **قدم صدق** ﴾ قال : محمد ﷺ يشفع لهم . وأخرج ابن مردويه عن علىّ ابن أبى طالب مثله . وأخرج الحاكم وصححه عن أبى بن كعب قال : سلف صدق . والروايات عن التابعين وغيرهم فى هذا كثيرة. وقد قدّمنا أكثرها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يدبر الأمر** ﴾ قال : يقضيه وحده . وفى قوله :﴿ **إنه يبدأ الخلق ثم يعيده**﴾ قال: يحييه ثم يميته ثم يحييه .

**﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) ﴾** .

ذكر هاهنا بعض نعمه على المكلّفين . وهى مما يستدل به على وجوده ووحدته وقدرته وعلمه وحكمته بإتقان صنعه فى هذين النيرين المتعاقبين على الدوام بعد ما ذكر قبل هذا إبداعه للسموات والأرض ، واستواءه على العرش وغير ذلك . والضياء قيل : جمع ضوء كالسياط

---

(١) فى المطبوعة:« الحج » والصحيح ما أثبتناه.

(٢) فى المطبوعة :« فلولا » والصحيح ما أثبتناه.

(٣) ابن جرير ١١/٥٨ .

(٤) فى المطبوعة : « سيكتب » والصحيح ما أثبتناه.

(٥) الاسطوانة : العمود أو السارية .

والحياض . وقرأ قنبل عن ابن كثير: « ضئاء » بجعل الياء همزة مع الهمزة . ولا وجه له ؛ لأن ياءه كانت واوا مفتوحة ، وأصله ضواء فقلبت ياء لكسر ما قبلها . قال المهدوى : ومن قرأ: « ضئاء » بالهمزة فهو مقلوب قدّمت الهمزة التى بعد الألف . فصارت قبل الألف ، ثم قلبت الياء همزة ، والأولى أن يكون ﴿ **ضياء** ﴾ مصدرا لا جمعا . مثل : قام يقوم قياما ، وصام يصوم صياما ، ولابدّ من تقدير مضاف ، أى جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور ، إلا أن يحمل على المبالغة ، وكأنهما جعلا نفس الضياء والنور . قيل : الضياء أقوى من النور. وقيل : الضياء هو ما كان بالذات ، والنور ما كان بالعرض . ومن هنا قال الحكماء : إن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس .

قوله : ﴿ **وقدره منازل** ﴾ أى قدر مسيره فى منازل ، أو قدره ذا منازل . والضمير راجع إلى القمر . ومنازل القمر : هى المسافة التى يقطعها فى يوم وليلة بحركته الخاصة به ، وجملتها ثمانية وعشرون وهى معروفة . ينزل القمر فى كل ليلة منها منزلا لا يتخطاه ، فيبدو صغيرا فى أول منازله ، ثم يكبر قليلا قليلا حتى يبدو كاملا . وإذا كان فى آخر منازله رقّ واستقوس . ثم يستتر ليلتين إذا كان الشهر كاملا ، أو ليلة إذا كان ناقصا ، والكلام فى هذا يطول ، وقد جمعنا فيه رسالة مستقلة جوابا عن سؤال أورده علينا بعض الأعلام . وقيل : إن الضمير راجع إلى كل واحد من الشمس والقمر . كما قيل فى قوله تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها ﴾ [ الجمعة:١١ ] . وفى قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما ... عندك راض والرأى مختلف

وقد قدّمنا تحقيق هذا فيما سبق من هذا التفسير والأولى رجوع الضمير إلى القمر وحده . كما فى قوله تعالى: ﴿ والقمر قدّرناه منازل ﴾ [ يس : ٢٩ ] ، ثم ذكر بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير . فقال : ﴿ **لتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾ فإن فى العلم بعدد السنين من المصالح الدينية والدنيوية ما لا يحصى . وفى العلم بحساب الأشهر والأيام والليالى من ذلك ما لايخفى . ولولا هذا التقدير الذى قدّره اللّه سبحانه لم يعلم الناس بذلك ولاعرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم . والسنة تتحصل من اثنى عشر شهرا . والشهر يتحصل من ثلاثين يوما إن كان كاملا . واليوم يتحصل من ساعات معلومة هى أربع وعشرون ساعة لليل والنهار قد يكون لكل واحد منهما اثنتا عشرة ساعة فى أيام الاستواء . ويزيد أحدهما على الآخر فى أيام الزيادة وأيام النقصان . والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف . ثم بين سبحانه أنه ما خلق الشمس والقمر واختلاف تلك الأحوال إلا بالحق والصواب دون الباطل والعبث . فالإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى المذكور قبله . والاستثناء مفرّغ من أعم الأحوال ، ومعنى تفصيل الآيات : تبيينها . والمراد بالآيات : التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما ، وتدخل هذه الآيات التكوينية المذكورة هنا دخولا أوّليا فى ذلك . قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب : ﴿**يفصل** ﴾ بالتحتية . وقرأ ابن السميفع : « تفصل » بالفوقية على البناء للمفعول . وقرأ

الباقون بالنون . واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الأولى ، ولعل وجه هذا الاختيار أن قبل هذا الفعل ﴿ **ما خلق الله ذلك إلا بالحق** ﴾ وبعده ﴿ **وما خلق الله فى السموات والأرض** ﴾ .

ثم ذكر سبحانه المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار وما خلق فى السموات والأرض من تلك المخلوقات، فقال : ﴿ **إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون** ﴾ أى الذين يتقون الله سبحانه ويجتنبون معاصيه وخصهم بهذه الآيات ؛ لأنهم الذين يمعنون النظر والتفكر فى مخلوقات الله سبحانه حذرا منهم عن الوقوع فى شىء مما يخالف مراد الله سبحانه ونظرا لعاقبة أمرهم . وما يصلحهم فى معادهم . قال القفال : من تدبر فى هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لبقاء الناس فيها . وأن خالقها وخالقهم ما أهملهم بل جعلها لهم دار عمل ، وإذا كان كذلك فلابد من أمر ونهى .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله تعالى : ﴿ **جعل الشمس ضياء والقمر نورا** ﴾ قال : لم يجعل الشمس كهيئة القمر لكى يعرف الليل من النهار ، وهو قوله : ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ الآية [ الإسراء :١٢]. وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : وجوههما إلى السموات . وأقفيتهما إلى الأرض. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله ابن عمرو مثله . وأخرج أبو الشيخ عن خليفة العبدى قال : لو أن الله تبارك وتعالى لم يعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد . ولكن المؤمنون تفكروا فى مجىء هذا الليل إذا جاء فملأ كل شىء وغطى كل شىء ، وفى مجىء سلطان النهار إذا جاء فمحا سلطان الليل ، وفى السحاب المسخر بين السماء والأرض ، وفى النجوم ، وفى الشتاء والصيف ، فوالله مازال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبهم بربهم .

**﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾** ..

شرع الله سبحانه فى شرح أحوال من لا يؤمن بالمعاد ، ومن يؤمن به ، وقدّم الطائفة التى لم تؤمن ؛ لأن الكلام فى هذه السورة مع الكفار الذين يعجبون مما لا عجب فيه ، ويهملون النظر والتفكر فيما لا ينبغى إهماله مما هو مشاهد لكل حىّ طول حياته . فيتسبب عن إهمال النظر ، والتفكر الصادق : عدم الإيمان بالمعاد . ومعنى الرجاء هنا : الخوف ، ومنه قول الشاعر :

إذا لسعته النحل لـم يرج لسعـها ... وخالفها فى بيت نُوبٍ (١) عَواسلِ

(١) النُوب : النحل وسميت بذلك ؛لأنها ترعى وتنوب إلى مكانها .

وقيل : ﴿ **يرجون** ﴾ : يطمعون . ومنه قول الشاعر :

أترجو بنى مروان سمعى وطاعتى وقومــى تمـــيم والفـــلاة ورائيـــا

فالمعنى على الأوّل : لا يخافون عقابا ، وعلى الثانى لا يطمعون فى ثواب إذا لم يكن المراد باللقاء حقيقته ، فإن كان المراد به حقيقته كان المعنى : لا يخافون رؤيتنا أو لا يطمعون فى رؤيتنا . وقيل : المراد بالرجاء هنا : التوقع فيدخل تحته الخوف والطمع ، فيكون المعنى ﴿**لا يرجون لقاءنا** ﴾ : لا يتوقعون لقاءنا فهم لا يخافونه ولا يطمعون فيه ﴿ **ورضوا بالحياة الدنيا** ﴾ أى رضوا بها عرضا عن الآخرة . فعملوا لها ﴿ **واطمأنوا بها** ﴾ أى سكنت أنفسهم إليها وفرحوا بها ﴿**والذين هم عن آياتنا غافلون** ﴾ لا يعتبرون بها ولا يتفكرون فيها ﴿ **أولئك مأواهم**﴾ أى مثواهم ومكان إقامتهم النار ، والإشارة إلى المتصفين بالصفات السابقة من عدم الرجاء ، وحصول الرضا والاطمئنان ، والغفلة ﴿ **بما كانوا يكسبون** ﴾ أى بسبب ما كانوا يكسبون من الكفر والتكذيب بالمعاد فهذا حال الذين لا يؤمنون بالمعاد .

وأما حال الذين يؤمنون به فقد بينه سبحانه بقوله : ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ أى فعلوا الإيمان الذى طلبه اللّه منهم بسبب ما وقع منهم من التفكر والاعتبار فيما تقدّم ذكره من الآيات ﴿**وعملوا الصالحات** ﴾ التى يقتضيها الإيمان . وهى ما شرعه اللّه لعباده المؤمنين ﴿ **يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾ أى يرزقهم الهداية بسبب هذا الإيمان المضموم إليه العمل الصالح فيصلون بذلك إلى الجنة ، وجملة : ﴿ **تجرى من تحتهم الأنهار** ﴾ مستأنفة أو خبر ثان أو فى محل نصب على الحال . ومعنى ﴿ **من تحتهم** ﴾ : من تحت بساتينهم أو من بين أيديهم ؛ لأنهم على سرر مرفوعة . وقوله : ﴿ **فى جنات النعيم** ﴾ متعلق بـ ﴿**تجرى** ﴾ أو بـ ﴿ **يهديهم** ﴾ أو خبر آخر أو حال من ﴿**الأنهار**﴾ .

قوله : ﴿ **دعواهم** ﴾ أى دعاؤهم ونداؤهم . وقيل : الدعاء : العبادة كقوله تعالى : ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون اللّه ﴾ [ مريم : ٤٨ ] . وقيل : معنى ﴿ **دعواهم** ﴾ هنا : الإدّعاء الكائن بين المتخاصمين ، والمعنى : أن أهل الجنة يدعون فى الدنيا والآخرة تنزيه اللّه سبحانه من المعايب والإقرار له بالإلهية . قال القفال : أصله من الدعاء لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما . وقيل معناه : طريقتهم وسيرتهم . وذلك أن المدّعى للشىء مواظب عليه فيمكن أن تجعل الدعوى كناية عن الملازمة وإن لم يكن فى قوله : ﴿ **سبحانك اللهم** ﴾ دعوى ولا دعاء . وقيل : معناه : تمنيهم كقوله :﴿ ولهم ما يدعون ﴾ [ يس : ٥٧]، وكأن تمنيهم فى الجنة ليس إلا تسبيح اللّه وتقديسه ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ **سبحانك اللهم**﴾ . و﴿ **فيها** ﴾ أى فى الجنة . والمعنى على القول الأوّل : أن دعاءهم الذى يدعون به فى الجنة هو تسبيح اللّه وتقديسه ، والمعنى: نسبحك يا اللّه تسبيحا . قوله : ﴿ **وتحيتهم فيها سلام**﴾ أى تحية بعضهم للبعض . فيكون المصدر مضافا إلى الفاعل ، أو تحية اللّه أو الملائكة لهم ،

فيكون من إضافة المصدر إلى المفعول . وقد مضى تفسير هذا فى سورة النساء . قوله : ﴿ **وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين** ﴾ أى وخاتمة دعائهم الذى هو التسبيح أن يقولوا : الحمد لله رب العالمين . قال النحاس : مذهب الخليل : أن « أن » هذه مخففة من الثقيلة ، والمعنى : أنه الحمد لله . وقال محمد بن يزيد المبرد : ويجوز أن تعملها خفيفة عملها ثقيلة . والرفع أقيس، ولم يحك أبو عبيد إلا التخفيف . وقرأ ابن محيصن بتشديد أنّ ونصب الحمد .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ورضوا بالحياة الدنيا** ﴾ قال: مثل قوله : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ﴾ الآية [ هود: ١٥ ] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد أيضا فى قوله: ﴿ **يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾ قال : يكون لهم نور يمشون به. وأخرج أبو الشيخ عن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾ قال : حدّثنا الحسن قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « إن المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله فى صورة حسنة وريح طيبة ، فيقول له : ما أنت ؟ فوالله إنى لأراك عين امرئ صدق، فيقول له : أنا عملك ، فيكون له نورا وقائدا إلى الجنة ؛ وأما الكافر فإذا خرج من قبره صوّر له عمله فى صورة سيئة وريح منتنة. فيقول له : ما أنت ؟ فوالله إنى لأراك عين امرئ سوء ، فيقول له : أنا عملك ، فينطلق به حتى يدخله النار » (١). وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن مردويه عن أبىّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ: « إذا قالوا سبحانك اللهم أتاهم ما اشتهوا من الجنة من ربهم » . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى الهذيل قال : الحمد أوّل الكلام وآخر الكلام . ثم تلا : ﴿ **وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين** ﴾ .

﴿ **وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ**

---

(١) ابن جرير ١١/٦٣ .

**عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾** ﴾ .

لما ذكر اللّه سبحانه الوعيد على عدم الإيمان بالمعاد ، ذكر أن هذا العذاب من حقه أن يتأخر عن هذه الحياة الدنيا . قال القفال : لما وصفهم بالغفلة أكد ذلك بأن من غاية غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب . فبين اللّه سبحانه أنه لا مصلحة فى إيصال الشرّ إليهم، فلعلهم يتوبون ويخرج من أصلابهم من يؤمن ، قيل : معنى ﴿ **ولو يعجل اللّه للناس الشرّ استعجالهم بالخير** ﴾: لو عجل اللّه للناس العقوبة كما يتعجلون بالثواب والخير ﴿ **لقضى إليهم أجلهم** ﴾ أى ماتوا . وقيل: المعنى لو فعل اللّه مع الناس فى إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم فى إجابته إلى الخير لأهلكهم . وقيل : الآية خاصة بالكفار الذين أنكروا البعث وما يترتب عليه . قال فى الكشاف : وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير إشعارا بسرعة إجابته وإسعافه بطلبتهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل له(١). والمراد : أهل مكة، وقولهم :﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ الآية [الأنفال: ٣٢ ] . قيل : والتقدير : ولو يعجل اللّه لهم الشر عند استعجالهم به تعجيلا مثل تعجيله لهم بالخير عند استعجالهم به ، فحذف ما حذف لدلالة الباقى عليه . قال أبو على الفارسى : فى الكلام حذف ، والتقدير : ﴿**ولو يعجل اللّه للناس الشر** ﴾ تعجيلا مثل ﴿ **استعجالهم بالخير** ﴾ ، ثم حذف تعجيلا وأقام صفته مقامه ثم حذف صفته وأقام المضاف إليه مقامه قال : هذا مذهب الخليل وسيبويه وهو قول الأخفش والفرّاء ، قالوا : وأصله كاستعجالهم ، ثم حذف الكاف ونصب . وقال الفراء : كما تقول : ضربت زيدا ضربك ، أى كضربك ، ومعنى ﴿**لقضى إليهم أجلهم** ﴾ : لأهلكوا ، ولكنه سبحانه لم يعجل لهم الشرّ فأمهلوا . وقيل : معناه : أميتوا . وقرأ ابن عامر : «لقضى» على البناء للفاعل ، وهى قراءة حسنة لمناسبة ذلك لقوله : ﴿ **ولو يعجل اللّه** ﴾ قوله : ﴿ **فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون** ﴾ الفاء للعطف على مقدّر يدلّ عليه الكلام، لأن قوله : ﴿ **ولو يعجل اللّه** ﴾ يتضمن نفى التعجيل . فكأنه قيل : لكن لا يعجل لهم الشرّ ولا يقضى إليهم أجلهم فنذرهم إلخ ، أى فنتركهم ونمهلهم ، والطغيان : التطاول . وهو العلوّ والارتفاع . ومعنى ﴿ **يعمهون** ﴾ :يتحيرون ، أى نتركهم يتحيرون فى تطاولهم وتكبرهم وعدم قبولهم للحق استدراجا لهم منه سبحانه وخذلانا .

ثم بين اللّه سبحانه أنهم كاذبون فى استعجال الشرّ ولو أصابهم ما طلبوه لأظهروا العجز والجزع فقال : ﴿ **وإذا مس الإنسان الضرّ** ﴾ أى هذا الجنس الصادق على كل ما يحصل التضرر به ﴿ **دعانا لجنبه** ﴾ اللام للوقت كقوله : جئته لشهر كذا . أو فى محل نصب على الحال بدلالة عطف قاعدا أو قائما عليه . وتكون اللام بمعنى على، أى دعانا مضطجعا ﴿ **أو قاعدا أو قائما** ﴾ وكأنه قال : دعانا فى جميع الأحوال المذكورة وغيرها ، وخصّ المذكورة بالذكر؛ لأنها

---

(١) الكشاف : ٢/ ٣٣١ .

الغالب على الإنسان ، وما عداها نادر كالركوع والسجود ، ويجوز أن يراد أنه يدعو اللّه حال كونه مضطجعا غير قادر على القعود، وقاعدا غير قادر على القيام ، وقائما غير قادر على المشى. والأوّل أولى . قال الزجاج : إن تعديد أحوال الدعاء أبلغ من تعديد أحوال المضرّة ؛ لأنه إذا كان داعيا على الدوام ، ثم نسى فى وقت الرخاء كان أعجب .

قوله : ﴿ **فلما كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرّ مسه** ﴾ أى فلما كشفنا عنه ضرّه الذى مسه ، كما تفيده الفاء ، مضى على طريقته التى كان عليها قبل أن يمسه الضرّ ونسى حالة الجهد والبلاء ، أو مضى عن موقف الدعاء والتضرّع لا يرجع إليه ؛ كأنه لا عهد له به ؛ كأنه لم يدعنا عند أن مسه الضرّ إلى كشف ذلك الضرّ الذى مسه. وقيل :معنى ﴿ **مرّ** ﴾ : استمرّ على كفره ولم يشكر ولم يتعظ . قال الأخفش : « أن » فى ﴿ **كأن لم يدعنا** ﴾ : هى المخففة من الثقيلة ، والمعنى : كأنه انتهى والجملة التشبيهية فى محل نصب على الحال . وهذه الحالة التى ذكرها اللّه سبحانه للداعى لا تختص بأهل الكفر . بل تتفق لكثير من المسلمين تلين ألسنهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم ، فإذا كشفه اللّه عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرّع . وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التى أنعم اللّه بها عليهم من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضرّ ودفع ما أصابهم من المكروه . وهذا مما يدلّ على أن الآية تعمّ المسلم والكافر ، كما يشعر به لفظ الناس ولفظ الإنسان ، اللهم أوزعنا شكر نعمك ، وأذكرنا الأحوال التى مننت علينا فيها بإجابة الدعاء حتى نستكثر من الشكر الذى لا نطيق سواه ولا نقدر على غيره . وما أغناك عنه وأحوجنا إليه ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ [إبراهيم : ٧ ] . والإشارة بقوله : ﴿**كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون** ﴾ إلى مصدر الفعل المذكور بعده كما مرّ غير مرة ، أى مثل ذلك التزيين العجيب زين للمسرفين عملهم . والمسرف فى اللغة : هو الذى ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس . ومحل ﴿ **كذلك** ﴾ النصب على المصدرية . والتزيين هو إما من جهة اللّه تعالى على طريقة التحلية وعدم اللطف بهم ، أو من طريق الشيطان بالوسوسة ، أو من طريق النفس الأمارة بالسوء . والمعنى : أنه زين لهم الإعراض عن الدعاء والغفلة عن الشكر والاشتغال بالشهوات .

ثم ذكر سبحانه ما يجرى مجرى الردع والزجر عما صنعه هؤلاء فقال : ﴿ **ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا**﴾ يعنى : الأمم الماضية من قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للنبى ﷺ ، أى أهلكناهم من قبل زمانكم . وقيل: الخطاب لأهل مكة على طريق الالتفات للمبالغة فى الزجر ، و« لما » ظرف لـ ﴿ **أهلكنا** ﴾ ، أى أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب ، والتجارى على الرسل. والتطاول فى المعاصى من غير تأخير لإهلاكهم كما أخرنا إهلاككم، والواو فى ﴿ **وجاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ للحال بإضمار قد ، أى وقد جاءتهم رسلهم الذين أرسلناهم إليهم بالبينات ، أى بالآيات البينات الواضحات الدلالة على صدق الرسل ، وقيل: الواو للعطف على ﴿**ظلموا** ﴾ والأوّل أولى ، وقيل : المراد بالظلم هنا هو الشرك . والواو فى

﴿ **وما كانوا ليؤمنوا** ﴾ للعطف على ظلموا ، أو الجملة اعتراضية . واللام لتأكيد النفى ، أى وما صح لهم وما استقام أن يؤمنوا لعدم استعدادهم لذلك وسلب الألطاف عنهم ﴿ **كذلك نجزى القوم المجرمين** ﴾ أى مثل ذلك الجزاء نجزى القوم المجرمين . وهو الاستئصال الكلى لكل مجرم . وهذا وعيد شديد لمن كان فى عصره من الكفار .أو لكفار مكة على الخصوص .

ثم خاطب سبحانه الذين بعث إليهم رسول اللّه ﷺ فقال : ﴿ **ثم جعلناكم خلائف** ﴾ أى استخلفناكم فى الأرض بعد تلك القرون التى تسمعون أخبارها وتنظرون آثارها والخلائف جمع خليفة . وقد تقدّم الكلام عليه فى آخر سورة الأنعام (١) ، واللام فى : ﴿ **لننظر كيف تعملون** ﴾ لام كى ، أى لكى ننظر كيف تعملون من أعمال الخير أو الشرّ ، و ﴿ **كيف**﴾ فى محل نصب بالفعل الذى بعده ، أى لننظر أىّ عمل تعملونه ، أو فى محل نصب على الحالية ، أى على أىّ حالة تعملون الأعمال اللائقة بالاستخلاف .

ثم حكى اللّه سبحانه نوعا ثالثا من تعنتهم وتلاعبهم بآيات اللّه فقال : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات** ﴾ وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم ، والمراد بالآيات : الآيات التى فى الكتاب العزيز ، أى وإذا تلا التالى عليهم آياتنا الدالة على إثبات التوحيد وإبطال الشرك حال كونها بينات ، أى واضحات الدلالة على المطلوب ﴿ **قال الذين لا يرجون لقاءنا** ﴾ وهم المنكرون للمعاد ، وقد تقدّم تفسيره قريبا ، أى قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول اللّه ﷺ ﴿ **ائت بقرآن غير هذا أو بدّله** ﴾ طلبوا من رسول اللّه ﷺ لما سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذمّ عبادة الأوثان ، والوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين : إما الإتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله ، وإما تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته أو كلها ووضع أخرى مكانها مما يطابق إرادتهم ويلائم غرضهم ، فأمره اللّهّ أن يقول فى جوابهم: ﴿ **ما يكون لى** ﴾ أى ما ينبغى لى ولايحلّ لى ﴿ **أن أبدّله من تلقاء نفسى** ﴾ فنفى عن نفسه أحد القسمين ، وهو التبديل ؛ لأنه الذى يمكنه لو كان ذلك جائزا ، بخلاف القسم الآخر وهو الإتيان بقرآن آخر ، فإن ذلك ليس فى وسعه ولا يقدر عليه . وقيل : إنه ﷺ نفى عن نفسه أسهل القسمين ليكون دليلا على نفى أصعبهما بالطريق الأولى ، وهذا منه ﷺ من باب مجاراة السفهاء ، إذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد أن أمره اللّه سبحانه بذلك . وهو أعلم بمصالح عباده وبما يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة والسؤالات الباردة ، و﴿ **تلقاء** ﴾ مصدر استعمل ظرفا ، ﴿ **من تلقاء نفسى** ﴾ قال الزجاج: سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور. وقيل : سألوه أن يسقط ما فيه من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم . وقيل : سألوه أن يحوّل الوعد وعيدا والحرام حلالا والحلال حراما ، ثم أمره أن يؤكد ما أجاب به عليهم من أنه ما صح له ولا استقام أن يبدّله من تلقاء نفسه بقوله : ﴿ **إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ** ﴾ أى ما أتبع

(١) تفسير قوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾[ الأنعام : ١٦٥ ].

شيئا من الأشياء إلا ما يوحى إلىّ من عند الله سبحانه من غير تبديل ولا تحويل ولا تحريف ولا تصحيف ، فقصر حاله ﷺ على اتباع ما يوحى إليه ، وربما كان مقصد الكفار بهذا السؤال التعريض للنبى ﷺ بأن القرآن كلامه وأنه يقدر على الإتيان بغيره والتبديل له ، ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم تكميلا للجواب عليهم : ﴿ **إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم**﴾ فإن هذه الجملة كالتعليل لما قدمه من الجواب قبلها . واليوم العظيم : هو يوم القيامة ، أى ﴿**إنى أخاف إن عصيت ربى** ﴾ بفعل ما تطلبون على تقدير إمكانه عذاب يوم القيامة.

ثم أكد سبحانه كون هذا القرآن من عند الله وأنه ﷺ إنما يبلغ إليهم منه ما أمره الله بتبليغه لا يقدر على غير ذلك فقال : ﴿ **قل لو شاء الله ما تلوته عليكم** ﴾ أى أن هذا القرآن المتلو عليكم هو بمشيئة الله وإرادته ، ولو شاء الله أن لا أتلوه عليكم ولا أبلغكم إياه ما تلوته ، فالأمر كله منوط بمشيئة الله ليس لى فى ذلك شىء . قوله : ﴿**ولاأدراكم به** ﴾ معطوف على ما تلوته ، ولو شاء الله ما أدراكم بالقرآن ، أى ما أعلمكم به على لسانى يقال : دريت الشىء وأدرانى اللهّ به . هكذا قرأ الجمهور بالألف من أدراه يدريه أعلمه يعلمه . وقرأ ابن كثير : «ولأدراكم به » بغير ألف بين اللام والهمزة ، والمعنى : ولو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليكم . فتكون اللام لام التأكيد دخلت على ألف أفعل . وقد قرئ : « أدرؤكم » بالهمزة ، فقيل : هى منقلبة عن الألف لكونهما من واد واحد ، ويحتمل أن يكون من درأته إذا دفعته ، وأدرأته إذا جعلته داريا . والمعنى : لأجعلكم بتلاوته خصماء تدرؤوننى بالجدال وتكذبوننى . وقرأ ابن عباس والحسن : « ولا أدراتكم به » قال أبو حاتم :أصله: ولا أدريتكم به ، فأبدل من الياء ألفا . قال النحاس : وهذا غلط . والرواية عن الحسن : « ولا أدرأتكم » بالهمزة . قوله : ﴿ **فقد لبثت فيكم عمرا من قبله** ﴾ تعليل لكون ذلك بمشيئة الله ولم يكن من النبى ﷺ إلا التبليغ ، أى قد أقمت فيما بينكم عمرا من قبله، أى زمانا طويلا . وهو أربعون سنة من قبل القرآن تعرفوننى بالصدق والأمانة . لست ممن يقرأ ولا ممن يكتب ﴿**أفلا تعقلون** ﴾ الهمزة للتقريع والتوبيخ ، أى أفلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبى لما عرفتم من العادة المستمرة إلى المدّة الطويلة بالصدق والأمانة . وعدم قراءتى للكتب المنزلة على الرسل وتعلمى لما عند أهلها من العلم . ولا طلبى لشىء من هذا الشأن ولا حرصى عليه ، ثم جئتكم بهذا الكتاب الذى عجزتم عن الإتيان بسورة منه، وقصرتم عن معارضته وأنتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة ، المعترف لهم بأنهم البالغون فيها إلى مبلغ لا يتعلق به غيركم؟

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿**ولو يعجل الله للناس الشرّ** ﴾ الآية . قال : هو قول (١) الإنسان لولده وماله إذا غضب عليهم : اللهم لا تبارك فيه والعنه. ﴿ **لقضى إليهم أجلهم** ﴾ قال : لأهلك من دعا عليه وأماته . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى الآية قال : قول الرجل للرجل : اللهم

(١) فى المطبوعة : «قولى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

العنه ، اللهم اخزه . وهو يحب أن يستجاب له . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له . وحكى القرطبى فى تفسيره عن ابن إسحاق ومقاتل فى الآية قالا : هو قول النضر بن الحارث : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ [ الأنفال : ٣٢ ] . فلو عجل لهم هذا لهلكوا (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله :﴿ **دعانا لجنبه** ﴾ قال : مضطجعا . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله :﴿ **دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما** ﴾ قال : على كل حال . وأخرج أبو الشيخ عن أبى الدرداء قال : ادع اللّه يوم سرائك يستجاب لك يوم ضرّائك .

وأقول أنا : أكثر من شكر اللّه على السرّاء يدفع عنك الضرّاء . فإن وعده للشاكرين بزيادة النعم مؤذن بدفعه عنهم النقم لذهاب حلاوة النعمة عند وجود مرارة النقمة ، اللهم اجمع لنا بين جلب النعم وسلب النقم ، فإنا نشكرك عدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان فى كل زمان . ونحمدك عدد ما حمدك الحامدون بكل لسان فى كل زمان .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **ثم جعلناكم خلائف فى الأرض** ﴾ الآية ، قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية فقال: صدق ربنا ما جعلنا خلائف فى الأرض إلا لينظر إلى أعمالنا . فأروا اللّه خير أعمالكم بالليل والنهار والسرّ والعلانية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج قال : ﴿ **خلائف فى الأرض** ﴾ لأمة محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **ائت بقرآن غير هذا أو بدّله** ﴾ قال: هذا قول مشركى أهل مكة للنبى ﷺ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا أدراكم به** ﴾ أعلمكم به . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال :﴿ **ولا أدراكم به** ﴾ ولا أشعركم به. وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن ابن عباس ، أنه كان يقرأ : « ولا أنذرتكم به ». وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله : ﴿ **فقد لبثت فيكم عمراً من قبله** ﴾ قال: لم أتل عليكم ولم أذكر . وأخرجا عنه قال : لبث أربعين سنة قبل أن يوحى إليه ورأى الرؤيا سنتين ، وأوحى اللّه إليه عشر سنين بمكة ، وعشرا بالمدينة ، وتوفى وهو ابن اثنتين وستين سنة . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى والترمذى عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاثة عشر يوحى إليه . ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة (٢).

**﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)**

---

(١) ابن إسحاق ٢/ ٢١٣ والقرطبى ٥/ ٣١٥٥ .

(٢) البخارى فى مناقب الأنصار (٣٩٠٢) والترمذى فى المناقب (٣٦٢٢) وقال الترمذى : « حسن صحيح » .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **فمن أظلم** ﴾ استفهام فيه معنى الجحد ، أى لا أحد أظلم ﴿ **ممن افترى على الله**﴾ الكذب وزيادة ﴿**كذبا**﴾ مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا لبيان أن هذا مع كونه افتراء على الله هو كذب فى نفسه . فربما يكون الافتراء كذبا فى الإسناد فقط ، كما إذا أسند ذنب زيد إلى عمرو . ذكر معنى هذا أبو السعود فى تفسيره . قيل : وهذا من جملة رده ﷺ على المشركين لما طلبوا منه أن يأتى بقرآن غير هذا القرآن ، أو يبدّله ، فبين لهم أنه لو فعل ذلك لكان من الافتراء على اللّه ، ولا ظلم يماثل ذلك ، وقيل : المفترى على اللّه الكذب هم المشركون ، والمكذب بآيات الله هم أهل الكتاب ﴿ **إنه لا يفلح المجرمون** ﴾ تعليل لكونه لا أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ، أى لا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير ، والضمير فى ﴿**إنه**﴾ للشأن ، أى إن الشأن هذا .

ثم نعى اللّه سبحانه عليهم عبادة الأصنام ، وبين أنها لا تنفع من عبدها ولا تضرّ من لم يعبدها فقال : ﴿**ويعبدون من دون اللّه** ﴾ أى متجاوزين اللّه سبحانه إلى عبادة غيره لا بمعنى ترك عبادته بالكلية ﴿ **ما لا يضرّهم ولا ينفعهم** ﴾ أى ما ليس من شأنه الضرر ولا النفع ، ومن حق المعبود أن يكون مثيبا لمن أطاعه معاقبا لمن عصاه ، والواو لعطف هذه الجملة على جملة : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ و« ما » فى ﴿ **مالا يضرهم** ﴾ موصولة أو موصوفة ، والواو فى : ﴿**ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه** ﴾ للعطف على ﴿ **ويعبدون** ﴾ زعموا أنهم يشفعون لهم عند اللّه فلا يعذبهم بذنوبهم . وهذا غاية الجهالة منهم حيث ينتظرون الشفاعة فى المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضرّ فى الحال . وقيل : أرادوا بهذه الشفاعة إصلاح أحوال دنياهم ، ثم أمر اللّه سبحانه رسوله ﷺ بأن يجيب عنهم فقال : ﴿ **قل أتنبئون اللّه بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض** ﴾ قرأ أبو السمال العدوى : « تنبئون » بالتخفيف من أنبأنا ينبئ. وقرأ من عداه بالتشديد من نبأ ينبئ ، والمعنى : أتخبرون اللّه أن له شركاء فى ملكه يعبدون كما يعبد ، أو أتخبرونه أن لكم شفعاء بغير إذنه واللّه سبحانه لا يعلم لنفسه شريكا ولا شفيعا بغير إذنه من جميع مخلوقاته الذين هم فى سمواته وفى أرضه ؟ وهذا الكلام حاصله عدم وجود من هو كذلك أصلا . وفى هذا من التهكم بالكفار ما لا يخفى ، ثم نزّه اللّه سبحانه نفسه عن إشراكهم ، وهو يحتمل أن يكون ابتداء كلام غير داخل فى الكلام الذى أمر اللّه سبحانه رسوله بأن يجيب به عليهم ، ويحتمل أن يكون من تمام ما أمر النبى ﷺ أن يقوله لهم جوابا عليهم. قرأ حمزة والكسائى :﴿ **عما يشركون** ﴾ بالتحتية . وقرأ الباقون بالفوقية ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد .

قوله : ﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا** ﴾ قد تقدّم تفسيره في البقرة [١] . والمعنى: أن الناس ما كانوا جميعا إلا أمة واحدة موحدة للّه سبحانه مؤمنة به ، فصار البعض كافرا وبقى البعض الآخر مؤمنا فخالف بعضهم بعضا . وقال الزجاج : هم العرب كانوا على الشرك . وقال : كل مولود يولد على الفطرة ، فاختلفوا عند البلوغ ، والأوّل أظهر . وليس المراد أن كل طائفة أحدثت ملة من ملل الكفر مخالفة للأخرى ، بل المراد : كفر البعض وبقى البعض على التوحيد كما قدّمنا ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك** ﴾ وهى أنه سبحانه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه إلا يوم القيامة ﴿ **لقضى بينهم**﴾ فى الدنيا ﴿ **فيما** ﴾ هم ﴿ **فيه يختلفون**﴾ لكنه قد امتنع ذلك بالكلمة التى لا تتخلف . وقيل : معنى ﴿ **لقضى بينهم** ﴾ : بإقامة الساعة عليهم . وقيل : لفرغ من هلاكهم . وقيل : الكلمة : أن اللّه أمهل هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب فى الدنيا . وقيل : الكلمة : أنه لا يأخذ أحدا إلا بحجة ، وهى إرسال الرسل كما قال تعالى : ﴿ وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا ﴾ [ الإسراء : ١٥ ] . وقيل : الكلمة : قوله : « سبقت رحمتى غضبى » [٢] . وقرأ عيسى بن عمر : «لقضى » بالبناء للفاعل . وقرأ من عداه بالبناء للمفعول .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : قال النضر : إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزّى ، فأنزل اللّه : ﴿**فمن أظلم ممن افترى على اللّه كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون . ويعبدون من دون اللّه ما لا يضرهم ولا ينفعهم** ﴾ الآية . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله :﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا** ﴾ قال ابن مسعود : كانوا على هدى . وروى أنه قرأ هكذا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة** ﴾ قال : آدم وحده ﴿**فاختلفوا**﴾ قال: حين قتل أحد ابنى آدم أخاه. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية قال: كان الناس أهل دين واحد على دين آدم فكفروا ، فلولا أن ربك أجلهم إلى يوم القيامة لقضى بينهم .

**﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ**

---

(١) تفسير قوله تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﴾ [البقرة : ٢١٣] .
(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

**الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾** ﴾ .

قوله : ﴿ **ويقولون** ﴾ ذكر سبحانه هاهنا نوعا رابعا من مخازيهم ، وهو معطوف على قوله: ﴿**ويعبدون**﴾ ، وجاء بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه . قيل : والقائلون هم أهل مكة، كأنهم لم يعتدّوا بما قد نزل على رسول اللّه ﷺ من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة التى لو لم يكن منها إلا القرآن لكفى به دليلا بينا ومصدقًا قاطعا ، أى هلا أنزلت عليه آية من الآيات التى نقترحها عليه ونطلبها منه كإحياء الأموات وجعل الجبال ذهبا ونحو ذلك ؟ ثم أمره اللّه سبحانه أن يجيب عنهم فقال : ﴿ **فقل إنما الغيب للّه** ﴾ أى أن نزول الآية غيب ، واللّه هو المختص بعلمه ، المستأثر به ، لا علم لى ولا لكم ولا لسائر مخلوقاته ﴿ **فانتظروا** ﴾ نزول ما اقترحتموه من الآيات ﴿ **إنى معكم من المنتظرين** ﴾ لنزولها . وقيل : المعنى : انتظروا قضاء اللّه بينى وبينكم بإظهار الحق على الباطل .

قوله : ﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضرّاء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا** ﴾ لما بين سبحانه فى الآية المتقدمة أنهم طلبوا آية عنادا ومكرا ولجاجا ، وأكد ذلك بما ذكره هنا من أنه سبحانه إذا أذاقهم رحمة منه من بعد أن مستهم الضرّاء فعلوا مقابل هذه النعمة العظيمة المكر منهم فى آيات اللّه ؛ والمراد بإذاقتهم رحمته سبحانه : أنه وسع عليهم فى الأرزاق ، وأدرّ عليهم النعم بالمطر وصلاح الثمار بعد أن مستهم الضرّاء بالجدب وضيق المعايش ، فما شكروا نعمته ولا قدروها حق قدرها ، بل أضافوها إلى أصنامهم التى لا تنفع ولا تضرّ ، وطعنوا فى آيات اللّه واحتالوا فى دفعها بكل حيلة ، وهو معنى المكر فيها . و« إذا » الأولى شرطية ، وجوابها ﴿ **إذا لهم مكر** ﴾ ، وهى فجائية ، ذكر معنى ذلك الخليل وسيبويه . ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يجيب عنهم فقال : ﴿ **قل اللّه أسرع مكرا** ﴾ أى أعجل عقوبة ، وقد دلّ أفعل التفضيل على أن مكرهم كان سريعا ، ولكن مكر اللّه أسرع منه . وإذا الفجائية يستفاد منها السرعة ، لأن المعنى أنهم فاجؤوا المكر ، أى أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة و تسمية عقوبة اللّه سبحانه مكرا من باب المشاكلة كما قرّر فى مواطن من عبارات الكتاب العزيز ﴿ **إن رسلنا يكتبون ما تمكرون** ﴾ قرأ يعقوب فى رواية وأبو عمرو فى رواية : « يمكرون » بالتحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية ، والمعنى : أن رسل اللّه وهم الملائكة يكتبون مكر الكفار لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة ، فكيف يخفى على العليم الخبير ؟ وفى هذا وعيد لهم شديد ، وهذه الجملة تعليلية للجملة التى قبلها ، فإن مكرهم إذا كان ظاهرا لا يخفى ، فعقوبة اللّه كائنة لا محالة ، ومعنى هذه الآية قريب من معنى الآية المتقدّمة وهى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضرّ ﴾ [يونس : ١٢ ] وفى هذه زيادة ، وهى أنهم لا يقتصرون على مجرد الإعراض ، بل يطلبون الغوائل لآيات اللّه بما يدبرونه من المكر .

﴿ **هو الذى يسيركم فى البرّ والبحر** ﴾ ضرب سبحانه لهؤلاء مثلا حتى ينكشف المراد انكشافا تاما . ومعنى تسييرهم فى البر : أنهم يمشون على أقدامهم التى خلقها لهم لينتفعوا بها ويركبون ما خلقه اللّه لركوبهم من الدواب ، ومعنى تسييرهم فى البحر : أنه ألهمهم لعمل السفائن التى يركبون فيها فى لجج البحر ويسر ذلك لهم ودفع عنهم أسباب الهلاك . وقد قرأ ابن عامر : « وهو الذى ينشركم فى البحر » بالنون والشين المعجمة من النشر كما فى قوله : ﴿ فانتشروا فى الأرض﴾ [ الجمعة : ١٠ ] . أى ينشرهم سبحانه فى البحر فينجى من يشاء ويغرق من يشاء ﴿ **حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم** ﴾ الفلك يقع على الواحد والجمع ويذكر ويؤنث ، وقد تقدّم تحقيقه ﴿ **وجرين** ﴾ أى السفن بهم ، أى بالراكبين عليها ، و﴿**حتى**﴾ لانتهاء الغاية والغاية مضمون الجملة الشرطية بكمالها ، فالقيود المعتبرة فى الشرط ثلاثة : أوّلها : الكون فى الفلك ، والثانى : جريها بهم بالريح الطيبة التى ليست بعاصفة ، وثالثها : فرحهم . والقيود المعتبرة فى الجزاء ثلاثة : الأوّل ﴿ **جاءتها** ﴾ أى جاءت الفلك ريح عاصف أو جاءت الريح الطيبة ، أى تلقتها ريح عاصف ، والعصوف شدّة هبوب الريح ، والثانى : ﴿ **وجاءهم الموج من كل مكان** ﴾ أى من جميع الجوانب للفلك ، والمراد جاء الراكبين فيها ، والموج ما ارتفع من الماء فوق البحر ، والثالث : ﴿ **ظنوا أنهم أحيط بهم** ﴾ أى غلب على ظنونهم الهلاك . وأصله من إحاطة العدّو بقوم أو ببلد . فجعل هذه الإحاطة مثلا فى الهلاك وإن كان بغير العدو كما هنا . وجواب إذا فى قوله : ﴿ **إذا كنتم فى الفلك** ﴾. قوله : ﴿ **جاءتها** ﴾ إلى آخره ، ويكون قوله : ﴿ **دعوا اللّه** ﴾ بدلا من ظنوا لكون هذا الدعاء الواقع منهم إنما كان عند ظنّ الهلاك وهو الباعث عليه ، فكان بدلا منه بدل اشتمال لاشتماله عليه . ويمكن أن يكون جملة دعوا مستأنفة كأنه قيل : ماذا صنعوا ؟ فقيل : دعوا اللّه ، وفى قوله : ﴿ **وجرين بهم** ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة ، جعل الفائدة فيه صاحب الكشاف (١) المبالغة . وقال الرازى : الانتقال من مقام الخطاب إلى مقام الغيبة فى هذا المقام دليل المقت والتبعيد كما أن عكس ذلك فى قوله : ﴿ إياك نعبد ﴾ [ الفاتحة : ٥ ] دليل الرضا والتقريب، وانتصاب ﴿ **مخلصين** ﴾ على الحال ، أى لم يشوبوا دعاءهم بشىء من الشوائب كما جرت عادتهم فى غير هذا الموطن أنهم يشركون أصنامهم فى الدعاء ، وليس هذا لأجل الإيمان باللّه وحده ، بل لأجل أن ينجيهم مما شارفوه من الهلاك لعلمهم أنه لا ينجيهم سوى اللّه سبحانه ، وفى هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى اللّه فى الشدائد ، وأن المضطرّ يجاب دعاؤه وإن كان كافرا . وفى هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون إلى أصنامهم فى هذه الحالة وما يشابهها ، فيا عجبا لما حدث فى الإسلام من طوائف يعتقدون فى الأموات ؟ فإذا عرضت لهم فى البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات ولم يخلصوا الدعاء للّه كما فعله المشركون كما تواتر ذلك إلينا تواترا يحصل به القطع ، فانظر هداك اللّهّ ما فعلت هذه

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٣٩.

الاعتقادات الشيطانية وأين وصل بها أهلها، وإلى أين رمى بهم الشيطان ، وكيف اقتادهم وتسلط عليهم ؟ حتى انقادوا له انقيادا ما كان يطمع فى مثله ولا فى بعضه من عباد الأوثان ، فإنا للّه وإنا إليه راجعون . واللام فى : ﴿ **لئن أنجيتنا من هذه** ﴾ هى اللام الموطئة للقسم ، أى قائلين ذلك ، والإشارة : ﴿ **من هذه** ﴾ إلى ما وقعوا فيه من مشارفة الهلاك فى البحر . واللام فى ﴿**لنكونن**﴾ جواب القسم ، أى لنكونن فى كل حال ممن يشكر نعمك التى أنعمت بها علينا ، منها هذه النعمة التى نحن بصدد سؤالك أن تفرجها عنا وتنجينا منها ، وقيل : إن هذه الجملة مفعول ﴿**دعوا**﴾ .

﴿ **فلما نجاهم** ﴾ اللّه من هذه المحنة التى وقعوا فيها ، وأجاب دعاءهم لم يفوا بما وعدوا من أنفسهم . بل فعلوا فعل الجاحدين لا فعل الشاكرين ، وجعلوا البغى فى الأرض بغير الحق مكان الشكر . و« إذا » فى ﴿ **إذا هم يبغون**﴾ هى الفجائية، أى فاجؤوا البغى فى الأرض بغير الحق . والبغى : هو الفساد ، من قولهم بغى الجرح إذا ترامى فى الفساد ، وزيادة فى الأرض للدلالة على أن فسادهم هذا شامل لأقطار الأرض ، والبغى وإن كان ينافى أن يكون بحق ، بل لا يكون إلا بالباطل ، لكن زيادة بغير الحق إشارة إلى أنهم فعلوا ذلك بغير شبهة عندهم : بل تمردًا وعنادا ؛ لأنهم قد يفعلون ذلك لشبهة يعتقدونها مع كونها باطلة .

قوله : ﴿ **يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا** ﴾ لما ذكر سبحانه أن هؤلاء المتقدّم ذكرهم يبغون فى الأرض بغير الحق ذكر عاقبة البغى وسوء مغبته . قرأ ابن إسحاق وحفص والمفضل بنصب ﴿**متاع** ﴾ ، وقرأ الباقون بالرفع . فمن قرأ بالنصب جعل ما قبله جملة تامة، أى بغيكم وبال على أنفسكم، فيكون بغيكم مبتدأ وعلى أنفسكم خبره ، ويكون ﴿ **متاع** ﴾ فى موضع المصدر المؤكد ، كأنه قيل : تتمتعون متاع الحياة الدنيا ، ويكون المصدر مع الفعل المقدّر استئنافا ، وقيل : إن ﴿ **متاع** ﴾ على قراءة النصب ظرف زمان نحو مقدم الحاج ، أى زمن متاع الحياة الدنيا ، وقيل : هو مفعول له ، أى لأجل متاع الحياة الدنيا، وقيل : منصوب بنزع الخافض ، أى كمتاع . وقيل : على الحال على أنه مصدر بمعنى المفعول، أى ممتعين، وقد نوقش غالب هذه الأقوال فى توجيه النصب. وأما من قرأ برفع﴿ **متاع** ﴾ فجعله خبر المبتدأ ، أى بغيكم متاع الحياة الدنيا ، ويكون ﴿ **على أنفسكم** ﴾ متعلق بالمصدر ، والتقدير : إنما بغيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم متاع الحياة الدنيا ومنفعتها التى لا بقاء لها ، فيكون المراد بأنفسكم على هذا الوجه : أبناء جنسهم ، وعبر عنهم بالأنفس لما يدركه الجنس على جنسه من الشفقة ، وقيل : ارتفاع متاع على أنه خبر ثان . وقيل : على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى هو متاع . قال النحاس : على قراءة الرفع يكون ﴿ **بغيكم** ﴾ مرتفعا بالابتداء وخبره ﴿**متاع الحياة الدنيا** ﴾ و﴿ **على أنفسكم** ﴾ مفعول البغى ، ويجوز أن يكون خبره ﴿ **على أنفسكم** ﴾ ويضمر مبتدأ ، أى ذلك متاع الحياة الدنيا ، أو هو متاع الحياة الدنيا . انتهى . وقد نوقش أيضا بعض هذه الوجوه المذكورة فى توجيه الرفع بما يطول به

البحث فى غير طائل . والحاصل أنه إذا جعل خبر المبتدأ ﴿ **على أنفسكم** ﴾ فالمعنى: أن ما يقع من البغى على الغير هو بغى على نفس الباغى باعتبار ما يؤول إليه الأمر من الانتقام منه مجازاة على بغيه ، وإن جعل الخبر ﴿ **متاع** ﴾ فالمراد أن بغى هذا الجنس الإنسانى على بعضه بعضا هو سريع الزوال قريب الاضمحلال، كسائر أمتعة الحياة الدنيا ؛ فإنها ذاهبة عن قرب متلاشية بسرعة ليس لذلك كثير فائدة ولا عظيم جدوى . ثم ذكر سبحانه ما يكون على ذلك البغى من المجازاة يوم القيامة مع وعيد شديد فقال :﴿ **ثم إلينا مرجعكم** ﴾ وتقديم الخبر للدلالة على القصر . والمعنى : أنكم بعد هذه الحياة الدنيا ومتاعها ترجعون إلى الله فيجازى المسىء بإساءته والمحسن بإحسانه ﴿ **فننبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ فى الدنيا ، أى فنخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا من خير وشرّ والمراد بذلك المجازاة كما تقول لمن أساء : سأخبرك بما صنعت، وفيه أشد وعيد وأفظع تهديد .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى قوله : ﴿ **فانتظروا إني معكم من المنتظرين** ﴾ قال: خوفهم عذابه وعقوبته وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضرّاء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا** ﴾ قال : استهزاء وتكذيب . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **وظنوا أنهم أحيط بهم**﴾ قال : هلكوا . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى وابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص ما حاصله :أن النبى ﷺ لما أهدر يوم الفتح دم جماعة، منهم عكرمة بن أبى جهل ، هرب من مكة وركب البحر فأصابهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئا ، فقال عكرمة : لئن لم ينجنى فى البحر الإخلاص ما ينجينى فى البر غيره . اللهم إن لك عهدا إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمدا حتى أضع يدى فى يده فلأجدنه عفوا كريما ، فجاء فأسلم (١). وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم ، والخطيب فى تاريخه ، والديلمى فى مسند الفردوس عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر ، والنكث ، والبغى » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿**يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم** ﴾ ، ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ [فاطر : ٤٣ ] ﴿فمن (٢) نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ [ الفتح : ١٠ ] . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تبغ ولا تكن باغيا ، فإن الله يقول : ﴿ **إنما بغيكم على أنفسكم** ﴾ » (٣) . وأخرج أبو الشيخ عن مكحول قال : ثلاث من كن فيه كن عليه : المكر ، والبغى ، والنكث ، قال الله سبحانه: ﴿ **إنما بغيكم على أنفسكم** ﴾ .

---

(١) ابن إسحاق ٤/ ٥٢ مختصرا ، والطبرى فى التاريخ ٣/ ٣٠ .
(٢) فى المخطوطة: « ومن » والصحيح ما أثبتناه .
(٣) صححه الحاكم ٢/ ٣٣٨ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب ( ٦٦٧١ ) ط . دار الكتب العلمية .

أقول أنا : وينبغي أن يلحق بهذه الثلاث التي دل القرآن على أنها تعود على فاعلها : الخدع ، فإن الله يقول : ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ [ البقرة : ٩]. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لو بغى جبل على جبل لدك الباغي منهما » [(١)] . وأخرج ابن مردويه من حديث ابن عمر مثله .

**﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) ﴾** .

لما ذكر الله سبحانه ما تقدم من متاع الدنيا جاء بكلام مستأنف يضمن بيان حالها وسرعة تقضيها ، وأنها تعود بعد أن تملأ الأعين برونقها ، وتجتلب النفوس ببهجتها . وتحمل أهلها على أن يسفكوا دماء بعضهم بعضا ، ويهتكوا حرمهم حيالها وعشقا لجمالها الظاهرى ، وتكالبا على التمتع بها ، وتهافتا على نيل ما تشتهى الأنفس منها بضرب من التشبيه المركب . فقال : ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء** ﴾ إلى آخر الآية . والمعنى : أن مثلها فى سرعة الذهاب والاتصاف بوصف يضاد ما كانت عليه ويباينه ، مثل ما على الأرض من أنواع النبات فى زوال رونقه وذهاب بهجته وسرعة تقضيه ، بعد أن كان غضا مخضرا طريا قد تعانقت أغصانه المتمايلة ، وزهت أوراقه المتصافحة ، وتلألأت أنوار نوره . وحاكت الزهر أنواع زهره، وليس المشبه به هو ما دخله الكاف فى قوله : ﴿ **كماء أنزلناه من السماء** ﴾ بل ما يفهم من الكلام ، والباء فى : ﴿ **فاختلط به نبات الأرض** ﴾ للسببية ، أى فاختلط بسببه نبات

(١) المقاصد الحسنة ( ٨٨٨ ) ، وروى موقوفا ومرفوعا على ابن عباس والموقوف أصح .

الأرض بأن اشتبك بعضه ببعض حتى بلغ إلى حد الكمال ، ويحتمل أن يراد أن النبات كان فى أول بروزه ومبدأ حدوثه غير مهتز ولا مترعرع فإذا نزل الماء عليه اهتز وربا حتى اختلط بعض الأنواع ببعض ﴿ **مما يأكل الناس والأنعام** ﴾ من الحبوب والثمار والكلأ والتبن وأخذت الأرض زخرفها . قال فى الصحاح : الزخرف : الذهب ، ثم يشبه به كل مموه مزور . انتهى. والمعنى : أن الأرض أخذت لونها الحسن المشابه بعضه للون الذهب ، وبعضه للون الفضة ، وبعضه للون الياقوت ، وبعضه للون الزمرد. وأصل ازينت : تزينت ، أدغمت التاء فى الزاى وجىء بألف الوصل لأن الحرف المدغم مقام حرفين أولهما ساكن . والساكن لا يمكن الابتداء به. وقرأ ابن مسعود وأبى بن كعب : « وتزينت » على الأصل . وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية « وأزينت » على وزن أفعلت ، أى أزينت بالزينة التى عليها ، شبهها بالعروس التى تلبس الثياب الجيدة الملونة ألوانا كثيرة . وقال عوف ابن أبى جميلة : قرأ أشياخنا « وازيانت » على وزن اسوادت ، وفى رواية المقدمى : « وازانت » والأصل فيه تزاينت على وزن تفاعلت . وقرأ الشعبى وقتادة : « أزينت » ، ومعنى هذه القراءات كلها هو ما ذكرنا .﴿ **وظن أهلها أنهم قادرون عليها** ﴾ أى غلب على ظنونهم أو تيقنوا أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها ، والضمير فى عليها للأرض ، والمراد: النبات الذى هو عليها ﴿ **أتاها أمرنا** ﴾ جواب إذا ، أى جاءها أمرنا بإهلاكها واستئصالها وضربها ببعض العاهات ﴿ **فجعلناها حصيدا**﴾ أى جعلنا زرعها شبيها بالمحصود فى قطعة من أصوله . قال أبو عبيدة : الحصيد : المستأصل ﴿ **كأن لم تغن بالأمس** ﴾ أى كأن لم يكن زرعها موجودا فيه بالأمس مخضرا طريا، من غنى بالمكان بالكسر يغنى بالفتح إذا أقام به ، والمراد بالأمس : الوقت القريب ، والمغانى فى اللغة : المنازل. وقال قتادة : كأن لم تنعم ، قال لبيد :

غنيت سنينا قبل مجرى داحس ... لو كان للنفس اللجوج خلود

وقرأ قتادة : « كأن لم يغن » بالتحتية بإرجاع الضمير إلى الزخرف . وقرأ من عداه : ﴿**تغن** ﴾ بالفوقية بإرجاع الضمير إلى الأرض ﴿ **كذلك** ﴾ أى مثل ذلك التفصيل البديع ﴿**نفصل الآيات** ﴾ القرآنية التى من جملتها هذه الآية ﴿ **لعلهم يتفكرون** ﴾ فيما اشتملت عليه ، ويجوز أن يراد الآيات التكوينية .

قوله : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ لما نفر عباده عن الميل إلى الدنيا بما ضربه لهم من المثل السابق رغبهم فى الدار الآخرة بإخبارهم بهذه الدعوة منه عز وجل إلى دار السلام ، قال الحسن وقتادة : السلام : هو الله تعالى ، وداره الجنة . وقال الزجاج : المعنى والله يدعو إلى دار السلامة . ومعنى السلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة، ومنه قول الشاعر :

تحـيى بالسـلامـة أم بكـر ... وهل لك بعد قومك من سلام

وقيل : أراد دار السلام الذى هو التحية ؛ لأن أهلها ينالون من الله السلام بمعنى التحية

كما فى قوله : ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ [ إبراهيم : ٢٣ ] . وقيل : السلام اسم لأحد الجنان السبع : أحدها : دار السلام ، والثانية: دار الجلال ، والثالثة : جنة عدن ، والرابعة : جنة المأوى ، والخامسة : جنة الخلد ، والسادسة : جنة الفردوس ، والسابعة : جنة النعيم. وقيل : المراد: دار السلام الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض فى الجنة ، وقد اتفقوا على أن دار السلام هى الجنة ، وإنما اختلفوا فى سبب التسميه بدار السلام ﴿ **ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ جعل سبحانه الدعوة إلى دار السلام عامة ، والهداية خاصة بمن يشاء أن يهديه تكميلا للحجة وإظهاراً للاستغناء عن خلقه .

ثم قسم سبحانه أهل الدعوة إلى قسمين ، وبين حال كل طائفة فقال : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ أى الذين أحسنوا بالقيام بما أوجبه الله عليهم من الأعمال والكف عما نهاهم عنه من المعاصى ، والمراد بالحسنى : المثوبة الحسنى . قال ابن الأنبارى : العرب توقع هذه اللفظة على الخصلة المحبوبة المرغوب فيها ، ولذلك ترك موصوفها . وقيل: المراد بالحسنى الجنة، وأما الزيادة ، فقيل : المراد بها ما يزيد على المثوبة من التفضل ، كقوله : ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ [فاطر : ٣٠ ] . وقيل : الزيادة : النظر إلى وجهه الكريم . وقيل : الزيادة: هى مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها . وقيل : الزيادة : غرفة من لؤلؤ . وقيل : الزيادة : مغفرة من الله ورضوان . وقيل : هى أنه سبحانه يعطيهم فى الدنيا من فضله ما لا يحاسبهم عليه . وقيل غير ذلك مما لا فائدة فى ذكره، وسيأتى بيان ما هو الحق فى آخر البحث. ﴿ **ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة** ﴾ معنى ﴿ **يرهق** ﴾ : يلحق ، ومنه قيل : غلام مراهق إذا لحق بالرجال . وقيل : يعلو. وقيل : يغشى ، والمعنى متقارب . والقتر : الغبار، ومنه قول الفرزدق :

متوج بـرداء الملك يتبعـه  موج ترى فوقه الرايات والقترا

وقرأ الحسن : « قتر » بإسكان المثناة ، و المعنى واحد ، قاله النحاس ، وواحد القتر : قترة . والذلة : ما يظهر على الوجه من الخضوع والانكسار والهوان ، والمعنى : أنه لا يعلو وجوههم غبرة ولا يظهر فيها هوان . وقيل : القتر : الكآبة . وقيل : سواد الوجوه . وقيل : هو دخان النار . ﴿ **أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ الإشارة إلى المتصفين بالصفات السابقة هم أصحاب الجنة الخالدون فيها ، المتنعمون بأنواع نعيمها . ﴿ **والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها**﴾ هذا الفريق الثانى من أهـل الدعوة ، وهو معطوف على ﴿ **للذين أحسنوا** ﴾ كأنه قيل : وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، أو يقدر : وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، أى يجازى سيئة واحدة بسيئة واحدة لا يزاد عليها ، وهذا أولى من الأول لكونه من باب العطف على معمولى عاملين مختلفين ، والمراد بالسيئة إما الشرك أو المعاصى التى ليست بشرك، وهى ما يتلبس به العصاة من المعاصى ، قال ابن كيسان : الباء زائدة ، والمعنى : جزاء سيئة مثلها ، وقيل : الباء مع ما بعدها الخبر ، وهى متعلقة بمحذوف قامت

مقامه ، والمعنى : جزاء سيئة كائن بمثلها كقولك : إنما أنا بك ، ويجوز أن يتعلق بجزاء والتقدير جزاء سيئة بمثلها كائن فحذف خبر المبتدأ، ويجوز أن يكون ﴿**جزاء**﴾ مرفوعا على تقدير فلهم جزاء سيئة فيكون مثل قوله: ﴿ فعدة من أيام أخر ﴾ [ البقرة : ١٨٤ ] أى فعليه عدة . والباء على هذا التقدير متعلقة بمحذوف ، كأنه قال : لهم جزاء سيئة ثابت بمثلها ، أو تكون مؤكدة أو زائدة .

قوله : ﴿ **ترهقهم ذلة** ﴾ أى يغشاهم هوان وخزى . وقرئ : « يرهقهم » بالتحتية . ﴿**ما لهم من الله من عاصم** ﴾ أى لا يعصمهم أحد كائنا من كان من سخط الله وعذابه ، أو ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين ، والأول أولى . والجملة فى محل نصب على الحالية ، أو مستأنفة ﴿ **كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما**﴾ قطعا جمع قطعة ، وعلى هذا يكون ﴿ **مظلما** ﴾ منتصبا على الحال من الليل ، أى أغشيت وجوههم قطعا من الليل فى حالة ظلمته . وقد قرأ بالجمع جمهور القراء . وقرأ الكسائى وابن كثير : « قطعا» بإسكان الطاء ، فيكون ﴿**مظلما** ﴾ على هذا صفة لـ ﴿ **قطعا** ﴾ ويجوز أن يكون حالا من ﴿**الليل**﴾ قال ابن السكيت : القطع طائفة من الليل . ﴿ **أولئك** ﴾ أى الموصوفون بهذه الصفات الذميمة ﴿ **أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وإطلاق الخلود هنا مقيد بما تواتر فى السنة من خروج عصاة الموحدين .

قوله : ﴿ **ويوم نحشرهم جميعا** ﴾ الحشر الجمع ، وجميعا منتصب على الحال ﴿ **ويوم** ﴾ منصوب بمضمر ، أى أنذرهم يوم نحشرهم ، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوالهم القبيحة . والمعنى : أن الله سبحانه يحشر العابد والمعبود لسؤالهم ﴿ **ثم نقول للذين أشركوا** ﴾ فى حالة الحشر ووقت الجمع تقريعا لهم على رؤوس الأشهاد ، وتوبيخا لهم مع حضور من يشاركهم فى العبادة وحضور معبوداتهم ﴿ **مكانكم** ﴾ أى الزموا مكانكم واثبتوا فيه وقفوا فى موضعكم ﴿**أنتم وشركاؤكم** ﴾ هذا الضمير تأكيد للضمير الذى فى مكانكم لسده مسد الزموا ، و ﴿ **شركاؤكم**﴾ معطوف عليه . وقرئ بنصب ﴿ **شركاؤكم** ﴾ على أن الواو واو مع .

قوله :﴿ **فزيلنا بينهم** ﴾ أى فرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا ، يقال : زيلته فتزيل ، أى فرقته فتفرق ، والمزايلة المفارقة ، يقال : زايله مزايلة وزيالا إذا فارقه ، والتزايل : التباين قال الفراء : وقرأ بعضهم : « فزايلنا » والمراد بالشركاء هنا : الملائكة . وقيل : الشياطين . وقيل : الأصنام ، وإن الله سبحانه ينطقها فى هذا الوقت . وقيل : المسيح، وعزير ، والظاهر أنه كل معبود للمشركين كائنا ما كان ، وجملة : ﴿ **وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون** ﴾ فى محل نصب على الحال بتقدير قد ، والمعنى : وقد قال شركاؤهم الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه : ما كنتم إيانا تعبدون ، وإنما عبدتم هواكم وضلالكم وشياطينكم الذين أغووكم ، وإنما أضاف الشركاء إليهم مع أنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه ، لكونهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم فهم شركاؤهم فى أموالهم من هذه الحيثية .

وقيل : لكونهم شركاؤهم فى هذا الخطاب ، وهذا الجحد من الشركاء وإن كان مخالفا لما قد وقع من المشركين من عبادتهم ، فمعناه : إنكار عبادتهم إياهم عن أمرهم لهم بالعبادة ﴿ **فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم** ﴾ إن كنا أمرناكم بعبادتنا أو رضينا ذلك منكم ﴿ **إن كنا عن عبادتكم لغافلين** ﴾ « إن » هى المخففة من الثقيلة ، واللام هى الفارقة بينها وبين النافية ، والقائل لهذا الكلام هم المعبودون . قالوا لمن عبدهم من المشركين : إنا كنا عن عبادتكم لنا لغافلين ، والمراد بالغفلة هنا : عدم الرضا بما فعله المشركون من العبادة لهم ، وفى هذا دليل على أن هؤلاء المعبودين غير الشياطين ؛ لأنهم يرضون بما فعله المشركون من عبادتهم ، ويمكن أن يكونوا من الشياطين، ويحمل هذا الجحد منهم على أنهم لم يجبروهم على عبادتهم،ولا أكرهوهم عليها .

﴿ **هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت** ﴾ أى فى ذلك المكان وفى ذلك الموقف ، أو فى ذلك الوقت على استعارة اسم الزمان للمكان تذوق كل نفس وتختبر جزاء ما أسلفت من العمل ، فمعنى ﴿ **تبلو** ﴾ : تذوق وتختبر . وقيل : تعلم . وقيل :تتبع ، وهذا على قراءة من قرأ ﴿**تبلو** ﴾ بالمثناة الفوقية بإسناد الفعل إلى كل نفس ، وأما على قراءة من قرأ : « نبلو » بالنون، فالمعنى : أن الله يبتلى كل نفس ويختبرها ، ويكون ما أسلفت بدلا من كل نفس . والمعنى : أنه يعاملها معاملة من يختبرها ويتفقد أحوالها . قوله : ﴿ **وردوا إلى الله مولاهم الحق**﴾ معطوف على ﴿ **زيلنا** ﴾ ، والضمير فى ﴿ **ردوا** ﴾ عائد إلى الذين أشركوا ، أى ردوا إلى جزائه ، وما أعد لهم من عقابه ، و ﴿ **مولاهم** ﴾ : ربهم ، و ﴿ **الحق** ﴾ صفة له ، أى الصادق الربوبية دون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة ، وقرئ : « الحق » بالنصب على المدح كقولهم : الحمد لله أهل الحمد ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أى ضاع وبطل ما كانوا يفترون من أن الآلهة التى لهم حقيقة بالعبادة لتشفع لهم إلى الله وتقربهم إليه . والحاصل أن هؤلاء المشركين يرجعون فى ذلك المقام إلى الحق ، ويعترفون به ، ويقرون ببطلان ما كانوا يعبدونه ويجعلونه إلها ، ولكن حين لا ينفعهم ذلك .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاختلط به نبات الأرض** ﴾ قال : اختلط فنبت بالماء كل لون ﴿ **مما يأكل الناس** ﴾ كالحنطة والشعير ، وسائر حبوب الأرض والبقول والثمار ، وما تأكله الأنعام والبهائم من الحشيش والمراعى . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿**وازينت** ﴾ قال : أنبتت وحسنت ، وفى قوله : ﴿ **كأن لم تغن بالأمس** ﴾ قال : كأن لم تعش ، كأن لم تنعم . وأخرج ابن جرير عن أبى بن كعب وابن عباس ومروان بن الحكم أنهم كانوا يقرؤون بعد قوله: ﴿ **وظن أهلها أنهم قادرون عليها** ﴾ وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أنه كان يقرأ «وما أهلكناها إلا بذنوب أهلها كذلك نفصل الآيات » . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن أبى مجلز قال : كان مكتوب فى سورة يونس إلى حيث هذه الآية : ﴿ **حتى إذا أخذت الأرض زخرفها** ﴾ إلى ﴿ **يتفكرون** ﴾ ،

ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا ، ولا يشبع نفس ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ، فمحيت .

وأخرج أبو نعيم ، والدمياطى فى معجمه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ يقول : يدعو إلى عمل الجنة ، والله : السلام ، والجنه : داره . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **ويهدى من يشاء** ﴾ قال : يهديهم للمخرج من الشبهات والفتن والضلالات . وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم طلعت شمسه إلا وكل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : يأيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، فما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، ولا آبت شمسه إلا وكل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين : اللهم أعط منفقا خلفا ، وأعط ممسكا تلفا ، ﴿ والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى ﴾ إلى قوله : ﴿للعسرى﴾ [ الليل :١ـ١٠] »(١) . وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن سعيد بن أبى هلال سمعت أبا جعفر محمد بن على وتلا : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ فقال : حدثنى جابر قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوما فقال : « إنى رأيت فى المنام كأن جبريل عند رأسى ، وميكائيل عند رجلى ، يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلا ، فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك مثل ملك اتخذ دارا ، ثم بنى فيها بيتا ، ثم جعل فيها مأدبة ، ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من ترك ؛ فالله هو الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يامحمد رسول ، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها » (٢) وقد روى معنى هذا من طرق . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ قال : ذكر لنا أن فى التوراة مكتوبا : يا باغى الخير هلم ، ويا باغى الشر اتقه . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنه كان إذا قرأ : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ قال : لبيك ربنا وسعديك .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجة وابن خزيمة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وغيرهم عن صهيب ؛ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة ،

---

(١) أحمد ٥/ ١٩٧ والطيالسى فى مسنده ( ٩٧٤ ) وابن جرير ١١/ ٧٣ وابن حبان ( ٦٨٥ ) وصححه الحاكم ٢/ ٤٤٥ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب ( ٣١٣٩ ) وإسناده رجال موثقون .

(٢) ابن جرير ٧/ ٧٣ وصححه الحاكم ٤/ ٣٩٣ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ١/ ٣٧٠ .

إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ، ويبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويزحزحنا عن النار ؛ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فو الله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم » (١) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والدارقطنى فى الرؤية ، وابن مردويه عن أبى موسى عن رسول الله ﷺ: « إن الله يبعث يوم القيامة مناديا ينادى بصوت يسمعه أولهم وآخرهم : إن الله وعدكم الحسنى وزيادة » فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن (٢) . وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، والبيهقى فى الرؤية عن كعب بن عجرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ قال : « الزيادة : النظر إلى وجه الرحمن » (٣) . وأخرج هؤلاء والدارقطنى وابن أبى حاتم عن أبى بن كعب ؛ أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ قال : « الذين أحسنوا : أهل التوحيد ، والحسنى : الجنة ، والزيادة: النظر إلى وجه الله » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا نحوه . وأخرج أبو الشيخ والدارقطنى وابن مردويه والخطيب وابن النجار عن أنس مرفوعا نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة نحوه .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن خزيمة وابن المنذر وأبو الشيخ والدارقطنى وابن مردويه والبيهقى عن أبى بكر الصديق فى الآية قال : الحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله . وأخرج ابن مردويه من طريق الحرث عن على بن أبى طالب فى الآية مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والدارقطنى والبيهقى عن حذيفة فى الآية قال : الزيادة : النظر إلى وجه الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والدارقطنى والبيهقى عن أبى موسى نحوه . وأخرج ابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم واللالكائى عن ابن مسعود نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عن على قال : الزيادة : غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب غرفها وأبوابها من لؤلؤة واحدة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وزيادة** ﴾ قال : هو مثل قوله : ﴿ ولدينا مزيد ﴾ [ق: ٣٥ ] يقول : يجزيهم بعملهم ، ويزيدهم من فضله . وقال : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام: ١٦٠ ] . وقد روى عن التابعين ومن بعدهم روايات فى تفسير الزيادة غالبها أنها النظر إلى وجه الله سبحانه . وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله ﷺ فلم يبق حينئذ لقائل مقال ، ولا التفات إلى المجادلات الواقعة بين المتمذهبة الذين لا يعرفون من السنة المطهرة ما ينتفعون به ، فإنهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم ، والله المستعان .

---

(١) أحمد ٤/ ٣٣٢ ، ٣٣٣ ومسلم فى الإيمان ( ١٨١/ ٢٩٧ ) والترمذى فى صفة الجنة ونعيمها ( ٢٥٥٢ ) وقال الترمذى : « إنما أسنده حماد بن مسلمة ورفعه » وابن ماجة فى المقدمة ( ١٨٧ ) وابن جرير ١١/ ٧٥ .

(٢ ، ٣) ابن جرير ١١/ ٧٤ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا يرهق وجوههم** ﴾ قال : لا يغشاهم ﴿**قتر**﴾ قال : سواد الوجوه . وأخرج أبو الشيخ عن عطاء فى الآية قال : القتر : سواد الوجه . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : خزى . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن صهيب عن النبى ﷺ ﴿ **ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة** ﴾ قال : « بعد نظرهم إليه عز وجل » . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **والذين كسبوا السيئات** ﴾ قال : الذين عملوا الكبائر ﴿ **جزاء سيئة بمثلها** ﴾ قال : النار ﴿ **كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما** ﴾ القطع : السواد . نسختها الآية فى البقرة : ﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ الآية [ البقرة : ٨١ ] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وترهقهم ذلة** ﴾ قال : تغشاهم ذلة وشدة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **مالهم من الله من عاصم** ﴾ يقول : من مانع .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ويوم نحشرهم** ﴾ قال : الحشر الموت (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **فزيلنا بينهم** ﴾ قال : فرقنا بينهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : تنصب الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله ، فيقول : هؤلاء الذين كنتم تعبدون من دون الله ؟ فيقولون : نعم هؤلاء الذين كنا نعبد ، فتقول لهم الآلهة : والله ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا نعلم أنكم كنتم تعبدوننا . فيقولون : بلى والله لإياكم كنا نعبد ، فتقول لهم الآلهة: ﴿ **فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين** ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يمثل لهم يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله ، فيتبعونهم حتى يؤدوهم النار » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿**هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت** ﴾ . وأخرج أبو الشيخ عن السدى ﴿ **هنالك تبلو** ﴾ يقول : تتبع . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال: ﴿ **تبلو** ﴾ : تختبر . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد ﴿ **تبلو** ﴾ قال : تعاين ﴿ **كل نفس ما أسلفت** ﴾ ما عملت ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ ما كانوا يدعون معه من الأنداد . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿**وردوا إلى الله مولاهم الحق** ﴾ قال : نسخها قوله : ﴿ الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ [محمد:١١].

﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ**

(١) ابن جرير ١١/ ٧٨ بدون سند ، قال :« عن مجاهد أنه كان يتأول الحشر فى هذا الموضع : الموت» .

**عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١)** ﴾ .

لما بين فضائح المشركين أتبعها بإيراد الحجج الدامغة من أحوال الرزق والحواس والموت والحياة والابتداء والإعادة والإرشاد والهدى ، وبنى سبحانه الحجج على الاستفهام وتفويض الجواب إلى المسؤولين ليكون أبلغ فى إلزام الحجة وأوقع فى النفوس، فقال: ﴿ **قل** ﴾ يا محمد، للمشركين احتجاجا لحقية التوحيد وبطلان ماهم عليه من الشرك ﴿ **من يرزقكم من السماء والأرض** ﴾ من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات والمعادن ، فإن اعترفوا حصل المطلوب ، وإن لم يعترفوا فلابد أن يعترفوا بأن الله هو الذى خلقهما ﴿ **أم من يملك السمع والأبصار** ﴾ «أم » هى المنقطعة، وفى هذا انتقال من سؤال إلى سؤال ، وخص السمع والبصر بالذكر لما فيهما من الصنعة العجيبة والقدرة الباهرة العظيمة ، أى من يستطيع ملكهما وتسويتهما على هذه الصفة العجيبة والخلقة الغريبة حتى ينتفعوا بهما هذا الانتفاع العظيم ، ويحصلون بهما من الفوائد مالا يدخل تحت حصر الحاصرين . ثم انتقل إلى حجة ثالثة ، فقال : ﴿ **ومن يخرج الحى من الميت** ﴾ الإنسان من النطفة ، والطير من البيضة ، والنبات من الحبة ، أو المؤمن من الكافر ﴿ **ويخرج الميت من الحى** ﴾ أى النطفة من الإنسان ، أو الكافر من المؤمن ، والمراد من هذا الاستفهام عمن يحيى ويميت . ثم انتقل إلى حجة رابعة ، فقال : ﴿ **ومن يدبر الأمر**﴾ أى يقدره ويقضيه ، وهذا من عطف العام على الخاص ؛ لأنه قد عم ما تقدم وغيره ﴿ **فسيقولون الله** ﴾ أى سيكون قولهم فى جواب هذه الاستفهامات : إن الفاعل لهذه الأمور هو الله سبحانه إن أنصفوا وعملوا على ما يوجبه الفكر الصحيح والعقل السليم ، وارتفاع الاسم الشريف على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف ، أى الله يفعل ذلك ، ثم أمره الله سبحانه بعد

أن يجيبوا بهذا الجواب أن يقول لهم : ﴿ **أفلا تتقون** ﴾ والاستفهام للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر ، أى تعلمون ذلك أفلا تتقون وتفعلون ما يوجبه هذا العلم من تقوى الله الذى يفعل هذه الأفعال .

﴿ **فذلكم الله ربكم الحق** ﴾ أى فذلكم الذى يفعل هذه الأفعال هو ربكم المتصف بأنه الحق لا ما جعلتموهم شركاء له ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **فماذا بعد الحق إلا الضلال** ﴾ للتقريع والتوبيخ إن كانت « ما » استفهامية ، لا إن كانت نافية كما يحتمله الكلام ، والمعنى أى شىء بعد الحق إلا الضلال ، فإن ثبوت ربوبية الرب سبحانه حق بإقرارهم فكان غيره باطلا؛ لأن واجب الوجود يجب أن يكون واحدا فى ذاته وصفاته : ﴿**فأنى تصرفون** ﴾ أى كيف تستجيزون العدول عن الحق الظاهر وتقعون فى الضلال إذ لا واسطة بينهما ؟ فمن تخطى أحدهما وقع فى الآخر، والاستفهام للإنكار والاستبعاد والتعجب ﴿ **كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون** ﴾ أى كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق كذلك حقت كلمة ربك، أى حكمه وقضاؤه على الذين فسقوا ، أى خرجوا من الحق إلى الباطل وتمردوا فى كفرهم عنادا ومكابرة ، وجملة ﴿**أنهم لا يؤمنون** ﴾ بدل من الكلمة . قاله الزجاج : أى حقت عليهم هذه الكلمة ، وهى عدم إيمانهم ، ويجوز أن تكون الجملة تعليلية لما قبلها بتقدير اللام ، أى لأنهم لا يؤمنون . وقال الفراء : إنه يجوز أنهم لا يؤمنون بالكسر على الاستئناف ، وقد قرأ نافع وابن عامر : «كلمات ربك » بالجمع . وقرأ الباقون بالإفراد .

قوله : ﴿ **قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده** ﴾ أورد سبحانه فى هذا حجة خامسة على المشركين ، أمر نبيه ﷺ أن يقولها لهم ، وهم وإن كانوا لا يعترفون بالمعاد ، ولكنه لما كان أمرا ظاهرا بينا ، وقد أقام الأدلة عليه فى هذه السورة على صورة لا يمكن دفعها عند من أنصف ولم يكابر كان كالمسلم عندهم الذى لا جحد له ولا إنكار فيه ، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم : ﴿ **قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون** ﴾ أى هو الذى يفعل ذلك لا غيره وهذا القول الذى قاله النبى ﷺ عن أمر الله سبحانه له هو نيابة عن المشركين فى الجواب ، إما على طريق التلقين لهم وتعريفهم كيف يجيبون وإرشادهم إلى ما يقولون . وإما لكون هذا المعنى قد بلغ فى الوضوح إلى غاية لا يحتاج معها إلى إقرار الخصم ومعرفة ما لديه، وإما لكون المشركين لا ينطقون بما هو الصواب فى هذا الجواب فرارا منه عن أن تلزمهم الحجة أو أن يسجل عليهم بالعناد والمكابرة إن حادوا عن الحق ، ومعنى ﴿ **فأنى تؤفكون** ﴾ : فكيف تؤفكون ، أى تصرفون عن الحق وتنقلبون منه إلى غيره .

ثم أمره الله سبحانه أن يورد عليهم حجة سادسة فقال : ﴿ **قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق** ﴾ والاستفهام هاهنا ، كالاستفهامات السابقة ، والاستدلال بالهداية بعد

الاستدلال بالخلق وقع كثيرا فى القرآن كقوله : ﴿الذى خلقنى فهو يهدين﴾ [ الشعراء : ٧٨ ] وقوله : ﴿ الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾ [طه: ٥٠ ] ، وقوله : ﴿ الذى خلق فسوى. والذى قدر فهدى ﴾ [ الأعلى : ٢، ٣ ] ، وفعل الهداية يجىء متعديا باللام وإلى ، وهما بمعنى واحد. روى ذلك عن الزجاج . والمعنى : قل لهم يا محمد ، هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام ويدعو الناس إلى الحق ؟ فإذا قالوا : لا ، فقل لهم : الله يهدى للحق دون غيره ، ودليل ذلك ما تقدم من الأدلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا ، وهداية الله سبحانه لعباده إلى الحق هى بما نصبه لهم من الآيات فى المخلوقات ، وإرساله للرسل وإنزاله للكتب ، وخلقه لما يتوصل به العباد إلى ذلك من العقول والأفهام والأسماع والأبصار ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى** ﴾ للتقرير وإلزام الحجة .

وقد اختلف القراء فى ﴿ **لا يهدى** ﴾ فقرأ أهل المدينة إلا نافعا : « يهدى » بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال فجمعوا فى قراءتهم هذه بين ساكنين . قال النحاس : والجمع بين ساكنين لا يقدر أحد أن ينطق به . قال محمد بن يزيد: لابد لمن رام مثل هذا أن يحرك حركة خفيفة إلى الكسر ، وسيبويه يسمى هذا اختلاسا . وقرأ أبو عمرو وقالون فى رواية بين الفتح والإسكان . وقرأ ابن عامر وابن كثير وورش وابن محيصن بفتح الياء والهاء وتشديد الدال . قال النحاس هذه القراءة بينة فى العربية ، والأصل فيها يهتدى ، أدغمت التاء فى الدال وقلبت حركتها إلى الهاء . وقرأ حفص ويعقوب والأعمش مثل قراءة ابن كثير إلا أنهم كسروا الهاء ، قالوا : لأن الكسر هو الأصل عند التقاء الساكنين. وقرأ أبو بكر عن عاصم : « يهدى » بكسر الياء والهاء وتشديد الدال وذلك للاتباع . وقرأ حمزة والكسائى وخلف ويحيى بن وثاب : « يهدى » بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال من هدى يهدى . قال النحاس :وهذه القراءة لها وجهان فى العربية ، وإن كانت بعيدة : الأول أن الكسائى والفراء قالا : إن ﴿ **يهدى** ﴾ بمعنى يهتدى . الثانى : أن أبا العباس قال : إن التقدير أم من لا يهدى غيره ، ثم تم الكلام وقال بعد ذلك : ﴿ **إلا أن يهدى** ﴾ أى لكنه يحتاج أن يهدى فهو استثناء منقطع كما تقول : فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع ، أى لكنه يحتاج أن يسمع ، والمعنى على القراءات المتقدمة : أفمن يهدى الناس إلى الحق ، وهو الله سبحانه أحق أن يتبع ويقتدى به ، أم الأحق بأن يتبع ويقتدى به من لا يهتدى بنفسه إلا أن يهديه غيره فضلا عن أن يهدى غيره ؟ والاستثناء على هذا استثناء مفرغ من أعم الأحوال .

قوله : ﴿ **فما لكم كيف تحكمون** ﴾ هذا تعجيب من حالهم باستفهامين متواليين ، أى أىّ شىء لكم كيف تحكمون باتخاذ هؤلاء شركاء لله ، وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ ، و﴿ **كيف** ﴾ فى محل نصب بـ ﴿**تحكمون**﴾، ثم بين سبحانه ما هؤلاء عليه فى أمر دينهم ، وعلى أى شىء بنوه . وبأى شىء اتبعوا هذا الدين الباطل ، وهو الشرك فقال : ﴿**وما يتبع**

**أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾** وهذا كلام مبتدأ غير داخل فى الأوامر السابقة، والمعنى : ما يتبع هؤلاء المشركون فى إشراكهم بالله وجعلهم له أندادا إلا مجرد الظن والتخمين والحدس [(١)] ، ولم يكن ذلك عن بصيرة، بل ظن من ظن من سلفهم أن هذه المعبودات تقربهم إلى الله ، وأنها تشفع لهم ، ولم يكن ظنه هذا لمستند قط ، بل مجرد خيال مختل وحدس باطل ، ولعل تنكير الظن هنا للتحقير : أى إلا ظنا ضعيفا لا يستند إلى ما تستند إليه سائر الظنون . وقيل : المراد بالآية : إنه ما يتبع أكثرهم فى الإيمان بالله والإقرار به إلا ظنا . والأول أولى . ثم أخبرنا الله سبحانه بأن مجرد الظن لا يغنى من الحق شيئا ، لأن أمر الدين إنما يبنى على العلم ، وبه يتضح الحق من الباطل ، والظن لا يقوم مقام العلم ، ولا يدرك به الحق ، ولا يغنى عن الحق فى شىء من الأشياء ، ويجوز انتصاب شيئا على المصدرية أو على أنه مفعول به ، و ﴿ **من الحق**﴾ حال منه والجملة مستأنفة لبيان شأن الظن وبطلانه ﴿ **إن الله عليم بما يفعلون** ﴾ من الأفعال القبيحة الصادرة لا عن برهان .

قوله : ﴿ **وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله** ﴾ لما فرغ سبحانه من دلائل التوحيد وحججه شرع فى تثبيت أمر النبوة : أى وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البينة والبراهين الواضحة يفترى من الخلق من دون الله ، وإنما هو من عند الله عز وجل، وكيف يصح أن يكون مفترى ، وقد عجز عن الإتيان بسورة منه القوم الذين هم أفصح العرب لسانا وأدقهم أذهانا ﴿ **ولكن** ﴾ كان هذا القرآن ﴿ **تصديق الذى بين يديه** ﴾ من الكتب المنزلة على الأنبياء ، ونفس هذا التصديق معجزة مستقلة ؛ لأن أقاصيصه موافقة لما فى الكتب المتقدمة ، مع أن النبى ﷺ لم يطلع على ذلك ولا تعلمه ولا سأل عنه ولا اتصل بمن له علم بذلك ، وانتصاب ﴿ **تصديق** ﴾ على أنه خبر لكان المقدرة بعد لكن ، ويجوز أن يكون انتصابه على العلية لفعل محذوف ، أى لكن أنزله الله تصديق الذى بين يديه. قال الفراء: ومعنى الآية : وما ينبغى لهذا القرآن أن يفترى ، كقوله : ﴿ وما كان لنبى أن يغل ﴾ [ آل عمران:١٦١] ، ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ [ التوبة : ١٢٢ ] . وقيل : إن ﴿**أن** ﴾ بمعنى اللام ، أى وما كان هذا القرآن ليفترى. وقيل : بمعنى لا ، أى لا يفترى . قال الكسائى والفراء : إن التقدير فى قوله : ﴿ **ولكن تصديق** ﴾ ولكن كان تصديق ، ويجوز عندهما الرفع، أى ولكن هو تصديق . وقيل : المعنى : ولكن القرآن تصديق ﴿ **الذى بين يديه** ﴾ من الكتب ، أى أنها قد بشرت به قبل نزوله فجاء مصدقا لها . وقيل : المعنى : ولكن تصديق النبى الذى بين يدى القرآن ، وهو محمد ﷺ ؛ لأنهم شاهدوه قبل أن يسمعوا منه القرآن .

قوله : ﴿ **وتفصيل الكتاب** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **ولكن تصديق الذى بين يديه** ﴾ فيجىء

(١) حدس فى الأرض حدسا : ذهب على غير هداية ، وفى السير : أسرع ومضى على غير استقامة ، وفى الأمر ونحوه ظن وخمّن .

فيه الرفع والنصب على الوجهين المذكورين فى ﴿ **تصديق** ﴾ ، والتفصيل : التبيين ، أى يبين ما فى كتب الله المتقدمة ، والكتاب للجنس . وقيل: أراد ما بين فى القرآن من الأحكام ، فيكون المراد بالكتاب : القرآن . قوله : ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ الضمير عائد إلى القرآن ، وهو داخل فى حكم الاستدراك خبر ثالث ، ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال من الكتاب ويجوز أن تكون الجملة استئنافية لا محل لها ، و ﴿ **من رب العالمين** ﴾ خبر رابع ، أى كائن من رب العالمين ، ويجوز أن يكون حالا من الكتاب ، أو من ضمير القرآن فى قوله : ﴿**لا ريب فيه** ﴾ أى كائنا من رب العالمين ، ويجوز أن يكون متعلقا بتصديق وتفصيل ، وجملة ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ معترضة.

قوله : ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ الاستفهام للإنكار عليهم مع تقرير ثبوت الحجة ، و « أم » هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة ، أى بل أيقولون افتراه واختلقه . وقال أبو عبيدة : أم بمعنى الواو ، أى ويقولون افتراه . وقيل : الميم زائدة ، والتقدير : أيقولون افتراه ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ . ثم أمره الله سبحانه أن يتحداهم حتى يظهر عجزهم ويتبين ضعفهم فقال : ﴿ **قل فأتوا بسورة مثله** ﴾ أى إن كان الأمر كما تزعمون من أن محمدا افتراه فأتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثله فى البلاغة ، وجودة الصناعة ، فأنتم مثله فى معرفة لغة العرب وفصاحة الألسن وبلاغة الكلام ﴿**وادعوا** ﴾ بمظاهريكم ومعاونيكم ﴿ **من استطعتم** ﴾ دعاءه والاستعانة به من قبائل العرب ، ومن آلهتكم التى تجعلونهم شركاء لله . وقوله : ﴿ **من دون الله** ﴾ متعلق بـ ﴿ **ادعوا** ﴾ أى ادعوا من سوى الله من خلقه ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فى دعواكم أن هذا القرآن مفترى .

وسبحان الله العظيم ما أقوى هذه الحجة وأوضحها وأظهرها للعقول ، فإنهم لما نسبوا الافتراء إلى واحد منهم فى البشرية والعربية ، قال لهم : هذا الذى نسبتموه إلى وأنا واحد منكم ليس عليكم إلا أن تأتوا وأنتم الجمع الجم بسورة مماثلة لسورة من سوره ، واستعينوا بمن شئتم من أهل هذه اللسان العربية على كثرتهم وتباين مساكنهم ، أو من غيرهم من بنى آدم ، أو من الجن ، أو من الأصنام ، فإن فعلتم هذا بعد اللتيا والتى فأنتم صادقون فيما نسبتموه إلى وألصقتموه بى ، فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام المنصف والتنزل البالغ بكلمة ولا نطقوا ببنت شفة ، بل كاعوا عن الجواب وتشبثوا بأذيال العناد البارد والمكابرة المجردة عن الحجة ، وذلك مما لا يعجز عنه مبطل ، ولهذا قال سبحانه عقب هذا التحدى البالغ : ﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه** ﴾ فأضرب عن الكلام الأول ، وانتقل إلى بيان أنهم سارعوا إلى تكذيب القرآن قبل أن يتدبروه ويفهموا معانيه وما اشتمل عليه ، وهكذا صنع من تصلب فى التقليد ولم يبال بما جاء به من دعا إلى الحق وتمسك بذيول الإنصاف ، بل يرده بمجرد كونه لم يوافق هواه ، ولا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه ويعلم مبناه ، كما تراه عيانا وتعلمه وجدانا . والحاصل أن من كذب بالحجة النيرة والبرهان الواضح قبل أن يحيط بعلمه، فهو لم يتمسك بشىء فى هذا

التكذيب إلا مجرد كونه جاهلا لما كذب به غير عالم به ، فكان بهذا التكذيب مناديا على نفسه بالجهل بأعلى صوت ، ومسجلا بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل ، وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شيء .

ما يبلغ الأعداء من جاهل    ما يبلغ الجاهل من نفسه

قوله : ﴿ **ولما يأتهم تأويله** ﴾ معطوف على : ﴿ **لم يحيطوا بعلمه** ﴾ أى بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وبما لم يأتهم تأويله ، أو هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، أى كذبوا به حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كذبوا به ولا بلغته عقولهم . والمعنى : أن التكذيب منهم وقع قبل الإحاطة بعلمه ، وقبل أن يعرفوا ما يؤول إليه من صدق ما اشتمل عليه من حكاية ما سلف من أخبار الرسل المتقدمين والأمم السابقين ، ومن حكايات ما سيحدث من الأمور المستقبلة التى أخبر عنها قبل كونها ، أو قبل أن يفهموه حق الفهم وتتعقله عقولهم ، فإنهم لو تدبروه كلية التدبر لفهموه كما ينبغى ، وعرفوا ما اشتمل عليه من الأمور الدالة أبلغ دلالة على أنه كلام الله، وعلى هذا فمعنى تأويله ما يؤول إليه لمن تدبره من المعانى الرشيقة واللطائف الأنيقة ، وكلمة التوقع أظهر فى المعنى الأول . ﴿ **كذلك كذب الذين من قبلهم** ﴾ أى مثل ذلك التكذيب كذب الذين من قبلهم من الأمم عند أن جاءتهم الرسل بحجج الله وبراهينه . فإنهم كذبوا به قبل أن يحيطوا بعلمه ، وقبل أن يأتيهم تأويله . ﴿**فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾ من الأمم السالفة من سوء العاقبة بالخسف والمسخ ونحو ذلك من العقوبات التى حلت بهم كما حكى ذلك القرآن عنهم ، واشتملت عليه كتب الله المنزلة عليهم .

قوله : ﴿ **ومنهم من يؤمن به** ﴾ أى ومن هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن من يؤمن به فى نفسه ويعلم أنه صدق وحق ، ولكنه كذب به مكابرة وعنادا : وقيل : المراد : ومنهم من يؤمن به فى المستقبل وإن كذب به فى الحال ، والموصول مبتدأ ، وخبره منهم ﴿ **ومنهم من لا يؤمن به** ﴾ ولا يصدقه فى نفسه ، بل كذب به جهلا كما مر تحقيقه ، أو لا يؤمن به فى المستقبل ، بل يبقى على جحوده وإصراره . وقيل : الضمير في الموضعين للنبى ﷺ . وقد قيل : إن هذا التقسيم خاص بأهل مكة ، وقيل : عام فى جميع الكفار ﴿ **وربك أعلم بالمفسدين** ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ، والمراد بهم : المصرون المعاندون ، أو بكلا الطائفتين ، وهم الذين يؤمنون به فى أنفسهم ويكذبون به فى الظاهر ، والذين يكذبون به جهلا ، أو الذين يؤمنون به فى المستقبل ، والذين لا يؤمنون به . ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يقول لهم إن أصروا على تكذيبه واستمروا عليه : ﴿ **لى عملى ولكم عملكم** ﴾ أى لى جزاء عملى ولكم جزاء عملكم فقد أبلغت إليكم ما أمرت بإبلاغه ، وليس على غير ذلك ، ثم أكد هذا بقوله : ﴿ **أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون** ﴾ أى لا تؤاخذون بعملى ، ولا أؤاخذ بعملكم . وقد قيل : إن هذا منسوخ بآية السيف كما ذهب إليه جماعة من المفسرين .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كذلك حقت كلمة ربك** ﴾ يقول : سبقت كلمة ربك . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : صدقت : وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أم من لا يهدى إلا أن يهدى** ﴾ قال : الأوثان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **وإن كذبوك فقل لى عملى** ﴾ الآية ، قال : أمره بهذا ثم نسخه فأمره بجهادهم .

﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩)** ﴾ .

قوله : ﴿ **ومنهم من يستمعون** ﴾ إلخ بين اللّه سبحانه فى هذا أن فى أولئك الكفار من بلغت حاله فى النفرة والعداوة إلى هذا الحد ، وهى أنهم يستمعون إلى النبىّ ﷺ إذا قرأ القرآن وعلم الشرائع فى الظاهر ، ولكنهم لا يسمعون فى الحقيقة لعدم حصول أثر السماع ، وهو حصول القبول والعمل بما يسمعونه ولهذا قال : ﴿ **أفأنت تسمع الصمّ** ﴾ يعنى : أن هؤلاء إن استمعوا فى الظاهر فهم صمّ ، والصمم مانع من سماعهم ، فكيف تطمع منهم بذلك مع حصول المانع ، وهو الصمم ، فكيف إذا انضمّ إلى ذلك أنهم لا يعقلون ، فإن من كان أصمّ غير عاقل لايفهم شيئا ولا يسمع ما يقال له . وجمع الضمير فى ﴿**يستمعون** ﴾ حملا على معنى من ، وأفرده فى ﴿ **ومنهم من ينظر** ﴾ حملا على لفظه . قيل : والنكتة : كثرة المستمعين بالنسبة إلى الناشرين ؛ لأن الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحائل وانفصال الشعاع ، والنور الموافق لنور البصر ، والتقدير فى قوله :﴿ **ومنهم من يستمعون** ﴾،﴿ **ومنهم من ينظر** ﴾ : ومنهم ناس يستمعون ، ومنهم بعض ينظر ، والهمزتان فى ﴿**أفأنت تسمع** ﴾ ﴿ **أفأنت تهدى** ﴾ للإنكار والفاء فى الموضعين للعطف على مقدر ، كأنه قيل : أيستمعون إليك فأنت تسمعهم ؟ أينظرون إليك فأنت تهديهم ؟ والكلام فى : ﴿ **ومنهم**

**من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون** ﴾ كالكلام فى ﴿ **ومنهم من يستمعون**﴾ إلخ ؛ لأن العمى مانع فكيف يطمع من صاحبه فى النظر . وقد انضمّ إلى فقد البصر فقد البصيرة ؛ لأن الأعمى الذى له فى قلبه بصيرة قد يكون له من الحدس الصحيح مايفهم به فى بعض الأحوال فهما يقوم مقام النظر ، وكذلك الأصمّ العاقل قد يتحدّس تحدّسا يفيده بعض فائدة ، بخلاف من جمع له بين عمى البصر والبصيرة فقد تعذر عليه الإدراك . وكذا من جمع له بين الصمم وذهاب العقل فقد انسدّ عليه باب الهدى ، وجواب « لو » فى الموضعين محذوف دلّ عليهما ماقبلهما ، والمقصود من هذا الكلام تسلية رسول اللّه ﷺ ، فإن الطبيب إذا رأى مريضا لا يقبل العلاج أصلا أعرض عنه واستراح من الاشتغال به .

قوله : ﴿ **إن اللّه لا يظلم الناس شيئا ولكنّ الناس أنفسهم يظلمون** ﴾ ذكر هذا عقب ما تقدّم من عدم الاهتداء بالأسماع والأبصار لبيان أن ذلك لم يكن لأجل نقص فيما خلقه اللّه لهم من السمع والعقل والبصر والبصيرة ، بل لأجل ما صار فى طبائعهم من التعصب والمكابرة للحق ، والمجادلة بالباطل ، والإصرار على الكفر ، فهم الذين ظلموا أنفسهم بذلك ، ولم يظلمهم اللّه شيئا من الأشياء ، بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به أكمل إدراك ، وركب فيهم من الحواس مايصلون به إلى ما يريدون ، ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم ، وخلى بينهم وبين مصالحهم الدينية ، فعلى نفسها براقش تجنى . وقرأ حمزة والكسائى : « ولكن الناس » بتخفيف النون ورفع الناس ، وقرأ الباقون بتشديدها ونصب الناس . قال النحاس : زعم جماعة من النحويين منهم الفراء ، أن العرب إذا قالت : « ولكن » بالواو شدّدوا النون ، وإذا حذفوا الواو خففوها . وقيل : والنكتة فى وضع الظاهر موضع المضمر زيادة التعيين والتقرير ، وتقديم المفعول على الفعل لإفادة القصر ، أو لمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة.

قوله : ﴿ **ويوم نحشرهم** ﴾ الظرف منصوب بمضمر ، أى واذكر يوم نحشرهم ﴿ **كأن لم يلبثوا** ﴾ أى كأنهم لم يلبثوا ، والجملة فى محلّ نصب على الحال ، أى مشبهين من لم يلبث ﴿ **إلا ساعة من النهار** ﴾ أى شيئا قليلا منه ، والمراد باللبث : هو اللبث فى الدنيا ، وقيل : فى القبور ، واستقلوا المدّة الطويلة إما لأنهم ضيعوا أعمارهم فى الدنيا ، فجعلوا وجودها كالعدم، أو استقصروها للدهش والحيرة ، أو لطول وقوفهم فى المحشر ، أو لشدّة ما هم فيه من العذاب نسوا لذات الدنيا وكأنها لم تكن ، ومثل هذا قولهم : ﴿ لبثنا يوما أو بعض يوم﴾ [ المؤمنون : ١١٣ ] . وجملة : ﴿ **يتعارفون بينهم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة . والمعنى: يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلا، وذلك عند خروجهم من القبور ، ثم تنقطع التعاريف بينهم لما بين أيديهم من الأمور المدهشة للعقول المذهلة للأفهام . وقيل : إن هذا التعارف هو تعارف التوبيخ والتقريع ، يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتنى وأغويتنى لا تعارف شفقة ورأفة كما قال تعالى : ﴿ ولا يسأل حميم حميما ﴾ [المعارج : ١٠ ] وقوله : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ [ المؤمنون : ١٠١ ]

فيجمع بأن المراد بالتعارف ؛ هو تعارف التوبيخ وعليه يحمل قوله : ﴿ ولوترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ [ سبأ : ٣١ ] ، وقد جمع بين الآيات المختلفة فى مثل هذا وغيره بأن المواقف يوم القيامة مختلفة فقد يكون فى بعض المواقف ما لا يكون فى الآخر﴿ **قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين**﴾ هذا تسجيل من الله سبحانه عليهم بالخسران ، والجملة فى محل النصب على الحال ، والمراد بلقاء الله يوم القيامة عند الحساب والجزاء ، ونفى عنهم أن يكونوا من جنس المهتدين لجهلهم وعدم طلبهم لما ينجيهم وينفعهم .

قوله : ﴿ **وإما نرينك بعض الذى نعدهم** ﴾ أصله إن نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط وزيدت نون التأكيد ، والمعنى إن حصلت منا الإراءة لك بعض الذى وعدناهم من إظهار دينك فى حياتك. بقتلهم وأسرهم ، وجواب الشرط محذوف ، والتقدير فتراه ، أو فذاك ، وجملة ﴿ **أو نتوفينك** ﴾ معطوفة على ما قبلها ، والمعنى : أو لا نرينك ذلك فى حياتك بل نتوفينك قبل ذلك ﴿ **فإلينا مرجعهم** ﴾ فعند ذلك نعذبهم فى الآخرة فنريك عذابهم فيها ، وجواب ﴿ **أو نتوفينك** ﴾ محذوف أيضا ، والتقدير : أو نتوفينك قبل الإراءة فنحن نريك ذلك فى الآخرة ؛ وقيل : إن جواب ﴿ **أو نتوفينك** ﴾ هو قوله : ﴿ **فإلينا مرجعهم** ﴾ لدلالته على ماهو المراد من إراءة النبى ﷺ تعذيبهم فى الآخرة ، وقيل : العدول إلى صيغة المستقبل فى الموضعين لاستحضار الصورة ، والأصل أريناك أو توفيناك ، وفيه نظر ، فإن إراءته ﷺ لبعض ما وعد الله المشركين من العذاب لم تكن قد وقعت كالوفاة . وحاصل معنى هذه الآية : إن لم ننتقم منهم عاجلا انتقمنا منهم آجلا . وقد أراه الله سبحانه قتلهم وأسرهم وذلهم وذهاب عزّهم وانكسار سورة كبرهم بما أصابهم به فى يوم بدر وما بعده من المواطن ، فلله الحمد .

قوله : ﴿ **ثم الله شهيد على مايفعلون** ﴾ جاء بثم الدالة على التبعيد مع كون الله سبحانه شهيدا على ما يفعلونه فى الدارين للدلالة على أن المراد بهذه الأفعال ما يترتب عليها من الجزاء أو ما يحصل من إنطاق الجوارح بالشهادة عليهم يوم القيامة ، فجعل ذلك بمنزلة شهادة الله عليهم كما ذكره النيسابورى ﴿ **ولكل أمة** ﴾ من الأمم الخالية فى وقت من الأوقات ﴿ **رسول** ﴾ يرسله الله إليهم ، ويبين لهم ما شرعه الله لهم من الأحكام على حسب ماتقتضيه المصلحة ﴿**فإذا جاء رسولهم** ﴾ إليهم وبلغهم ما أرسله الله به فكذبوه جميعا ﴿ **قضى بينهم** ﴾ أى بين الأمة ورسولها ﴿ **بالقسط** ﴾ أى العدل فنجا الرسول وهلك المكذبون له كما قال سبحانه : ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ [ الإسراء : ١٥ ] . ويجوز أن يراد بالضمير فى ﴿ **بينهم** ﴾ الأمة على تقدير أنه كذبه بعضهم.وصدقه البعض الآخر ، فيهلك المكذبون وينجو المصدقون ﴿**وهم لا يظلمون** ﴾ فى ذلك القضاء فلا يعذبون بغير ذنب ، ولا يؤاخذون بغير حجة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم ﴾ [ الزمر : ٦٩ ] ، وقوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ [النساء : ٤١ ] . والمراد المبالغة فى إظهار العدل والنصفة بين

العباد ، ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبه الكفار ، وذلك أن النبى ﷺ كان كلما هددهم بنزول العذاب كانوا ﴿ **يقولون متى هذا الوعد** ﴾ والاستفهام منهم للإنكار والاستبعاد وللقدح فى النبوّة ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ خطابا منهم للنبىّ ﷺ وللمؤمنين ، وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه ما قبله ، ويحتمل أن يراد بالقائلين هذه المقالة جميع الأمم الذين لم يسلموا لرسلهم الذين أرسلهم اللّه إليهم .

ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يجيب عليهم بما يحسم مادّة الشبهة ويقطع اللجاج فقال : ﴿**قل لا أملك لنفسى ضرًا ولا نفعا** ﴾ أى لا أقدر على جلب نفع لها ولا دفع ضرّ عنها ، فكيف أقدر على أن أملك ذلك لغيرى، وقدّم الضرّ، لأن السياق لإظهار العجز عن حضور الوعد الذى استعجلوه واستبعدوه، والاستثناء فى قوله: ﴿**إلا ما شاء اللّه** ﴾ منقطع كما ذكره أئمة التفسير ، أى ولكن ما شاء اللّه من ذلك كان ، فكيف أقدر على أن أملك لنفسى ضرا أو نفعا ، وفى هذه أعظم واعظ وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيراه المناداة لرسول اللّه ﷺ والاستغاثة به عند نزول النوازل التى لا يقدر على دفعها إلا اللّه سبحانه ، وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ ما لايقدر على تحصيله إلا اللّه سبحانه ، فإن هذا مقام ربّ العالمين الذى خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين ورزقهم وأحياهم ويميتهم فكيف يطلب من نبىّ من الأنبياء أو ملك من الملائكة أو صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ويترك الطلب لربّ الأرباب القادر على كل شيء الخالق الرازق المعطى المانع ؟ وحسبك بما فى هذه الآية موعظة ، فإن هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره اللّه بأن يقول لعباده : لا أملك لنفسى ضرًا ولا نفعا ، فكيف يملكه لغيره ، وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته ، ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته لنفسه ، فضلا عن أن يملكه لغيره ، فياعجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى ، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا اللّه عزّ وجلّ ؟ كيف لايتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك ولا يتنبهون لما حلّ بهم من المخالفة لمعنى لا إله إلا اللّه ، ومدلول ﴿قل هو اللّه أحد ﴾ [ الإخلاص : ١ ] ؟ وأعجب من هذا اطلاع أهل العلم على مايقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى ، بل إلى ما هو أشدّ منها فإن أولئك يعترفون بأن اللّه سبحانه هو الخالق الرازق المحيى المميت الضارّ النافع ، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند اللّه ومقرّبين لهم إليه ، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضرّ والنفع ، وينادونهم تارة على الاستقلال ، وتارة مع ذى الجلال ، وكفاك من شرّ سماعه واللّه ناصر دينه ومطهر شريعته من أوضار الشرك وأدناس الكفر ، ولقد توسل الشيطان أخزاه اللّه بهذه الذريعة إلى ما تقرّ به عينه وينثلج به صدره من كفر كثير من هذه الأمة المباركة ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ [ الكهف : ١٠٤ ] إنا للّه وإنا إليه راجعون .

ثم بين سبحانه أن لكل طائفة حدّا محدودا لا يتجاوزونه فلا وجه لاستعجال العذاب فقال: ﴿ **لكل أمة أجل**﴾ فإذا جاء ذلك الوقت أنجز وعده وجازى كلا بما يستحقه ، والمعنى : أن لكل

أمة ممن قضى بينهم وبين رسولهم ، أو بين بعضهم البعض أجلا معينا ووقتا خاصا يحلّ بهم مايريده اللّه سبحانه لهم عند حلوله ﴿ **إذا جاء أجلهم** ﴾ أى ذلك الوقت المعين ، والضمير راجع إلى كل أمة ﴿ **فلا يستأخرون** ﴾ عن ذلك الأجل المعين ﴿**ساعة** ﴾ أى شيئا قليلا من الزمان ﴿ **ولا يستقدمون** ﴾ عليه ، وجملة : ﴿ **لا يستقدمون** ﴾ معطوفة على جملة ﴿**لا يستأخرون** ﴾ ، ومثله قوله تعالى : ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ [ الحجر : ٥]. والكلام على هذه الآية المذكورة هنا قد تقدّم فى تفسير الآية التى فى أوّل الأعراف فلا نعيده.

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله: ﴿ **يتعارفون بينهم** ﴾ قال : يعرف الرجل صاحبه إلى جنبه لا يستطيع أن يكلمه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإما نرينك**﴾ الآية ، قال : سوء العذاب فى حياتك ﴿ **أو نتوفينك** ﴾ قبل ﴿ **فإلينا مرجعهم** ﴾ وفى قوله : ﴿ **ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم** ﴾ قال : يوم القيامة .

**﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾** .

قوله : ﴿ **قل أرأيتم إن أتاكم عذابه** ﴾ هذا منه سبحانه تزييف لرأى الكفار فى استعجال العذاب بعد التزييف الأوّل ، أى أخبرونى إن أتاكم عذاب اللّه ﴿ **بياتا** ﴾ أى وقت بيات . والمراد به : الوقت الذى يبيتون فيه وينامون ويغفلون عن التحرز ، والبيات بمعنى التبييت اسم مصدر كالسلام بمعنى التسليم ، وهو منتصب على الظرفية . وكذلك نهارا ، أى وقت الاشتغال بطلب المعاش والكسب ، والضمير فى ﴿ **منه** ﴾ راجع إلى العذاب ، وقيل : راجع إلى اللّه ، والاستفهام فى : ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ للإنكار المتضمن للنهى كما فى قوله :﴿ أتى أمر اللّه فلا تستعجلوه ﴾ [ النحل : ١ ] ووجه الإنكار عليهم فى استعجالهم أن العذاب مكروه تنفر منه القلوب وتأباه الطبائع فما المقتضى لاستعجالهم له ؟ والجملة المصدرة بالاستفهام جواب

الشرط بحذف الفاء . وقيل : إن الجواب محذوف ، والمعنى : تندموا على الاستعجال ، أو تعرفوا الخطأ منكم فيه . وقيل : إن الجواب قوله : ﴿ أثم إذا ماوقع ﴾ وتكون جملة : ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ اعتراضا ، والمعنى : إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان . والأوّل أولى ، وإنما قال : ﴿ يستعجل منه المجرمون ﴾ ولم يقل يستعجلون منه للدلالة على ما يوجب ترك الاستعجال ، وهو الإجرام ؛ لأن من حقّ المجرم أن يخاف من العذاب بسبب إجرامه ، فكيف يستعجله ؟ كما يقال لمن يستوخم أمرا إذا طلبه : ماذا تجنى على نفسك . وحكى النحاس عن الزجاج أن الضمير فى ﴿ منه ﴾ إن عاد إلى العذاب كان لك فى ﴿ماذا ﴾ تقديران : أحدهما : أن تكون « ما » فى موضع رفع بالابتداء ، و« ذا » بمعنى الذى، وهو خبر ما ، والعائد محذوف ، والتقدير الآخر : أن يكون ﴿ ماذا ﴾ اسما واحدا فى موضع رفع بالابتداء ، والخبر ما بعده ، وإن جعل الضمير فى﴿ منه ﴾ عائدا إلى اللّه تعالى كان ﴿ماذا﴾ شيئا واحدًا فى موضع نصب بـ﴿ يستعجل ﴾. والمعنى : أىّ شىء يستعجل منه المجرمون ، أى من اللّه عزّ وجلّ .

ودخول الهمزة الاستفهامية فى : ﴿ أثم إذا ما وقع آمنتم به ﴾ على ثم كدخولها على الواو والفاء ، وهى لإنكار إيمانهم حيث لا ينفع الإيمان وذلك بعد نزول العذاب ، وهو يتضمن معنى التهويل عليهم وتفظيع ما فعلوه فى غير وقته مع تركهم له فى وقته الذى يحصل به النفع والدفع ، وهذه الجملة داخلة تحت القول المأمور به . وجىء بكلمة « ثم » التى للتراخى دلالة على الاستبعاد ، وجىء بـ﴿ إذا ﴾ مع زيادة ما للتأكيد دلالة على تحقق وقوع الإيمان منهم فى غير وقته ليكون فى ذلك زيادة استجهال لهم ، والمعنى : أبعد ما وقع عذاب اللّه عليكم . وحلّ بكم سخطه وانتقامه آمنتم حين لا ينفعكم هذا الإيمان شيئا ، ولا يدفع عنكم ضرًا . وقيل: إن هذه الجملة ليست داخلة تحت القول المأمور به ، وأنها من قول الملائكة استهزاء بهم، وإزراء عليهم والأول أولى . وقيل إن ثم هاهنا هى بفتح الثاء فتكون ظرفية بمعنى هناك والأوّل أولى .

قوله : ﴿آلآن وقد كنتم به تستعجلون ﴾ قيل : هو استئناف بتقدير القول غير داخل تحت القول الذى أمر اللّه رسوله ﷺ أن يقوله لهم ، أى قيل ، لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب : آلآن آمنتم به وقد كنتم به تستعجلون ، أى بالعذاب تكذيبا منكم واستهزاء ؛ لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والاستهزاء ، ويكون المقصود بأمره ﷺ أن يقول لهم هذا القول التوبيخ لهم والاستهزاء بهم والإزراء عليهم ، وجملة : ﴿ وقد كنتم به تستعجلون﴾ فى محل نصب على الحال ، وقرئ : « آلان » بحذف الهمزة التى بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام.

قوله : ﴿ ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ﴾ معطوف على الفعل المقدّر ، قيل : آلآن ، والمراد منه: التقريع والتوبيخ لهم ، أى قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر وعدم الإيمان : إن هذا الذى تطلبونه ضرر محض ، عار عن النفع من كل وجه ، والعاقل لا يطلب ذلك ،

ويقال لهم على سبيل الإهانة لهم : ذوقوا عذاب الخلد ، أى العذاب الدائم الذى لا ينقطع ، والقائل لهم هذه المقالة والتى قبلها قيل : هم الملائكة الذين هم خزنة جهنم ، ولا يبعد أن يكون القائل لذلك هم الأنبياء على الخصوص ، أو المؤمنون على العموم ﴿ **هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون** ﴾ فى الحياة من الكفر والمعاصى . والاستفهام للتقرير ، وكأنه يقال لهم هذا القول عن استغاثتهم من العذاب وحلول النقمة .

ثم حكى اللّه سبحانه عنهم بعد هذه البيانات البالغة ، والجوابات عن أقوالهم الباطلة : أنهم استفهموا تارة أخرى عن تحقق العذاب ، فقال : ﴿ **ويستنبئونك أحق هو** ﴾ أى يستخبرونك عن جهة الاستهزاء منهم والإنكار أحق ما تعدنا به من العذاب فى العاجل والآجل، وهذا السؤال منهم جهل محض . وظلمات بعضها فوق بعض ، فقد تقدّم ذكره عنهم مع الجواب عليه ، فصنيعهم فى هذا التكرير صنيع من لا يعقل ما يقول ولا يقال له . وقيل : المراد بهذا الاستخبار منهم هو عن حقية القرآن ، وارتفاع حق على أنه خبر مقدّم . والمبتدأ هو الضمير الذى بعده، وتقديم الخبر للاهتمام ، أو هو مبتدأ ، والضمير مرتفع به سادّ مسدّ الخبر، والجملة فى موضع نصب بـ ﴿**يستنبئونك**﴾ ، وقرئ « آلحق هو » على أن اللام للجنس ، فكأنه قيل أهو الحق لا الباطل .

قوله : ﴿ **قل إى وربى إنه لحق** ﴾ أمر اللّه سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة جوابا عن استفهامهم الخارج مخرج الاستهزاء ، أى قل لهم يا محمد غير ملتفت إلى ما هو مقصودهم من الاستهزاء : إى وربى إنه لحق ، أى نعم وربى إن ما أعدكم به من العذاب لحق ثابت كائن لا محالة . وفى هذا الجواب تأكيد من وجوه : الأوّل : القسم مع دخول الحرف الخاص بالقسم الواقع موقع نعم ؛ الثانى : دخول إن المؤكدة ؛ الثالث : اللام فى لحق ؛ الرابع: إسمية الجملة ، وذلك يدلّ على أنهم قد بلغوا فى الإنكار والتمرّد إلى الغاية التى ليس وراءها غاية ، ثم توعدهم بأشدّ توعد ، ورهبهم بأعظم ترهيب ، فقال : ﴿ **وما أنتم بمعجزين**﴾ أى فائتين العذاب بالهرب والتحيل الذى لا ينفع والمكابرة التى لا تدفع من قضاء اللّه شيئا ، وهذه الجملة إما معطوفة على جملة جواب القسم ، أو مستأنفة لبيان عدم خلوصهم من عذاب اللّه بوجه من الوجوه .

ثم زاد فى التأكيد ، فقال : ﴿ **ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به** ﴾ أى ولو أن لكل نفس من الأنفس المتصفة بأنها ظلمت نفسها بالكفر باللّه وعدم الإيمان به ما فى الأرض من كل شىء من الأشياء التى تشتمل عليها من الأموال النفيسة والذخائر الفائقة لافتدت به : أى جعلته فدية لها من العذاب ، ومثله قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا ولو افتدى به ﴾ [ آل عمران : ٩١ ] . وقد تقدم قوله : ﴿ **وأسروا الندامة لما رأوا العذاب** ﴾ الضمير راجع إلى الكفارالذين سياق الكلام معهم . وقيل : راجع إلى الأنفس المدلول عليها بكل نفس . ومعنى ﴿ **أسروا** ﴾ : أخفوا ، أى لم يظهروا

الندامة بل أخفوها لما قد شاهدوه فى ذلك الموطن مما سلب عقولهم ، وذهب بتجلدهم ، ويمكن أنه بقى فيهم وهم على تلك الحالة عرق ينزعهم إلى العصبية التى كانوا عليها فى الدنيا ، فأسرّوا الندامة لئلا يشمت بهم المؤمنون ، وقيل : أسرّها الرؤساء فيما بينهم دون أتباعهم خوفا من توبيخهم لهم لكونهم هم الذين أضلوهم وحالوا بينهم وبين الإسلام ، ووقوع هذا منهم كان عند رؤية العذاب ، وأما بعد الدخول فيه فهم الذين ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا ﴾ [المؤمنون : ١٠٦ ] . وقيل : معنى ﴿ **أسروا** ﴾ : أظهروا . وقيل : وجدوا ألم الحسرة فى قلوبهم ؛ لأن الندامة لا يمكن إظهارها ، ومنه قول كثير :

فأسررت الندامة يوم نادى  بردّ جمال عاضرة المنادى

وذكر المبرد فى ذلك وجهين : الأوّل : أنها بدت فى وجوههم أسرة الندامة ، وهى الانكسار ، واحدها سرار، وجمعها أسارير ، والثانى : ما تقدّم . وقيل : معنى ﴿ **أسرّوا الندامة** ﴾ : أخلصوها ؛ لأن إخفاءها إخلاصها ، و ﴿ **لما** ﴾ فى قوله : ﴿ **لما رأوا العذاب** ﴾ ظرف بمعنى حين منصوب بأسرّوا ، أو حرف شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿**وقضى بينهم بالقسط**﴾ أى قضى اللّه بين المؤمنين وبين الكافرين أو بين الرؤساء والأتباع، أو بين الظالمين من الكفار والمظلومين . وقيل: معنى القضاء بينهم : إنزال العقوبة عليهم ، والقسط : العدل ، وجملة : ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى لا يظلمهم اللّه فيما فعله بهم من العذاب الذى حلّ بهم فإنه بسبب ما كسبوا .

وجملة : ﴿ **ألا إن للّه ما فى السموات والأرض** ﴾ مسوقة لتقرير كمال قدرته ؛ لأن من ملك ما فى السموات والأرض تصرف به كيف يشاء ، وغلب غير العقلاء لكونهم أكثر المخلوقات ، قيل : لما ذكر سبحانه افتداء الكفار بما فى الأرض لو كان لهم ذلك بين أن الأشياء كلها للّه ، وليس لهم شىء يتمكنون من الافتداء به . وقيل : لما أقسم على حقية ما جاء به النبى ﷺ أراد أن يصحب ذلك بدليل البرهان البين بأن ما فى العالم على اختلاف أنواعه ملكه يتصرّف به كيف يشاء ، وفى تصدير الجملة بحرف التنبيه تنبيه للغافلين ، وإيقاظ للذاهلين ، ثم أكد ما سبق بقوله : ﴿ **ألا إن وعد اللّه حق**﴾ أى كائن لا محالة ، وهو عام يندرج فيه ما استعجلوه من العذاب اندراجا أوّليا ، وتصدير الجملة بحرف التنبيه كما قلنا فى التى قبلها مع الدلالة على تحقق مضمون الجملتين ﴿**ولكن أكثر الناس** ﴾ أى الكفار ﴿ **لا يعلمون** ﴾ ما فيه صلاحهم فيعملون به ، وما فيه فسادهم فيجتنبونه ﴿ **هويحيى ويميت** ﴾ يهب الحياة ويسلبها ﴿**وإليه ترجعون** ﴾ فى الدار الآخرة فيجازى كلا بما يستحقه ، ويتفضل على من يشاء من عباده .

قوله : ﴿ **يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم** ﴾ يعنى القرآن فيه ما يتعظ به من قرأه وعرف معناه ، والوعظ فى الأصل : هو التذكير بالعواقب سواء كان بالترغيب أو الترهيب ،

والواعظ هو كالطبيب ينهى المريض عما يضرّه ، و« مِنْ » فى ﴿ **من ربكم** ﴾ متعلقة بالفعل ، وهو ﴿ **جاءتكم** ﴾ ، فتكون ابتدائية ، أو متعلقة بمحذوف ، فتكون تبعيضية ﴿ **وشفاء لما فى الصدور**﴾ من الشكوك التى تعترى بعض المرتابين لوجود ما يستفاد منه فيه من العقائد الحقة ، واشتماله على تزييف العقائد الباطلة ، والهدى : الإرشاد لمن اتبع القرآن وتفكر فيه وتدبرمعانيه إلى الموصلة إلى الجنة ، والرحمة : هى ما يوجد فى الكتاب العزيز من الأموال التى يرحم اللّه بها عباده، فيطلبها من أراد ذلك حتى ينالها ، فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الأمور .

ثم أمر رسول اللّه ﷺ وجعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم . فقال : ﴿ **قل بفضل اللّه وبرحمته فبذلك فليفرحوا** ﴾ المراد بالفضل من اللّه سبحانه : هو تفضله على عباده فى الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر ، والرحمة : رحمته لهم . وروى عن ابن عباس أنه قال : فضل اللّه : القرآن . ورحمته : الإسلام ، وروى عن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة أن فضل اللّه : الإيمان . ورحمته : القرآن : والأولى حمل الفضل والرحمة على العموم ، ويدخل فى ذلك ما فى القرآن منهما دخولا أوّليّاء ، وأصل الكلام : قل بفضل اللّه وبرحمته فليفرحوا ، ثم حذف هذا الفعل لدلالة الثانى فى قوله : ﴿ **فبذلك فليفرحوا** ﴾ عليه ، قيل : والفاء فى هذا الفعل المحذوف داخلة فى جواب شرط مقدّر كأنه قيل : إن فرحوا بشىء فليخصوا فضل اللّه ورحمته بالفرح . وتكرير الباء فى برحمته للدلالة على أن كل واحد من الفضل والرحمة سبب مستقلّ فى الفرح ، والفرح : هو اللذة فى القلب بسبب إدراك المطلوب ، وقد ذمّ اللّه سبحانه الفرح فى مواطن كقوله : ﴿ لا تفرح إن اللّه لا يحب الفرحين ﴾ [ القصص : ٧٦] . وجوّزه فى قوله: ﴿ فرحين بما آتاهم اللّه من فضله ﴾ [ آل عمران : ١٧٠] . وكما فى هذه الآية ، ويجوز أن تتعلق الباء فى : ﴿ **بفضل اللّه وبرحمته** ﴾ بقوله : ﴿ **جاءتكم** ﴾ ، والتقدير : جاءتكم موعظة بفضل اللّه وبرحمته فبذلك ، أى فبمجيئها فليفرحوا ، وقرأ يزيد ابن القعقاع ويعقوب : « فلتفرحوا » بالفوقية ، وقرأ الجمهور بالتحتية ، والضمير فى ﴿ **هو خير**﴾ راجع إلى المذكور من الفضل والرحمة ، أو إلى المجىء على الوجه الثانى ، أو إلى اسم الإشارة فى قوله : ﴿ **فبذلك** ﴾ والمعنى : أن هذا خير لهم مما يجمعون من حطام الدنيا . وقد قرئ بالتاء الفوقية فى ﴿ **يجمعون** ﴾ مطابقة للقراءة بها فى ﴿ **فلتفرحوا** ﴾ . وقد تقرّر فى العربية أن لام الأمر تحذف مع الخطاب إلا فى لغة قليلة جاءت هذه القراءة عليها ، وقرأ الجمهور بالمثناة التحتية فى يجمعون كما قرؤوا فى :﴿ **فليفرحوا** ﴾ وروى عن ابن عامر أنه قرأ بالفوقية فى :« يجمعون »والتحتية فى « فلتفرحوا » .

قد أخرج الطبرانى وأبو الشيخ عن أبى الأحوص قال : جاء رجل إلى عبد اللّه بن مسعود فقال : إن أخى يشتكى بطنه ، فوصف له الخمر ، فقال : سبحان اللّه ! ما جعل اللّه فى رجس شفاء، إنما الشفاء فى شىء من القرآن والعسل، فهما شفاء لما فى الصدور وشفاء للناس. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : إن اللّه جعل القرآن شفاء لما فى الصدور ، ولم يجعله

شفاء لأمراضكم . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إنى أشتكى صدرى ، فقال : « اقرأ القرآن ، يقول الله : شفاء لما فى الصدور ». وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن واثلة بن الأسقع . أن رجلا شكا إلى النبىّ ﷺ وجع حلقه قال : « عليك بقراءة القرآن والعسل ، فالقرآن شفاء لما فى الصدور ، والعسل شفاء من كل داء» (١) .

وأخرج أبو داود ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبىّ قال : أقرأنى رسول الله ﷺ بالتاء يعنى الفوقية(٢) ، وقد روى نحو هذا من غير هذه الطريق . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته** ﴾ قال :« بفضل الله : القرآن ، وبرحمته : أن جعلكم من أهله» . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن البراء مثله من قوله . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الشعب عن أبى سعيد الخدرى مثله (٣) . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس فى الآية قال : بكتاب الله وبالإسلام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عنه قال : فضله : الإسلام ، ورحمته : القرآن . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عنه أيضا قال : بفضل الله : القرآن، وبرحمته : حين جعلهم من أهله (٤) . وقد روى عن جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدّمة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس هو خير مما يجمعون من الأموال والحرث والأنعام .

**﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٦٠) وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) ﴾** .

---

(١)البيهقى فى الشعب ( ٢٣٤٤ ) .

(٢) أبو داود فى الحروف والقراءات ( ٣٩٨٠) ( ٣٩٨١) وصححه الحاكم ٢/ ٢٣٣ ووافقه الذهبى .

(٣) ابن أبى شيبة فى فضائل القرآن (١٠١١٥ ) وابن جرير ١١/ ٨٧ والبيهقى فى الشعب ( ٢٣٦٠ ) وإسناده ليس بالقوى.

(٤) ابن أبى شيبة فى فضائل القرآن ( ١٠١١٧ ) .

أشار سبحانه بقوله : ﴿ **قل أرأيتم ما أنزل اللّه** ﴾ إلخ إلى طريق أخرى غير ما تقدّم فى إثبات النبوّة ، وتقرير ذلك ما حاصله أنكم تحكمون بتحليل البعض وتحريم البعض ، فإن كان بمجرد التشهى والهوى فهو مهجور باتفاق العقلاء مسلمهم وكافرهم ، وإن كان لاعتقادكم أنه حكم اللّه فيكم وفيما رزقكم فلا تعرفون ذلك إلا بطريق موصلة إلى اللّه ، ولا طريق يتبين بها الحلال من الحرام إلا من جهة الرسل الذين أرسلهم اللّه إلى عباده ، ومعنى ﴿ **أرأيتم** ﴾ : أخبرونى ، و﴿ **ما** ﴾ فى محل نصب بأرأيتم المتضمن لمعنى أخبرونى ، وقيل : إن ﴿ **ما** ﴾ فى محل الرفع بالابتداء وخبرها ﴿ **آللّه أذن لكم** ﴾ و﴿ **قل** ﴾ فى قوله : ﴿**قل آللّه أذن لكم** ﴾ تكريرللتأكيد والرابط محذوف ، ومجموع المبتدأ والخبر فى محل نصب بـ﴿ **أرأيتم**﴾، والمعنى : أخبرونى الذى أنزل اللّه إليكم من زرق فجعلتم منه حراما وحلالا ، اللّه أذن لكم فى تحليله وتحريمه ﴿ **أم على اللّه تفترون** ﴾ وعلى الوجهين ، فمن فى ﴿ **منه حراما** ﴾ للتبعيض ، والتقدير : فجعلتم بعضه حراما وجعلتم بعضه حلالا وذلك كما كانوا يفعلونه فى الأنعام حسبما سبق حكاية ذلك عنهم فى الكتاب العزيز ؛ ومعنى إنزال الرزق : كون المطر ينزل من جهة العلوّ ، وكذلك يقضى الأمر فى أرزاق العباد فى السماء على ما قد ثبت فى اللوح المحفوظ من ذكره سبحانه وتعالى لكل شىء فيــه . وروى عـن الزجـاج أن ﴿ **مـا** ﴾ فـى موضـع نصب بـ﴿ **أنزل**﴾ ، وأنزل بمعنى خلق كما قال : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [ الزمر : ٦ ] . ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ [ الحديد : ٢٥ ] . وعلى هذا القول والقول الأوّل يكون قوله : ﴿ **قل آللّه أذن لكم** ﴾ مستأنفا : قيل : ويجوز أن تكون الهمزة فى ﴿ **آللّه أذن لكم** ﴾ للإنكار ، وأم منقطعة بمعنى : بل أتفترون على اللّه ، وإظهار الاسم الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال الافتراء .

وفى هذه الآية الشريفة مايصكّ مسامع المتصدرين للإفتاء لعباد اللّه فى شريعته ، بالتحليل والتحريم والجواز وعدمه ، مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج اللّه ، ولا يفهمونها ولا يدرون ماهى ، ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قلدوه فى دينهم ، وجعلوه شارعا مستقلا ، ماعمل به من الكتاب والسنة فهو المعمول به عندهم ، وما لم يبلغه أو بلغه ولم يفهمه حق فهمه ، أو فهمه وأخطأ الصواب فى اجتهاده وترجيحه ، فهو فى حكم المنسوخ عندهم المرفوع حكمه عن العباد ، مع كون من قلدوه متعبدًا بهذه الشريعة كما هم متعبدون بها ومحكوما عليه بأحكامها كما هو محكوم عليهم بها ، وقد اجتهد رأيه وأدّى ما عليه، وفاز بأجرين مع الإصابة وأجر مع خطأ ؛ إنما الشأن فى جعلهم لرأيه الذى أخطأ فيه شريعة مستقلة ، ودليلا معمولا به ، وقد أخطؤوا فى هذا خطأ بينا ، وغلطوا غلطا فاحشا ، فإن الترخيص للمجتهد فى اجتهاد رأيه يخصه وحده ، ولا قائل من أهل الإسلام المعتمدّ بأقوالهم أنه يجوز لغيره أن يعمل به تقليدا له واقتداء به ، وما جاء به المقلدة فى تقوّم هذا الباطل ، فهو من الجهل العاطل ، اللهمّ كما رزقتنا من العلم مانميز به بين الحق والباطل ، فارزقنا من الإنصاف مانظفر عنده بما هو الحق عندك ياواهب الخير .

ثم قال : ﴿ **وما ظنّ الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة** ﴾ أى أىّ شىء ظنهم فى هذا اليوم ، وما يصنع بهم فيه . وهذه الجملة الاستفهامية المتضمنة لتعظيم الوعيد لهم غير داخلة تحت القول الذى أمر الله رسوله ﷺ أن يقوله لهم ، بل مبتدأة مسوقة لبيان ما سيحلّ بهم من عذاب الله ، و﴿ **يوم القيامة** ﴾ منصوب بالظن ، وذكر الكذب بعد الافتراء ، مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا لزيادة التأكيد . وقرأ عيسى بن عمر : « وما ظنّ » على أنه فعل ﴿**إن الله لذو فضل على الناس**﴾ يتفضل عليهم بأنواع النعم فى الدنيا والآخرة ﴿ **ولكن أكثرهم لا يشكرون** ﴾ الله على نعمه الواصلة إليهم منه سبحانه فى كل وقت من الأوقات ، وطرفة من الطرفات .

قوله : ﴿ **وما تكون فى شأن** ﴾ الخطاب لرسول ﷺ ، و« ما » نافية ، والشأن : الأمر ، بمعنى القصد ، وأصله الهمز ، وجمعه شؤون . قال الأخفش : تقول العرب : ما شأنت شأنه ، أى ما عملت عمله ﴿**وما تتلوا منه من قرآن** ﴾ قال الفراء والزجاج : الضمير فى منه يعود على الشأن ، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف ، أى تلاوة كائنة منه ، إذ التلاوة للقرآن من أعظم شؤونه ﷺ ؛ والمعنى: أنه يتلو من أجل الشأن الذى حدث القرآن فيعلم كيف حكمه ، أو يتلوا القرآن الذى ينزل فى ذلك الشأن . وقال ابن جرير الطبرى : الضمير عائد فى ﴿ **منه** ﴾ إلى الكتاب ، أى ما يكون من كتاب الله من قرآن ، وأعاده تفخيما له كقوله : ﴿إننى أنا الله﴾ (١) [ طه : ١٤ ] ، والخطاب فى ﴿ **ولا تعملون من عمل** ﴾ لرسول الله وللأمة ،وقيل : الخطاب لكفار قريش ﴿ **إلا كنا عليكم شهودا** ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال للمخاطبين ، أى شهودا عليكم بعمله منكم ، والضمير ، فى ﴿ **فيه** ﴾ من قوله : ﴿ **تفيضون فيه** ﴾ عائد على العمل . يقال : أفاض فلان فى الحديث والعمل : إذا اندفع فيه . وقال الضحاك : الضمير فى ﴿ فيه ﴾ عائد على القرآن . والمعنى : إذ تشيعون فى القرآن الكذب .

قوله : ﴿ **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ قرأ الكسائى : « يعزب » بكسر الزاى ، وقرأ الباقون بالضم وهما لغتان فصيحتان ، ومعنى يعزب : يغيب . وقيل يبعد . وقال ابن كيسان : يذهب ، وهذه المعانى متقاربة ، و « من » فى ﴿**من مثقال** ﴾ زائدة للتأكيد ، أى وما يغيب عن ربك وزن ذرة ، أى نملة حمراء ، وعبر بالأرض والسماء مع أنه سبحانه لا يغيب عنه شىء لا فيهما ولا فيما هو خارج عنهما ، لأن الناس لا يشاهدون سواهما وسوى ما فيهما من المخلوقات ، وقدم الأرض على السماء ؛ لأنها محل استقرار العالم فهم يشاهدون ما فيها من قرب ، والواو فى ﴿**ولا أصغر من ذلك ولا أكبر** ﴾ للعطف على لفظ مثقال . وانتصبا لكونهما ممتنعين ، ويجوز أن يكون العطف على ذرة. وقيل : انتصابهما بلا التى لنفى الجنس ، والواو للاستئناف ، وليس من متعلقات وما يعزب ، وخبر لا ﴿ **إلا فى كتاب**﴾ والمعنى: ولا أصغرمن مثقال الذرة ولا أكبر منه إلا وهو فى كتاب مبين فكيف يغيب

(١) فى المطبوعة :« إنى »، وهو خطأ .

عنه ؟ وقرأ يعقوب وحمزة برفع أصغر وأكبر ، ووجه ذلك أنه معطوف على محل من مثقال ، ومحله الرفع ، وقد أورد على توجيه النصب والرفع على العطف على لفظ مثقال ومحله ، أو على لفظ ، ذرة إشكال ، وهو أنه يصير تقدير الآية : لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا فى السماء إلا فى كتاب، ويلزم منه أن يكون ذلك الشيء الذى فى الكتاب خارجا عن علم الله وهو محال . وقد أجيب عن هذا الإشكال بأن الأشياء المخلوقة قسمان : قسم أوجده الله ابتداء من غير واسطة كخلق الملائكة والسموات والأرض ، وقسم آخر أوجده بواسطة القسم الأول من حوادث عالم الكون والفساد ، ولا شك أن هذا القسم الثانى متباعد فى سلسلة العلية عن مرتبة الأول ، فالمراد من الآية أنه لا يبعد عن مرتبة وجوده سبحانه شيء فى الأرض ولا فى السماء إلا وهو فى كتاب مبين أثبت فيه صورة تلك المعلومات ، والغرض : الرد على من يزعم أنه غير عالم بالجزئيات . وأجيب أيضا بأن الاستثناء منقطع : أى لكن هو فى كتاب مبين . وذكر أبو على الجرجانى أن « إلا » بمعنى الواو . على أن الكلام قد تم عند قوله : ﴿**ولا أكبر**﴾ ثم وقع الابتداء بقوله : ﴿ **إلا فى كتاب مبين** ﴾ أى وهو أيضا فى كتاب مبين والعرب قد تضع إلا موضع الواو ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنى لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم ﴾ [ النمل : ١٠، ١١] يعنى: ومن ظلم ، وقوله : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا ﴾ [البقرة : ١٥٠ ] أى والذين ظلموا ، وقدر هو بعد الواو التى جاءت إلا بمعناها كما فى قوله : ﴿ وقولوا حطة ﴾ [البقرة : ٥٨ ] أى هى حطة، ومثله : ﴿ولا تقولوا ثلاثة ﴾ [ النساء : ١٧١] ، ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ [ الأنعام :٥٩]. وقال الزجاج : إن الرفع على الابتداء فى قراءة من قرأ بالرفع ، وخبره ﴿ **إلا فى كتاب** ﴾ واختاره صاحب الكشاف ، واختار فى قراءة النصب التى قرأ بها الجمهور أنهما منصوبان بلا التى لنفى الجنس ، واستشكل العطف بنحو ما قدمنا .

ثم لما بين سبحانه إحاطته بجميع الأشياء ، وكان فى ذلك تقوية لقلوب المطيعين ، وكسر لقلوب العاصين ذكر حال المطيعين ، فقال : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ الولى فى اللغة : القريب . والمراد بأولياء الله : خلص المؤمنين كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته . وقد فسر سبحانه ، هؤلاء الأولياء بقوله : ﴿ **الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ أى يؤمنون بما يجب الإيمان به ، ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصى الله سبحانه ، والمراد بنفى الخوف عنهم أنهم لا يخافون أبدا كما يخاف غيرهم ؛ لأنهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم ، وانتهوا عن المعاصى التى نهاهم عنها ، فهم على ثقة من أنفسهم وحسن ظن بربهم ، وكذلك لا يحزنون على فوت مطلب من المطالب ، لأنهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله وقدره فيسلمون للقضاء والقدر ، ويريحون قلوبهم عن الهم والكدر ، فصدورهم منشرحة، وجوارحهم نشطة ، وقلوبهم مسرورة : ومحل الموصول النصب على أنه بدل من أولياء أو

الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أو هو مبتدأ وخبره لهم البشرى : فيكون غير متصل بما قبله ، أو النصب أيضا على المدح أو على أنه وصف لأولياء .

قوله : ﴿ **لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ تفسير لمعنى كونهم أولياء اللّه ، أى لهم البشرى من اللّه ما داموا فى الحياة بما يوحيه إلى أنبيائه ، وينزله فى كتبه ، من كون حال المؤمنين عنده هو إدخالهم الجنة ورضوانه عنهم ، كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين فى القرآن الكريم ، وكذلك ما يحصل لهم من الرؤيا الصالحة ، وما يتفضل اللّه به عليهم من إجابة دعائهم ، وما يشاهدونه من التبشير لهم عند حضور آجالهم بتنزل الملائكة عليهم قائلين لهم : لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة ؛ وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعيم والسلامة من العذاب . والبشرى مصدر أريد به المبشر به ، والظرفان فى محل نصب على الحال ، أى حال كونهم فى الدنياوحال كونهم فى الآخرة ، ومعنى ﴿ **لا تبديل لكلمات اللّه** ﴾ : لا تغيير لأقواله على العموم ، فيدخل فيها ما وعد به عباده الصالحين دخولا أوّليا ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى المذكور قبله من كونهم مبشرين بالبشارتين فى الدارين ﴿ **هو الفوز العظيم** ﴾ الذى لايقادر قدره ولا يماثله غيره ، والجملتان ، أعنى : ﴿ **لا تبديل لكلمات اللّه**﴾ و ﴿ **ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ ، اعتراض فى آخر الكلام عند من يجوّزه ، وفائدتهما تحقيق المبشر به وتعظيم شأنه ، أو الأولى اعتراضية ، والثانية تذييلية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قل أرأيتم ما أنزل اللّه لكم من رزق** ﴾ قال : هم أهل الشرك كانوا يحلون من الأنعام والحرث ماشاؤوا ويحرّمون ما شاؤوا وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **إذ تفيضون فيه** ﴾ قال : إذ تفعلون . وأخرج الفريابى وابن جرير عن مجاهد مثله. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: ﴿ **وما يعزب عن ربك** ﴾ قال: لا يغيب عنه وزن ذرة ﴿ **ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** ﴾ قال: هو الكتاب الذى عند اللّه .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **ألا إن أولياء اللّه** ﴾ قيل : من هم ياربّ ؟ قال : هم ﴿**الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : هم الذين إذا رؤوا ذكر اللّه . وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس مرفوعا وموقوفا قال : هم الذين إذا رؤوا يذكر اللّه لرؤيتهم . وأخرج عنه ابن المبارك والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول والبزار وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه مرفوعًا مثله . وأخرجه ابن المبارك وابن أبى شيبة وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعيد بن جبير مرفوعا وهو مرسل. وروى نحوه من طرق أخرى مرفوعا وموقوفا . وأخرج أحمد والحكيم الترمذى عن عمرو بن الجموح؛ أنه سمع النبى ﷺ يقول: « لا يحقّ العبد حق صريح الإيمان حتى يحبّ للّه ويبغض للّه ، فإذا أحبّ للّه وأبغض للّه فقد استحق الولاء من اللّه ، وإنّ أوليائى من عبادى وأحبائى من خلقى الذين يذكرون بذكرى وأذكر

بذكرهم»[١] . وأخرج أحمد عن عبدالرحمن بن غنم يبلغ به النبى ﷺ : « خيار عباد الله الذين إذا رؤوا ذكر الله ، وشرار عباده المشاؤون بالنميمة المفرّقون بين الأحبة الباغون البرآء العنت » [٢] . وأخرج الحكيم الترمذى عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « خياركم من ذكركم الله رؤيته ، وزاد فى علمكم منطقه ، ورغبكم فى الآخرة عمله» . وأخرج الحكيم الترمذى عن ابن عباس مرفوعا نحوه . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر مرفوعا : « إن لله عبادًا ليسوا بالأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة بقربهم ومجلسهم منه » ، فجثا أعرابى على ركبتيه فقال : يارسول الله ، صفهم لنا حلهم لنا؟ قال : « قوم من أفناء الناس من نزاع القبائل ، تصافوا فى الله وتحابوا فى الله ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم ، يخاف الناس ولا يخافون ، هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » [٣] . وأخرج أبو داود وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ فذكر نحوه [٤] . قال ابن كثير : وإسناده جيد ، وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه [٥] . وأخرج أحمد وابن أبى الدنيا ، وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن أبى مالك الأشعرى مرفوعا نحوه [٦] . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : سئل النبى ﷺ عن قول الله : ﴿ **ألا إن أولياء الله** ﴾ الآية فقال : « الذين يتحابون فى الله » . وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعًا مثله . وقد ورد فى فضل المتحابين فى الله أحاديث ليس فيها أنهم المرادون بالآية .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه ، والحكيم فى نوادر الأصول ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر قال : سألت أبا الدرداء عن معنى قوله : ﴿ **لهم البشرى فى الحياة الدنيا** ﴾ فقال : ما سألنى عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال : « ما سألنى عنها أحد غيرك منذ أنزلت على : هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم ، أو ترى له ، فهى بشراه فى الحياة الدنيا ، وبشراه فى الآخرة الجنة »، وفى إسناده هذا الرجل المجهول [٧] ، وأخرج أبو داود الطيالسى وأحمد والدارمى والترمذى وابن ماجة والحكيم

---

(١) أحمد ٣/ ٤٣٠ وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٩٤ « فيه رشدين بن سعد وهو منقطع ضعيف » .
(٢) أحمد ٤/ ٢٢٧ .
(٣) صححه الحاكم ٤/ ١٧٠ ووافقه الذهبى .
(٤) ابن جرير ١١/ ٩٢ ، وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٥ والبيهقى في الشعب ( ٨٩٩٨ ) ط : دار الكتب العلمية.
(٥) ابن جرير ١١/ ٩٢ .
(٦) أحمد ٥/ ٣٤٣ ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٢٧٩ ، ٢٨٥ : « ورجاله وثقوا » .
(٧) ابن أبى شيبة فى الإيمان والرؤيا ( ١٠٥٠١ ) وأحمد ٦/ ٤٥٢ والترمذى فى الرؤيا ( ٢٢٧٥ ) وقال : « حديث حسن » وابن جرير ١١/ ٩٣ والبيهقى فى الشعب ( ٤٧٥٢ ) ط : دار الكتب العلمية .

الترمذى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقى عن عبادة بن الصامت قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿**لهم البشرى فى الحياة الدنيا**﴾ قال : « هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له » (١) . وأخرج أحمد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **لهم البشرى فى الحياة الدنيا** ﴾ قال :« الرؤيا الصالحة يبشر بها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، فمن رأى ذلك فليخبر بها »الحديث(٢) . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى الآية قال : « هى فى الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو ترى له ، وفى الآخرة الجنة » (٣) . وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ وابن مردويه وابن منده من طريق أبى جعفر عن جابر ؛ أن رسول الله ﷺ فسر البشرى فى الحياة الدنيا بالرؤيا الحبيبة ، وفى الآخرة ببشارة المؤمن عند الموت : إن الله قد غفر لك ولمن حملك إلى قبرك . وأخرج ابن مردويه عنه مرفوعا مثل حديث جابر . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا الشطر الأوّل من حديث جابر . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن ابن عباس مثله . وقد وردت أحاديث صحيحة بأن الرؤيا الصالحة من المبشرات وأنها جزء من أجزاء النبوّة ، ولكنها لم تقيد بتفسير هذه الآية . وقد روى أن المراد بالبشرى فى الآية هى قوله : ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا﴾ [الأحزاب : ٤٧] ، أخرج ذلك ابن جرير وابن المنذر من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس . وأخرج ابن المنذر عنه من طريق مقسم أنها قوله: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ [فصلت : ٣٠] وأخرج ابن جرير والحاكم والبيهقى عن نافع قال : خطب الحجاج فقال : إن ابن الزبير بدّل كتاب الله ، فقال ابن عمر : لا تستطيع ذلك أنت ولا ابن الزبير ، ﴿ **لا تبديل لكلمات الله** ﴾ (٤) .

**﴿ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ**

(١) أبو داود الطيالسى ( ٥٨٣ ) وأحمد ٥/ ٣١٥ والدارمى ٢/ ١٢٣ والترمذى فى الرؤيا ( ٢٢٧٥ ) وقال : « حديث حسن » وابن ماجة فى الرؤيا ( ٣٨٩٨ ) وابن جرير ١١/ ٩٣ وصححه الحاكم ٢/ ٣٤٠ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب ( ٤٧٥٣ ) ط : دار الكتب العلمية .

(٢) أحمد ٢/ ٢١٨ وابن جرير ١١/ ٩٦ والبيهقى فى الشعب ( ٤٧٦٤ ) ط : دار الكتب العلمية .

(٣) ابن جرير ١١/ ٩٤ .

(٤) ابن جرير ١١/ ٩٦، ٩٧ وصححه الحاكم ٢/ ٣٣٩ ، ٣٤٠ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

**عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾** .

قوله : ﴿ **ولا يحزنك قولهم** ﴾ : نهى للنبى ﷺ عن الحزن من قول الكفار المتضمن للطعن عليه وتكذيبه والقدح فى دينه ، والمقصود التسلية له والتبشير ، ثم استأنف سبحانه الكلام مع رسول الله ﷺ معللا لما ذكره من النهى لرسوله ﷺ فقال : ﴿ **إن العزّة للّه جميعا** ﴾ أى الغلبة والقهر له فى مملكته وسلطانه ليست لأحد من عباده، وإذا كان ذلك كله له فكيف يقدرون عليك حتى تحزن لأقوالهم الكاذبة وهم لا يملكون من الغلبة شيئا . وقرئ : «يحزنك » من أحزنه . وقرئ : « أن العزة » بفتح الهمزة على معنى : لأن العزّة للّه ، ولا ينافى ما فى هذه الآية من جعل العزّة جميعها للّه تعالى قوله سبحانه : ﴿ ولله[1] العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾ [ المنافقون : ٨ ] لأن كل عزّة باللّه فهى كلها للّه ، ومنه قوله : ﴿ كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلى ﴾ [المجادلة : ٢١]، ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ [ غافر : ٥١ ] .

﴿ **ألا إن للّه من فى السموات ومن فى الأرض** ﴾ ومن جملتهم هؤلاء المشركون المعاصرون للنبى ﷺ ، وإذا كانوا فى ملكه يتصرّف فيهم كيف يشاء ، فكيف يستطيعون أن يؤذوا رسول الله ﷺ بما لا يأذن الله به وغلب العقلاء على غيرهم لكونهم أشرف . وفى الآية نعى على عباد البشر والملائكة والجمادات ؛ لأنهم عبدوا المملوك وتركوا المالك ، وذلك مخالف لما يوجبه العقل ، ولهذا عقبه بقوله: ﴿ **وما يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء** ﴾ والمعنى : أنهم وإن سموا معبوداتهم شركاء لله فليست شركاء له على الحقيقة ، لأن ذلك محال ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [ الأنبياء : ٢٢ ] و« ما » فى ﴿ **وما يتبع** ﴾ نافية وشركاء مفعول يتبع ، وعلى هذا يكون مفعول يدعون محذوفا ، والأصل : وما يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء فى الحقيقة ، إنما هى أسماء لا مسميات لها ، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه ، ويجوز أن يكون المذكور مفعول ﴿ **يدعون** ﴾ وحذف مفعول يتبع لدلالة المذكور عليه ، ويجوز أن تكون استفهامية بمعنى أىّ شىء يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء ، ويكون على هذا الوجه ﴿**شركاء** ﴾ منصوبا بـ﴿ **يدعون** ﴾ ، والكلام خارج مخرج التوبيخ لهم والإزراء عليهم . ويجوز أن تكون« ما » موصولة معطوفة على ﴿**من فى السموات** ﴾ أى للّه مَن فى السموات ومن فى الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء ، والمعنى : أن اللّه مالك لمعبوداتهم لكونها من جملة من فى السموات ومن فى الأرض ، ثم زاد سبحانه فى تأكيد الردّ عليهم والدفع لأقوالهم فقال : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن**﴾ أى ما يتبعون يقينا إنما يتبعون ظنا ، والظنّ لا يغنى من الحق شيئا ﴿ **إن هم إلا يخرصون** ﴾ أى يقدرون أنهم شركاء تقديرا باطلا وكذبا بحتا ، وقد تقدّمت هذه الآية فى الأنعام .

---

(١) فى المطبوعة : «فلله » .

ثم ذكر سبحانه طرفا من آثار قدرته مع الامتنان على عباده ببعض نعمه فقال : ﴿ **هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا** ﴾ أى جعل لعباده الزمان منقسما إلى قسمين : أحدهما : مظلم وهو الليل لأجل يسكن العباد فيه عن الحركة والتعب ويريحون أنفسهم عن الكدّ والكسب ، والآخر مبصر لأجل يسعون فيه بما يعود على نفعهم وتوفير معايشهم ، ويحصلون مايحتاجون إليه فى وقت مضىء منير ، لا يخف عليه فيه كبير ولا حقير ، وجعله سبحانه للنهار مبصرا مجاز، والمعنى : أنه مبصرصاحبه كقولهم : نهاره صائم ، والإشارة بقوله: ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ إلى الجعل المذكور﴿ **لآيات** ﴾ عجيبة كثيرة ﴿ **لقوم يسمعون** ﴾ أى يسمعون ما يتلى عليهم من الآيات التنزيلية المنبهة على الآيات التكوينية مما ذكره اللّه سبحانه هاهنا منها ومن غيرها مما لم يذكره ، فعند السماع منهم لذلك يتفكرون ويعتبرون . فيكون ذلك من أعظم أسباب الإيمان .

قوله : ﴿ **قالوا اتخذ اللّه ولدا سبحانه هو الغنىّ** ﴾ هذا نوع آخر من أباطيل المشركين التى كانوا يتكلمون بها ، وهو زعمهم بأن اللّه سبحانه اتخذ ولدا ، فردّ ذلك عليهم بقوله : ﴿**سبحانه هو الغنىّ** ﴾ فنزّه جل وعلا عما نسبوه إليه من هذا الباطل البين ، وبين أنه غنى عن ذلك وأن الولد إنما يطلب للحاجة ، والغنىّ المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها ، وإذا انتفت الحاجة انتفى الولد ، وأيضا إنما يحتاج إلى الولد من يكون بصدد الانقراض ليقوم الولد مقامه ، والأزلى القديم لايفتقر إلى ذلك . وقد تقدّم تفسير الآية فى البقرة . ثم بالغ فى الردّ عليهم بما هو كالبرهان ، فقال : ﴿ **له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ ، وإذا كان الكل له وفى ملكه فلا يصح أن يكون شىء مما فيهما ولدا له للمنافاة بين الملك والبنوة والأبوّة . ثم زيف دعواهم الباطلة وبين أنها بلا دليل فقال : ﴿ **إن عندكم من سلطان بهذا** ﴾ أى ما عندكم من حجة وبرهان بهذا القول الذى تم لونه ، و« من » فى:﴿**من سلطان** ﴾ زائدة للتأكيد ، والجار والمجرور فى﴿ **بهذا** ﴾ متعلق إما بسلطان لأنه بمعنى الحجة والبرهان ، أو متعلق بما عندكم لما فيه من معنى الاستقرار . ثم وبخهم على هذا القول العاطل عن الدليل الباطل عند العقلاء فقال : ﴿ **أتقولون على اللّه مالا تعلمون** ﴾ ، ويستفاد من هذا أن كل قول لادليل عليه ليس هو من العلم فى شىء ، بل من الجهل المحض .

ثم أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم قولا يدل على أن ما قالوه كذب ، وأن من كذب على اللّه لا يفلح فقال : ﴿**قل إن الذين يفترون على اللّه الكذب لا يفلحون** ﴾ أى كل مفتر هذا شأنه ، ويدخل فيه هؤلاء دخولا أوّليا ، وذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد كما سبق فى مواضع من الكتاب العزيز ، والمعنى : أن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون بمطلب من المطالب . ثم بين سبحانه أن هذا الافتراء وإن فاز صاحبه بشىء من المطالب العاجلة فهو متاع قليل فى الدنيا ، ثم يتعقبه الموت والرجوع إلى اللّه ، فيعذب المفترى عذابا مؤبدًا ، فيكون ﴿**متاع** ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة لبيان أن ما يحصل للمفترى بافترائه ليس بفائدة

يعتدّ بها ، بل هو متاع يسير فى الدنيا يتعقبه العذاب الشديد بسبب الكفر الحاصل بأسباب من جملتها الكذب على الله . وقال الأخفش : إن التقدير : لهم متاع فى الدنيا ، فيكون المحذوف على هذا هو الخبر . وقال الكسائى : التقدير : ذلك متاع أو هو متاع ، فيكون المحذوف على هذا هو المبتدأ .

وقد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال فى قوله تعالى : ﴿ **ولا يحزنك** ﴾ : لما لم ينتفعوا بما جاءهم من الله وأقاموا على كفرهم كبر ذلك على رسول الله ﷺ ، فجاءه من الله فيما يعاتبه : ﴿ **ولا يحزنك قولهم إن العزّة لله جميعا هو السميع العليم** ﴾ يسمع ما يقولون ويعلمه ، فلو شاء بعزّته لانتصر منهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿**والنهار مبصرا** ﴾ قال : منيرا . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: ﴿ **إن عندكم من سلطان بهذا** ﴾ يقول : ماعندكم سلطان بهذا .

**﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ(٧٤) ﴾** .

لما بالغ سبحانه فى تقرير البراهين الواضحة ودفع الشبهة المنهارة ؛ شرع فى ذكر قصص الأنبياء لما فى ذلك من التسلية لرسول الله ﷺ فقال : ﴿ **واتل عليهم** ﴾ أى على الكفار المعاصرين لك المعارضين لما جئت به بأقوالهم الباطلة ﴿ **نبأ نوح**﴾ أى خبره ، والنبأ هو الخبر الذى له خطر وشأن ، والمراد : ماجرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به كما فعله كفار قريش وأمثالهم ﴿ **إذ قال لقومه** ﴾ أى وقت قال لقومه ، والظرف منصوب بنبأ أو بدل منه بدل اشتمال ، واللام فى ﴿ **لقومه** ﴾ لام التبليغ ﴿ **يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى** ﴾ أى عظم وثقل ، والمقام بفتح الميم : الموضع الذى يقام فيه ، وبالضم الإقامة . وقد اتفق القراء على الفتح ، وكنى بالمقام عن نفسه كما يقال: فعلته لمكان فلان : أى لأجله ، ومنه : ﴿**ولمن خاف مقام ربه** ﴾ [ الرحمن : ٤٦ ] أى خاف ربه ، ويجوز أن يراد بالمقام المكث : أى شق عليكم مكثى بين أظهركم ، ويجوز أن يراد بالمقام القيام ؛ لأن الواعظ يقوم حال وعظه ، والمعنى : إن كان كبر عليكم قيامى بالوعظ فى مواطن اجتماعكم ، وكبر عليكم تذكيرى لكم ﴿ **بآيات**

**الله** ﴾ التكوينية والتنزيلية ﴿ **فعلى الله توكلت** ﴾ هذه الجملة جواب الشرط ، والمعنى : إنى لا أقابل ذلك منكم إلا بالتوكل على الله ، فإن ذلك دأبى الذى أنا عليه قديما وحديثا ، ويجوز أن يريد إحداث مرتبة مخصوصة عن مراتب التوكل ، ويجوز أن يكون جواب الشرط ﴿ **فأجمعوا** ﴾ وجملة ﴿**فعلى الله توكلت** ﴾ اعتراض ، كقولك : إن كنت أنكرت علىّ شيئا فالله حسبى ، ومعنى ﴿ **فأجمعوا أمركم** ﴾ : اعتزموا عليه ، من أجمع الأمر: إذا نواه وعزم عليه قاله الفراء، وروى عن الفراء أنه قال : أجمع الشيء : أعدّه . وقال مؤرج السدوسى : أجمع الأمر أفصح من أجمع عليه ، وأنشد :

ياليت شعرى والمنى لا تنفع هل أغدون يوما وأمرى مجمع

وقال أبو الهيثم : أجمع أمره : جعله جميعا بعد ما كان متفرّقا ، وتفرّقه أن تقول مرّة أفعل كذا ، ومرّة أفعل كذا ، فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه ، أى جعله جميعا ، فهذا هو الأصل فى الإجماع ، ثم صار بمعنى العزم ، وقد اتفق جمهور القراء على نصب ﴿ **شركاءكم**﴾ وقطع الهمزة من أجمعوا . وقرأ يعقوب وعاصم الجحدرى بهمزة وصل فى ﴿ **أجمعوا**﴾ على أنه من جمع يجمع جمعا ، وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق ويعقوب « وشركاؤكم » بالرفع ، قال النحاس : وفى نصب الشركاء على قراءة الجمهور ثلاثة أوجه : الأوّل بمعنى : وادعوا شركاءكم ، قاله الكسائى والفراء ، أى ادعوهم لنصرتكم ، فهو على هذا منصوب بفعل مضمر. وقال محمد بن يزيد المبرد : هو معطوف على المعنى كما قال الشاعر :

ياليت زوجك فى الوغى متقلدا سيفا ورمحا

والرمح لا يتقلد به ، لكنه محمول كالسيف . وقال الزجاج : المعنى : مع شركائكم ، فالواو على هذا واو مع. وأما على قراءة « اجمعوا » بهمزة وصل فالعطف ظاهر ، أى اجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم . وأما توجيه قراءة الرفع ، فعلى عطف الشركاء على الضمير المرفوع فى ﴿ **أجمعوا** ﴾ ، وحسن هذا العطف مع عدم التأكيد بمنفصل كما هو المعتبر فى ذلك أن الكلام قد طال . قال النحاس وغيره : وهذه القراءة بعيدة لأنه لو كان ﴿**شركاءكم** ﴾ مرفوعا لرسم فى المصحف بالواو ، وليس ذلك موجودا فيه . قال المهدوى : ويجوز أن يرتفع الشركاء بالابتداء ، والخبر محذوف ، أى وشركاؤكم ليجمعوا أمرهم ، ونسبة ذلك إلى الشركاء مع كون الأصنام لا تعقل لقصد التوبيخ والتقريع لمن عبدها ، وروى عن أبىّ أنه قرأ : « وادعوا شركاءكم » بإظهار الفعل ، قوله : ﴿ **ثم لا يكن أمركم عليكم غمة** ﴾ الغمة : التغطية من قولهم ، غمّ الهلال : إذا استتر ، أى ليكن أمركم ظاهرا منكشفا . قال طرفة :

لعمرك ما أمرى علىّ بغمة نهارى ولا ليلى علىّ بسرمد

هكذا قال الزجاج ، وقال الهيثم : معناه لا يكن أمركم عليكم مبهما . وقيل: إن الغمة : ضيق الأمر كذا روى عن أبى عبيدة ، والمعنى : لا يكن أمركم عليكم بمصاحبتى والمجاملة لى

ضيقا شديدا ، بل ادفعوا هذا الضيق والشدّة بما شئتم وقدرتم عليه ، وعلى الوجهين الأوّلين يكون المراد بالأمرالثانى هو الأمر الأول ، وعلى الثالث يكون المراد به غيره . قوله : ﴿ **ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون** ﴾ أى ذلك الأمرالذى تريدونه بى ، وأصل اقضوا : من القضاء ، وهو الإحكام ، والمعنى : أحكموا ذلك الأمر ، قال الأخفش والكسائى : هو مثل : ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾ [ الحجر : ٦٦ ] أى أنهيناه إليه وأبلغناه إياه ، ثم ﴿ **لا تنظرون** ﴾ أى لا تمهلون، بل عجلوا أمركم واصنعوا ما بدا لكم ، وقيل : معناه : ثم امضوا إلىّ ولا تؤخرون، قال النحاس : هذا قول صحيح فى اللغة ، ومنه: قضى الميت : مضى ، وحكى الفراء عن بعض القراء أنه قرأ :« ثم أفضوا » بالفاء وقطع الهمزة ، أى توجهوا ، وفى هذا الكلام من نوح عليه السلام ما يدّل على وثوقه بنصر ربه وعدم مبالاته بما يتوعده به قومه .

ثم بين لهم أن كل ما أتى به إليهم من الإعذار والإنذار وتبليغ الشريعة عن اللّه ليس هو لطمع دنيوىّ ، ولا لغرض خسيس ، فقال : ﴿ **فإن توليتم فما سألتكم من أجر** ﴾ أى إن أعرضتم عن العمل بنصحى لكم وتذكيرى إياكم ، فما سألتكم فى مقابلة ذلك من أجر تؤدّونه إلىّ حتى تتهمونى فيما جئت به ، والفاء فى ﴿ **فإن توليتم** ﴾ لترتيب ما بعدها على ماقبلها ، والفاء فى ﴿ **فما سألتكم** ﴾ جزائية ﴿ **إن أجرى إلا على اللّه** ﴾ أى ما ثوابى فى النصح والتذكير إلا عليه سبحانه فهو يثيبنى آمنتم أو توليتم . قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وابن عامر وحفص بتحريك الياء من ﴿ **أجرى** ﴾ ، وقرأ الباقون بالسكون . ﴿ **وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾ المنقادين لحكم اللّه الذين يجعلون أعمالهم خالصة للّه سبحانه لا يأخذون عليها أجرا ولا يطمعون فى عاجل .

قوله : ﴿ **فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك** ﴾ أى استمروا على تكذيبه وأصرّوا على ذلك ، وليس المراد أنهم أحدثوا تكذيبه بعد أن لم يكن ، والمراد بمن معه من قد أجابه وصار على دينه ، والخلائف جمع خليفة ، والمعنى : أنه سبحانه جعلهم خلفاء يسكنون الأرض التى كانت للمهلكين بالغرق ويخلفونهم فيها ﴿ **وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ من الكفار المعاندين لنوح الذين لم يؤمنوا به أغرقهم اللّه بالطوفان ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المنذرين** ﴾ فيه تسلية لرسول اللّه ﷺ وتهديد للمشركين وتهويل عليهم .

﴿ **ثم بعثنا من بعده** ﴾ أى من بعد نوح ﴿ **رسلا** ﴾ كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب ﴿ **فجاؤوهم بالبينات** ﴾ أى بالمعجزات وبما أرسلهم اللّه به من الشرائع التى شرعها اللّه لقوم كل نبىّ ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا** ﴾ أى فما أحدثوا الإيمان بل استمرّوا على الكفر وأصرّوا عليه ، والمعنى : أنه ما صح ولا استقام لقوم من أولئك الأقوام الذين أرسل اللّه إليهم رسله أن يؤمنوا فى وقت من الأوقات ﴿ **بما كذبوا به من قبل** ﴾ أى من قبل تكذيبهم الواقع منهم عند مجىء الرسل إليهم ، والمعنى : أن كل قوم من العالم لم يؤمنوا عند أن أرسل اللّه إليهم الرسول المبعوث إليهم على الخصوص بما كانوا مكذبين بـه من قبل مجيئه إليهـم ؛ لأنهـم كانـوا غير

مؤمنين بل مكذبين بالدين ولو كانوا مؤمنين لم يبعث إليهم رسولا ، وهذا مبنىّ على أن الضمير فى : ﴿ فما كانوا ليؤمنوا ﴾ وفى : ﴿ بما كذبوا ﴾ راجع إلى القوم المذكورين فى قوله: ﴿ إلى قومهم ﴾ وقيل: ضمير﴿ كذبوا ﴾راجع إلى قوم نوح ، أى فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح من قبل أن يأتى هؤلاء الأقوام الذين جاؤوا من بعدهم ﴿وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ وقيل : إن الباء فى ﴿ بما كذبوا به من قبل ﴾ للسببية ، أى فما كانوا ليؤمنوا عند مجىء الرسل بسبب ما اعتادوه من تكذيب الحق من قبل مجيئهم ، وفيه نظر . وقيل المعنى بما كذبوا به من قبل ، أى فى عالم الذرّ فإن فيهم من كذب بقلبه ، وإن آمنوا ظاهرا . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل : إنه لقوم بأعيانهم ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ أى مثل ذلك الطبع العظيم نطبع على قلوب المتجاوزين للحدّ المعهود فى الكفر ، وقد تقدّم تفسير هذا فى غير موضع وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الأعرج فى قوله : ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ يقول : فأحكموا أمركم وادعوا شركاءكم ، وأخرج أيضا عن الحسن فى الآية : أى فليجمعوا أمرهم معكم ، وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ قال : لا يكبر عليكم أمركم ﴿ ثم اقضوا ﴾ ما أنتم قاضون . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ثم اقضوا ﴾ قال : انهضوا ﴿ إلىّ ولا تنظرون ﴾ يقول : ولا تؤخرون.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **ثم بعثنا من بعدهم** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **ثم بعثنا من بعده رسلا** ﴾ والضمير فى : ﴿ **من بعدهم** ﴾ راجع إلى الرسل المتقدّم ذكرهم ، وخصّ موسى وهارون بالذكر مع دخولهما تحت الرسل لمزيد شرفهما وخطر شأن ما جرى بينهما وبين فرعون ، والمراد بالملأ : الأشراف ، والمراد بالآيات : المعجزات ؛ وهى التسع المذكورة فى الكتاب العزيز ﴿**فاستكبروا** ﴾ عن قبولها ولم يتواضعوا لها ويذعنوا لما اشتملت عليه من المعجزات الموجبة لتصديق ما جاء بها ﴿ **وكانوا قوما مجرمين** ﴾ أى كانوا ذوى إجرام عظام وآثام كبيرة ، فبسبب ذلك اجترؤوا على ردّها ؛ لأن الذنوب تحول بين صاحبها وبين إدراك الحق وإبصار الصواب . قيل : وهذه الجملة معترضة مقررة لمضمون ماقبلها .

قوله : ﴿ **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين** ﴾ أى فلما جاء فرعون وملأه الحق من عند الله وهو المعجزات لم يؤمنوا بها بل حملوها على مكابرة منهم ، فردّ عليهم موسى قائلا : ﴿ **أتقولون للحقّ لما جاءكم أسحر هذا**﴾ قيل : فى الكلام حذف ، والتقدير : أتقولون للحقّ سحر فلا تقولوا ذلك ، ثم استأنف إنكارا آخر من جهة نفسه فقال : ﴿ **أسحر هذا** ﴾ فحذف قولهم الأوّل اكتفاء بالثانى ، والملجئ إلى هذا أنهم لم يستفهموه عن السحر حتى يحكى ما قالوه بقوله : ﴿ **أسحر هذا** ﴾ بل هم قاطعون بأنه سحر؛ لأنهم قالوا : ﴿**إن هذا لسحر مبين** ﴾ فحينئذ لا يكون قوله : ﴿ **أسحر هذا** ﴾ من قولهم ، وقال الأخفش :هو من قولهم ، وفيه نظر لما قدّمنا ، وقيل : معنى ﴿**أتقولون** ﴾ : أتعيبون الحقّ وتطعنون فيه وكان عليكم أن تذعنوا له ، ثم قال : أسحر هذا منكرا لما قالوه . وقيل : إن مفعول ﴿ **أتقولون** ﴾ محذوف ، وهو ما دلّ عليه قولهم: ﴿ **إن هذا لسحر**﴾ والتقدير : أتقولون ما تقولون ، يعنى : قولهم : إن هذا لسحر مبين ثم قيل : أسحر هذا ، وعلى هذا التقدير والتقدير الأوّل فتكون جملة : ﴿ **أسحر هذا** ﴾ مستأنفة من جهة موسى عليه السلام ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ بعد الجملة الأولى المستأنفة الواقعة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : ماذا قال لهم موسى لما قالوا إن هذا لسحر مبين ؟ فقيل : قال : أتقولون للحق لما جاءكم ، على طريقة الاستفهام الإنكارى ، والمعنى : أتقولون للحق لما جاءكم إنّ هذا لسحر مبين ، وهو أبعد شىء من السحر . ثم أنكر عليهم وقرّعهم ووبخهم فقال : ﴿ **أسحر هذا**﴾ فجاء موسى عليه السلام بإنكاربعد إنكار وتوبيخ بعد توبيخ وتجهيل بعد تجهيل، وجملة: ﴿ **ولا يفلح الساحرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى أتقولون للحق إنه سحر ، والحال أنه لا يفلح الساحرون فلا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير ولا ينجون من مكروه ، فكيف يقع فى هذا من هو مرسل من عند الله ، وقد أيده بالمعجزات والبراهين الواضحة ؟

وجملة : ﴿ **قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قالوا بعد أن قال لهم موسى ما قال ؟ وفى هذا ما يدّل على أنهم انقطعوا عن الدليل وعجزوا عن إبراز الحجة ، ولم يجحدوا مايجيبون به عما أورده عليهم ، بل لجؤوا إلى

ما يلجأ إليه أهل الجهل والبلادة ، وهو الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم من الكفر ، وضموا إلى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم وسبب مكابرتهم للحق وجحودهم للآيات البينة ، وهو الرياسة الدنيوية التى خافوا عليها وظنوا أنها ستذهب عنهم إن آمنوا ، وكم بقى على الباطل ، وهو يعلم أنه باطل بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم فى سابق الدهر ولاحقه ، فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر ، ومنهم من حبسه عن الخروج إلى السنة من البدعة ، وإلى الرواية الصحيحة من الرأى البحت ، يقال : لفته لفتا ، إذا صرفه عن الشيء ولواه عنه ، ومنه قال الشاعر :

تلفت نحو الحىّ حتى رأيتنى وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

أى تريد أن تصرفنا عن الشيء الذى وجدنا عليه آباءنا ، وهو عبادة الأصنام ، والمراد بالكبرياء : الملك ، قال الزجاج : سمى الملك كبرياء ؛ لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ؛ وقيل : بذلك لأن الملك يتكبر .

والحاصل : أنهم عللوا عدم قبولهم بدعوة موسى بأمرين : التمسك بالتقليد للآباء ، والحرص على الرياسة الدنيوية ؛ لأنهم إذا أجابوا النبى وصدّقوه صارت مقاليد أمر أمته إليه ، ولم يبق للملك رئاسة تامة ؛ لأن التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات ، ثم قالوا : ﴿ **وما نحن لكما بمؤمنين** ﴾ تصريحا منهم بالتكذيب وقطعا للطمع فى إيمانهم ، وقد أفرد الخطاب لموسى فى قولهم :﴿**أجئتنا لتلفتنا** ﴾ ثم جمعوا بينه وبين هارون فى الخطاب فى قولهم : ﴿**وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين** ﴾ ، ووجه ذلك أنهم أسندوا المجيء والصرف عن طريق آبائهم إلى موسى ، لكونه المقصود بالرسالة المبلغ عن اللّه ما شرعه لهم ، وجمعوا بينهما فى الضميرين الآخرين ؛ لأن الكبرياء شامل لهما فى زعمهم ولكون ترك الإيمان بموسى يسلتزم ترك الإيمان بهارون، وقد مرّت القصة فى الأعراف .

قوله : ﴿ **وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم** ﴾ قال هكذا لما رأى اليد البيضاء والعصا ؛ لأنه اعتقد أنهما من السحر ، فأمر قومه بأن يأتوه بكل ساحر عليم هكذا . قرأ حمزة والكسائى وابن وثاب والأعمش :« سحار » . وقرأ الباقون: ﴿ **ساحر** ﴾ وقد تقدّم الكلام على هذا فى الأعراف . والسحار صيغة مبالغة ، أى كثير السحر كثير العلم بعمله وأنواعه ﴿**فلما جاء السحرة** ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير هكذا : وقال فرعون ائتونى بكل سحار عليم فأتوا بهم إليه ، فلما جاء السحرة ، فتكون الفاء للعطف على المقدّر المحذوف ، قوله : ﴿ **قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون** ﴾ أى قال لهم هذه المقالة بعد أن قالوا له : إما أن تلقى ، وإما أن نكون نحن الملقون ، أى اطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعصيكم ﴿ **فلما ألقوا** ﴾ ما ألقوه من ذلك ﴿ **قال** ﴾ لهم ﴿ **موسى ما جئتم به السحر** ﴾ أى الذى جئتم به السحر على أن « ما » موصولة مبتدأ والخبر السحر ؛ والمعنى : أنه سحر ، لا أنه آية من آيات اللّه ، وأجاز الفراء

نصب السحر بـ﴿ **جئتم** ﴾ وتكون « ما » شرطية ، والشرط : ﴿ **جئتم** ﴾ والجزاء : ﴿ **إن اللّه سيبطله** ﴾ على تقدير الفاء ، أى فإن اللّه سيبطله . وقيل : إن السحر منتصب على المصدر ، أى ماجئتم به سحرا ، ثم دخلت الألف واللام فلا يحتاج على هذا إلى حذف الفاء ، واختاره النحاس ، وقال : حذف الفاء فى المجازاة لا يجيزه كثير من النحويين إلا فى ضرورة الشعر . وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر :« آلسحر » على أن الهمزة للاستفهام ، والتقدير : أهو السحر فتكون « ما » على هذه القراءة استفهامية . وقرأ أبىّ « ما أتيتم به سحر إن اللّه سيبطله » أى سيمحقه فيصير باطلا بما يظهره على يدىّ من الآيات المعجزة ﴿ **إن اللّه لا يصلح عمل المفسدين** ﴾ أى عمل هذا الجنس ، فيشمل كل من يصدق عليه أنه مفسد ويدخل فيه السحر والسحرة دخولا أوّليا . والواو فى﴿ **ويحق اللّه الحق**﴾للعطف على سيبطله، أى يبينه ويوضحه ﴿ **بكلماته**﴾ التى أنزلها فى كتبه على أنبيائه لاشتمالها على الحجج والبراهين ﴿ **ولو كره المجرمون** ﴾ من آل فرعون أو المجرمون على العموم ، ويدخل تحتهم آل فرعون دخولا أوّليا ، والإجرام : الآثام .

قوله : ﴿ **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه** ﴾ الضمير يرجع إلى موسى ، أى من قوم موسى ، وهم طائفة من ذرارى بنى إسرائيل . وقيل : المراد : طائفة من ذرارى فرعون فيكون الضمير عائدا على فرعون. قيل : ومنهم مؤمن آل فرعون وامرأته.وماشطة ابنته وامرأة خازنه . وقيل : هم قوم آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بنى إسرئيل ، وروى هذا عن الفراء ﴿**على خوف من فرعون وملئهم** ﴾ الضمير لفرعون ، وجمع لأنه لما كان جبارا جمعوا ضميره تعظيما له . وقيل : إن قوم فرعون سموا بفرعون مثل ثمود ، فرجع الضمير إليهم بهذا الاعتبار . وقيل : إنه عائد على مضاف محذوف ، والتقدير:على خوف من آل فرعون ، وروى هذا عن الفراء . ومنع ذلك الخليل وسيبويه فلا يجوز عندهما : قامت هند وأنت تريد غلامها . وروى عن الأخفش أن الضمير يعود على الذرية . وقوّاه النحاس ﴿ **أن يفتنهم** ﴾ أى يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذى كان ينزله بهم ، وهو بدل اشتمال . ويجوز أن يكون فى موضع نصب بالمصدر ﴿ **وإن فرعون لعال فى الأرض** ﴾ أى عات متكبر متغلب على أرض مصر ﴿**وإنه لمن المسرفين** ﴾ المجاوزين للحد فى الكفر ، وما يفعله من القتل والصلب وتنويع العقوبات .

قوله : ﴿ **وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم باللّه فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾ قيل : إن هذا من باب التكرير للشرط ، فشرط فى التوكل على اللّه الإيمان به والإسلام ، أى الاستسلام لقضائه وقدره . وقيل : إن هذا ليس من تعليق الحكم بشرطين بل المعلق بالإيمان هو وجوب التوكل ، والمشروط بالإسلام وجوده ، والمعنى : أن يسلموا أنفسهم للّه ، أى يجعلوها له سالمة خالصة لا حظّ للشيطان فيها ؛ لأن التوكل لا يكون مع التخليط . قال فى الكشاف : ونظيره فى الكلام : إن ضربك زيد فاضربه إن كانت لك به قوّة (١) ﴿ **فقالوا** ﴾ أى قوم موسى

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٤ .

مجيبين له ﴿ **على الله توكلنا** ﴾ ثم دعوا الله مخلصين فقالوا : ﴿ **ربنا لا تجعلنا فتنة** ﴾ أى موضع فتنة ﴿ **للقوم الظالمين** ﴾ والمعنى : لا تسلطهم علينا فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا ، ولا تجعلنا فتنة لهم يفتنون بنا غيرنا فيقولون لهم : لو كان هؤلاء على حق لما سلطنا عليهم وعذبناهم ، وعلى المعنى الأوّل تكون الفتنة بمعنى المفتون . ولما قدّموا التضرّع إلى الله سبحانه فى أن يصون دينهم عن الفساد أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم فقالوا : ﴿ **ونجنا برحمتك من القوم الكافرين** ﴾ وفى هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم .

قوله : ﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا** ﴾ « أن » هى المفسرة لأن فى الإيحاء معنى القول أن تبوآ ، أى اتخذا لقومكما بمصر بيوتا ؛ يقال : بوّأت زيدا مكانا وبوأت لزيد مكانا ، والمبوأ : المنزل الملزوم ، ومنه : بوّأه الله منزلا ، أى ألزمه إياه وأسكنه فيه ، ومن الحديث : « من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » (١) ومنه قول الراجز:

نحن بنو عدنان ليس شك تبوّأ المجد بنا والملك

قيل: ومصر فى هذه الآية هى الإسكندرية. وقيل: هى مصر المعروفة لا الإسكندرية ﴿ **واجعلوا بيوتكم قبلة** ﴾ أى متوجهة إلى جهة القبلة . قيل : والمراد بالبيوت هنا : المساجد ، وإليه ذهب جماعة من السلف . وقيل : المراد بالبيوت التى يسكنون فيها ، أمروا بأن يجعلوا منها قبلة ، والمراد بالقبلة على القول الأول : هى جهة بيت المقدس ، وهو قبلة اليهود إلى اليوم . وقيل : جهة الكعبة ، وأنها كانت قبلة موسى ومن معه . وقيل : المراد : أنهم يجعلون بيوتهم مستقبلة للقبلة ليصلوا فيها سرّا لئلا يصيبهم من الكفار معرّة بسبب الصلاة ، ومما يؤيد هذا قوله : ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾ أى التى أمركم الله بإقامتها فإنه يفيد أن القبلة هى قبلة الصلاة إما فى المساجد أو فى البيوت لا جعل البيوت متقابلة ، وإنما جعل الخطاب فى أوّل الكلام مع موسى وهارون ، ثم جعله لهما ولقومهما فى قوله :﴿ **واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة** ﴾ ثم أفرد موسى بالخطاب بعد ذلك ، فقال :﴿**وبشر المؤمنين** ﴾ لأن اختيار المكان مفوّض إلى الأنبياء ، ثم جعل عاما فى استقبال القبلة وإقامة الصلاة ؛ لأن ذلك واجب على الجميع لا يختص بالأنبياء ، ثم جعل خاصا بموسى ؛ لأنه الأصل فى الرسالة وهارون تابع له ، فكان ذلك تعظيما للبشارة وللمبشر بها . وقيل : إن الخطاب فى ﴿ **وبشر المؤمنين** ﴾ لنبينا محمد ﷺ على طريقة الالتفات والاعتراض ، والأوّل أولى .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**لتلفتنا**﴾ قال : لتلوينا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى قال : لتصدنا عن آلهتنا. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر ومجاهد فى قوله:﴿**وتكون لكما الكبرياء فى الأرض** ﴾

---

(١) أحمد ١/ ٢٩٣ ، ٣٢٣ والبخارى فى العلم ( ١٠٧ ) وفى الجنائز ( ١٢٩١ ) ومسلم فى المقدمة ( ٣/ ٣ ، ٤/ ٤) وأبو داود فى العلم (٣٦٥١) والترمذى فى الفتن ( ٢٢٥٧ ) وفى العلم ( ٢٦٥٩ ) وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجة فى المقدمة( ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧) والدارمى ١/ ٧٦.

قال : العظمة والملك والسلطان . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فما آمن لموسى إلا ذرية** ﴾ قال : الذرية : القليل . وأخرج هؤلاء عنه فى قوله : ﴿ **ذرية من قومه** ﴾ قال : من بنى إسرائيل . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد قال : هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كانت الذرية التى آمنت لموسى من أناس غير بنى إسرائيل من قوم فرعون منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه .

وأخرج عبدالرزاق وسعيد بن منصور ونعيم بن حماد فى الفتن وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين** ﴾ قال : لا تسلطهم علينا فيفتنونا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال فى تفسير الآية : لا تعذبنا بأيدى قوم فرعون ولا بعذاب من عندك ، فيقول قوم فرعون : لو كانوا على الحق ماعذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنون بنا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن أبى قلابة فى الآية قال : سأل ربه ألا يظهر علينا عدوّنا فيحسبون أنهم أولى بالعدل فيفتنون بذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى مجلز نحوه.

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه** ﴾ الآية . قال ذلك حين منعهم فرعون الصلاة ، فأمروا أن يجعلوا مساجدهم فى بيوتهم وأن يوجهوها نحو القبلة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أن تبوآ لقومكما بمصر** ﴾ قال : مصر : الإسكندرية . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : كانوا لا يصلون إلا فى البيع حتى خافوا من آل فرعون فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : أمروا أن يتخذوا فى بيوتهم مساجد . وأخرج أبو الشيخ عن أبى سنان قال : القبلة: الكعبة ، وذكر أن آدم فمن بعده كانوا يصلون قبل الكعبة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **واجعلوا بيوتكم قبلة** ﴾ قال : يقابل بعضها بعضا .

**﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا**

**لَغَافِلُونَ (٩٢)** ﴾ .

لما بالغ موسى عليه السلام فى إظهار المعجزات وإقامة الحجج البينات ولم يكن لذلك تأثير فى أمر أرسل إليهم دعا عليهم أن بين سبب إصرارهم على الكفر وتمسكهم بالجحود والعناد ، فقال مبينًا للسبب أولا : ﴿ **ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا** ﴾ قد تقدم أن الملأ : هم الأشراف . والزينة : اسم لكل ما يتزين به من ملبوس ومركوب وحلية وفراش وسلاح وغير ذلك . ثم كرر النداء للتأكيد فقال : ﴿ **ربنا ليضلوا عن سبيلك**﴾ وقد اختلف فى هذه اللام الداخلة على الفعل ، فقال الخليل وسيبويه: إنها لام العاقبة والصيرورة ،والمعنى : أنه لما كان عاقبة أمرهم الضلال صار كأنه سبحانه أعطاهم ما أعطاهم من النعم ليضلوا ، فتكون اللام على هذا متعلقة بآتيت. وقيل : إنها لام كى أى أعطيتهم لكى يضلوا . وقال قوم : إن المعنى أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا ، فحذفت لا كما قال سبحانه:﴿ يبين اللّه لكم أن تضلوا ﴾ [ النساء : ١٧٦ ] قال النحاس : ظاهر هذا الجواب حسن ، إلا أن العرب لا تحذف لا إلا مع أن ، فموّه صاحب هذا التأويل بالاستدلال بقوله: ﴿ يبين اللّه لكم أن تضلوا ﴾ ، وقيل : اللام للدعاء عليهم ، والمعنى : ابتلهم بالهلاك عن سبيلك ، واستدلّ هذا القائل بقوله سبحانه بعد هذا : ﴿ **اطمس** ﴾ و ﴿ **اشدد** ﴾ . وقد أطال صاحب الكشاف فى تقرير هذا بما لا طائل تحته (١)، والقول الأوّل هو الأولى . وقرأ الكوفيون :« ليضلوا » بضم حرف المضارعة ، أى يوقعوا الإضلال على غيرهم ، وقرأ الباقون بالفتح ، أى يضلون فى أنفسهم ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم** ﴾ . قال الزجاج : طمس الشىء : إذهابه عن صورته ؛ والمعنى : الدعاء عليهم بأن يمحق اللّه أموالهم ويهلكها وقرئ بضم الميم من اطمس ﴿ **واشدد على قلوبهم** ﴾ أى اجعلها قاسية مطبوعة لا تقبل الحق ولا تنشرح للإيمان . قوله : ﴿ **فلا يؤمنوا** ﴾ قال المبرد والزجاج : هو معطوف على ﴿**ليضلوا**﴾، والمعنى : آتيتهم النعم ليضلوا ولا يؤمنوا ، ويكون ما بين المعطوف والمعطوف عليه اعتراضا . وقال الفراء والكسائى وأبو عبيدة : هو دعاء بلفظ النهى ، والتقدير : اللهمّ فلا يؤمنوا ، ومنه قول الأعشى :

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى ... ولا تلقنى إلا وأنفك راغم

وقال الأخفش : إنه جواب الأمر : أى اطمس واشدد فلا يؤمنوا ، فيكون منصوبا . وروى هذا عن الفراء أيضا ، ومنه:

ياناق سيرى عنقا فسيحا ... إلى سليمان فنستريحا

﴿ **حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ أى لا يحصل منهم الإيمان إلا مع المعاينة لما يعذبهم اللّه به ، وعند ذلك لا ينفع إيمانهم . وقد استشكل بعض أهل العلم ما فى هذه الآية من الدعاء على هؤلاء ، وقال : إن الرسل إنما تطلب هداية قومهم وإيمانهم . وأجيب بأنه لا يجوز لنبى أن

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

يدعو على قومه إلا بإذن الله سبحانه ، وإنما يأذن الله بذلك لعلمه بأنه ليس فيه من يؤمن ، ولهذا لما أعلم الله نوحا عليه السلام بأنه لا يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، قال : ﴿ ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ [ نوح : ٢٦ ] ﴿ **قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما** ﴾ جعل الدعوة هاهنا مضافة إلى موسى وهارون ، وفيما تقدّم أضافها إلى موسى وحده ، فقيل : إن هارون كان يؤمِّن على دعاء موسى فسمي هاهنا داعيا ، وإن كان الداعي موسى وحده ، ففي أوّل الكلام أضاف الدعاء إلى موسى لكونه الداعي ، وهاهنا أضافه إليهما تنزيلا للمؤمن منزلة الداعي ، ويجوز أن يكونا جميعا داعيين ، ولكن أضاف الدعاء إلى موسى في أوّل الكلام لأصالته في الرسالة ، قال النحاس : سمعت عليّ بن سليمان يقول : الدليل على أن الدعاء لهما قول موسى : ﴿ **ربنا** ﴾ ولم يقل : رب ، وقرأ عليّ والسلمي : « دعاؤكما » وقرأ ابن السميفع : « دعوا كما » . والاستقامة : الثبات على ماهما عليه من الدعاء إلى الله . قال الفراء وغيره : أمرا بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه على دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة أربعين سنة ، ثم أهلكوا . وقيل : معنى الاستقامة : ترك الاستعجال ولزوم السكينة والرضا والتسليم لما يقضي به الله سبحانه . قوله : ﴿ **ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون** ﴾ بتشديد النون للتأكيد وحركت بالكسر لكونه الأصل ولكونها أشبهت نون التثنية وقرأ ابن ذكوان بتخفيف النون على النفي لا على النهي . وقرئ بتخفيف الفوقية الثانية من ﴿ **تتبعان** ﴾ ، والمعنى : النهي لهما عن سلوك طريقة من لا يعلم بعادة الله سبحانه في إجراء الأمور على ما تقتضيه المصالح تعجيلا وتأجيلا .

قوله : ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر** ﴾ هو من جاوز المكان : إذ خلفه وتخطاه ، والباء للتعدية ، أي جعلناهم مجاوزين البحر حتى بلغوا الشط ؛ لأن الله سبحانه جعل البحر يبسا فمرّوا فيه حتى خرجوا منه إلى البرّ . وقد تقدّم تفسير هذا في سورة البقرة في قوله سبحانه : ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ [ البقرة : ٥٠ ] وقرأ الحسن : « وجوّزنا » وهما لغتان ﴿**فأتبعهم فرعون وجنوده** ﴾ يقال : تبع وأتبع بمعنى واحد ، إذا لحقه ، وقال الأصمعي : يقال : أتبعه بقطع الألف ، إذا لحقه وأدركه ، واتبعه بوصل الألف ، إذا اتبع أثره أدركه أو لم يدركه. وكذا قال أبو زيد . وقال أبو عمرو : إنّ اتبعه بالوصل : اقتدى به ، وانتصاب بغيا وعدوا على الحال ، والبغي : الظلم ، والعدو : الاعتداء ، ويجوز أن يكون انتصابهما على العلة ، أي للبغي والعدو . وقرأ الحسن : « وعدوا » بضم العين والدال وتشديد الواو مثل علا يعلو علوّا . وقيل : إن البغي : طلب الاستعلاء في القول بغير حق ، والعدو : في الفعل ﴿ **حتى إذا أدركه الغرق** ﴾ أي ناله ووصله وألجمه . وذلك أن موسى خرج ببني إسرائيل على حين غفلة من فرعون ، فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده ، ففرق الله البحر لموسى وبني إسرائيل ، فمشوا فيه حتى خرجوا من الجانب الآخر ، وتبعهم فرعون والبحر باق على الحالة التي كان عليها عند مضيّ موسى ومن معه ، فلما تكامل دخول جنود فرعون وكادوا أن يخرجوا من

الجانب الآخر انطبق عليهم فغرقوا كما حكى اللّه سبحانه ذلك ﴿ **قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل** ﴾ أى صدّقت أنه بفتح الهمزة على أن الأصل بأنه ، فحذفت الباء ، والضمير للشأن ، وقرئ بكسر إنّ على الاستئناف ، وزعم أبو حاتم أن القول محذوف ، أى آمنت ، فقلت: إنه . ولم ينفعه هذا الإيمان أنه وقع منه بعد إدراك الغرق كله كما تقدّم فى النساء ، ولم يقل اللعين : آمنت باللّه أو بربّ العالمين ، بل قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، لأنه بقى فيه عرق من دعوى الإلهية . قوله : ﴿ **وأنا من المسلمين** ﴾ أى المستسلمين لأمر اللّه المنقادين له الذين يوحدونه وينفون ماسواه ، وهذه الجملة إما فى محل نصب على الحال أو معطوفة على آمنت .

قوله : ﴿ **آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين** ﴾ هو مقول قول مقدّر معطوف على ﴿ **قال آمنت** ﴾ أى فقيل له: أتؤمن الآن ؟ وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة ؟ فقيل : هى من قول اللّه سبحانه . وقيل : من قول جبريل . وقيل : من قول ميكائيل . وقيل : من قول فرعون قال ذلك فى نفسه لنفسه . وجملة : ﴿ **وقد عصيت قبل** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل الفعل المقدّر بعد القول المقدر ، وهو أتؤمن الآن ، والمعنى : إنكار الإيمان منه عند أن ألجمه الغرق، والحال أنه قد عصى اللّه من قبل ، والمقصود التقريع والتوبيخ له ، وجملة : ﴿ **وكنت من المفسدين** ﴾ معطوفة على عصيت داخلة فى الحال ، أى كنت من المفسدين فى الأرض بضلالك عن الحق وإضلالك لغيرك .

قوله :﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك** ﴾ قرئ: « ننجيك » بالتخفيف ، والجمهور على التثقيل . وقرأ اليزيدى : « ننحك » بالحاء المهملة من التنحية ، وحكاها علقمة عن ابن مسعود ، ومعنى ﴿ **ننجيك** ﴾ بالجيم : نلقيك على نجوة من الأرض، وذلك أن بنى إسرائيل لم يصدّقوا أن فرعون غرق ، وقالوا : هو أعظم شأنا من ذاك ، فألقاه اللّه على نجوة من الأرض ، أى مكان مرتفع من الأرض حتى شاهدوه . وقيل : المعنى : نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب فى قعر البحر ونجعلك طافيا ليشاهدوك ميتا بالغرق ، ومعنى « ننحيك » بالمهملة : نطرحك على ناحية من الأرض . وروى عن ابن مسعود أنه قرأ: « بأبدانك » .

وقد اختلف المفسرون فى معنى ببدنك ، فقيل : معناه : بجسدك بعد سلب الروح منه . وقيل : معناه : بدرعك والدرع يسمى بدنا، ومنه قول كعب بن مالك :

تـرى الأبــدان فيهـا مـسبغـات ... على الأبطال واليلب [(١)] الحصينا

أراد بالأبدان : الدروع ، وقال عمرو بن معدى كرب :

ومضى نساؤهم بكل مُضَاضةٍ ... جـــدلاء سابغــة وبــالأبـــدان

(١) واليَلبُ : الدروع اليمانية ، كانت تتخذ من الجلود يخرز بعضها إلى بعض ؛ وهو اسم جنس الواحد يلبة اللسان ٨٠٦/١ .

أى بدروع سابغة ودروع قصيرة ، وهى التى يقال لها : أبدان كما قال أبو عبيدة . وقال الأخفش : وأما قول من قال: بدرعك ، فليس بشيء ، ورجح أن البدن المراد به هنا الجسد . قوله : ﴿ **لتكون لمن خلفك آية** ﴾ هذا تعليل لتنحيته ببدنه ، وفى ذلك دليل على أنه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلة لا سوى ، والمراد بالآية : العلامة ، أى لتكون لمن خلفك من الناس علامة يعرفون بها هلاكك ، وأنك لست كما تدعى ، ويندفع عنهم الشك فى كونك قد صرت ميتا بالغرق . وقيل : المراد: ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك آية من آيات اللّه ، يعتبر بها الناس أو يعتبربها من سيأتى من الأمم إذا سمعوا ذلك حتى يحذروا من التكبر والتجبر والتمرد على اللّه سبحانه ، فإن هذا الذى بلغ إلى مابلغ إليه من دعوى الإلهية واستمرّ على ذلك دهرا طويلا كانت له هذه العاقبة القبيحة وقرئ :« لمن خلفك » على صيغة الفعل الماضى أى لمن يأتى بعدك من القرون أو من خلفك فى الرياسة أو فى السكون فى المسكن الذى كنت تسكنه ﴿ **وإن كثيرا من الناس عن آياتنا** ﴾ التى توجب الاعتبار والتفكر وتوقظ من سنة الغفلة ﴿ **لغافلون** ﴾ عما توجبه الآيات ، وهذه الجملة تذييلية .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم** ﴾ يقول : دمرعلى أموالهم وأهلكها ﴿ **واشدد على قلوبهم** ﴾ قال : اطبع :﴿ **فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ وهو الغرق . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى قال : سألنى عمر بن عبد العزيز عن قوله : ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم** ﴾ فأخبرته أن اللّه طمس على أموال فرعون وآل فرعون حتى صارت حجارة ، فقال عمر : كما أنت حتى آتيك ، فدعا بكيس مختوم ففكه ، فإذا فيه الفضة مقطوعة كأنها الحجارة والدنانير والدراهم وأشباه ذلك من الأموال حجارة كلها . وقد روى أن أموالهم تحوّلت حجارة من طريق جماعة من السلف .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **قد أجيبت دعوتكما** ﴾ قال : فاستجاب له وحال بين فرعون وبين الإيمان . وأخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة قال : كان موسى إذا دعا أمّن هارون على دعائه يقول آمين . قال أبو هريرة: وهو اسم من أسماء اللّه ، فذلك قوله : ﴿ **قد أجيبت دعوتكما** ﴾ . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس نحوه . وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة نحوه . وأخرج سعيد بن منصور عن محمد بن كعب القرظى نحوه أيضا . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : يزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج مثله . وأخرج الحكيم الترمذى عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فاستقيما فامضيا لأمرى ، وهى الاستقامة . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : العدو والعتوّ والعلوّ فى كتاب اللّه : التجبر .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لما خرج آخر أصحاب موسى ودخل آخر

أصحاب فرعون أوحى اللّه إلى البحر أن انطبق عليهم ، فخرجت أصبع فرعون بلا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، قال جبريل : فعرفت أن الربّ رحيم وخفت أن تدركه الرحمة ، فرمسته بجناحى وقلت : آلآن وقد عصيت قبل ؟ فلما خرج موسى وأصحابه قال من تخلف من قوم فرعون : ماغرق فرعون ولا أصحابه ، ولكنهم فى جزائر البحريتصيدون ، فأوحى اللّه إلى البحر أن الفظ فرعون عريانا ، فلفظه عريانا أصلع أخينس [(١)] قصيرا فهو قوله : ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية** ﴾ لمن قال : إن فرعون لم يغرق ، وكأن نجاة غيره لم تكن نجاة عافية ، ثم أوحى اللّه إلى البحر أن الفظ مافيك فلفظهم على الساحل ، وكان البحر لايلفظ غريقا فى بطنه حتى يأكله السمك ، فليس يقبل البحر غريقا إلى يوم القيامة . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أغرق اللّه فرعون فقال : ﴿ **آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل** ﴾ قال لى جبريل : يا محمد ، لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة » [(٢)] . وقد روى هذا الحديث الترمذى من غير وجه ، وقال : حسن صحيح غريب ، وصححه أيضا الحاكم [(٣)] . وروى عن ابن عباس مرفوعا من طرق أخرى [(٤)] .وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « قال لى جبريل : ما كان على الأرض شىء أبغض إلىّ من فرعون ، فلما آمن جعلت أحشو فاه حمأة وأنا أغطه خشية أن تدركه الرحمة ». وأخرج ابن جرير والبيهقى من حديث أبى هريرة مرفوعًا نحوه[(٥)] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج أبو الشيخ عن أبى أمامة مرفوعا نحوه أيضا ، وفى إسناد حديث أبى هريرة رجل مجهول ، وباقى رجاله ثقات .

والعجب كل العجب ممن لاعلم له بفنّ الرواية من المفسرين ، ولا يكاد يميز بين أصح الصحيح من الحديث وأكذب الكذب منه ، كيف يتجارى على الكلام فى أحاديث رسول اللّه ﷺ والحكم ببطلان ما صح منها ويرسل لسانه وقلمه بالجهل البحت ، والقصور الفاضح الذى يضحك منه كل من له أدنى ممارسة لفن الحديث ، فيامسكين مالك ولهذا الشأن الذى لست منه فى شىء ؟ ألا تستر نفسك وتربع على ضلعك،وتعرف بأنك بهذا العلم من أجهل الجاهلين ، وتشتغل بما هو علمك الذى لا تجاوزه ، وحاصلك الذى ليس لك غيره ، وهو علم اللغة وتوابعه من العلوم الآلية،ولقد صار صاحب الكشاف رحمه اللّه،بسبب ما يتعرض له فى تفسيره من علم الحديث الذى ليس هو منه فى ورد ولا صدر سخرة للساخرين وعبرة للمعتبرين ، فتارة يروى فى كتابه الموضوعات وهو لا يدرى أنها موضوعات ، وتارة يتعرض لردّ ما صح ،

---

(١) تصغير أخنس ، يخنِسُ خُنوسا : تأخر اللسان ٦/ ٧١ .

(٢) أحمد ١/ ٢٤٥ والترمذى فى التفسير ( ٣١٠٧ ) وقال :« حديث حسن » وابن جرير ١١/ ١١٢ .

(٣) الترمذى فى التفسير ( ٣١٠٨ ) وصححه الحاكم ٢/ ٣٤٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٤) ابن جرير ١١/ ١١٣ .

(٥) ابن جرير ١١/ ١١٢ والبيهقى فى الشعب ( ٧٣٩٠ ) ط . دار الكتب العلمية .

ويجزم بأنه من الكذب على رسول الله والبهت عليه ، وقد يكون فى الصحيحين وغيرهما مما يلتحق بهما من رواية جماعة من الصحابة بأسانيد كلها أئمة ثقات أثبات حجج ، وأدنى نصيب من عقل يحجر صاحبه عن التكلم فى علم لا يعلمه ولا يدرى به أقلّ دراية ، وإن كان ذلك العلم من علوم الاصطلاح التى يتواضع عليها طائفة من الناس ، ويصطلحون على أمور فيما بينهم ، فما بالك بعلم السنة الذى هو قسيم كتاب الله ، وقائله رسول الله ﷺ ، وراويه عنه خير القرون ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، وكل حرف من حروفه وكلمة من كلماته يثبت بها شرع عامّ لجميع أهل الإسلام .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك** ﴾ قال : أنجى الله فرعون لبنى إسرائيل من البحر فنظر إليه بعد ما غرق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : بجسدك ، قال : كذب بعض بنى إسرائيل بموت فرعون ، فألقى على ساحل البحر حتى يراه بنو إسرائيل أحمر قصيرا كأنه ثور. وأخرج ابن الأنبارى عن محمد بن كعب فى قوله : ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك** ﴾ قال : بدرعك، وكان درعه من لؤلؤة يلاقى فيها الحروب .

**﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾** .

قوله : ﴿ **ولقد بوأنا** ﴾ هذا من جملة ما عدده الله سبحانه من النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل ، ومعنى ﴿**بوأنا**﴾ : أسكنا ، يقال: بوأت زيدا منزلا ، أسكنته فيه ، والمبوأ اسم مكان أو مصدر ، وإضافته إلى الصدق على ما جرت عليه قاعدة العرب ، فإنهم كانوا إذا مدحوا شيئا أضافوه إلى الصدق، والمراد به هنا : المنزل المحمود المختار، قيل: هو أرض مصر . وقيل : الأردن وفلسطين . وقيل : الشام ﴿ **ورزقناهم من الطيبات** ﴾ أى المستلذات من الرزق

﴿ **فما اختلفوا** ﴾ فى أمر دينهم وتشعبوا فيه شعبا بعد ما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة ﴿ **حتى جاءهم العلم** ﴾ أى لم يقع منهم الاختلاف فى الدين إلا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها ، وما اشتملت عليه من الأخبار بنبوة محمد ﷺ . وقيل : المعنى : أنهم لم يختلفوا حتى جاءهم العلم ، وهو القرآن النازل على نبينا ﷺ ، فاختلفوا فى نعته وصفته ، وآمن به من آمن منهم وكفر به من كفر . فيكون المراد بالمختلفين على القول الأول : هم اليهود بعد أن أنزلت عليهم التوراة وعلموا بها ، وعلى القول الثانى : هم اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ ﴿ **إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، والمحق بعمله بالحق والمبطل بعمله بالباطل .

﴿ **فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك** ﴾ الشك فى أصل اللغة : ضم الشىء بعضه إلى بعض ، ومنه شك الجوهر فى العقد ، والشاك كأنه يضم إلى ما يتوهمه شيئا آخر خلافه فيتردد ويتحير ، والخطاب للنبى ﷺ ، والمراد غيره كما ورد فى القرآن فى غير موضع . قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد : سمعت الإمامين ثعلبا والمبرد يقولان : معنى ﴿ **فإن كنت فى شك** ﴾ أى قل يا محمد للكافر : فإن كنت فى شك ﴿ **فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك** ﴾ يعنى : مسلمى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأمثاله ، وقد كان عبدة الأوثان يعترفون لليهود بالعلم ويقرون بأنهم أعلم منهم ، فأمر الله سبحانه نبيه أن يرشد الشاكين فيما أنزله الله إليه من القرآن أن يسألوا أهل الكتاب الذين قد أسلموا ، فإنهم سيخبرونهم بأنه كتاب الله حقا ، وأن هذا رسوله ، وأن التوراة شاهدة بذلك ناطقة به ، وفى هذا الوجه مع حسنه مخالفة للظاهر . وقال القتيبى : المراد بهذه الآية : من كان من الكفار غير قاطع بتكذيب النبى ﷺ ولا بتصديقه ، بل كان فى شك. وقيل : المراد بالخطاب : النبى ﷺ لا غيره . والمعنى : لو كنت ممن يلحقه الشك فيما أخبرناك به فسألت أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك . وقيل : الشك هو ضيق الصدر ، أى إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر واسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك يخبروك بصبر من قبلك من الأنبياء على أذى قومهم . وقيل : معنى الآية : الفرض والتقدير ، كأنه قال له : فإن وقع لك شك مثلا وخيل لك الشيطان خيالا منه تقديرا . فاسأل الذين يقرؤون الكتاب ، فإنهم سيخبرونك عن نبوتك وما نزل عليك ، ويعترفون بذلك ؛ لأنهم يجدونه مكتوبا عندهم ، وقد زال فيمن أسلم منهم ما كان مقتضيا للكتم عندهم .

قوله : ﴿ **لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين** ﴾ فى هذا بيان ما يقلع الشك من أصله ويذهب به بجملته، وهو شهادة الله سبحانه بأن هذا الذى وقع الشك فيه على اختلاف التفاسير فى الشاك هو الحق الذى لا يخالطه باطل ولا تشوبه شبهة ، ثم عقبه بالنهى للنبى ﷺ عن الامتراء فيما أنزل الله عليه ، بل يستمر على ما هو عليه من اليقين وانتفاء الشك . ويمكن أن يكون هذا النهى له تعريضا لغيره كما فى مواطن من الكتاب العزيز ، وهكذا القول فى نهيه ﷺ عن التكذيب بآيات الله ، فإن الظاهر فيه التعريض ولا سيما بعد تعقيبه بقوله : ﴿ **فتكون**

**من الخاسرين** ﴾ وفى هذا التعريض من الزجر للممترين والمكذبين ما هو أبلغ وأوقع من النهى لهم أنفسهم ؛ لأنه إذا كان بحيث ينهى عنه من لا يتصور صدوره عنه ، فكيف بمن يمكن منه ذلك .

قوله : ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون** ﴾ قد تقدم مثله فى هذه السورة ، والمعنى : أنه حق عليهم قضاء الله وقدره بأنهم يصرون على الكفر ويموتون عليه ، لا يقع منهم الإيمان بحال من الأحوال ، وإن وقع منهم ما صورته صورة الإيمان كمن يؤمن منهم عند معاينة العذاب فهو فى حكم العدم ﴿ **ولو جاءتهم كل آية** ﴾ من الآيات التكوينية والتنزيلية ، فإن ذلك لا ينفعهم لأن الله سبحانه قد طبع على قلوبهم وحق منه القول عليهم :﴿ **حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ فيقع منهم ما صورته صورة الإيمان وليس بإيمان . ولا يترتب عليه شىء من أحكامه .

قوله : ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها** ﴾ : « لولا » هذه هى التحضيضية التى بمعنى هلا ، كما قال الأخفش والكسائى وغيرهما ، ويدل على ذلك ما فى مصحف أبى وابن مسعود « فهلا قرية » ، والمعنى : فهلا قرية واحدة من هذه القرى التى أهلكناها آمنت إيمانا معتدا به ، وذلك بأن يكون خالصا لله قبل معاينة عذابه ولم يؤخره كما أخره فرعون ، والاستثناء بقوله : ﴿ **إلا قوم يونس** ﴾ منقطع ، وهو استثناء من القرى لأن المراد : أهلها ، والمعنى : لكن قوم يونس ﴿ **لما آمنوا** ﴾ إيمانا معتدا به قبل معاينة العذاب ، أو عند أول المعاينة قبل حلوله بهم ﴿**كشفنا عنهم عذاب الخزى** ﴾ وقد قال بأن هذا الاستثناء منقطع جماعة من الأئمة منهم الكسائى والأخفش والفراء. وقيل : يجوز أن يكون متصلا ، والجملة فى معنى النفى . كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس ، وانتصابه على أصل الاستثناء ، وقرئ بالرفع على البدل ، وقال الزجاج فى توجيه الرفع : يكون المعنى : غير قوم يونس ، ولكن حملت إلا عليها وتعذر جعل الإعراب عليها ، فأعرب الاسم الذى بعدها بإعراب غير . قال ابن جرير : خص قوم يونس من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب ، وحكى ذلك عن جماعة من المفسرين . وقال الزجاج : إنه لم يقع العذاب، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب . ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان ، وهذا أولى من قول ابن جرير . والمراد بعذاب الخزى الذى كشفه الله عنهم ، وهو العذاب الذى كان قد وعدهم يونس أنه سينزل عليهم ولم يروه . أو الذى قد رأوا علاماته دون عينه ﴿ **ومتعناهم إلى حين** ﴾ أى بعد كشف العذاب عنهم متعهم الله فى الدنيا إلى حين معلوم قدره لهم .

ثم بين سبحانه أن الإيمان وضده كلاهما بمشيئة الله وتقديره ، فقال : ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم** ﴾ بحيث لا يخرج عنهم أحد ﴿ **جميعا** ﴾ مجتمعين على الإيمان لا يتفرقون فيه ويختلفون ، ولكنه لم يشأ ذلك لكونه مخالفا للمصلحة التى أرادها الله سبحانه ، وانتصاب جميعاعلى الحال كما قال سيبويه . قال الأخفش : جاء بقوله : ﴿ **جميعا** ﴾ بعد ﴿ **كلهم** ﴾ للتأكيد كقوله : ﴿ لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ [ النحل : ٥١ ] ولما كان النبى ﷺ

حريصا على إيمان جميع الناس أخبره الله بأن ذلك لا يكون ؛ لأن مشيئته الجارية على الحكمة البالغة والمصالح الراجحة لا تقتضى ذلك. فقال: ﴿ **أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ فإن ذلك ليس فى وسعك يا محمد ولا داخل تحت قدرتك، وفى هذا تسلية له ﷺ ودفع لما يضيق به صدره من طلب صلاح الكل الذى لو كان صلاحا محققا بل يكون إلى الفساد أقرب . ولله الحكمة البالغة .

ثم بين سبحانه ما تقدم بقوله : ﴿ **وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله** ﴾ أى ما صح وما استقام لنفس من الأنفس أن تؤمن بالله إلا بإذنه ، أى بتسهيله وتيسيره ومشيئته لذلك فلا يقع غير ما يشاؤه كائنا ما كان ﴿ **ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون** ﴾ أى العذاب أو الكفر أو الخذلان الذى هو سبب العذاب . وقرأ الحسن وأبو بكر والمفضل :« ونجعل » بالنون . وفى الرجس لغتان ضم الراء وكسرها . والمراد بالذين لا يعقلون : هم الكفار الذين لا يتعقلون حجج الله ، ولا يتفكرون فى آياته ، ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الأدلة .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق** ﴾ قال : بوأهم الله الشام وبيت المقدس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك قال : منازل صدق مصر والشام . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **فما اختلفوا حتى جاءهم العلم** ﴾ قال : العلم : كتاب الله الذى أنزله وأمره الذى أمرهم به . وقد ورد فى الحديث أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، وهو فى السنن والمسانيد ، والكلام فيه يطول [(١)] .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **فإن كنت فى شك** ﴾ الآية ، قال: لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال:« لا أشك ولا أسأل »[(٢)] . وهو مرسل . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك** ﴾ قال :التوراة والإنجيل الذين أدركوا محمدا من أهل الكتاب وآمنوا به ، يقول : سلهم إن كنت فى شك بأنك مكتوب عندهم .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون** ﴾ قال : حق عليهم سخط الله بما عصوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله :﴿ **فلولا كانت قرية آمنت** ﴾ يقول : فما كانت

---

(١) أحمد ٢/ ٣٣٢ وأبو داود فى السنة (٤٥٩٦) والترمذى فى الإيمان (٢٦٤٠) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة (٣٩٩١) .

(٢) ابن جرير ١١/ ١١٦ .

قرية آمنت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : لم يكن هذا فى الأمم قبل قوم يونس لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين عاينت العذاب إلا قوم يونس، فاستثنى الله قوم يونس . قال : وذكر لنا أن قوم يونس كانوا بنينوى (١) من أرض الموصل . فلما فقدوا نبيهم قذف الله فى قلوبهم التوبة فلبسوا المسوح وأخرجوا المواشى وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ، فعجوا إلى الله أربعين صباحا ، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد ما تدلى عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال :« إن يونس دعا قومه . فلما أبوا أن يجيبوه وعدهم العذاب . فقال : إنه يأتيكم يوم كذا وكذا . ثم خرج عنهم ، وكانت الأنبياء إذا وعدت قومها العذاب خرجت، فلما أظلهم العذاب خرجوا ففرقوا بين المرأة وولدها ، وبين السخلة (٢) وولدها . وخرجوا يعجون إلى الله ، وعلم الله منهم الصدق فتاب عليهم وصرف عنهم العذاب ، وقعد يونس فى الطريق يسأل عن الخبر . فمر به رجل فقال : ما فعل قوم يونس ؟ فحدثه بما صنعوا ، فقال : لا أرجع إلى قوم قد كذبتهم ، وانطلق مغاضبا يعنى: مراغما. وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : غشى قوم يونس العذاب كما يغشى القبر بالثوب إذا دخل فيه صاحبه ومطرت السماء دما . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير عن ابن عباس أن العذاب كان هبط على قوم يونس لم يكن بينهم وبينه إلا قدر ثلثى ميل . فلما دعوا كشفه الله عنهم . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى الجلد قال : لما غشى قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم ، فقالوا له ما ترى ؟ قال : قولوا : ياحى حين لا حى . وياحى محيى الموتى ، وياحى لا إله إلا أنت ، فقالوا ، فكشف عنهم العذاب (٣) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويجعل الرجس** ﴾ قال : السخط . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : الرجس : الشيطان ، والرجس : العذاب .

**﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ**

---

(١) نينوى : بكسر أوله ، وسكون ثانيه ، وفتح النون والواو بالموصل ، وبسواد الكوفة ، ناحية يقال لها نينوى منها كربلاء التى قتل بها الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ معجم البلدان ٥/ ٣٣٩ .

(٢) تطلق على الذكر والأنثى من أولاد الضأن والماعز ساعة تولد ، والجمع سخال اللسان ١١/ ٣٣٢ .

(٣) أحمد فى الزهد ٦١ وابن جرير ١١/ ١١٩ .

**وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ .**

قوله : ﴿ **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض** ﴾ : لما بين سبحانه أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله أمر بالنظر والاستدلال بالدلائل السماوية والأرضية ، والمراد بالنظر : التفكر والاعتبار ، أى قل يا محمد للكفار : تفكروا واعتبروا بما فى السموات والأرض من المصنوعات الدالة على الصانع ووحدته وكمال قدرته . و﴿**ماذا**﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿**فى السموات والأرض**﴾ ، أو المبتدأ « ما » ، و« ذا » بمعنى الذى ، و﴿ **فى السموات والأرض** ﴾ صلته ، والموصول وصلته خبر المبتدأ ، أى أى شىء الذى فى السموات والأرض ، وعلى التقديرين فالجملة فى محل نصب بالفعل الذى قبلها . ثم ذكر سبحانه أن التفكر والتدبر فى هذه الدلائل لا ينفع فى حق من استحكمت شقاوته فقال : ﴿ **وما تغنى الآيات والنذر**﴾ أى ما تنفع على أن ما نافية ، ويجوز أن تكون استفهامية : أى أى شىء ينفع والآيات هى التى عبر عنها بقوله: ﴿ **ماذا فى السموات والأرض** ﴾ والنذر جمع نذير ، وهم الرسل أو جمع إنذار وهو المصدر ﴿ **عن قوم لا يؤمنون** ﴾ فى علم الله سبحانه ؛ والمعنى أن من كان هكذا لا يجدى فيه شىء ولا يدفعه عن الكفر دافع .

قوله : ﴿ **فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم** ﴾ أى فهل ينتظر هؤلاء الكفار المعاصرون لمحمد ﷺ إلا مثل وقائع الله سبحانه بالكفار الذين خلوا من قبل هؤلاء ، فقد كان الأنبياء المتقدمون يتوعدون كفار زمانهم بأيام مشتملة على أنواع العذاب ، وهم يكذبونهم ويصممون على الكفر حتى ينزل الله عليهم عذابه ويحل بهم انتقامه ، ثم قال : ﴿**قل**﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار المعاصرين لك ﴿ **فانتظروا** ﴾ أى تربصوا لوعد ربكم إنى معكم من المتربصين لوعد ربى ، وفى هذا تهديد شديد ، ووعيد بالغ بأنه سينزل بهؤلاء ما نزل بأولئك من الإهلاك ، و« ثم » فى قوله : ﴿ **ثم ننجى رسلنا**﴾ للعطف على مقدر يدل عليه ما قبله كأنه قيل : أهلكنا الأمم ثم نجينا رسلنا المرسلين إليهم . وقرأ يعقوب :« ثم ننجى» مخففا . وقرأ كذلك أيضا فى: ﴿ **حقا علينا ننج المؤمنين** ﴾ . وروى كذلك عن الكسائى وحفص فى الثانية . وقرأ الباقون بالتشديد ، وهما لغتان فصيحتان : أنجى ينجى إنجاء ، ونجى ينجى تنجية بمعنى واحد ﴿ **والذين آمنوا** ﴾ معطوف على رسلنا : أى نجيناهم ونجينا الذين آمنوا ، والتعبير بلفظ

الفعل المستقبل لاستحضار صورة الحال الماضية تهويلا لأمرها ﴿**كذلك حقا علينا**﴾ أى حق ذلك علينا حقا ، أو إنجاء مثل ذلك الإنجاء حقا ﴿**ننج المؤمنين**﴾ من عذابنا للكفار ، والمراد بالمؤمنين : الجنس ، فيدخل فى ذلك الرسل وأتباعهم ، أو يكون خاصا بالمؤمنين وهم أتباع الرسل ؛ لأن الرسل داخلون فى ذلك بالأولى .

قوله : ﴿**قل يأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى**﴾ أمر سبحانه رسوله بأن يظهر التباين بين طريقته وطريقة المشركين مخاطبا لجميع الناس ، أو للكفار منهم ، أو لأهل مكة على الخصوص بقوله : إن كنتم فى شك من دينى الذى أنا عليه ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، ولم تعلموا بحقيقته ولا عرفتم صحته ، وأنه الدين الحق الذى لا دين غيره ، فاعلموا أنى برىء من أديانكم التى أنتم عليها ﴿**فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله**﴾ فى حال من الأحوال ﴿**ولكن أعبد الله الذين يتوفاكم**﴾ أى أخصه بالعبادة لا أعبد غيره من معبوداتكم من الأصنام وغيرها ، وخص صفة المتوفى من بين الصفات لما فى ذلك من التهديد لهم ، أى أعبد الله الذى يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد ، ولكونه يدل على الخلق أولا ، وعلى الإعادة ثانيا ، ولكونه أشد الأحوال مهابة فى القلوب ، ولكونه قد تقدم ذكر الإهلاك والوقائع النازلة بالكفار من الأمم السابقة ، فكأنه قال : أعبد الله الذى وعدنى بإهلاككم . ولما ذكر أنه لا يعبد إلا الله بين أنه مأمور بالإيمان فقال : ﴿**وأمرت أن أكون من المؤمنين**﴾ أى بأن أكون من جنس من آمن بالله وأخلص له الدين .

وجملة : ﴿**وأن أقم وجهك للدين**﴾ معطوفة على جملة : ﴿**أن أكون من المؤمنين**﴾ ولا يمنع من ذلك كون المعطوف بصيغة الأمر ؛ لأن المقصود من « أن » الدلالة على المصدر ، وذلك لا يختلف بالخبرية والإنشائية ، أو يكون المعطوف عليه فى معنى الإنشاء ، كأنه قيل : كن مؤمنا ثم أقم ؛ والمعنى : أن الله سبحانه أمره بالاستقامة فى الدين والثبات فيه ، وعدم التزلزل عنه بحال من الأحوال . وخص الوجه ؛ لأنه أشرف الأعضاء ، أو أمره باستقبال القبلة فى الصلاة وعدم التحول عنها ، و﴿**حنيفا**﴾ حال من الدين ، أو من الوجه ، أى مائلا عن كل دين من الأديان إلى دين الإسلام . ثم أكد الأمر المتقدم للنهى عن ضده فقال : ﴿**ولا تكونن من المشركين**﴾ وهو معطوف على ﴿**أقم**﴾ ، وهو من باب التعريض لغيره ﷺ .

قوله : ﴿**ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك**﴾ معطوف على ﴿**قل يأيها الناس**﴾ غير داخل تحت الأمر ، وقيل : معطوف على ﴿**ولا تكونن**﴾ أى لا تدع من دون الله على حال من الأحوال ما لا ينفعك ولا يضرك بشىء من النفع والضر إن دعوته ، ودعاء من كان هكذا لا يجلب نفعا ، ولا يقدر على ضر ضائع لا يفعله عاقل على تقدير أنه لا يوجد من يقدر على النفع والضر غيره ، فكيف إذا كان موجودا ؟ فإن العدول عن دعاء القادر إلى دعاء غير القادر أقبح وأقبح ﴿**فإن فعلت**﴾ أى فإن دعوت ، ولكنه كنى عن القول بالفعل ﴿**فإنك إذا من الظالمين**﴾ هذا جزاء الشرط ، أى فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإنك فى

عداد الظالمين لأنفسهم ، والمقصود من هذا الخطاب التعريض لغيره ﷺ .

وجملة : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر** ﴾ إلى آخرها مقررة لمضمون ما قبلها . والمعنى : أن الله سبحانه هو الضار النافع . فإن أنزل بعبده ضرا لم يستطع أحد أن يكشفه كائنا من كان ، بل هو المختص بكشفه كما اختص بإنزاله ﴿ **وإن يردك بخير** ﴾ أى خير كان لم يستطع أحد أن يدفعه عنك ويحول بينك وبينه كائنا من كان ، وعبر بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى أنه يتفضل على عباده بما لا يستحقونه بأعمالهم . قال الواحدى : إن قوله :﴿ **وإن يردك بخير** ﴾ هو من القلب ، وأصله وإن يرد بك الخير ، ولكن لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز أن يكون كل واحد منهما مكان الآخر . قال النيسابورى : وفى تخصيص الإرادة بجانب الخير ، والمس بجانب الشر دليل على أن الخير يصدر عنه سبحانه بالذات ، والشر بالعرض . قلت : وفى هذا نظر فإن المس هو أمر وراء الإرادة فهو مستلزم لها ، والضمير فى ﴿**يصيب به** ﴾ راجع إلى فضله ، أى يصيب بفضله من يشاء من عباده ، وجملة : ﴿ **وهو الغفور الرحيم** ﴾ تذييلية .

ثم ختم هذه السورة بما يستدل به على قضائه وقدره ، فقال :﴿ **قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم** ﴾ أى القرآن ﴿ **فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها** ﴾ أى منفعة اهتدائه مختصة به ، وضرر كفره مقصور عليه لا يتعداه ، وليس لله حاجة فى شيء من ذلك ، ولا غرض يعود إليه ﴿ **وما أنا عليكم بوكيل** ﴾ أى بحفيظ يحفظ أموركم وتوكل إليه ، إنما أنا بشير ونذير ، ثم أمره الله سبحانه أن يتبع ما أوحاه إليه من الأوامر والنواهى التى يشرعها الله له ولأمته ، ثم أمره بالصبر على أذى الكفار وما يلاقيه من مشاق التبليغ ، وما يعانيه من تلون أخلاق المشركين وتعجرفهم ، وجعل ذلك الصبر ممتدا إلى غاية هى قوله:﴿ **حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين** ﴾ أى يحكم الله بينه وبينهم فى الدنيا بالنصر له عليهم ، وفى الآخرة بعذابهم بالنار وهم يشاهدونه ﷺ هو وأمته المتبعون له المؤمنون به ، العاملون بما يأمرهم به ، المنتهون عما ينهاهم عنه ، يتقلبون فى نعيم الجنة الذى لا ينفد ، ولا يمكن وصفه ، ولا يوقف على أدنى مزاياه .

وقد أخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وما تغنى الآيات والنذر عن قوم** ﴾ يقول : عند قوم ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ نسخت قوله : ﴿ حكمة بالغة فما تغنِ النذر ﴾ [ القمر : ٥ ] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم** ﴾ قال : وقائع الله فى الذين خلوا من قبلهم ؛ قوم نوح وعاد وثمود . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع فى الآية قال : خوفهم عذابه ونقمته وعقوبته ، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمر نجى الله رسله والذين آمنوا ، فقال : ﴿ **ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا** ﴾ الآية . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وإن يردك بخير** ﴾ يقول : بعافية . وأخرج البيهقى فى الشعب عن عامر بن قيس قال : ثلاث آيات فى كتاب الله اكتفيت

بهن عن جميع الخلائق : أولهن : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله**﴾ ، والثانية : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له ﴾ [فاطر: ٢ ]، والثالثة:﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ [ هود : ٦ ] . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فلا راد لفضله** ﴾ قال : هو الحق المذكور فى قوله : ﴿ **قد جاءكم الحق من ربكم** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم فى قوله : ﴿ **واصبر حتى يحكم الله** ﴾ قال : هذا منسوخ ، أمره بجهادهم والغلظة عليهم .

## تفسير سورة هود

هى مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . قال ابن عباس وقتادة : إلا آية وهى قوله : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار ﴾ وأخرج النحاس فى ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : نزلت سورة هود بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير مثله . وأخرج الدارمى ، وأبو داود فى مراسيله ، وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر ، والبيهقى فى الشعب عن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « اقرؤوا هود يوم الجمعة » (١) . وأخرج ابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر من طريق مسروق عن أبى بكر الصديق قال: قلت :يا رسول اللّه ، لقد أسرع إليك الشيب ، فقال : « شيبتنى هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعمّ يتساءلون ، وإذا الشمس كورت » (٢). وأخرج البزار وابن مردويه من طريق أنس عنه مرفوعا بلفظ : قلت: يا رسول اللّه ، عجل إليك الشيب ، قال : « شيبتنى هود وأخواتها ، والواقعة ، والحاقة ، وعمّ يتساءلون ، وهل أتاك حديث الغاشية » . وأخرجه سعيد بن منصور، وابن مردويه ، عن أنس قال : قال أصحاب رسول الله ﷺ : لقد عجل إليك الشيب . فقال : « شيبتنى هود وأخواتها من المفصل » . وأخرج الترمذى وحسنه، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث والنشور من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله ، قد شبت ، قال : « شيبتنى هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعمّ يتساءلون ، وإذا الشمس كورت » (٣). وأخرج ابن عساكر من طريق عطاء عنه أن الصحابه قالوا :يا رسول الله ، لقد أسرع إليك الشيب ، قال : « أجل شيبتنى هود وأخواتها ». قال عطاء : وأخواتها : اقتربت الساعة. والمرسلات ، وإذا الشمس كوّرت . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن أبى سعيد الخدرى قال : قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، أسرع إليك الشيب ، قال:« شيبتنى هود وأخواتها : الواقعة،وعمّ يتساءلون ، وإذا الشمس كوّرت » (٤) . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدى قال : قال رسول اللّه ﷺ :« شيبتنى هود وأخواتها : الواقعة، والحاقة ، وإذا الشمس كوّرت » (٥) . وأخرجا أيضا عن ابن مسعود : أن أبا بكر قال : يا رسول اللّه ، ما شيبك ؟ قال : «هود والواقعة». وفى إسناده عمرو بن ثابت وهو متروك (٦) . وأخرج الطبرانى وابن مردويه بسند

---

(١) الدارمى ٢/ ٤٥٤ والبيهقى فى الشعب ( ٢٢١٤ ) ورجاله ثقات لكنه مرسل .
(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٤٠ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله رجال الصحيح » .
(٣) الترمذى فى التفسير ( ٣٢٩٧ ) وصححه الحاكم ٢/ ٣٤٣ على شرط البخارى ووافقه الذهبى .
(٤) البيهقى فى الدلائل ١/ ٣٥٨ .
(٥) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٤٠ : «رواه الطبرانى وفيه سعيد بن سلام العطار وهو كذاب » .
(٦) قال الهيثمى فى المجمع : ٧/ ٤٠ : « رواه الطبرانى وفى إسناده عمرو بن ثابت وهو متروك » .

صحيح عن عقبة بن عامر ، أن رجلا قال :يا رسول اللّه ، قد شبت ، قال:« شيبتنى هود ، وإذا الشمس كوّرت وأخواتها » (١) . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وعبد اللّه ابن أحمد فى زوائد الزهد، وأبو يعلى والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أبى جحيفة قال : قالوا : يا رسول اللّه ، نراك قد شبت ، قال : « شيبتنى هود وأخواتها » (٢) . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن عمران بن حصين ؛ أن رسول اللّه ﷺ قال له أصحابه : قد أسرع إليك الشيب ، قال : « شيبتنى هود وأخواتها من المفصل » . وأخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه أن رسول اللّه ﷺ قال : « شيبتنى هود وأخواتها وما فعل بالأمم قبل » .

## بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾ .

قوله ﴿ الر ﴾ : إن كان مسرودا على سبيل التعديد كما فى سائر فواتح السور فلا محل له، وإن كان اسما للسورة فهو فى محل رفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده أو خبر مبتدأ محذوف، و﴿ كتاب ﴾ يكون على هذا الوجه خبرا لمبتدأ محذوف ، أى هذا كتاب ، وكذا على تقدير أن ﴿ الر ﴾ لامحل له، ويجوز أن يكون ﴿ الر ﴾ فى محل نصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو: اذكر،أو اقرأ ، فيكون ﴿ كتاب ﴾ على هذا الوجه خبر مبتدأ محذوف،

(١) الطبرانى ( ٧٩٠ ) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٤٠ : « ورجاله رجال الصحيح » .
(٢) أبو يعلى ( ٨٨٠ ) وإسناده ضعيف حيث إن على بن صالح متأخر السماع من أبى إسحاق السبيعى ، والطبرانى ( ٣١٨ ) .

والإشارة فى المبتدأ المقدر إما إلى بعض القرآن أو إلى مجموع القرآن، ومعنى ﴿أحكمت آياته﴾ : صارت محكمة متقنة لا نقص فيها ولا نقض لها كالبناء المحكم ، وقيل : معناه : إنها لم تنسخ بخلاف التوراة والإنجيل ، وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب ، وهو المحكم الذى لم ينسخ . وقيل : معناه : أحكمت آياته بالأمر والنهى ، ثم فصلت بالوعد والوعيد والثواب والعقاب . وقيل : أحكمها الله من الباطل ثم فصلها بالحلال والحرام . وقيل : أحكمت جملته ، ثم فصلت آياته . وقيل: جمعت فى اللوح المحفوظ ثم فصلت بالوحى ، وقيل : أيدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله ، وقيل معنى إحكامها أن لا فساد فيها ، أخذا من قولهم : أحكمت الدابة ، إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ، و ﴿ ثم فصلت ﴾ معطوف على ﴿ أحكمت ﴾ ، ومعناه ما تقدّم ، والتراخى المستفاد من « ثم » إما زمانى إن فسر التفصيل بالتنجيم على حسب المصالح ، وإما رتبىّ إن فسر بغيره مما تقدّم ، والجمل فى محل رفع على أنها صفة لكتاب أو خبر آخر للمبتدأ أو خبر لمبتدأ محذوف ، وفى قوله : ﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ لف ونشر ، لأن المعنى : أحكمها حكيم وفصلها خبير عالم بمواقع الأمور .

قوله : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ مفعول له حذف منه اللام ، كذا فى الكشاف [(١)] وفيه أنه ليس بفعل لفاعل الفعل المعلل . وقيل : « أنَّ » هى المفسرة لما فى التفصيل من معنى القول . وقيل : هو كلام مبتدأ منقطع عما قبله محكيا على لسان النبىّ ﷺ . قال الكسائى والفراء : التقدير: أحكمت بأن لا تعبدوا إلا الله . وقال الزجاج : أحكمت ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله ، ثم أخبرهم رسول الله ﷺ بأنه نذير وبشير فقال : ﴿ إننى لكم منه نذير وبشير ﴾ أى ينذرهم ويخوّفهم من عذابه لمن عصاه، ويبشرهم بالجنة والرضوان لمن أطاعه ، والضمير فى ﴿منه ﴾ راجع إلى الله سبحانه ، أى إننى لكم نذير وبشير من جهة الله سبحانه . وقيل: هومن كلام الله سبحانه كقوله: ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ [ آل عمران : ٢٨] .

قوله :﴿ وأن استغفروا ربكم ﴾ معطوف على ﴿ ألا تعبدوا ﴾ والكلام فى « أن » هذه كالكلام فى التى قبلها . وقوله : ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ معطوف على ﴿ استغفروا ﴾ ، وقدم الإرشاد إلى الاستغفار على التوبة لكونه وسيلة إليها ، وقيل : إن التوبة من متممات الاستغفار. وقيل : معنى ﴿ استغفروا ﴾ : توبوا . ومعنى ﴿ توبوا ﴾ : أخلصوا التوبة واستقيموا عليها . وقيل : استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا من لاحقها . وقيل : استغفروا من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة .قال الفراء : « ثم » هاهنا بمعنى الواو ، أى وتوبوا إليه لأن الاستغفار هو التوبة ، والتوبة هى الاستغفار . وقيل : إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هى الغرض المطلوب ، والتوبة هى السبب إليها ، وما كان آخرا فى الحصول كان أوّلا فى الطلب . وقيل : استغفروا فى الصغائر وتوبوا إليه فى الكبائر ؛ ثم رتب على ما تقدّم

(١) الكشاف ٢/ ٣٣٧ .

أمرين الأول : ﴿ **يمتعكم متاعا حسنا** ﴾ أصل الإمتاع :الإطالة، ومنه أمتع اللّه بك ؛ فمعنى الآية : يطول نفعكم فى الدنيا بمنافع حسنة مرضية من سعة الرزق ورغد العيش ﴿ **إلى أجل مسمى** ﴾ إلى وقت مقدّر عند اللّه وهو الموت . وقيل : القيامة . وقيل : دخول الجنة ؛ والأوّل أولى . والأمر الثانى : قوله : ﴿ **ويؤت كل ذى فضل فضله** ﴾ أى يعط كل ذى فضل فى الطاعة والعمل فضله ، أى جزاء فضله إما فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما جميعا ، والضمير فى ﴿ **فضله** ﴾ راجع إلى كل ذى فضل . وقيل : راجع إلى اللّه سبحانه على معنى: أن اللّه يعطى كل من فضلت حسناته فضله الذى يتفضل به على عباده . ثم توعدهم على مخالفة الأمر فقال : ﴿ **وإن تولوا** ﴾ أى تتولوا وتعرضوا عن الإخلاص فى العبادة والاستغفار والتوبة ﴿ **فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير** ﴾ وهو يوم القيامة ، ووصفه بالكبر لما فيه من الأهوال . وقيل : اليوم الكبير : يوم بدر .

ثم بين سبحانه عذاب اليوم الكبير بقوله:﴿ **إلى اللّه مرجعكم** ﴾ أى رجوعكم إليه بالموت. ثم البعث ، ثم الجزاء ، لا إلى غيره ﴿ **وهو على كل شىء قدير** ﴾ ومن جملة ذلك عذابكم على عدم الامتثال ، وهذه الجملة مقرّرة لما قبلها . ثم أخبر اللّه سبحانه بأن هذا الإنذار والتحذير والتوعد لم ينجع فيهم ، ولا لانت له قلوبهم ، بل هم مصرّون على العناد مصممون على الكفر ، فقال مصدرا لهذا الإخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجب من حالهم ، وأنه أمر ينبغى أن يتنبه له العقلاء ويفهموه ﴿ **ألا إنهم يثنون صدورهم** ﴾ يقال: ثنى صدره عن الشىء؛ إذا ازورّ عنه وانحرف منه ، فيكون فى الكلام كناية عن الإعراض ؛ لأن من أعرض عن الشىء ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه (١) . وقيل : معناه : يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والإعراض عن الحق ، فيكون فى الكلام كناية عن الإخفاء لما يعتقدونه من الكفر كما كان دأب المنافقين .والوجه الثانى أولى ، ويؤيده قوله : ﴿ **ليستخفوا منه** ﴾ أى ليستخفوا من اللّه فلا يطلع عليه رسوله والمؤمنين ، أو ليستخفوا من رسول اللّه ﷺ؛ ثم كرّر كلمة التنبيه مبينا للوقت الذى يثنون فيه صدورهم فقال : ﴿ **ألا حين يستغشون ثيابهم** ﴾ أى يستخفون فى وقت استغشاء الثياب ، وهو التغطى بها ، وقد كانوا يقولون : إذا أغلقنا أبوابنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا ؟ وقيل : معنى ﴿ **حين يستغشون**﴾:حين يأوون إلى فراشهم ويتدثرون بثيابهم . وقيل : إنه حقيقة وذلك أن بعض الكفار كان إذا مرّ به رسول اللّه ﷺ ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه لئلا يسمع كلام رسول اللّه ﷺ . وجملة : ﴿ **يعلم ما يسرّون وما يعلنون** ﴾ مستأنفة لبيان أنه لا فائدة لهم فى الاستخفاء ؛ لأن اللّه سبحانه يعلم ما يسرّونه فى أنفسهم أو فى ذات بينهم وما يظهرونه ، فالظاهر والباطن عنده سواء ، والسّر والجهر سيان ، وجملة ﴿**إنه عليم بذات الصدور**﴾ تعليل لما قبلها وتقرير له،

(١) ما بين الخاصرة إلى الضلع من الخلف .

و﴿ **ذات الصدور** ﴾ هى الضمائر التى تشتمل عليها الصدور ، وقيل : هى القلوب ، والمعنى: إنه عليم بجميع الضمائر ، أو عليم بالقلوب وأحوالها فى الإسرار والإظهار ، فلا يخفى عليه شىء من ذلك .

ثم أكد كونه عالما بكل المعلومات بما فيه غاية الامتنان ونهاية الإحسان فقال : ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على اللّه رزقها** ﴾ أى الرزق الذى تحتاج إليه من الغذاء اللائق بالحيوان على اختلاف أنواعه تفضلا منه وإحسانا، وإنما جىء به على طريق الوجوب كما تشعر به كلمة «على» اعتبارا بسبق الوعد به منه ، و« من » زائدة للتأكيد ، ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله: أن اللّه سبحانه لما كان لا يغفل عن كل حيوان باعتبار ما قسمه له من الرزق ، فكيف يغفل عن أحواله وأقواله وأفعاله. والدابة : كل حيوان يدب ﴿ **ويعلم مستقرّها** ﴾ أى محل استقرارها فى الأرض أو محل قرارها فى الأصلاب ﴿**ومستودعها** ﴾ موضعها فى الأرحام ، وما يجرى مجراها كالبيضة ونحوها . وقال الفراء : مستقرها :حيث تأوى إليه ليلا ونهارا ، ومستودعها : موضعها الذى تموت فيه ، وقد مرّ تمام الأقوال فى سورة الأنعام ، ووجه تقدّم المستقر على المستودع على قول الفراء ظاهر، وأما على القول الأوّل فلعل وجه ذلك : أن المستقر أنسب باعتبار ما هى عليه حال كونها دابة. والمعنى: وما من دابة فى الأرض إلا يرزقها اللّه حيث كانت من أماكنها بعد كونها دابة وقبل كونها دابة ، وذلك حيث تكون فى الرحم ونحوه ؛ ثم ختم الآية بقوله : ﴿ **كل فى كتاب مبين** ﴾ أى كل من ما تقدّم ذكره من الدواب ومستقرّها ومستودعها ورزقها فى كتاب مبين ، وهو اللوح المحفوظ ، أى مثبت فيه .

ثم أكد دلائل قدرته بالتعرّض لذكر خلق السموات والأرض ، وكيف كان الحال قبل خلقها فقال : ﴿ **وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام** ﴾ قد تقدّم بيان هذا فى الأعراف ، قيل : والمراد بالأيام : الأوقات ، أى فى ستة أوقات كما فى قوله : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ [ الأنفال : ١٦ ] وقيل : مقدار ستة أيام ، ولا يستقيم أن يكون المراد بالأيام هنا الأيام المعروفة ، وهى المقابلة لليالى ، لأنه لم يكن حينئذ لا أرض ولا سماء وليس اليوم إلا عبارة عن مدّة كون الشمس فوق الأرض ، وكان خلق السموات فى يومين ، والأرضين فى يومين ، وما عليهما من أنواع الحيوان والنبات والجماد فى يومين كما سيأتى فى حم السجدة . قوله : ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ أى كان قبل خلقهما عرشه على الماء ، وفيه بيان تقدّم خلق العرش والماء على السموات والأرضين .

قوله : ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ اللام متعلقة بخلق ، أى خلق هذه المخلوقات ليبتلى عباده بالاعتبار والتفكر والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث والجزاء أيهم أحسن عملا فيما أمر به ونهى عنه ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، ويوفر الجزاء لمن كان أحسن عملا من غيره ، ويدخل فى العمل الاعتقاد ، لأنه من أعمال القلب . وقيل : المراد

بالأحسن عملا: الأتمّ عقلا. وقيل : الأزهد فى الدنيا . وقيل : الأكثر شكرا . وقيل: الأتقى للّه . قوله : ﴿ **ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولنّ الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ ثم لما كان الابتلاء يتضمن حديث البعث أتبع ذلك بذكره ، والمعنى : لئن قلت لهم يا محمد على ماتوجبه قضية الابتلاء: إنكم مبعوثون من بعد الموت فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ليقولن الذين كفروا من الناس إن هذا الذى تقوله يا محمد إلا باطل كبطلان السحر وخدع كخدعه . ويجوز أن تكون الإشارة بـ ﴿ **هذا** ﴾ إلى القرآن ؛ لأنه المشتمل على الإخبار بالبعث . وقرأ حمزة والكسائى : « إن هذا إلا ساحر » يعنون النبى ﷺ وكسرت «إنّ » من قوله ﴿ **إنكم** ﴾ لأنها بعد القول . وحكى سيبويه الفتح على تضمين ﴿ **قلت**﴾ معنى : ذكرت ، أو على «أن » بمعنى : علّ أى ولئن قلت لعلكم مبعوثون ، على أن الرجاء باعتبار حال المخاطبين ، أى توقعوا ذلك ولا تبتوا القول بإنكاره .

﴿ **ولئن أخرنا عنهم العذاب** ﴾ أى الذى تقدّم ذكره فى قوله : ﴿ **عذاب يوم كبير** ﴾ وقيل : عذاب يوم القيامة وما بعده، وقيل :يوم بدر ﴿ **إلى أمة معدودة** ﴾ أى إلى طائفة من الأيام قليلة ؛ لأن ما يحصره العدّ قليل ، والأمة : اشتقاقها من الأم وهو القصد ، وأراد بها الوقت المقصود لإيقاع العذاب . وقيل : هى فى الأصل الجماعة من الناس ، وقد يسمى الحين باسم مايحصل فيه كقولك : كنت عند فلان صلاة العصر ، أى فى ذلك الحين ، فالمراد على هذا : إلى حين تنقضى أمة معدودة من الناس ﴿ **ليقولن مايحبسه** ﴾ أى أىّ شيء يمنعه من النزول استعجالا له على جهة الاستهزاء والتكذيب ، فأجابهم اللّه بقوله : ﴿ **ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم** ﴾ أى ليس محبوسا عنهم ، بل واقع بهم لا محالة ، و﴿ **يوم** ﴾ منصوب بـ﴿ **مصروفا** ﴾ ،﴿ **وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون**﴾ أى أحاط بهم العذاب الذى كانوا يستعجلونه استهزاء منهم ، ووضع يستهزئون مكان يستعجلون ، لأن استعجالهم كان استهزاء منهم ، وعبر بلفظ الماضى تنبيها على تحقق وقوعه فكأنه قد حاق بهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد أنه قرأ : ﴿ **الر كتاب أحكمت آياته** ﴾ قال : هى كلها محكمة يعنى سورة هود ﴿ **ثم فصلت** ﴾ قال : ثم ذكر محمدا ﷺ فحكم فيها بينه وبين من خالفه وقرأ : ﴿ مثل الفريقين . . .﴾ الآية كلها [هود: ٢٤ ] ،ثم ذكر قوم نوح ثم هود ، فكان هذا تفصيل ذلك ، وكان أوّله محكما قال : وكان أبى يقول ذلك ، يعنى زيد بن أسلم. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **كتاب أحكمت آياته** ﴾ قال : أحكمت بالأمر والنهى ، وفصلت بالوعد والوعيد . وأخرج هؤلاء عن مجاهد : ﴿ **فصلت** ﴾ قال : فسرت. وأخرج هؤلاء أيضا عن قتادة فى الآية قال: أحكمها اللّه من الباطل ثم فصلها بعلمه ، فبين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته (١) ، وفى

(١) ابن جرير ١١/ ١٢٣ .

قوله : ﴿ **من لدن حكيم** ﴾ يعنى : من عند حكيم ، وفى قوله : ﴿ **يمتعكم متاعا حسنا** ﴾ قال : فأنتم فى ذلك المتاع فخذوه بطاعة اللّه ومعرفة حقه ، فإن اللّه منعم يحبّ الشاكرين وأهل الشكر فى مزيد من اللّه ، وذلك قضاؤه الذى قضاه ؛ وفى قوله : ﴿ **إلى أجل مسمى** ﴾ يعنى : الموت ، وفى قوله : ﴿ **يؤت كل ذى فضل فضله** ﴾ أى فى الآخرة . وأخرج هؤلاء أيضا عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يؤت كل ذى فضل فضله** ﴾ أى فى الآخرة . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : يؤت كل ذى فضل فى الإسلام فضل الدرجات فى الآخرة . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله :﴿ **ويؤت كل ذى فضل فضله** ﴾ قال : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشرحسنات ، فإن عوقب بالسيئة التى عملها فى الدنيا بقيت له عشرحسنات ، وإن لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول :هلك من غلب آحاده أعشاره [١] .

وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألا إنهم يثنون صدورهم** ﴾ الآية قال: كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم . قال البخارى : وعن ابن عباس ﴿ **يستغشون** ﴾ يغطون رؤوسهم . وروى البخارى أيضا عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية ، يعنى به الشك فى اللّه ، وعمل السيئات وكذا روى عن مجاهد والحسن وغيرهما ، أى أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئا أو عملوه ، فيظنون أنهم يستخفون من اللّه بذلك ، فأعلمهم سبحانه أنه حين يستغشون ثيابهم عند منامهم فى ظلمة الليل ﴿ **يعلم ما يسرّون** ﴾ من القول ﴿ **وما يعلنون** ﴾ [٢] . وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبد اللّه بن شداد بن الهاد فى قوله : ﴿ **ألا إنهم يثنون صدورهم** ﴾ قال : كان المنافقون إذا مرّ أحدهم بالنبىّ ﷺ ثنى صدره وتغشى ثوبه لكيلا يراه ، فنزلت . وأخرج ابن جرير عن الحسن فى قوله :﴿ **ألا حين يستغشون ثيابهم** ﴾ قال : فى ظلمة الليل فى أجواف بيوتهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى رزين فى الآية قال : كان أحدهم يحنى ظهره ويستغشى بثوبه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : كانوا يخبون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب اللّه . قال تعالى : ﴿ **ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرّون** ﴾ وذلك أخفى ما يكون ابن آدم إذا أحنى ظهره واستغشى بثوبه ، وأضمر همه فى نفسه ، فإن اللّه لا يخفى عليه ذلك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال فى الآية : يكتمون ما فى قلوبهم ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما عملوا بالليل والنهار .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما من دابة** ﴾ الآية قال :

(١) المصدر السابق ١١/ ١٢٤ .

(٢) البخارى فى التفسير ( ٤٦٨٣ ) .

يعنى كل دابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ وما من دابة ﴾ الآية قال : يعنى ما جاءها من رزق فمن الله ، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعا . ولكن ما كان لها من رزق لها فمن الله. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ﴿ ويعلم مستقرّها ﴾ قال: حيث تأوى، و﴿ مستودعها ﴾ قال : حيث تموت . وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ ويعلم مستقرّها﴾ قال : يأتيها رزقها حيث كانت . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : مستقرّها فى الأرحام ، ومستودعها حيث تموت، ويؤيد هذا التفسير الذى ذكره ابن مسعود ما أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : « إذا كان أجل أحدكم بأرض أتيحت له إليها حاجة ، حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض ، فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعتنى» (١) .

وأخرج عبد الرزاق فى المصنف ، والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن قوله : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ على أىّ شىء كان الماء ؟ قال : على متن الريح . وقد وردت أحاديث كثيرة فى صفة العرش ، وفى كيفية خلق السموات والأرض ليس هذا موضع ذكرها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم فى التاريخ وابن مردويه عن ابن عمر قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ فقال :ما معنى ذلك يا رسول الله؟ قال : « ليبلوكم أيكم أحسن عقلا » ، ثم قال : « وأحسنكم عقلا : أورعكم عن محارم الله وأعملكم بطاعة الله » (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : إنكم أتم عقلا. وأخرج أيضا عن سفيان قال : أزهدكم فى الدنيا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : لما نزلت : ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ [ الأنبياء : ١ ] قال ناس : إن الساعة قد اقتربت فتناهوا ، فتناهى القوم قليلا ثم عادوا إلى أعمالهم أعمال السوء ، فأنزل الله : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ [ النحل : ١ ] فقال ناس من أهل الضلال : هذا أمر الله قد أتى ، فتناهى القوم ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إلى أمة معدودة ﴾ قال: إلى أجل معدود . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة: ﴿ ليقولنّ

---

(١) ابن ماجة فى الزهد ( ٤٢٦٣ ) والطبرانى ( ١٠٤٠٣ ) قال البوصيرى فى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات » والحاكم ١/ ٣٦٧ وسكت عنه وافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب ( ٩٨٨٩ ) .
(٢) ابن جرير ١٢/ ٤ وصححه الحاكم ٢/ ٣٤١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

**ما يحبسه** ﴾ يعنى أهل النفاق . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله : ﴿ **وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ يقول : وقع بهم العذاب الذى استهزؤوا به .

﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤) مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١٧)** ﴾ .

اللام فى : ﴿ **ولئن أذقنا الإنسان** ﴾ هى الموطئة للقسم ، والإنسان الجنس ، فيشمل المؤمن والكافر ، ويدل على ذلك الاستثناء بقوله : ﴿ **إلا الذين صبروا** ﴾ وقيل : المراد : جنس الكفار ، ويؤيده أن اليأس والكفران والفرح والفخر هى أوصاف أهل الكفر لا أهل الإسلام فى الغالب . وقيل : المراد بالإنسان الوليد بن المغيرة . وقيل : عبد اللّه بن أمية المخزومى . والمراد بالرحمة هنا : النعمة من توفير الرزق والصحة والسلامة من المحن ﴿ **ثم نزعناها منه** ﴾ أى سلبناه إياها ﴿ **إنه ليؤوس** ﴾ أى آيس من الرحمة ، شديد القنوط من عودها وأمثالها ، والكفور : عظيم الكفران وهو الجحود بها قاله ابن الأعرابى ؛ وفى إيراد صيغتى المبالغة فى ﴿ **ليؤوس كفور** ﴾ ما يدلّ على أن الإنسان كثير اليأس، وكثير الجحد عند أن يسلبه اللّه بعض نعمه فلايرجو عودها ، ولا يشكر ما قد سلف له منها . وفى التعبير بالذوق ما يدلّ على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم اللّه بها عليه ؛ لأن الإذاقة والذوق أقلّ ما يوجد به الطعم ، والنعماء : إنعام يظهر أثره على صاحبه، والضّراء : ظهور أثر الإضرار على من أصيب به . والمعنى : أنه إن أذاق اللّه سبحانه العبد نعماءه من الصحة والسلامة ، والغنى بعد أن كان فى ضرّ من فقر أو مرض أو خوف ، لم يقابل ذلك بما يليق

به من الشكر للّه سبحانه ، بل يقول : ذهب السيئات، أى المصائب التى ساءته من الضرّ والفقر والخوف والمرض عنه ، وزال أثرها غير شاكر للّه ولا مثن عليه بنعمه ﴿ **إنه لفرح فخور**﴾ أى كثير الفرح بطرا وأشرا ، كثير الفخر على الناس ، والتطاول عليهم بما يتفضل اللّه به عليه من النعم، وفى التعبير عن ملابسة الضرّ له بالمس مناسبة للتعبير فى جانب النعماء بالإذاقة، فإن كليهما لأدنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة، كما تقدّم . ﴿ **إلا الذين صبروا** ﴾ فإن عادتهم الصبر عند نزول المحن ، والشكر عند حصول المنن . قال الأخفش : هو استثناء ليس من الأولّ ، أى ولكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فى حالتى النعمة والمحنة . وقال الفراء: هو استثناء من ﴿ **لئن أذقناه** ﴾ أى من الإنسان ، فإن الإنسان بمعنى الناس ، والناس يشمل الكافر والمؤمن ، فهو استثناء متصل ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصول باعتبار اتصافه بالصبر وعمل الصالحات ﴿ **لهم مغفرة** ﴾ لذنوبهم ﴿ **وأجر** ﴾ يؤجرون به لأعمالهم الحسنة ﴿ **كبير** ﴾ متناه فى الكبر .

ثم سلّى اللّه سبحانه رسوله ﷺ ، فقال : ﴿ **فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك** ﴾ أى فلعلك لعظم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب ، واقتراح الآيات التى يقترحونها عليه على حسب هواهم وتعنتهم تارك بعض ما يوحى إليك مما أنزله اللّه عليك وأمرك بتبليغه ، مما يشق عليهم سماعه ، أو يستشقون العمل به ، كسبّ آلهتهم وأمرهم بالإيمان باللّه وحده . وقيل : وهذا الكلام خارج مخرج الاستفهام ، أى هل أنت تارك ؟ وقيل : هو فى معنى النفى مع الاستبعاد ، أى لا يكون منك ذلك ، بل تبلغهم جميع ما أنزل اللّه عليك ، أحبوا ذلك أم كرهوه ، شاؤوا أم أبوا ﴿ **وضائق به صدرك** ﴾ معطوف على ﴿ **تارك** ﴾ ، والضمير فى « به » راجع إلى « ما » أو إلى ﴿ **بعض** ﴾ ، وعبر بضائق دون ضيق لأن اسم الفاعل فيه معنى الحدوث والعروض والصفة المشبهة فيها معنى اللزوم ﴿ **أن يقولوا** ﴾ أى كراهة أن يقولوا ، أو مخافة أن يقولوا ، أو لئلا يقولوا ﴿ **لولا أنزل عليه كنز** ﴾ أى هلا أنزل عليه كنز ، أى مال مكنوز مخزون ينتفع به ﴿ **أو جاء معه ملك** ﴾ يصدّقة ويبين لنا صحة رسالته ؛ ثم بين سبحانه أن حاله ﷺ مقصور على النذارة ، فقال : ﴿ **إنما أنت نذير** ﴾ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك ، وليس عليك حصول مطلوبهم وإيجاد مقترحاتهم ﴿ **واللّه على كل شىء وكيل** ﴾ يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل .

قوله : ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ « أم » هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة ، وأضرب عما تقدّم من تهاونهم بالوحى ، وعدم قنوعهم بما جاء به من المعجزات الظاهرة ، وشرع فى ذكر ارتكابهم لما هو أشدّ من ذلك ، وهو افتراؤهم عليه بأنه افتراه ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والضمير المستتر فى﴿ **افتراه** ﴾ للنبى ﷺ ، والبارز إلى ما يوحى . ثم أمره اللّه سبحانه أن يجيب عليهم بما يقطعهم ويبين كذبهم ويظهر به عجزهم فقال : ﴿ **قل فأتوا بعشر سور مثله**﴾

أى مماثلة له فى البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ وفخامة المعانى، ووصف السور بما يوصف به المفرد ، فقال: مثله ولم يقل: أمثاله؛ لأن المراد مماثلة كل واحد من السور ، أو لقصد الإيماء إلى وجه الشبه ، ومداره المماثلة فى شىء واحد ، وهو البلاغة البالغة إلى حدّ الإعجاز وهذا إنما هو على القول بأن المطابقة فى الجمع والتثنية والإفراد شرط ، ثم وصف السور بصفة أخرى ، فقال : ﴿ **مفتريات وادعوا** ﴾ للاستظهار على المعارضة بالعشر السور ﴿ **من استطعتم**﴾ دعاءه وقدرتم على الاستعانة به من هذا النوع الإنسانى ، وممن تعبدونه وتجعلونه شريكا للّه سبحانه . وقوله : ﴿ **من دون اللّه** ﴾ متعلق بـ﴿ **ادعوا** ﴾ أى ادعوا من استطعتم متجاوزين اللّه تعالى ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فيما تزعمون من افترائى له .

﴿ **فإن لم يستجيبوا لكم** ﴾ أى فإن لم يفعلوا ما طلبته منهم وتحدّيتهم به من الإتيان بعشر سور مثله ولا استجابوا إلى المعارضة المطلوبة منهم ويكون الضمير فى « لكم » لرسول اللّه ﷺ وللمؤمنين ، أو للنبى ﷺ وحده وجمع تعظيما وتفخيما ﴿ **فاعلموا** ﴾ أمر لرسول اللّه ﷺ وللمؤمنين أو للرسول ﷺ وحده على التأويل الذى سلف قريبا . ومعنى أمرهم بالعلم : أمرهم بالثبات عليه ؛ لأنهم عالمون بذلك من قبل عجز الكفار عن الإتيان بعشر سور مثله ، أو المراد بالأمر بالعلم : الأمر بالازدياد منه إلى حدّ لا يشوبه شك ولا تخالطه شبهة وهو علم اليقين ، والأوّل أولى . ومعنى ﴿ **أنما أنزل بعلم اللّه** ﴾: أنه أنزل متلبسا بعلم اللّه المختص به، الذى لا تطلع على كنهه العقول ولا تستوضح معناه الأفهام ، لما اشتمل عليه من الإعجاز الخارج عن طوق البشر ﴿ **وأن لا إله إلا هو** ﴾ أى واعلموا أن اللّه هو المتفرد بالألوهية لا شريك له، ولا يقدر غيره على ما يقدر عليه. ثم ختم الآية بقوله:﴿ **فهل أنتم مسلمون** ﴾ أى ثابتون على الإسلام مخلصون له مزدادون من الطاعات، لأنه قد حصل لكم بعجز الكفار عن الإتيان بمثل عشر سور من هذا الكتاب طمأنينة فوق ما كنتم عليه وبصيرة زائدة ، وإن كنتم مسلمين من قبل هذا فإن الثبوت عليه وزيادة البصيرة فيه والطمأنينة به مطلوب منكم . وقيل : إن الضمير فى ﴿ **فإن لم يستجيبوا** ﴾ للموصول فى ﴿ **من استطعتم** ﴾، وضمير ﴿ **لكم** ﴾ للكفار الذين تحدّاهم رسول اللّه ﷺ ، وكذلك ضمير ﴿ **فاعلموا** ﴾ والمعنى : فإن لم يستجب لكم من دعوتموهم للمعاضدة والمناصرة على الإتيان بعشر سور من سائر الكفار ومن يعبدونهم، ويزعمون أنهم يضرّون وينفعون ، فاعلموا أن هذا القرآن الذى أنزله اللّه على هذا الرسول خارج عن قدرة غيره سبحانه وتعالى ، لما اشتمل عليه من الإعجاز الذى تتقاصر دونه قوّة المخلوقين ، وأنه أنزل بعلم اللّه الذى لا تحيط به العقول ولا تبلغة الأفهام ، واعلموا أنه المنفرد بالألوهية لا شريك له ، فهل أنتم بعد هذا مسلمون ؟ أى داخلون فى الإسلام متبعون لأحكامه مقتدون بشرائعه . وهذا الوجه أقوى من الوجه الأوّل من جهة وأضعف منه من جهة ، فأما جهة قوّته: فلاتساق الضمائر وتناسبها ، وعدم احتياج بعضها إلى تأويل ، وأما ضعفه : فلِما فى ترتيب الأمر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعوهم واستعانوا بهم من الخفاء واحتياجه إلى

تكلف . وهو أن يقال : إن عدم استجابة من دعوهم واستعانوا بهم من الكفار والآلهة مع حرصهم على نصرهم ومعاضدتهم ومبالغتهم فى عدم إيمانهم واستمرارهم على الكفر يقيد حصول العلم لهؤلاء الكفار بأن هذا القرآن من عند الله ، وأن الله سبحانه هو الإله وحده لا شريك له، وذلك يوجب دخولهم فى الإسلام. واعلم أنه قد اختلف التحدّى للكفار بمعارضة القرآن ، فتارة وقع بمجموع القرآن كقوله :﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ [ الإسراء : ٨٨ ] وبعشر سور كما فى هذه الآية ، وذلك لأن العشرة أوّل عقد من العقود ، وبسورة منه كما تقدّم ؛ وذلك لأن السورة أقلّ طائفة منه.

ثم إن الله سبحانه توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا لا يطلب غيرها ولا يريد سواها فقال: ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها** ﴾ قال الفراء: إن ﴿**كان**﴾ هذه زائدة ، ولهذا جزم الجواب . وقال الزجاج : ﴿ **من كان** ﴾ فى موضع جزم بالشرط ، وجوابه ﴿ **نوفّ إليهم** ﴾ أى من يكن يريد واختلف أهل التفسير فى هذه الآية. فقال الضحاك: نزلت فى الكفار ، واختاره النحاس بدليل الآية التى بعدها ﴿ **أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار** ﴾ . وقيل : الآية واردة فى الناس على العموم كافرهم ومسلمهم ، والمعنى : أن من كان يريد بعمله حظّ الدنيا يكافأ بذلك ، والمراد بزينتها : ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن والسعة فى الرزق وارتفاع الحظّ ونفاذ القول ونحو ذلك . وإدخال ﴿ **كان** ﴾ فى الآية يفيد أنهم مستمرّون على إرادة الدنيا بأعمالهم لا يكادون يريدون الآخرة ، ولهذا قيل : إنهم مع إعطائهم حظوظ الدنيا يعذّبون فى الآخرة لأنهم جرّدوا قصدهم إلى الدنيا ولم يعملوا للآخرة . وظاهر قوله : ﴿ **نوفّ إليهم أعمالهم فيها** ﴾ أن من أراد بعمله الدنيا حصل له الجزاء الدنيوى ولا محالة ، ولكنّ الواقع فى الخارج يخالف ذلك . فليس كل متمنّ ينال من الدنيا أمنيته وإن عمل لها وأرادها ، فلابدّ من تقييد ذلك بمشيئة الله سبحانه . قال القرطبى : ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة ، وكذلك الآية التى فى الشورى ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها﴾ [ الشورى : ٢٠ ] وكذلك ﴿ ومن يُرد ثواب الدنيا نؤته منها ﴾ [ آل عمران : ١٤٥ ] قيدتها وفسرتها التى فى سبحان ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ [ الإسراء : ١٨ ] قوله :﴿ **وهم فيها لا يبخسون**﴾ أى و هؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم فيها ، أى فى الدنيا لا يبخسون ، أى لا ينقصون من جزائهم فيها بحسب أعمالهم لها ، وذلك فى الغالب وليس بمطرد ، بل إن قضت به مشيئته سبحانه ، ورجحته حكمته البالغة . وقال القاضى : معنى الآية : من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيا ، وهو ما ينالون من الصحة والكفاف وسائر اللذات والمنافع ، فخصّ الجزاء بمثل ما ذكره وهو حاصل لكل عامل للدنيا ولو كان قليلا يسيرا .

قوله : ﴿ أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ﴾ الإشارة إلى المريدين المذكورين ، ولا بدّ من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشيء من الأعمال المعتدّ بها الموجبة للجزاء الحسن فى الدار الآخرة ، أو تكون الآية خاصة بالكفار كما تقدّم ﴿ وحبط ما صنعوا ﴾ أى ظهر فى الدار الآخرة حبوط ما صنعوه من الأعمال التى كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الأخروى ، لولا أنهم أفسدوها بفساد مقاصدهم ، وعدم الخلوص ، وإرادة ما عند الله فى دار الجزاء ، بل قصروا ذلك على الدنيا وزينتها ؛ ثم حكم سبحانه ببطلان عملهم فقال: ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ أى أنه كان عملهم فى نفسه باطلا غير معتدّ به ؛ لأنه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاء ، ويترتب عليه ما يترتب على العمل الصحيح .

قوله : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ بين سبحانه أن بين من كان طالبا للدنيا فقط ، ومن كان طالبا للآخرة تفاوتا عظيما ، وتباينا بعيدا ، والمعنى : أفمن كان على بينة من ربه فى اتباع النبىّ ﷺ والإيمان بالله كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها . وقيل : المراد بمن كان على بينة من ربه بالنبى ﷺ ، أى أفمن كان معه بيان من الله ومعجزة كالقرآن ومعه شاهد كجبريل ، وقد بشرت به الكتب السالفة،كمن كان يريد الحياة وزينتها . ومعنى البينة : البرهان الذى يدلّ على الحق ، والضمير فى قوله : ﴿ ويتلوه شاهد ﴾ راجع إلى البينة باعتبار تأويلها بالبرهان ، والضمير فى ﴿ منه ﴾ راجع إلى القرآن ؛ لأن قد تقدّم ذكره فى قوله : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ [ يونس : ٣٨ ] أو راجع إلى الله تعالى . والمعنى : ويتلو البرهان الذى هو البينة شاهد يشهد بصحته من القرآن ، أو من الله سبحانه . والشاهد : هو الإعجاز الكائن فى القرآن ، أو المعجزات التى ظهرت لرسول الله ﷺ ، فإن ذلك من الشواهد التابعة للقرآن . وقال الفراء : قال بعضهم : ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ : الإنجيل، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن فى التصديق ، والهاء فى : ﴿ منه ﴾ لله عزّ وجلّ ؛ وقيل : المراد بمن كان على بينة من ربه : هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه .

قوله: ﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ معطوف على﴿ شاهد ﴾ ،والتقدير:ويتلو الشاهد شاهد آخر من قبله هو كتاب موسى ، فهو وإن كان متقدمًا فى النزول فهو يتلو الشاهد فى الشهادة ، وإنما قدم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخرا فى الوجود لكونه وصفا لازما غير مفارق،فكان أغرق فى الوصفية من كتاب موسى. ومعنى شهادة كتاب موسى،وهو التوراة:أنه بشر بمحمد ﷺ وأخبر بأنه رسول من الله. قال الزجاج:والمعنى:ويتلوه من قبله كتاب موسى؛لأن النبى ﷺ موصوف فى كتاب موسى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل. وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ:«ومن قبله كتاب موسى » بالنصب ،وحكاه المهدوى عن الكلبى فيكون معطوفا على الهاء فى ﴿يتلوه﴾. والمعنى: ويتلو كتاب موسى جبريل، وانتصاب ﴿ إماما ورحمة ﴾ على الحال ، والإمام: هو الذى يؤتمّ به فى الدين ويقتدى به،

والرحمة : النعمة العظيمة التى أنعم اللّه بها على من أنزله عليهم ، وعلى من بعدهم باعتبار ما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية الموافقة لحكم القرآن ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المتصفين بتلك الصفة الفاضلة ، وهو الكون على البينة من اللّه ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره ﴿**يؤمنون به** ﴾ أى يصدّقون بالنبىّ ﷺ أوبالقرآن ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب** ﴾ أى بالنبىّ أو بالقرآن . والأحزاب المتحزّبون على رسول اللّه ﷺ من أهل مكة وغيرهم ، أو المتحزّبون من أهل الأديان كلها ﴿ **فالنار موعده** ﴾ أى هو من أهل النار لا محالة ، وفى جعل النار موعدا إشعار بأن فيها ما لا يحيط به الوصف من أفانين العذاب ، ومثله قول حسان :

أوردتموها حياض الموت صاحية فالنار موعدها والموت لاقيها

﴿ **فلا تك فى مرية منه** ﴾ أى لاتك فى شك من القرآن، وفيه تعريض بغيره ﷺ لأنه معصوم عن الشك فى القرآن، أو من الموعد ﴿ **إنه الحق من ربك** ﴾ فلا مدخل للشك فيه بحال من الأحوال ﴿ **ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ بذلك مع وجوب الإيمان به ، وظهور الدلائل الموجبة له ، ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه حقا ، أو قد طبع على قلوبهم فلا يفهمون أنه الحق أصلا .

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله :﴿ **فهل أنتم مسلمون** ﴾ قال : لأصحاب محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبوالشيخ وابن مردويه عن أنس فى قوله:﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها** ﴾ قال : نزلت فى اليهود والنصارى . وأخرج ابن أبى حاتم عن عبد اللّه بن معبد قال : قام رجل إلى علىّ فقال : أخبرنا عن هذه الآية : ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا** ﴾ إلى قوله:﴿ **وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ قال : ويحك ذاك من كان يريد الدنيا لا يريد الآخرة . وأخرج النحاس عن ابن عباس ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا** ﴾ أى ثوابها ﴿ **وزينتها** ﴾ مالها ﴿ **نوفّ إليهم** ﴾ نوفر لهم بالصحة والسرور فى الأهل والمال والولد﴿ **وهم فيها لا يبخسون** ﴾ لا ينقصون . ثم نسخها :﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء ﴾ الآية [ الإسراء : ١٨ ] . وأخرج أبو الشيخ عن السدّى مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : من عمل صالحا : التماس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا ، يقول اللّه أوفيه الذى التمس فى الدنيا وحبط عمله الذى كان يعمل ، وهو فى الآخرة من الخاسرين . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : نزلت هذه الآية فى أهل الشرك . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **نوفّ إليهم أعمالهم** ﴾ قال : طيباتهم . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله : ﴿ **وحبط ما صنعوا فيها** ﴾ قال : حبط ماعملوا من خير وبطل فى الآخرة ليس لهم فيها جزاء . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : هم

أهل الرياء .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة عن علىّ بن أبى طالب قال : ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن ، فقال له رجل : ما نزل فيك ؟ قال : أما تقرأ سورة هود : ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه** ﴾ رسول الله ﷺ بينة من ربه ، وأنا شاهد منه . وأخرج ابن عساكر وابن مردويه من وجه آخر عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أفمن كان على بينة من ربه : أنا ، ويتلوه شاهد منه : علىٌّ » . وأخرج أبو الشيخ عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه** ﴾ قال : ذاك محمد ﷺ . وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم نحوه . وأخر ابن جرير وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو الشيخ عن محمد بن علىّ بن أبى طالب قال : قلت لأبى : إن الناس يزعمون فى قول الله سبحانه : ﴿ **ويتلوه شاهد منه** ﴾ أنك أنت التالى ، قال : وددت أنى أنا هو ، ولكنه لسان محمد ﷺ . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة عن ابن عباس ؛ أن الشاهد جبريل ووافقه سعيد بن جبير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال :جبريل فهو شاهد من الله بالذى يتلوه من كتاب الله الذى أنزل على محمد﴿ **ومن قبله كتاب موسى** ﴾ قال : ومن قبله التوراة على لسان موسى كما تلا القرآن على لسان محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكرعن الحسن بن علىّ فى قوله:﴿ **ويتلوه شاهد منه** ﴾ قال : محمد هو الشاهد من الله . وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم : ﴿ **ومن قبله كتاب موسى** ﴾ قال:ومن قبله جاء الكتاب إلى موسى . وأخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب** ﴾ قال : الكفار أحزاب كلهم على الكفر. وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب** ﴾ قال : من اليهود والنصارى .

**﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ**

**يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٤)** ﴾ .

قوله : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا** ﴾ أى لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله كذبا بقولهم لأصنامهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وقولهم : الملائكة بنات الله ، وأضافوا كلامه سبحانه إلى غيره ، واللفظ وإن كان لا يقتضى إلا نفى وجود من هو أظلم منهم كما يفيده الاستفهام الإنكارى ، فالمقام يفيد نفى المساوى لهم فى الظلم . فالمعنى على هذا : لا أحد مثلهم فى الظلم فضلا عن أن يوجد من هو أظلم منهم ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصوفين بالظلم المتبالغ ، وهو مبتدأ ، وخبره ﴿ **يعرضون على ربهم** ﴾ فيحاسبهم على أعمالهم ، أو المراد بعرضهم : عرض أعمالهم: ﴿ **ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم** ﴾ الأشهاد : هم الملائكة الحفظة ، وقيل : المرسلون . وقيل : الملائكة والمرسلون والعلماء الذين بلغوا ما أمرهم الله بإبلاغه . وقيل : جميع الخلائق . والمعنى : أنه يقول هؤلاء الأشهاد عند العرض : هؤلاء المعرضون أو المعروضة أعمالهم الذين كذبوا على ربهم بما نسبوه إليه ولم يصرّحوا بما كذبوا به ، كأنه كان أمرا معلوما عند أهل ذلك الموقف . قوله : ﴿ **ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾ هذا من تمام كلام الأشهاد ، أى يقولون هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ويقولون : ألا لعنة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالافتراء ، ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه قاله بعد ما قال الأشهاد : ﴿ **هؤلاء الذين كذبوا على ربهم** ﴾. والأشهاد جمع شهيد ، ورجحه أبو علىّ بكثرة ورود شهيد فى القرآن كقوله : ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ [ البقرة : ١٤٣ ] ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ [ النساء : ٤١ ] . وقيل : هو جمع شاهد كأصحاب وصاحب ،والفائدة فى قول الأشهاد بهذه المقالة المبالغة فى فضيحة الكفار ، والتقريع لهم على رؤوس الأشهاد .

ثم وصف هؤلاء الظالمين الذين لعنوا بأنهم ﴿ **الذين يصدّون عن سبيل الله** ﴾ أى يمنعون من قدروا على منعه عن دين الله والدخول فيه ﴿ **ويبغونها عوجا** ﴾ أى يصفونها بالاعوجاج تنفيرا للناس عنها : أو يبغون أهلها أن يكونوا معوجين بالخروج عنها إلى الكفر ، يقال: بغيتك شراً ، أى طلبته لك ، والحال أنهم ﴿ **بالآخرة هم كافرون** ﴾ أى يصفونها بالعوج ، والحال أنهم بالآخرة غيرمصدّقين فكيف يصدّون الناس عن طريق الحق وهم على الباطل البحت؟ وتكريرالضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به،حتى كأن كفرغيرهم غيرمعتدّ به بالنسبة إلى عظيم كفرهم ﴿**أولئك**﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿**لم يكونوا معجزين فى الأرض**﴾ أى ما كانوا يعجزون الله فى الدنيا إن أراد عقوبتهم ﴿ **وما كان لهم من دون الله من أولياء** ﴾ يدفعون عنهم ما يريده الله سبحانه من عقوبتهم وإنزال بأسه بهم،وجملة ﴿ **يضاعف لهم العذاب**﴾ مستأنفة لبيان أن تأخير العذاب والتراخى عن تعجيله لهم ليكون عذابا مضاعفا. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويزيد ويعقوب:«يضعف » مشدّدا ﴿ **ما كانوا يستطيعون السمع** ﴾ أى أفرطوا فى

إعراضهم عن الحق وبغضهم له حتى كأنهم لا يقدرون على السمع ولا يقدرون على الإبصار لفرط تعاميهم عن الصواب . ويجوز أن يراد بقوله : ﴿ **وما كان لهم من دون الله من أولياء** ﴾ أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون الله ولا ينفعهم ذلك ، فما كان هؤلاء الأولياء يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ، فكيف ينفعونهم فيجلبون لهم نفعا أو يدفعون عنهم ضررا ، ويجوز أن تكون « ما » هى المدّية . والمعنى : أنه يضاعف لهم العذاب مدّة استطاعتهم السمع والبصر . قال الفراء : ما كانوا يستطيعون السمع لأن الله أضلهم فى اللوح المحفوظ . وقال الزجاج : لبغضهم النبى ﷺ وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفهموا عنه . قال النحاس : هذا معروف فى كلام العرب ، يقال : فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان ، إذا كان ثقيلا عليه ﴿ **أولئك** ﴾ المتصفون بتلك الصفات ﴿ **الذين خسروا أنفسهم** ﴾ بعبادة غير الله. والمعنى : اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله فكان خسرانهم فى تجارتهم أعظم خسران ﴿**وضلّ عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أى ذهب وضاع ما كانوا يفترون من الآلهة التى يدّعون أنها تشفع لهم ولم يبق بأيديهم إلا الخسران .

قوله :﴿ **لا جرم** ﴾ قال الخليل وسيبويه :« لا جرم » بمعنى حق فهى عندهما بمنزلة كلمة واحدة ، وبه قال الفراء . وروى عن الخليل والفراء أنها بمنزلة قولك : لابدّ ولا محالة ، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا. وقال الزجاج : إن جرم بمعنى كسب ، أى كسب ذلك الفعل لهم الخسران ، وفاعل كسب مضمر ، وأنّ منصوبة بجرم . قال الأزهرى : وهذا من أحسن ما نقل فى هذه اللغة . وقال الكسائى : معنى لا جرم : لا صدّ ولا منع عن أنهم فى الآخرة هم الأخسرون . وقال جماعة من النحويين :إن معنى لاجرم لا قطع قاطع ﴿ **أنهم فى الآخرة هم الأخسرون** ﴾ قالوا : والجرم : القطع ، وقد جرم النخل واجترمه ، أى قطعه ، وفى هذه الآية بيان أنهم فى الخسران قد بلغوا إلى حدّ يتقاصر عنه غيرهم ولا يبلغ إليه ، وهذه الآيات مقرّرة لما سبق من نفى المماثلة بين من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ، وبين من كان على بينة من ربه ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ أى صدقوا بكل ما يجب التصديق به من كون القرآن من عند الله وغير ذلك من خصال الإيمان ﴿ **وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم** ﴾ أى أنابوا إليه ، وقيل :خشعوا . وقيل :خضعوا . قيل: وأصل الإخبات:الاستواء فى الخبت، وهو الأرض المستوية الواسعة فيناسب معنى الخشوع والاطمئنان . قال الفراء : إلى ربهم، ولربهم واحد ﴿ **أولئك** ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الصالحة ﴿ **أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ .

قوله : ﴿ **مثل الفريقين كالأعمى والأصمّ والبصير والسميع** ﴾ ضرب للفريقين مثلا وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصمّ ، وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع،على أن كل فريق شبه بشيئين ، أوشبه بمن جمع بين الشيئين ، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى

والصمم ، والمؤمن شبه بمن جمع بين السمع والبصر ، وعلى هذا تكون الواو فى ﴿**والأصم**﴾ ، وفى ﴿ **والسميع** ﴾ لعطف الصفة على الصفة ، كما فى قول الشاعر :

إلى الملك القرْم (١) وابن الهُمام (٢)

والاستفهام فى قوله: ﴿ **هل يستويان** ﴾ للإنكار: يعنى الفريقين، وهذه الجملة مقرّرة لما تقدّم من قوله: ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه** ﴾ وانتصاب مثلا على التميز من فاعل يستويان ، أى هل يستويان حالا وصفة ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ فى عدم استوائهما وفيما بينهما من التفاوت الظاهر الذى لايخفى على من له تذكر ، وعنده تفكر وتأمل ، والهمزة لإنكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين .

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ومن أظلم** ﴾ قال : الكافر والمنافق ﴿ **أولئك يعرضون على ربهم** ﴾ فيسألهم عن أعمالهم ﴿ **ويقول الأشهاد** ﴾ الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم فى الدنيا ﴿ **هؤلاء الذين كذبوا على ربهم** ﴾ شهدوا به عليهم يوم القيامة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : « الأشهاد : الملائكة » . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة نحوه . وفى الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله يدنى المؤمن حتى يضع كنفه (٣) ويستره من الناس ويقرّره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : ربّ ، أعرف ، حتى إذا قرّره بذنوبه ، ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : ﴿ **هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾ (٤) .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله : ﴿ **الذين يصدّون عن سبيل الله**﴾ قال : هو محمد يعنى سبيل الله ، صدّت قريش عنه الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **ويبغونها عوجا** ﴾ يعنى : يرجون بمكة غير الإسلام دينا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض** ﴾ الآية قال : أخبر الله سبحانه أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فإنه قال : ﴿ **ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون** ﴾ وأما فى الآخرة فإنه قال : ﴿ **فلا يستطيعون . خاشعة** ﴾ [ القلم : ٤٢، ٤٣ ] . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **ما كانوا يستطيعون السمع** ﴾ قال : ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا خيرا فينتفعوا به . ولا يبصروا خيرا فيأخذوا به .

---

(١) القرم : المعظم والمبجل . (٢) الهمام : الشجاع .
(٣) كَنَفَهُ : ستره وعفوه .
(٤) أحمد ٢/ ٧٤ والبخارى فى المظالم ( ٢٤٤١) ومسلم فى التوبة ( ٢٧٦٨/ ٥٢ ) وابن ماجة فى المقدمة ( ١٨٣) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أخبتوا** ﴾ قال: خافوا . وأخرج ابن جرير عنه قال:الإخبات : الإنابة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ قال: الإخبات : الخشوع والتواضع . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد قال : اطمأنوا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مثل الفريقين كالأعمى والأصم** ﴾ قال : الكافر ﴿ **والبصير والسميع** ﴾ قال : المؤمن .

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)** ﴾ .

لما أورد سبحانه على الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ أنواع الدلائل التى هى أوضح من الشمس ، أكد ذلك بذكر القصص على طريقة التفنن فى الكلام ، ونقله من أسلوب إلى أسلوب لتكون الموعظة أظهر والحجة أبين ، والقبول أتمّ ، فقال : ﴿**ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين**﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بفتح الهمزة على تقدير حرف الجر، أى أرسلناه بأنى ، أى أرسلناه متلبسا بذلك الكلام ، وهو أنى لكم نذير مبين . وقرأ الباقون بالكسر على إرادة القول ، أى قائلا :إنى لكم ، والواو فى :﴿ **ولقد** ﴾ للابتداء ، واللام هى الموطئة للقسم ، واقتصر على النذارة دون البشارة، لأن دعوته كانت لمجرد الإنذار ، أو لكونهم لم يعملوا بما بشرهم به ، وجملة : ﴿ **أن لا تعبدوا إلا الله** ﴾ بدل من إنى لكم نذير مبين ، أى أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله ، أو تكون أن مفسرة متعلقة بأرسلنا ، أو بنذير، أو بمبين ، وجملة : ﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾ تعليلية . والمعنى :

نهيتكم عن عبادة غير الله لأنى أخاف عليكم ، وفيها تحقيق لمعنى الإنذار ، واليوم الأليم: هو يوم القيامة ، أو يوم الطوفان ، ووصفه بالأليم من باب الإسناد المجازى مبالغة .

ثم ذكر ما أجاب به قومه عليه وهذا الجواب يتضمن الطعن منهم فى نبوّته من ثلاث جهات فقال : ﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه** ﴾ والملأ : الأشراف ، كما تقدم غير مرة ، ووصفهم بالكفر ذما لهم ، وفيه دليل على أن بعض أشراف قومه لم يكونوا كفرة ﴿ **ما نراك إلا بشرا مثلنا** ﴾ هذه الجهة الأولى من جهات طعنهم فى نبوّته، أى نحن وأنت مشتركون فى البشرية فلم يكن لك علينا مزية تستحق بها النبوّة دوننا ، والجهة الثانية : ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا** ﴾ ولم يتبعك أحد من الأشراف، فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الأرذل بك. والأرذل جمع أرذل ، وأرذل جمع رذل مثل : أكالب وأكلب وكلب . وقيل : الأراذل جمع الأرذل كالأساود جمع أسود ، وهم السفلة . قال النحاس : الأراذل: الفقراء والذين لا حسب لهم ، والحسب الصناعات . قال الزجاج : نسبوهم إلى الحياكة ، ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها فى الديانة . وقال ثعلب عن ابن الأعرابى : السفلة هو الذى يصلح الدنيا بدينه ، قيل له : فمن سفلة السفلة ؟ قال : الذى يصلح دنيا غيره بفساد دينه . والظاهر من كلام أهل اللغة أن السفلة هو الذى يدخل فى الحرف الدنية . والرؤية فى الموضعين إن كانت القلبية فـ﴿ **بشرا** ﴾ فى الأوّل و﴿ **اتبعك** ﴾ فى الثانى هما المفعول الثانى ، وإن كانت البصرية فهما منتصبان على الحال وانتصاب ﴿ **بادى الرأى** ﴾ على الظرفية والعامل فيه ﴿ **اتبعك** ﴾ . والمعنى : فى ظاهر الرأى من غير تعمق ، يقال : بدا يبدو : إذا ظهر . قال الأزهرى : معناه : فيما يبدو لنا من الرأى . والوجه الثالث من جهات قدحهم فى نبوّته : ﴿**وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾ خاطبوه فى الوجهين الأولين منفردا ، وفى هذا الوجه خاطبوه مع متبعيه ، أى ما نرى لك ولمن اتبعك من الأراذل علينا من فضل يتميزون به وتستحقون ماتدّعونه ، ثم أضربوا عن الثلاثة المطاعن وانتقلوا إلى ظنهم المجرّد عن البرهان الذى لا مستند له إلا مجرد العصبية والحسد ، واستبقاء ما هم فيه من الرياسة الدنيوية ، فقالوا: ﴿ **بل نظنكم كاذبين** ﴾ فيما تدّعونه ، ويجوز أن يكون هذا خطابا للأراذل وحدهم ؛ والأوّل أولى ، لأن الكلام مع نوح لا معهم إلا بطريق التبعية له .

ثم ذكر سبحانه ما أجاب به نوح عليهم ، فقال : ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى** ﴾ أى أخبرونى إن كنت على برهان من ربى فى النبوّة يدل على صحتها ويوجب عليكم قبولها مع كون ما جعلتموه قادحا ليس بقادح فى الحقيقة ، فإن المساواة فى صفة البشرية لا تمنع المفارقة فى صفة النبوّة ، واتباع الأراذل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوّة فإنهم مثلكم فى البشرية والعقل والفهم ، فاتباعهم لى حجة عليكم لا لكم ، ويجوز أن يريد بالبينة المعجزة ﴿ **وآتانى رحمة من عنده** ﴾ هى النبوّة ، وقيل : الرحمة : المعجزة ، والبينة : النبوّة. قيل : ويجوز أن تكون الرحمة هى البينة نفسها، والأولى تفسير الرحمة بغير ما فسرت به

البينة، والإفراد فى : ﴿ فعميت ﴾ على إرادة كل واحدة منهما ، أو على إرادة البينة ، لأنها هى التى تظهر لمن تفكر وتخفى على من لم يتفكر ، ومعنى عميت : خفيت . وقيل : الرحمة هى على الخلق . وقيل : هى الهداية إلى معرفة البرهان . وقيل : الإيمان ، يقال : عميت عن كذا ، وعمى علىّ كذا : إذا لم أفهمه . قيل: وهو من باب القلب ، لأن البينة أوالرحمة لا تعمى ، وإنما يعمى عنها فهو كقولهم : أدخلت القلنسوة رأسى . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى وحفص :﴿ فعميت ﴾ بضم العين وتشديد الميم على البناء للمفعول ، أى فعماها الله عليكم ، وفى قراءة أبىّ : « فعماها عليكم » والاستفهام فى : ﴿أنلزمكموها﴾ للإنكار، أى لا يمكننى أن أضطركم إلى المعرفة بها، والحال أنكم ﴿ لها كارهون ﴾ ، والمعنى: أخبرونى إن كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة نبوّتى إلا أنها خافية عليكم أيمكننا أن نضطركم إلى العلم بها ، والحال أنكم لها كارهون غير متدبرين فيها ، فإن ذلك لا يقدر عليه إلا الله عزّ وجلّ . وحكى الكسائى والفراء إسكان الميم الأولى فى ﴿ أنلزمكموها ﴾ تخفيفا كما فى قول الشاعر :

فاليوم أشرب غير مستحقب (١) إثما من الله ولا واغل (٢)

فإن إسكان الباء فى أشرب للتخفيف . وقد قرأ أبو عمر كذلك .

قوله : ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله ﴾ فيه التصريح منه عليه السلام بأنه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالا حتى يكون بذلك محلا للتهمة ، ويكون لقول الكافرين مجال بأنه إنما ادّعى ما ادعى طلبا للدنيا ، والضمير فى عليه راجع إلى ما قاله لهم فيما قبل هذا . وقوله : ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ كالجواب عما يفهم من قولهم: ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ من التلميح منهم إلى إبعاد الأراذل عنه . وقيل : إنهم سألوه طردهم تصريحا لا تلميحا ، ثم علل ذلك بقوله :﴿ إنهم ملاقوا ربهم ﴾ أى لا أطردهم فإنهم ملاقون يوم القيامة ربهم فهو يجازيهم على إيمانهم لأنهم طلبوا ما عنده سبحانه ، وكأنه قال : هذا على وجه الإعظام لهم ، ويحتمل أنه قاله خوفا من مخاصمتهم له عند ربهم بسبب طرده لهم ؛ ثم بين لهم ما هم عليه فى هذه المطالب التى طلبوها منه والعلل التى اعتلوا بها عن إجابته فقال : ﴿ ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ كل ماينبغى أن يعلم ، ومن ذلك استرذالهم للذين اتبعوه ، وسؤالهم له أن يطردهم . ثم أكد عدم جواز طردهم بقوله : ﴿ ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ﴾ أى من يمنعنى من عذاب الله وانتقامه إن طردتهم ؟ فإن طردهم بسبب سبقهم إلى الإيمان ، والإجابة إلى الدعوة التى أرسل الله رسوله لأجلها ظلم عظيم ، لا يقع من أنبياء الله المؤيدين بالعصمة ، ولو وقع ذلك منهم فرضا وتقديرا لكان فيه

(١) احتقب الإثم واستحقبه : احتمله .

(٢) الواغل : الداخل على الشراب ولم يدع له .

من الظلم ما لا يكون لو فعله غيرهم من سائر الناس . وقوله :﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ معطوف على مقدّر ، كأنه قيل : أتستمرون على ماأنتم عليه من الجهل بما ذكر ، أفلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغي تذكره ، وتتفكرون فيه حتى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطأ ، وما هم عليه من الصواب .

قوله : ﴿ **ولا أقول لكم عندى خزائن اللّه** ﴾ بين لهم أنه كما لا يطلب منهم شيئا من أموالهم على تبليغ الرسالة،كذلك لايدّعى أن عنده خزائن اللّه حتى يستدلوا بعدمها على كذبه، كما قالوا :﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾ والمراد بخزائن اللّه:خزائن رزقه﴿ **ولا أعلم الغيب** ﴾ أى ولا أدّعى أنى أعلم بغيب اللّه، بل لم أقل لكم إلا أنى نذير مبين ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴿ **ولا أقول** ﴾ لكم ﴿ **إنى ملك** ﴾ حتى تقولوا ما نراك إلا بشرًا مثلنا . وقد استدلّ بهذا من قال : إن الملائكة أفضل من الأنبياء ، والأدلة فى هذه المسألة مختلفة ، وليس لطالب الحق إلى تحقيقها حاجة ، فليست مما كلفنا اللّه بعلمه ﴿ **ولا أقول للذين تزدرى أعينكم** ﴾ أى تحتقر ، والازدراء مأخوذ من أزرى عليه : إذا عابه ، وزرى عليه : إذا احتقره ، وأنشد الفراء :

يباعده الصديق وتزدريه خليلته وينهره الصغير

والمعنى : إنى لا أقول لهؤلاء المتبعين لى المؤمنين باللّه الذين تعيبونهم وتحتقرونهم : ﴿**لن يؤتيهم اللّه خيرا**﴾ بل قد آتاهم الخير العظيم بالإيمان به واتباع نبيه ؛ فهو مجازيهم بالجزاء العظيم فى الآخرة ، ورافعهم فى الدنيا إلى أعلى محل ، ولا يضرّهم احتقاركم لهم شيئا ﴿**اللّه أعلم بما فى أنفسهم** ﴾ من الإيمان به والإخلاص له فمجازيهم على ذلك ، ليس لى ولا لكم من أمرهم شيء ﴿ **إنى إذا لمن الظالمين** ﴾ لهم إن فعلت ما تريدونه بهم ، أو من الظالمين لأنفسهم إن فعلت ذلك بهم ، ثم جاوبوه بغير ما تقدّم من كلامهم وكلامه ، عجزا عن القيام بالحجة وقصورا عن رتبة المناظرة وانقطاعا عن المباراة بقولهم : ﴿ **يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا** ﴾ أى خاصمتنا بأنواع الخصام ، ودفعتنا بكل حجة لها مدخل فى المقام ، ولم يبق لنا فى هذا الباب مجال ، فقد ضاقت علينا المسالك وانسدّت أبواب الحيل ﴿ **فأتنا بما تعدنا** ﴾ من العذاب الذى تخوّفنا منه وتخافه علينا ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾ فيما تقوله لنا . فأجاب بأن ذلك ليس إليه وإنما هو بمشيئة اللّه وإرادته ، و﴿ **قال إنما يأتيكم به اللّه إن شاء** ﴾ فإن قضت مشيئته وحكمته بتعجيله عجله لكم ، وإن قضت مشيئته وحكمته بتأخيره أخره ﴿ **وما أنتم بمعجزين** ﴾ بفائتين عما أراده اللّه بكم بهرب أو مدافعة .

﴿ **ولا ينفعكم نصحى** ﴾ الذى أبذله لكم وأستكثر منه قياما منى بحق النصيحة للّه بإبلاغ رسالته ، ولكم بإيضاح الحق ، وبيان بطلان ما أنتم عليه ﴿ **إن أردت أن أنصح لكم** ﴾ وجواب هذا الشرط محذوف ، والتقدير : إن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى ، كما

يدل عليه ماقبله ، ﴿ **إن كان اللّه يريد أن يغويكم** ﴾ أى إن كان اللّه يريد إغواءكم فلا ينفعكم النصح منى ، فكان جواب هذا الشرط محذوفا كالأوّل ، وتقديره ماذكرنا ، وهذا التقدير إنما هو على مذهب من يمنع من تقدّم الجزاء على الشرط ، وأما على مذهب من يجيزه، فجزاء الشرط الأوّل : ﴿ **ولا ينفعكم نصحى** ﴾ ، وجزاء الشرط الثانى الجملة الشرطية الأولى وجزاؤها . قال ابن جرير : معنى ﴿ **يغويكم** ﴾ : يهلككم بعذابه ، وظاهر لغة العرب أن الإغواء : الإضلال ؛ فمعنى الآية : لا ينفعكم نصحى إن كان اللّه يريد أن يضلكم عن سبيل الرشاد ، ويخذلكم عن طريق الحق . وحكى عن طىّ : أصبح فلان غاويا ، أى مريضا ، وليس هذا المعنى هو المراد فى الآية . وقد ورد الإغواء بمعنى الإهلاك ، ومنه : ﴿ فسوف يلقون غيا ﴾ [مريم : ٥٩] وهو غير ما فى هذه الآية ﴿ **هو ربكم** ﴾ فإليه الإغواء وإليه الهداية ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ فيجازيكم بأعمالكم إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشرّ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى** ﴾ قال : فيما ظهر لنا . وأخرج أبو الشيخ عن عطاء مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **إن كنت على بينة من ربى** ﴾ قال : قد عرفتها وعرفت بها أمره ، وأنه لا إله إلا هو ، ﴿ **وآتانى رحمة من عنده** ﴾ قال : الإسلام والهدى والإيمان والحكم والنبوّة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **أنلزمكموها** ﴾ قال : أما واللّه لو استطاع نبىّ اللّه لألزمها قومه ، ولكنه لم يستطع ذلك ولم يملكه . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ؛ أنه كان يقرأ : « أنلزمكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون » . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية قال فى قراءة أبىّ : « أنلزمكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبىّ بن كعب أنه قرأ : « أنلزمكموها من شطر قلوبنا » .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **وما أنا بطارد الذين آمنوا** ﴾ ، قال : قالوا له : يانوح ، إن أحببت أن نتبعك فاطردهم ، وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم فى الأرض سواء ، وفى قوله : ﴿ **إنهم ملاقو ربهم** ﴾ قال: فيسألهم عن أعمالهم ﴿ **ولا أقول لكم عندى خزائن اللّه** ﴾ التى لا يفنيها شىء ، فأكون إنما دعوتكم لتتبعونى عليها، لا أعطيكم بملكه لى عليها ﴿ **ولا أعلم الغيب** ﴾ لا أقول : اتبعونى على علمى بالغيب ﴿ **ولا أقول إنى ملك** ﴾ نزلت من السماء برسالة ، ما أنا إلا بشر مثلكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد ﴿ **ولا أقول للذين تزدرى أعينكم** ﴾ . قال : حقرتموهم . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **لن يؤتيهم اللّه خيرا** ﴾ قال : يعنى إيمانا : وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **فأتنا بما تعدنا** ﴾ قال : تكذيبا بالعذاب وأنه باطل .

﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ** (٣٥) **وَأُوحِيَ**

**إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ .**

قوله : ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ أنكر سبحانه عليهم قولهم : إن ما أوحى إلى نوح مفترى، فقال : ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ ثم أمره أن يجيب بكلام متصف ، فقال : ﴿ **قل إن افتريته فعلىّ إجرامى** ﴾ بكسر الهمزة على قراءة الجمهور ، مصدر أجرم : أى فعل ما يوجب الإثم ، وجرم وأجرم بمعنى قاله النحاس ، والمعنى : فعلىّ إثمى أو جزاء كسبى . ومن قرأ بفتح الهمزة، قال: هو جمع جرم ذكره النحاس أيضا ﴿ **وأنا برىء مما تجرمون** ﴾ أى من إجرامكم بسبب ما تنسبونه إلىّ من الافتراء . قيل : وفى الكلام حذف والتقدير : لكن ما افتريته ، فالإجرام وعقابه ليس إلا عليكم وأنا برىء منه . وقد اختلف المفسرون فى هذه الآية ، فقيل : إنها حكاية عن نوح وما قاله لقومه . وقيل : هى حكاية عن المحاورة الواقعة بين نبينا محمد ﷺ وكفار مكة . والأوّل أولى ، لأن الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام .

قوله : ﴿ **وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن** ﴾ : ﴿ **أنه لن يؤمن** ﴾ فى محل رفع على أنه نائب الفاعل الذى لم يسمّ . ويجوز أن يكون فى موضع نصب بتقدير الباء . أى بأنه ، وفى الكلام تأييس له من إيمانهم . وأنهم مستمرّون على كفرهم . مصممون عليه ، لا يؤمن أحد منهم إلا من قد سبق إيمانه ﴿ **فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** ﴾ البؤس : الحزن ، أى فلا تحزن ، والبائس : المستكين . فنهاه اللّه سبحانه عن أن يحزن حزن مستكين لأن الابتئاس حزن فى استكانة . ومنه قول الشاعر :

وكم من خليل أوحميم رُزِئته ... فلم أبتئس والرّزءُ فيه جَلِيلُ

ثم إن الله سبحانه لما أخبره أنهم لا يؤمنون ألبتة عرفه وجه إهلاكهم ، وألهمه الأمر الذى يكون به خلاصه وخلاص من آمن معه . فقال : ﴿ **واصنع الفلك بأعيننا ووحينا** ﴾ أى اعمل السفينة متلبسا بأعيننا ، أى بمرأى منا . والمراد بحراستنا لك وحفظنا لك وعبر عن ذلك بالأعين لأنها آلة الرؤية ، والرؤية هى التى تكون بها الحراسة والحفظ فى الغالب ، وجمع الأعين للتعظيم لا للتكثير . وقيل : المعنى : ﴿ **بأعيننا** ﴾ أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيونا على حفظك . وقيل : ﴿**بأعيننا** ﴾ : بعلمنا . وقيل : بأمرنا . ومعنى بوحينا: بما أوحينا إليك من كيفية صنعتها ﴿ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ﴾ أى لا تطلب إمهالهم ، فقد حان وقت الانتقام منهم ، وجملة ﴿ إنهم مغرقون ﴾ للتعليل ، أى لا تطلب منا إمهالهم ، فإنه محكوم منا عليهم بالغرق ، وقد مضى به القضاء فلا سبيل إلى دفعه ولا تأخيره : وقيل : المعنى : ولا تخاطبنى فى تعجيل عقابهم ، فإنهم مغرقون فى الوقت المضروب لذلك ، لا يتأخر إغراقهم عنه . وقيل : المراد بالذين ظلموا: امرأته وابنه .

﴿ **ويصنع الفلك** ﴾ أى وطفق يصنع الفلك ، أو وأخذ يصنع الفلك . وقيل : هو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة ، وجملة : ﴿ **وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه**﴾ فى محل نصب على الحال ، أى استهزؤوا به لعمله السفينة . قال الأخفش والكسائى : يقال: سخرت به ومنه . وفى وجه سخريتهم منه قولان : أحدهما : أنهم كانوا يرونه يعمل السفينة. فيقولون : يانوح صرت بعد النبوّة نجارا . والثانى : أنهم لما شاهدوه يعمل السفينة ، وكانوا لا يعرفونها قبل ذلك ، قالوا : يانوح ، ماتصنع بها ؟ قال : أمشى بها على الماء فعجبوا من قوله ، وسخروا به . ثم أجاب عليهم بقوله: ﴿ **إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون**﴾ وهذا الكلام مستأنف على تقدير سؤال كأنه قيل : فماذا قال لهم ؟ والمعنى : إن تسخروا منا بسبب عملنا للسفينة اليوم فإنا نسخر منكم غدًا عند الغرق . ومعنى السخرية هنا : الاستجهال ، أى إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلون ، واستجهاله لهم باعتبار إظهاره لهم ومشافهتهم . وإلا فهم عنده جهال قبل هذا وبعده ، والتشبيه فى قوله : ﴿ **كما تسخرون**﴾ لمجرد التحقق والوقوع ، أو التجدّد والتكرّر ، والمعنى : إنا نسخر منكم سخرية متحققة واقعة كما تسخرون منا كذلك ، أو متجدّدة متكرّرة كما تسخرون منا كذلك ، وقيل : معناه: نسخر منكم فى المستقبل سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق ، وفيه نظر فإن حالهم إذ ذاك لا تناسبه السخرية ، إذ هم فى شغل شاغل عنها .

ثم هدّدهم بقوله : ﴿ **فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه** ﴾ وهو عذاب الغرق فى الدنيا ﴿ **ويحلّ عليه عذاب مقيم** ﴾ وهو عذاب النار الدائم : ومعنى يحلّ : يجعل المؤجل حالا . مأخوذ من حلول الدّين المؤجل ، و« من » موصولة فى محل نصب ويجوز أن تكون استفهامية فى محل رفع ، أى أينا يأتيه عذاب يخـزيه . وقيـل : فى موضع رفع بالابتداء، و﴿**يأتيه** ﴾ الخبر ، و﴿ **يخزيه** ﴾ صفة لعذاب . قال الكسائى : إن ناسا من أهل الحجاز

يقولون :« سوف تعلمون » قال:ومن قال:« ستعلمون » أسقط الواو والفاء جميعا، وجوّز الكوفيون : « سف تعلمون » ومنعه البصريون ، والمراد بعذاب الخزى : العذاب الذى يخزى صاحبه ويحل عليه العار .

قوله : ﴿ **حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور** ﴾ «حتى» هى الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية وجعلت غاية لقوله : ﴿ **واصنع الفلك بأعيننا** ﴾ . والتنور : اختلف فى تفسيرها على أقوال : الأوّل : أنها وجه الأرض ، والعرب تسمى وجه الأرض تنوراً . روى ذلك عن ابن عباس وعكرمة والزهرى وابن عيينة . الثانى : أنه تنور الخبز الذى يخبزونه فيه ، وبه قال مجاهد وعطية والحسن ، وروى عن ابن عباس أيضا . الثالث : أنه موضع اجتماع الماء فى السفينة ، روى عن الحسن . الرابع : أنه طلوع الفجر ، من قولهم تنوّر الفجر ، روى عن علىّ بن أبى طالب. الخامس : أنه مسجد الكوفة ، روى عن علىّ أيضا ومجاهد ؛ قال مجاهد : كان ناحية التنوّر بالكوفة . السادس : أنه أعالى الأرض والمواضع المرتفعة ، قاله قتادة . السابع: أنه العين التى بالجزيرة المسماة عين الوردة ، روى ذلك عن عكرمة . الثامن : أنه موضع بالهند ؛ قال ابن عباس : كان تنور آدم بالهند . قال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ، لأن الله سبحانه قد أخبر بأن الماء قد جاء من السماء والأرض ، قال :﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا ﴾[ القمر : ١١ ، ١٢ ] فهذه الأقوال تجتمع فى أن ذلك كان علامة . هكذا قال ، وفيه-نظر ، فإن القول الرابع ينافى هذا الجمع ، ولا يستقيم عليه التفسير بنبع الماء . إلا إذا كان المراد مجرد العلامة كما ذكره آخرا . وقد ذكر أهل اللغة أن الفور : الغليان ، والتنور : اسم عجمى عرّبته العرب . وقيل : معنى فار التنور : التمثيل بحضور العذاب كقولهم : حِمَى الوطيس: إذا اشتدّ الحرب ، ومنه قول الشاعر :

تركتم قِدْركم لا شىء فيها وقِدْرُ القوم حامية تَفور

يريد الحرب . قوله : ﴿ **قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين** ﴾ أى قلنا : يا نوح ، احمل فى السفينة من كل زوجين مما فى الأرض من الحيوانات اثنين ذكرا وأنثى . وقرأ حفص: ﴿ **من كل** ﴾ بتنوين كل ، أى من كل شىء زوجين ، والزوجان للاثنين اللذين لا يستغنى أحدهما عن الآخر ، ويطلق على كل واحد منهما زوج ، كما يقال للرجل زوج وللمرأة زوج، ويطلق الزوج على الاثنين إذا استعمل مقابلا للفرد ، ويطلق الزوج على الضرب والصنف . ومثله قوله تعالى : ﴿ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ [ الحج : ٥ ] ومثله قول الأعشى :

وكل ضرب من الديباج يلبسه أبو حذافة مخبوّ بذاك معا

أراد كل صنف من الديباج ﴿ **وأهلك** ﴾ عطف على ﴿ **زوجين** ﴾ ، أو على اثنين على قراءة حفص ، وعلى محل كل زوجين ، فإنه فى محلّ نصب بـ﴿ **احمل** ﴾ ، أو على

﴿اثنين﴾ على قراءة الجمهور ، والمراد : امرأته وبنوه ونساؤهم ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ أى من تقدّم الحكم عليه بأنه من المغرقين فى قوله: ﴿ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ على الاختلاف السابق فيهم ، فمن جعلهم جميع الكفار من أهله وغيرهم كان هذا الاستثناء من جملة : ﴿ احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ﴾ ومن قال : المراد بهم: ولده كنعان وامرأته واعلة أمّ كنعان جعل الاستثناء من أهلك، ويكون متصلا إن أريد بالأهل ماهو أعمّ من المسلم والكافرمنهم ، ومنقطعا إن أريد بالأهل المسلمون منهم فقط . قوله : ﴿ ومن آمن ﴾ معطوف على ﴿ أهلك ﴾ أى واحمل فى السفينة من آمن من قومك ، وأفرد الأهل منهم لمزيد العناية بهم ، أو للاستثناء منهم على القول الآخر . ثم وصف اللّه سبحانه قلة المؤمنين مع نوح بالنسبة إلى من كفر به فقال : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ قيل : هم ثمانون إنسانا : منهم ثلاثة من بنيه ، وهو سام ، وحام ، ويافث ، وزوجاتهم ، ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية يقال لها قرية الثمانين ، وهى موجودة بناحية الموصل ، وقيل : كانوا عشرة . وقيل : سبعة . وقيل : كانوا اثنين وسبعين . وقيل غير ذلك .

قوله : ﴿ وقال اركبوا فيها ﴾ القائل نوح . وقيل : اللّه سبحانه . والأوّل أولى لقوله : ﴿ إن ربى لغفور رحيم ﴾ والركوب : العلوّ على ظهر الشيء حقيقة نحو ركب الدابة ، أو مجازا نحو ركبه الدين ، وفى الكلام حذف ، أى اركبوا الماء فى السفينة فلا يرد أن ركب يتعدّى بنفسه . وقيل : إن الفائدة فى زيادة « فى » أنه أمرهم بأن يكونوا فى جوف السفينة لا على ظهرها . وقيل : إنها زيدت لرعاية جانب المحلية فى السفينة كما فى قوله : ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك ﴾ [ العنكبوت: ٦٥ ] ، وقوله : ﴿ حتى إذا ركبا فى السفينة ﴾ [ الكهف : ٧١ ] قيل : ولعلّ نوحا قال هذه المقالة بعد إدخال ما أمر بحمله من الأزواج ، كأنه قيل : فحمل الأزواج وأدخلها فى الفلك ، وقال للمؤمنين ، ويمكن أن يقال : إنه أمر بالركوب كل من أمر بحمله من الأزواج والأهل والمؤمنين ، ولا يمتنع أن يفهم خطابه من لا يعقل من الحيوانات ، أو يكون هذا على طريقة التغليب . قوله : ﴿ بسم اللّه ﴾ متعلق بـ﴿ اركبوا ﴾ ، أو حال من فاعله ، أى مسمين اللّه ، أو قائلين : ﴿ بسم اللّه مجراها ومرساها ﴾ قرأ أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيهما إلا من شذّ منهم على أنهما اسما زمان ، وهما فى موضع نصب على الظرفية ، أى وقت مجراها ومرساها ، ويجوز أن يكونا مصدرين ، أى وقت إجرائها وإرسائها. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى وحفص :﴿ مجراها ﴾ بفتح الميم ، و ﴿ مرساها ﴾ بضمها ، وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها فيهما . وقرأ مجاهد وسليمان بن جندب وعاصم الجحدرى وأبو رجاء العطاردى :﴿ مجريها ومرسيها ﴾ على أنهما وصفان للّه ، ويجوز أن يكونا فى موضع رفع بإضمار مبتدأ، أى هو مجريها ومرسيها ﴿ إنّ ربى لغفور ﴾ للذنوب ﴿رحيم﴾ بعباده ، ومن رحمته إنجاء هذه الطائفة تفضلا منه لبقاء هذا الجنس الحيوانى، وعدم استئصاله بالغرق .

قوله : ﴿ **وهى تجرى بهم فى موج كالجبال** ﴾ هذه الجملة متصلة بجملة محذوفة دلّ عليها الأمر بالركوب، والتقدير: فركبوا مسمين وهى تجرى بهم ، والموج جمع موجة ، وهى ما ارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح ، وشبهها بالجبال المرتفعة على الأرض . قوله : ﴿ **ونادى نوح ابنه** ﴾ هو كنعان ، قيل : وكان كافرًا ، واستبعد كون نوح ينادى من كان كافرا مع قوله :﴿ ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾[ نوح : ٢٦ ] وأجيب بأنه كان منافقا فظن نوح أنه مؤمن . وقيل : حملته شفقة الأبوّة على ذلك . وقيل : إنه كان ابن امرأته ولم يكن بابنه ، ويؤيده ما روى أن عليا قرأ:«ونادى نوح ابنها » . وقيل : إنه كان لغير رشدة ، وولد على فراش نوح . وردّ بأن قوله : ﴿ **ونادى نوح ابنه** ﴾ ، وقوله : ﴿ **إن ابنى من أهلى** ﴾ يدفع ذلك على ما فيه من عدم صيانة منصب النبوّة ﴿ **وكان فى معزل** ﴾ أى فى مكان عزل فيه نفسه عن قومه وقرابته بحيث لم يبلغه قول نوح : اركبوا فيها : وقيل : فى معزل من دين أبيه ، وقيل : من السفينة. قيل : وكان هذا النداء قبل أن يستيقن الناس الغرق، بل كان فى أوّل فور التنور .

قوله : ﴿ **يا بنىّ اركب معنا** ﴾ قرأ عاصم بفتح الياء ، والباقون بكسرها ، فأما الكسر فلجعله بدلا من ياء الإضافة ، لأن الأصل يا بنىّ ، وأما الفتح فلقلب ياء الإضافة ألفا لخفة الألف ، ثم حذف الألف وبقيت الفتحة لتدلّ عليه . قال النحاس: وقراءة عاصم مشكلة . وقال أبو حاتم : أصله يا بنياه ثم تحذف ، وقد جعل الزجاج للفتح وجهين ، وللكسر وجهين. أما الفتح بالوجه الأوّل ما ذكرناه ، والوجه الثانى : أن تحذف الألف لالتقاء الساكنين، وأما الكسر فالوجه الأوّل ما ذكرناه ، والثانى : أن تحذف لالتقاء الساكنين كذا حكى عنه النحاس . وقرأ أبو عمر والكسائى وحفص : ﴿ **اركب معنا** ﴾ بإدغام الباء فى الميم لتقاربهما في المخرج . وقرأ الباقون بعدم الإدغام ﴿ **ولا تكن مع الكافرين** ﴾ نهاه عن الكون مع الكافرين ، أى خارج السفينة ، ويمكن أن يراد بالكون معهم الكون على دينهم .

ثم حكى الله سبحانه ما أجاب به ابن نوح على أبيه فقال : ﴿ **قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء** ﴾ أى يمنعنى بارتفاعه من وصول الماء إلى ، فأجاب عنه نوح بقوله :﴿ **لا عاصم اليوم من أمر الله** ﴾ أى لا مانع فإنه يوم قد حق فيه العذاب وجف القلم بما هو كائن فيه ، نفى جنس العاصم فيندرج تحته العاصم من الغرق فى ذلك اليوم اندراجا أوليا ، وعبر عن الماء أو عن الغرق بأمر الله سبحانه تفخيما لشأنه وتهويلا لأمره . والاستثناء قال الزجاج: هو منقطع ، أى لكن من رحمه الله فهو يعصمه ، فيكون ﴿ **من رحم** ﴾ فى موضع نصب ، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا على أن يكون عاصم بمعنى معصوم ، أى لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله ، مثل ﴿ ماء دافق ﴾[ الطارق : ٦ ] ، ﴿ عيشة راضية ﴾

[الحاقة : ٢١ ] ومنه قول الشاعر :

دع المكارم لا تنهض لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

أى المطعم المكسو، واختار هذا الوجه ابن جرير . وقيل : العاصم بمعنى ذى العصمة ، كلابن وتامر ، والتقدير : لا عاصم قط إلا مكان من رحم الله وهو السفينة ، وحينئذ فلا يرد ما يقال : إن معنى من رحم : من رحمه الله . ومن رحمه الله هو معصوم ، فكيف يصح استثناؤه عن العاصم ؟ لأن فى كل وجه من هذه الوجوه دفعا للإشكال . وقرئ : « إلا من رحم » على البناء للمفعول ﴿ **وحال بينهما الموج** ﴾ أى حال بين نوح وابنه فتعذر خلاصه من الغرق . وقيل : بين ابن نوح وبين الجبل ، والأول أولى ، لأن تفرع ﴿ **فكان من المغرقين** ﴾ عليه يدل على الأول لا على الثانى ، لأن الجبل ليس بعاصم .

قوله : ﴿ **وقيل يا أرض ابلعى ماءك** ﴾ يقال : بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع ، وبلع يبلع مثل حمد يحمد لغتان حكاهما الكسائى والفراء . والبلع : الشرب ، ومنه البالوعة ، وهى الموضع الذى يشرب الماء ، والازدراد ، يقال : بلع ما فى فمه من الطعام : إذا ازدرده ، واستعير البلع الذى هو من فعل الحيوان للنشف دلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدريج ﴿ **ويا سماء أقلعى** ﴾ الإقلاع : الإمساك، يقال : أقلع المطر : إذا انقطع . والمعنى : أمر السماء بإمساك الماء عن الإرسال ، وقدم نداء الأرض على السماء لكون ابتداء الطوفان منها ﴿ **وغيض الماء** ﴾ أى نقص ، يقال : غاض الماء وغضته أنا ﴿ **وقضى الأمر** ﴾ أى أحكم وفرغ منه ، يعنى أهلك الله قوم نوح على تمام وإحكام ﴿ **واستوت على الجودى** ﴾ أى استقرت السفينة على الجبل المعروف بالجودى ، وهو جبل بقرب الموصل . وقيل : إن الجودى : اسم لكل جبل ، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل :

سبحانه ثم سبحانا نعوذ به وقبلنا سبح الجودى والجمد

ويقال : إنه من جبال الجنة فلذا استوت عليه ﴿ **وقيل بعدا للقوم الظالمين** ﴾ القائل هو الله سبحانه ليناسب صدر الآية. وقيل : هو نوح وأصحابه . والمعنى : وقيل هلاكا للقوم الظالمين ، وهو من الكلمات التى تختص بدعاء السوء ووصفهم بالظلم للإشعار بأنه علة الهلاك ، وللإيماء إلى قوله : ﴿ **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا** ﴾ وقد أطبق علماء البلاغة على أن هذه الآية الشريفة بالغة من الفصاحة والبلاغة إلى محل يتقاصر عنه الوصف ، وتتضعف عن الإتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة ، الثابتين الأقدام فى علم البيان ، الراسخين فى علم اللغة ، المطلعين على ما هو مدون من خطب مصاقع خطباء العرب وأشعار بواقع شعرائهم ، المرتاضين بدقائق علوم العربية وأسرارها . وقد تعرض لبيان بعض ما اشتملت عليه من ذلك جماعة منهم فأطالوا وأطابوا ، رحمنا الله وإياهم برحمته الواسعة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ فعلى إجرامى ﴾ قال : عملى ﴿ وأنا برىء مما تجرمون ﴾ أى مما تعملون . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ وذلك حين دعا عليهم نوح قال : ﴿ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ [ نوح : ٢٦ ] . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن المنذر وأبو الشيخ عن الحسن قال : إن نوحا لم يدع على قومه حتى نزلت الآية هذه ، فانقطع عند ذلك رجاؤه منهم فدعا عليهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فلا تبتئس﴾ قال : فلا تحزن .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عنه فى قوله : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ قال : بعين الله ووحيه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : لم يعلم نوح كيف يصنع الفلك ، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « كان نوح مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم ، حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم قطعها ثم جعل يعملها سفينة ويمرون فيسألونه فيقول : أعملها سفينة فيسخرون منه ، ويقولون : يعمل سفينة فى البر ، وكيف تجرى ؟ قال : سوف تعلمون ، فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء فى السكك خشيته أم الصبى عليه ، وكانت تحبه حبا شديدا ، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبته رفعته بين يديها حتى ذهب بها الماء ، فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبى » (١) وقد ضعفه الذهبى فى مستدركه على مستدرك الحاكم . وقد روى فى صفة السفينة وقدرها أحاديث وآثار ليس فى ذكرها هنا كثير فائدة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ قال : هو الغرق ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ قال : هو الخلود فى النار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عنه قال : كان بين دعوة نوح وبين هلاك قومه ثلثمائة سنة ، وكان فار التنور بالهند ، وطافت سفينة نوح بالبيت أسبوعا (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : التنور: العين التى بالجزيرة عين الوردة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن على بن أبى طالب قال : فار التنور من مسجد الكوفة من قبل أبواب كندة . وقد روى عنه نحو هذا من طرق . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : التنور : وجه الأرض . قيل له : إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك . والعرب تسمى وجه الأرض تنور الأرض .

(١) ابن جرير ١٢/ ٢١، ٢٢ ، وصححه الحاكم ٢/ ٣٤٢ ، ٥٤٧ وقال الذهبى : « صحيح ، وإسناده مظلم ، وموسى بن يعقوب ليس بذاك » وابن كثير ٣/ ٥٥٥ وقال : « حديث غريب من هذا الوجه » .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٣٤٣ وقال الذهبى : « النفر ضعفوه » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن على : ﴿ وفار التنور ﴾ قال : طلع الفجر ، قيل له : إذا طلع الفجر فاركب أنت وأصحابك . وقد روى فى تفسير التنور غير هذا ، وقد قدمنا الإشارة إلى ذلك . وروى فى صفة القصة وما حمله نوح فى السفينة ، وكيف كان الغرق ، وكم بقيت السفينة على ظهر الماء روايات كثيرة لا مدخل لها فى تفسير كلام الله سبحانه .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ بسم الله مجراها ومرساها ﴾ قال : حين يركبون ويجرون ويرسون . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : كان إذا أراد أن ترسى قال: بسم الله ، فأرست . وإذا أراد أن تجرى قال : بسم الله ، فجرت . وأخرج أبو يعلى والطبرانى وابن السنى وابن عدى وأبو الشيخ وابن مردويه عن الحسن بن على قال : قال رسول الله ﷺ : « أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا : بسم الله الملك الرحمن، بسم الله مجراها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم ، ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ إلى آخر الآية [الزمر : ٦٧] » (١) . وأخرجه ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس عن النبى ﷺ (٢) . وأخرجه أيضا أبو الشيخ عنه مرفوعا من طريق أخرى . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : كان اسم ابن نوح الذى غرق كنعان . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : هو ابنه غير أنه خالفه فى النية والعمل .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله : ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ قال : لا ناج إلا أهل السفينة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن القاسم ابن أبى برة فى قوله : ﴿ وحال بينهما الموج ﴾ قال : بين ابن نوح والجبل . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ يا أرض ابلعى ﴾ قال : هو بالحبشية. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن وهب بن منبه فى ﴿ ابلعى ﴾ قال : بالحبشية ، أى ازدرديه . وأخرج أبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : معناه : اشربى ، بلغة الهند . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس مثله . أقول : وثبوت لفظ البلع وما يشتق منه فى لغة العرب ظاهر مكشوف ، فما لنا وللحبشة والهند .

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ

(١) أبو يعلى ١٢/ ١٥٢ وإسناده تالف ، وابن عدى فى الكامل ٧/ ١٩٨ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٣٥ : «رواه أبو يعلى عن شيخه جبارة بن مغلس وهو ضعيف » وأورده ابن حجر فى المطالب العالية ٣/ ٢٣٧ وفيه ضعف .

(٢) الطبرانى (١٢٦٦١) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٣٥: « فيه نهشل بن سعيد ، وهو متروك » .

**عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ(٤٩) ﴾** .

معنى : ﴿ **ونادى نوح ربه** ﴾ دعاه ، والمراد : أراد دعاءه ، بدليل الفاء فى : ﴿ **فقال رب إن ابنى من أهلى** ﴾ وعطف الشيء على نفسه غير سائغ ، فلابد من التقدير المذكور ، ومعنى قوله : ﴿ **إن ابنى من أهلى** ﴾ أنه من الأهل الذين وعدتنى بتنجيتهم بقولك : وأهلك. فإن قيل : كيف طلب نوح عليه السلام إنجاز ما وعده الله بقوله :﴿ **وأهلك** ﴾ وهو المستثنى منه ، وترك ما يفيده الاستثناء ، وهو : ﴿ **إلا من سبق عليه القول** ﴾ ؟ فيجاب بأنه لم يعلم إذ ذاك أنه ممن سبق عليه القول، فإنه كان يظنه من المؤمنين ﴿ **وإن وعدك الحق** ﴾ الذى لا خلف فيه ، وهذا منه ﴿ **وأنت أحكم الحاكمين** ﴾ أى أتقن المتقنين لما يكون به الحكم، فلا يتطرق إلى حكمك نقض . وقيل : أراد بـ ﴿ **أحكم الحاكمين** ﴾ : أعلمهم وأعدلهم ، أى أنت أكثر علما وعدلا من ذوى الحكم. وقيل : إن الحاكم بمعنى : ذى الحكمة كدارع .

ثم أجاب الله سبحانه عن نوح ببيان أن ابنه غير داخل فى عموم الأهل ، وأنه خارج بقيد الاستثناء فقال : ﴿ **يا نوح إنه ليس من أهلك** ﴾ الذين آمنوا بك وتابعوك وإن كان من أهلك باعتبار القرابة ؛ ثم صرح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الأهل المبينة له بأن المراد بالقرابة: قرابة الدين لا قرابة النسب وحده فقال : ﴿ **إنه عمل غير صالح** ﴾ قرأ الجمهور:﴿**عمل** ﴾ على لفظ المصدر. وقرأ ابن عباس وعكرمة والكسائى ويعقوب :﴿ **عمل** ﴾ على لفظ الفعل ؛ ومعنى القراءة الأولى المبالغة فى ذمه كأنه جعل نفس العمل ، وأصله ذو عمل غير صالح ثم حذف المضاف وجعل نفس العمل ، كذا قال الزجاج وغيره . ومعنى القراءة الثانية ظاهر ، أى إنه عمل عملا غير صالح ، وهو كفره وتركه لمتابعة أبيه ؛ ثم نهاه عن مثل هذا السؤال ، فقال : ﴿ **فلا تسألن ما ليس لك به علم** ﴾ لما بين له بطلان ما اعتقده من كونه من أهله فرع على ذلك النهى عن السؤال ، وهو وإن كان نهيا عاما بحيث يشمل كل سؤال لا يعلم صاحبه أن حصول مطلوبه منه صواب ، فهو يدخل تحته سؤاله هذا دخولا أوليا، وفيه عدم جواز الدعاء بما لا يعلم الإنسان مطابقته للشرع . وسمى دعاءه سؤالا ؛ لتضمنه معنى السؤال . ﴿ **إنى أعظك أن تكون من الجاهلين** ﴾ أى أحذرك أن تكون من الجاهلين كقوله : ﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ﴾ [ النور : ١٧ ] وقيل : المعنى :

أرفعك أن تكون من الجاهلين . قال ابن العربى : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ويعليه بها إلى مقام العلماء العاملين .

ثم لما علم نوح بأن سؤاله لم يطابق الواقع . وأن دعاءه ناشئ عن وهم كان يتوهمه بادر إلى الاعتراف بالخطأ وطلب المغفرة والرحمة . فقال : ﴿ **رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم** ﴾ أى أعوذ بك أن أطلب منك ما لا علم لى بصحته وجوازه . ﴿ **وإلا تغفر لى** ﴾ ذنب ما دعوت به على غير علم منى ﴿ **وترحمنى** ﴾ برحمتك التى وسعت كل شىء فتقبل توبتى ﴿ **أكن من الخاسرين** ﴾ فى أعمالى فلا أربح فيها . القائل هو الله . أو الملائكة ﴿ **قيل يا نوح اهبط** ﴾ أى انزل من السفينة إلى الأرض ، أو من الجبل إلى المنخفض من الأرض فقد بلعت الأرض ماءها وجفت ﴿ **بسلام منا** ﴾ أى بسلامة وأمن . وقيل : بتحية ﴿ **وبركات** ﴾ أى نعم ثابتة . مشتق من بروك الجمل وهو ثبوته . ومنه البركة لثبوت الماء فيها. وفى هذا الخطاب له دليل على قبول توبته ومغفرة زلته ﴿ **وعلى أمم ممن معك** ﴾ أى ناشئة ممن معك ، وهم المتشعبون من ذرية من كان معه فى السفينة . وقيل : أراد من فى السفينة ، فإنهم أمم مختلفة ، وأنواع من الحيوانات متباينة ؛ قيل : أراد الله سبحانه بهؤلاء الأمم الذين كانوا معه من صار مؤمنا من ذريتهم . وأراد بقوله : ﴿ **وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم** ﴾ من صار كافرا من ذريتهم إلى يوم القيامة . وارتفاع أمم فى قوله : ﴿ **وأمم سنمتعهم** ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى ومنهم أمم . وقيل : على تقدير : ويكون أمم . وقال الأخفش : هو كما تقول : كلمت زيدا وعمرو جالس . وأجاز الفراء فى غير القراءة « وأمما سنمتعهم » أى ونمتع أمما ، ومعنى الآية : وأمم سنمتعهم فى الدنيا بما فيها من المتاع ، ونعطيهم منها ما يعيشون به ، ثم يمسهم منا فى الآخرة عذاب أليم . وقيل : يمسهم إما فى الدنيا أو فى الآخرة.

والإشارة بقوله : ﴿ **تلك** ﴾ إلى قصة نوح ، وهى مبتدأ والجمل بعده أخبار ﴿ **من أنباء الغيب** ﴾ من جنس أنباء الغيب . والأنباء جمع نبأ وهو الخبر ، أى من أخبار الغيب التى مرت بك فى هذه السورة . والضمير فى ﴿ **نوحيها إليك** ﴾ راجع إلى القصة . والمجىء بالمضارع لاستحضار الصورة ﴿ **ما كنت** ﴾ يا محمد ﴿ **تعلمها أنت ولا** ﴾ يعلمها ﴿ **قومك** ﴾ بل هى مجهولة عندكم من قبل الوحى ، أو من قبل هذا الوقت ﴿ **فاصبر** ﴾ على ما تلاقيه من كفار زمانك . والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها ﴿ **إن العاقبة** ﴾ المحمودة فى الدنيا والآخرة ﴿ **للمتقين** ﴾ لله المؤمنين بما جاءت به رسله . وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ وتبشير له بأن الظفر للمتقين فى عاقبة الأمر ، ولا اعتبار بمباديه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : نادى نوح ربه فقال : رب إن ابنى من أهلى ، وإنك قد وعدتنى أن تنجى لى أهلى ، وإن ابنى من أهلى . وأخرج عبد

الرزاق والفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن ابن عباس قال : ما بغت امرأة نبى قط . وقوله : ﴿ **إنه ليس من أهلك** ﴾ يقول : ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال : إن نساء الأنبياء لا يزنين . وكان يقرؤها : ﴿ **إنه عمل غير صالح** ﴾ يقول : مسألتك إياى يا نوح عمل غير صالح لا أرضاه لك . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فلا تسألن ما ليس لك به علم** ﴾ قال : بين الله لنوح أنه ليس بأبيه .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **يا نوح اهبط بسلام منا** ﴾ قال : أهبطوا والله عنهم راض . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى قال : دخل فى ذلك السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، ودخل فى ذلك العذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة . وأخرج ابن جرير عن الضحاك ﴿ **وعلى أمم ممن معك** ﴾ يعنى : ممن لم يولد ، أوجب الله لهم البركات لما سبق لهم فى علم الله من السعادة ﴿ **وأمم سنمتعهم** ﴾ يعنى متاع الحياة الدنيا ﴿ **ثم يمسهم منا عذاب أليم** ﴾ لما سبق لهم فى علم الله من الشقاوة . وأخرج أبو الشيخ قال : ثم رجع إلى محمد ﷺ فقال : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك** ﴾ يعنى العرب ﴿ **من قبل هذا** ﴾ القرآن .

**﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ**
**(٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ**
**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا**
**مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ**
**بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ**
**مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي**
**وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ**
**أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ**
**شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ**
**عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ**
**عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ**

**هُودٍ (٦٠)** ﴾ .

قوله : ﴿ **وإلى عاد أخاهم هودا** ﴾ معطوف على ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا** ﴾ أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم : أى واحدا منهم . وهودا عطف بيان ، وقوم عاد كانوا عبدة أوثان وقد تقدم مثل هذا فى الأعراف . وقيل : هم عاد الأولى وعاد الأخرى. فهؤلاء هم عاد الأولى ، وعاد الأخرى هم شداد ولقمان وقومهما المذكورون فى قوله : ﴿ إرم ذات العماد ﴾ [الفجر: ٧ ] . وأصل عاد ، اسم رجل ثم صار اسما للقبيلة كتميم وبكر ونحوهما ﴿ **ما لكم من إله غيره** ﴾ قرئ : «غيره» بالجر على اللفظ . وبالرفع على محل من إله . وقرئ بالنصب على الاستثناء ﴿ **إن أنتم إلا مفترون** ﴾ أى ما أنتم باتخاذ إله غير الله إلا كاذبون على الله عز وجل . ثم خاطبهم فقال : ﴿ **ياقوم لا أسألكم عليه أجرا** ﴾ أى لا أطلب منكم أجرا على ما أبلغه إليكم وأنصحكم به من الإرشاد إلى عبادة الله وحده وأنه لا إله لكم سواه . فالضمير راجع إلى مضمون هذا الكلام. وقد تقدم معنى هذا فى قصة نوح ﴿ **إن أجرى إلا على الذى فطرنى** ﴾ أى ما أجرى الذى أطلب إلا من الذى فطرنى ، أى خلقنى فهو الذى يثيبنى على ذلك ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أن أجر الناصحين إنما هو من رب العالمين . قيل : إنما قال فيما تقدم فى قصة نوح: مالا ، وهنا قال : أجرا ؛ لذكر الخزائن بعده فى قصة نوح ، ولفظ المال بها أليق ، ثم أرشدهم إلى الاستغفار والتوبة . والمعنى : اطلبوا مغفرته لما سلف من ذنوبكم ثم توسلوا إليه بالتوبة . وقد تقدم زيادة بيان لمثل هذا فى قصة نوح ، ثم رغبهم فى الإيمان بالخير العاجل ، فقال : ﴿ **يرسل السماء** ﴾ أى المطر ﴿ **عليكم مدرارا** ﴾ أى كثير الدرور ، وهو منصوب على الحال ، درت السماء تدر وتدر فهى مدرار ، وكان قوم هود أهل بساتين وزرع وعمارة ، وكانت مساكنهم الرمال التى بين الشام واليمن ﴿ **ويزدكم قوة إلى قوتكم** ﴾ معطوف على يرسل ، أى شدة مضافة إلى شدتكم ، أو خصبا إلى خصبكم . أو عزا إلى عزكم . قال الزجاج : المعنى يزدكم قوة فى النعم ﴿ **ولا تتولوا مجرمين** ﴾ أى لا تعرضوا عما أدعوكم إليه وتقيموا على الكفر مصرين عليه ، والإجرام : الآثام كما تقدم .

ثم أجابه قومه بما يدل على فرط جهالتهم ، وعظيم غباوتهم ، فقالوا : ﴿ **ياهود ما جئتنا ببينة** ﴾ أى بحجة واضحة نعمل عليها ، ونـؤمن لك بها غـير معترفـين بما جاءهم به من حجـج الله وبراهينـه عنادا وبعدل عن الحق ﴿ **وما نحن بتاركى آلهتنا** ﴾ التى نعبدها من دون الله . ومعنى ﴿ **عن قولك** ﴾ : صادرين عن قولك ، فالظرف فى محل نصب على الحال ﴿ **وما نحن لك بمؤمنين** ﴾ أى بمصدقين فى شىء مما جئت به ﴿ **إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء** ﴾ أى ما نقول إلا أنه أصابك بعض آلهتنا التى تعيبها وتسفه رأينا فى عبادتها بسوء بجنون ، حتى نشأ عن جنونك ما تقوله لنا وتكرره علينا من التنفير عنها ، يقال : عراه الأمر واعتراه : إذا ألم به ، فأجابهم بما يدل على عدم مبالاته بهم وعلى وثوقه بربه وتوكله عليه ، وأنهم لا يقدرون على شىء مما يريده الكفار به ، بل الله سبحانه هو الضار النافع فقال : ﴿ **إنى**

**أشهد الله واشهدوا ﴾** أنتم ﴿ **أنى برىء مما تشركون** ﴾ به ﴿ **من دونه** ﴾ أى من إشراككم من دون الله من غير أن ينزل به سلطانا ﴿ **فكيدونى جميعا** ﴾ أنتم وآلهتكم إن كانت كما تزعمون من أنها تقدر على الإضرار بى وأنها اعترتنى بسوء ﴿ **ثم لا تنظرون** ﴾ أى لا تمهلونى، بل عاجلونى واصنعوا ما بدا لكم ؛ وفى هذا من إظهار عدم المبالاة بهم وبأصنامهم التى يعبدونها ما يصك مسامعهم ، ويوضح عجزهم وعدم قدرتهم على شىء .

﴿ **إنى توكلت على الله ربى وربكم** ﴾ فهو يعصمنى من كيدكم ، وإن بلغتم فى تطلب وجوه الإضرار بى كل مبلغ، فمن توكل على الله كفاه . ثم لما بين لهم توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته ، وصفه بما يوجب التوكل عليه والتفويض إليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم ، وأنه مالك للجميع ، وأن ناصية كل دابة من دواب الأرض بيده ، وفى قبضته وتحت قهره . وهو تمثيل لغاية التسخير ونهاية التذليل . وكانوا إذا أسروا الأسير وأرادوا إطلاقه، والمن عليه جزوا ناصيته فجعلوا ذلك علامة لقهره . قال الفراء :معنى آخذ بناصيتها: مالكها والقادر عليها ، وقال القتيبى : قاهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته . والناصية: قصاص الشعر من مقدم الرأس ؛ ثم علل ما تقدم بقوله : ﴿ **إن ربى على صراط مستقيم** ﴾ أى هو على الحق والعدل فلا يكاد يسلطكم على .﴿ **فإن تولوا** ﴾ أى تتولوا فحذفت إحدى التاءين ، والمعنى : فإن تستمروا على الإعراض عن الإجابة والتصميم على ما أنتم عليه من الكفر ﴿ **فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم** ﴾ ليس على إلا ذلك ، وقد لزمتكم الحجة ﴿**ويستخلف ربى قوما غيركم** ﴾ جملة مستأنفة لتقرير الوعيد بالهلاك ، أى يستخلف فى دياركم وأموالكم قوما آخرين ، ويجوز أن يكون عطفا على ﴿ **فقد أبلغتكم** ﴾ وروى حفص عن عاصم أنه قرأ : ﴿ **ويستخلف** ﴾ بالجزم حملا على موضع فقد أبلغتكم ﴿ **ولا تضرونه شيئا** ﴾ أى بتوليكم ، ولا تقدرون على كثير من الضرر ولا حقير ﴿ **إن ربى على كل شىء حفيظ** ﴾ أى رقيب مهيمن عليه يحفظه من كل شىء . قيل : و« على » بمعنى اللام ، فيكون المعنى : لكل شىء حفيظ فهو يحفظنى من أن تنالونى بسوء .

﴿ **ولما جاء أمرنا** ﴾ أى عذابنا الذى هو إهلاك عاد ﴿ **نجينا هودا والذين آمنوا معه** ﴾ من قومه ﴿ **برحمة منا** ﴾ أى برحمة عظيمة كائنة منا لأنه لا ينجو أحد إلا برحمة الله . وقيل : هى الإيمان ﴿ **من عذاب غليظ** ﴾ أى شديد ، قيل : وهو السموم التى كانت تدخل أنوفهم . ﴿ **وتلك عاد** ﴾ مبتدأ وخبر ، وأنث الإشارة اعتبارا بالقبيلة . قال الكسائى : إن من العرب من لا يصرف عاد ويجعله اسما للقبيلة ﴿ **جحدوا بآيات ربهم** ﴾ أى كفروا بها وكذبوها وأنكروا المعجزات ﴿**وعصوا رسله** ﴾ أى هودا وحده ؛ لأنه لم يكن فى عصره رسول سواه، وإنما جمع هنا ؛ لأن من كذب رسولا فقد كذب جميع الرسل . وقيل : إنهم عصوا هودا ومن كان قبله من الرسل، أو كانوا بحيث لو بعث الله إليهم رسلا متعددين لكذبوهم ﴿**واتبعوا أمر كل جبار عنيد** ﴾ الجبار: المتكبر ، والعنيد : الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا

يذعن له . قال أبو عبيدة : العنيد العنود والعاند والمعاند . وهو المعارض بالخلاف منه ، ومنه قيل للعرق الذى يتفجر بالدم : عاند . قال الراجز :

إنى كبير لا أطيق العندا

﴿ وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ﴾ أى ألحقوها ، وهى الإبعاد من الرحمة والطرد من الخير، والمعنى : أنها لازمة لهم لا تفارقهم ما داموا فى الدنيا وأتبعوها ﴿ يوم القيامة ﴾ فلعنوا هنالك كما لعنوا فى الدنيا ﴿ ألا إن عادا كفروا ربهم ﴾ أى بربهم . وقال الفراء : كفروا نعمة ربهم، يقال : كفرته وكفرت به ، مثل : شكرته وشكرت له ﴿ ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ أى لا زالوا مبعدين من رحمة الله ، والبعد : الهلاك ، والبعد : التباعد من الخير ، يقال : بعد يبعد بعدا: إذا تأخر وتباعد ، وبعد يبعد بعدا : إذا هلك ، ومنه قول الشاعر :

لا يبعدن قومى الذين هم ... سم العداة وآفة الجزر

وقال النابغة :

فلا تبعدن إن المنية منهل ... وكل امرئ يوما به الحال زائل

ومنه قول الشاعر :

ما كان ينفعنى مقال نسائهم ... وقتلت دون رجالهم لاتبعد

وقد تقدم أن العرب تستعمله فى الدعاء بالهلاك .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ إلا على الذى فطرنى ﴾ أى خلقنى . وأخرج ابن عساكر عن الضحاك قال : أمسك الله عن عاد القطر ثلاث سنين ، فقال لهم هود : ﴿ استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا﴾ فأبوا إلا تماديا . وأخرج أبو الشيخ عن هارون التيمى فى قوله : ﴿ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ قال : المطر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ قال : شدة إلى شدتكم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله : ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ قال : ولد الولد . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ قال : أصابتك بالجنون . وأخرج ابن أبى حاتم عن يحيى بن سعيد قال : ما من أحد يخاف لصا عاديا ، أو سبعا ضاريا ، أو شيطانا ماردا فيتلو هذه الآية إلا صرفه الله عنه .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ إن ربى على صراط مستقيم ﴾ قال : الحق . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ عذاب غليظ ﴾ قال : شديد . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ كل جبار عنيد ﴾ قال : المشرك . وأخرج ابن

أبى حاتم عن السدى قال : العنيد : المشاق . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ﴾ قال : لم يبعث نبى بعد عاد إلا لعنت على لسانه. وأخرج ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : تتابعت عليهم لعنتان من الله : لعنة فى الدنيا ، ولعنة فى الآخرة .

**﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨) ﴾** .

قوله : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا** ﴾ معطوف على ما تقدم ، والتقدير : وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ، والكلام فيه ، وفى قوله : ﴿ **يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ كما تقدم فى قصة هود . وقرأ الحسن ويحيى بن وثاب : «وإلى ثمود » بالتنوين فى جميع المواضع . واختلف سائر القراء فيه فصرفوه فى موضع ولم يصرفوه فى موضع ، فالصرف باعتبار التأويل بالحى ، والمنع باعتبار التأويل بالقبيلة ، وهكذا سائر ما يصح فيه التأويلان ، وأنشد سيبويه فى التأنيث باعتبار التأويل بالقبيلة :

غلب المساميح الوليد جماعة     وكفى قريش المعضلات وسادها

﴿ **هو أنشأكم من الأرض** ﴾ أى ابتدأ خلقكم من الأرض ، لأن كل بنى آدم من صلب آدم ، وهو مخلوق من الأرض ﴿ **واستعمركم فيها** ﴾ أى جعلكم عمارها وسكانها ، من قولهم: أعمر فلان فلانا داره فهى له عمرى ، فيكون استفعل بمعنى أفعل ، مثل : استجاب بمعنى أجاب . وقال الضحاك : معناه : أطال أعماركم ، وكانت أعمارهم من ثلثمائة إلى ألف. وقيل : معناه : أمركم بعمارتها من بناء المساكن وغرس الأشجار ﴿ **فاستغفروه** ﴾ أى سلوه المغفرة لكم من عبادة الأصنام ﴿ **ثم توبوا إليه** ﴾ أى ارجعوا إلى عبادته ﴿ **إن ربى قريب مجيب** ﴾ أى قريب الإجابة لمن دعاه ،وقد تقدم القول فيه فى البقرة عند قوله تعالى:

﴿ فإني قريب أجيب دعوة الداع ﴾ [ البقرة : ١٨٦ ] ﴿ **قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا** ﴾ أى كنا نرجو أن تكون فينا سيدا مطاعا ننتفع برأيك ، ونسعد بسيادتك قبل هذا الذى أظهرته من ادعائك النبوة ودعوتك إلى التوحيد . وقيل : كان صالح يعيب آلهتهم وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم إلى الله قالوا : انقطع رجاؤنا منك ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا** ﴾ للإنكار أنكروا عليه هذا النهى ، وأن نعبد فى محل نصب بحذف الجار ، أى بأن نعبد ، ومعنى ما يعبد آباؤنا : ما كان يعبد آباؤنا. فهو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة ﴿ **وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب** ﴾ من أربته فأنا أريبه : إذا فعلت به فعلا يوجب له الريبة ، وهى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة ، أو من أراب الرجل : إذا كان ذا ريبة ، والمعنى : إننا لفى شك مما تدعونا إليه من عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان موقع فى الريب .

﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى** ﴾ أى حجة ظاهرة وبرهان صحيح ﴿**وآتانى منه** ﴾ أى من جهته ﴿ **رحمة** ﴾ أى نبوة . وهذه الأمور وإن كانت متحققة الوقوع ، لكنها صدرت بكلمة الشك اعتبارا بحال المخاطبين ، لأنهم فى شك من ذلك ، كما وصفوه عن أنفسهم ﴿ **فمن ينصرنى من الله** ﴾ استفهام معناه النفى ، أى لا ناصر لى يمنعنى من عذاب الله ﴿ **إن عصيته** ﴾ فى تبليغ الرسالة وراقبتكم وفترت عما يجب على من البلاغ ﴿ **فما تزيدوننى** ﴾ بتثبيطكم إياى ﴿ **غير تخسير** ﴾ بأن تجعلونى خاسرا بإبطال عملى ، والتعرض لعقوبة الله لى . قال الفراء : أى تضليل وإبعاد من الخير . وقيل : المعنى : فما تزيدوننى باحتجاجكم (١) بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم .

قوله : ﴿ **ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية** ﴾ قد مر تفسير هذه الآية فى الأعراف ، ومعنى﴿**لكم آية** ﴾ : معجزة ظاهرة، وهى منتصبة على الحال ، ولكم فى محل نصب على الحال من ﴿ **آية** ﴾ مقدمة عليها ، ولو تأخرت لكانت صفة لها . وقيل : إن ناقة الله بدل من هذه ، والخبر لكم ، والأول أولى ، وإنما قال : ﴿ **ناقة الله** ﴾ لأنه أخرجها لهم من جبل على حسب اقتراحهم . وقيل : من صخرة صماء ﴿ **فذروها تأكل فى أرض الله** ﴾ أى دعوها تأكل فى أرض الله مما فيها من المراعى التى تأكلها الحيوانات . قال أبو إسحاق الزجاج : ويجوز رفع تأكل على الحال والاستئناف ، ولعله يعنى فى الأصل على ما تقتضيه لغة العرب لا فى الآية ، فالمعتمد القراءات المروية على وجه الصحة ﴿ **ولا تمسوها بسوء** ﴾ قال الفراء : بعقر، والظاهر أن النهى عما هو أعم من ذلك ﴿ **فيأخذكم عذاب قريب** ﴾ جواب النهى ، أى قريب من عقرها ، وذلك ثلاثة أيام ﴿ **فعقروها** ﴾ أى فلم يمتثلوا الأمر من صالح ولا النهى ، بل خالفوا كل ذلك فوقع منهم العقر لها ﴿ **فقال** ﴾ لهم صالح﴿ **تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام** ﴾ أى تمتعوا

(١) فى المطبوعة : « باحتياجكم » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

بالعيش فى منازلكم ثلاثة أيام ، فإن العقاب نازل عليكم بعدها . قيل : إنهم عقروها يوم الأربعاء ، فأقاموا الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد ، والإشارة بقوله : ﴿ذلك ﴾ إلى ما يدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام ﴿ وعد غير مكذوب ﴾ أى غير مكذوب فيه، فحذف الجار اتساعا ، أو من باب المجاز ، كأن الوعد إذا وفى به صدق ولم يكذب ، ويجوز أن يكون مصدرا ، أى وعد غير كذب .

﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ أى عذابنا ، أو أمرنا بوقوع العذاب ﴿ نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ قد تقدم تفسير هذا فى قصة هود ﴿ ومن خزى يومئذ ﴾ أى ونجيناهم من خزى يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة ، والخزى : الذل والمهانة . وقيل : من عذاب يوم القيامة ، والأول أولى . وقرأ نافع والكسائى بفتح :« يوم » على أنه اكتسب البناء من المضاف إليه . وقرأ الباقون بالكسر: ﴿ إن ربك هو القوى العزيز﴾ القادر الغالب الذى لا يعجزه شىء ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ أى فى اليوم الرابع من عقر الناقة ، صيح بهم فماتوا ، وذكر الفعل لأن الصيحة والصياح واحد مع كون التأنيث غير حقيقى . قيل : صيحة جبريل ، وقيل : صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وماتوا ، وتقدم فى الأعراف ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ [الأعراف: ٧٨ ] قيل : ولعلها وقعت عقب الصيحة ﴿ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾ أى ساقطين على وجوههم موتى قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أى كأنهم لم يقيموا فى بلادهم أو ديارهم، والجملة فى محل نصب على الحال ، والتقدير : مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم فى مقام قط ﴿ ألا إن ثمود كفروا ربهم ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر ؛ لزيادة البيان، وصرح بكفرهم مع كونه معلوما تعليلا للدعاء عليهم بقوله : ﴿ ألا بعدا لثمود ﴾ وقرأ الكسائى بالتنوين . وقد تقدم تفسير هذه القصة فى الأعراف بما يحتاج إلى مراجعته ليضم ما فى إحدى القصتين من الفوائد إلى الأخرى .

وقد أخرج أبو الشيخ عن السدى : ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾ قال : خلقكم من الأرض . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ واستعمركم فيها ﴾ قال: أعمركم فيها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد ﴿ واستعمركم فيها ﴾ قال : استخلفكم فيها . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ فما تزيدوننى غير تخسير ﴾ يقول : ما تزدادون أنتم إلا خسارا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء الخراسانى نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾ قال : ميتين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ قال : كأن لم يعيشوا فيها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه ، قال : كأن لم يعمروا فيها . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : كأن لم ينعموا فيها .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ

حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا
إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)
قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ
أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ
الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا
إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾ .

هذه قصة لوط عليه السلام وقومه ، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام ، وكانت قرى لوط بنواحى الشام وإبراهيم ببلاد فلسطين . فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط ، مروا بإبراهيم ونزلوا عنده ، وكان كل من نزل عنده يحسن قراه ، وكان مرورهم عليه لتبشيره بهذه البشارة المذكورة ، فظنهم أضيافا ، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل . وقيل : كانوا تسعة . وقيل: أحد عشر ، والبشرى التى بشروه بها هى بشارته بالولد . وقيل : بإهلاك قوم لوط . والأولى أولى ﴿ قالوا سلاما ﴾ منصوب بفعل مقدر ، أى سلمنا عليك سلاما ﴿ قال سلام ﴾ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى أمركم سلام ، أو مرتفع على أنه مبتدأ والخبر محذوف ، والتقدير : عليكم سلام ﴿ فما لبث ﴾ أى إبراهيم ﴿ أن جاء بعجل حنيذ ﴾ قال أكثر النحويين : « أن » هنا بمعنى حتى ، أى فما لبث حتى جاء . وقيل : إنها فى محل نصب بسقوط حرف الجر ، والتقدير : فما لبث عن أن جاء ، أى ما أبطأ إبراهيم عن مجيئه بعجل و« ما » نافية ، قاله سيبويه. وقال الفراء : فما لبث مجيئه ، أى ما أبطأ مجيئه . وقيل : إن « ما » موصولة وهى مبتدأ والخبر ﴿ أن جاء بعجل حنيذ ﴾ والتقدير : فالذى لبث إبراهيم هو مجيؤه بعجل حنيذ ، والحنيذ : المشوى مطلقا . وقيل : المشوى بحر الحجارة من غير أن تمسه النار ، يقال : حنذ الشاة يحنذها : جعلها فوق حجارة محماة لتنضجها فهى حنيذ . وقيل : معنى حنيذ : سمين . وقيل : الحنيذ : هو السميط . وقيل : النضيج ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، وإنما جاءهم بعجل ؛ لأن البقر كانت أكثر أمواله ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه ﴾ أى لا يمدونها إلى العجل كما يمد يده من يريد الأكل ﴿ نكرهم ﴾ يقال : نكرته وأنكرته واستنكرته : إذا وجدته على غير ما تعهد ، ومنه قول الشاعر :

فأنكرتنى وما كان الذى نكرت ... من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فجمع بين اللغتين ، ومما جمع فيه بين اللغتين قول الشاعر :

إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها ... خرجت مع البازى على سواد

وقيل : يقال : أنكرت لما تراه بعينك ، ونكرت لما تراه بقلبك ، قيل : وإنما استنكر

منهم ذلك ، لأن عادتهم أن الضيف إذا نزل بهم ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه قد جاء بشر ﴿ **وأوجس منهم** ﴾ أى أحس فى نفسه منهم ﴿ **خيفة** ﴾ أى خوفا وفزعا . وقيل : معنى أوجس : أضمر فى نفسه خيفة ، والأول ألصق بالمعنى اللغوى ، ومنه قول الشاعر :

جاء البريد بقرطاس يحث به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعا

وكأنه ظن أنهم قد نزلوا به لأمر ينكره ، أو لتعذيب قومه ﴿ **قالوا لا تخف** ﴾ قالوا له هذه المقالة مع كونه لم يتكلم بما يدل على الخوف ، بل أوجس ذلك فى نفسه ، فلعلهم استدلوا على خوفه بأمارات كظهور أثره على وجهه ، أو قالوه له بعد ما قال عقب ما أوجس فى نفسه من الخيفة قولا يدل على الخوف ، كما فى قوله فى سورة الحجر : ﴿ قال إنا منكم وجلون ﴾ [ الحجر : ٥٢ ] ، ولم يذكر ذلك هاهنا اكتفاء بما هنالك . ثم عللوا نهيه عن الخوف بقولهم : ﴿ **إنا أرسلنا إلى قوم لوط** ﴾ أى أرسلنا إليهم خاصة ، ويمكن أن يكون إبراهيم عليه السلام قد قال قولا يكون هذا جوابا عنه ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ [ الذاريات : ٣١ ، ٣٢ ] ، وجملة : ﴿ **وامرأته قائمة فضحكت** ﴾ فى محل نصب على الحال . قيل : كانت قائمة عند تحاورهم وراء الستر . وقيل: كانت قائمة تخدم الملائكة وهو جالس . والضحك هنا هو الضحك المعروف الذى يكون للتعجب أو للسرور كما قاله الجمهور . وقال مجاهد وعكرمة : إنه الحيض . ومنه قول الشاعر:

وإنى لآتى العرس عند طهورها ... وأهجرها يوما إذا تك ضاحكا

وقال الآخر :

وضحك الأرانب فوق الصفا ... كمثل دم الخوف يوم اللقا

والعرب تقول : ضحكت الأرانب : إذا حاضت . وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون فى كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت . ﴿ **فبشرناها بإسحاق** ﴾ ظاهره أن التبشير كان بعد الضحك . وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير . والمعنى : فبشرناها فضحكت سرورا بالولد . وقرأ محمد بن زياد من قراء مكة : « فضحكت » بفتح الحاء ، وأنكره المهدوى . ﴿ **ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾ قرأ حمزة وابن عامر وحفص بنصب ﴿ **يعقوب** ﴾ على أنه مفعول فعل دل عليه ﴿ **فبشرناها** ﴾ ، كأنه قال : ووهبنا لها من وراء إسحاق يعقوب . وأجاز الكسائى والأخفش وأبو حاتم أن يكون ﴿ **يعقوب** ﴾ فى موضع جر . وقال الفراء : لا يجوز الجر إلا بإعادة حرفه . قال سيبويه : ولو قلت : مررت بزيد أول من أمس ، وأمس عمر ، كان قبيحا خبيثا ، لأنك فرقت بين المجرور وما يشركه كما يفرق بين الجار والمجرور . وقرأ الباقون برفع: « يعقوب » على أنه مبتدأ وخبره الظرف الذى قبله . وقيل :الرفع بتقدير فعل محذوف،

أى ويحدث لها ، أو وثبت لها . وقد وقع التبشير هنا لها ، ووقع لإبراهيم فى قوله تعالى : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ [ الصافات : ١٠١ ] ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ [ الذاريات : ٢٨ ] لأن كل واحد منهما مستحق للبشارة به لكونه منهما .

وجملة : ﴿ **قالت ياويلتا** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فماذا قالت ؟ قال الزجاج : أصلها ياويلتى ، فأبدل من الياء ألف لأنها أخف من الياء والكسرة . وهى لم ترد الدعاء على نفسها بالويل ، ولكنها كلمة تقع كثيرا على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه . وأصل الويل : الخزى ، ثم شاع فى كل أمر فظيع . والاستفهام فى قولها : ﴿ **أألد وأنا عجوز** ﴾ للتعجب ، أى كيف ألد وأنا شيخة قد طعنت فى السن ، يقال : عجزت تعجز مخففا ومثقلا عجزا وتعجيزا ، أى طعنت فى السن . ويقال : عجوز وعجوزة ، وأما عجزت بكسر الجيم ، فمعناه : عظمت عجيزتها . قيل : كانت بنت تسع وتسعين ، وقيل : بنت تسعين ﴿ **وهذا بعلى شيخا** ﴾ أى وهذا زوجى إبراهيم شيخا لا تحبل من مثله النساء ، و﴿**شيخا** ﴾ منتصب على الحال ، والعامل فيه معنى الإشارة . قال النحاس : وفى قراءة أبى وابن مسعود :« شيخ » بالرفع على أنه خبر المبتدأ ، أوخبر بعد خبر . أو خبر مبتدأ محذوف، وعلى الأول يكون ﴿ **بعلى** ﴾ بدلا من اسم الإشارة . قيل : كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة . وقيل : ابن مائة . وهذه المبشرة هى سارة امرأة إبراهيم . وقد كان ولد لإبراهيم من هاجر أمته إسماعيل ، فتمنت سارة أن يكون لها ابن وأيست منه لكبر سنها ، فبشرها الله به على لسان ملائكته ﴿ **إن هذا لشىء عجيب** ﴾ أى ما ذكرته الملائكة من التبشير بحصول الولد مع كونها فى هذه السن العالية التى لا يولد لمثلها شىء يقضى منه العجب .

وجملة : ﴿ **قالوا أتعجبين من أمر الله** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، والاستفهام فيها للإنكار ، أى كيف تعجبين من قضاء الله وقدره ، وهو لا يستحيل عليه شىء ، وإنما أنكروا عليها مع كون ما تعجبت منه من خوارق العادة لأنها من بيت النبوة ، ولا يخفى على مثلها أن هذا من مقدوراته سبحانه ، ولهذا قالوا : ﴿ **رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت** ﴾ أى الرحمة التى وسعت كل شىء والبركات وهى النمو والزيادة . وقيل : الرحمة : النبوة ، والبركات : الأسباط من بنى إسرائيل لما فيهم من الأنبياء ، وانتصاب ﴿ **أهل البيت** ﴾ على المدح أو الاختصاص ، وصرف الخطاب من صيغة الواحدة إلى الجمع لقصد التعميم ﴿ **إنه حميد** ﴾ أى يفعل موجبات حمده من عباده على سبيل الكثرة ﴿ **مجيد** ﴾ كثير الإحسان إلى عباده بما يفيضه عليهم من الخيرات ، والجملة تعليل لقوله : ﴿ **رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت** ﴾ . قوله : ﴿ **فلما ذهب عن إبراهيم الروع** ﴾ أى الخيفة التى أوجسها فى نفسه ، يقال: ارتاع من كذا : إذا خاف ، ومنه قول النابغة :

فارتاع من صوت كلاب فبات له ... طوع الشوامت من خوف ومن حذر

﴿ وجاءته البشرى﴾ أى بالولد، أو بقولهم: لا تخف. قوله: ﴿ يجادلنا فى قوم لوط ﴾.
قال الأخفش والكسائى: إن ﴿ يجادلنا ﴾ فى موضع جادلنا ، فيكون هو جواب ﴿لما ﴾ . لما تقرر من أن جوابها يكون بالماضى لا بالمستقبل . قال النحاس : جعل المستقبل مكانه كما يجعل الماضى مكان المستقبل فى الشرط . وقيل : إن الجواب محذوف . و﴿يجادلنا﴾ فى موضع نصب على الحال قاله الفراء ، وتقديره : فلما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى اجترأ على خطابنا حال كونه يجادلنا ، أى يجادل رسلنا . وقيل : إن المعنى: أخذ يجادلنا ، ومجادلته لهم قيل : إنه لما سمع قولهم : ﴿ إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴾ [ العنكبوت : ٣١] قال : أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين أتهلكونهم ؟ قالوا : لا . قال: فأربعون ؟ قالوا : لا ، قال : فعشرون ؟ قالوا : لا ، ثم قال : فعشرة ، فخمسة ؟ قالوا: لا . قال: فواحد ؟ قالوا : لا ﴿ قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله ﴾ الآية [العنكبوت : ٣٢ ] ، فهذا معنى مجادلته فى قوم لوط ، أى فى شأنهم وأمرهم . ثم أثنوا على إبراهيم . أو أثنى الله عليه فقال : ﴿ إن إبراهيم لحليم ﴾ أى ليس بعجول فى الأمور ، ولا بموقع لها على غير ما ينبغى . والأواه : كثير التأوه . والمنيب: الراجع إلى الله. وقد تقدم فى براءة الكلام على الأواه(١) .

قوله : ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ هذا قول الملائكة له، أى أعرض عن هذا الجدال فى أمر قد فرغ منه ، وجف به القلم ، وحق به القضاء ﴿ إنه قد جاء أمر ربك ﴾ الضمير للشأن ، ومعنى مجىء أمر الله : مجىء عذابه الذى قدره عليهم ، وسبق به قضاؤه ﴿ وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ أى لا يرده دعاء ولا جدال ، بل هو واقع بهم لا محالة ، ونازل بهم على كل حال ليس بمصروف ولا مدفوع .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن عثمان بن محصن فى ضيف إبراهيم قال : كانوا أربعة : جبريل ، وميكائيل . وإسرافيل . ورافئيل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ بعجل حنيذ ﴾ قال : نضيج . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : مشوى . وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا قال : سميط . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك قال : الحنيذ : الذى أنضج بالحجارة . وأخرج ابن أبى حاتم عن يزيد بن أبى يزيد البصرى فى قوله : ﴿ فلما رأى أيديهم لاتصل إليه ﴾ قال : لم ير لهم أيديا فنكرهم . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ نكرهم ﴾ قال : كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير ، وأنه يحدث نفسه بشر ، ثم حدثوه عند ذلك بما جاؤوا فيه فضحكت امرأته . وأخرج ابن المنذر عن المغيرة قال : فى مصحف ابن مسعود : « وامرأته قائمة وهو جالس » .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ وامرأته قائمة ﴾ قال : فى خدمة أضياف إبراهيم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : لما

---

(١) راجع : تفسير قوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ [ التوبة : ١١٤] .

أوجس إبراهيم فى نفسه خيفة حدثوه عند ذلك بما جاؤوا فيه . فضحكت امرأته تعجبا مما فيه قوم لوط من الغفلة ، ومما أتاهم من العذاب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **فضحكت** ﴾ قال : فحاضت وهى بنت ثمان وتسعين سنة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فضحكت** ﴾ قال : حاضت وكانت ابنة بضع وتسعين سنة . وكان إبراهيم ابن مائة سنة . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة قال : حاضت . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾ قال : هو ولد الولد . وأخرج ابن الأنبارى فى كتاب الوقف والابتداء عن حسان بن أبجر قال : كنت عند ابن عباس فجاء رجل من هذيل، فقال له ابن عباس : ما فعل فلان ؟ قال : مات وترك أربعة من الولد وثلاثة من الوراء، فقال ابن عباس : ﴿ **فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾ قال : ولد الولد. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وأبو الشيخ والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس ، أنه كان ينهى عن أن يزاد فى جواب التحية على قولهم : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته . ويتلو هذه الآية : ﴿ **رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت** ﴾ . وأخرج البيهقى عن ابن عمر نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فلما ذهب عن إبراهيم الروع** ﴾ قال : الفرق ﴿ **يجادلنا فى قوم لوط** ﴾ قال : يخاصمنا . وأخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ عن قتادة فى تفسير المجادلة قال : إنه قال لهم يومئذ : أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين ؟ قالوا : إن كان فيهم خمسون لم نعذبهم . قال : أربعون ؟ قالوا: وأربعون . قال : ثلاثون ؟ قالوا : وثلاثون ، حتى بلغوا عشرة . قالوا : إن كان فيهم عشرة لم نعذبهم . قال : ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير ؟ قال قتادة : إنه كان فى قرية لوط أربعة آلاف ألف إنسان . أو ما شاء الله من ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : لما جاءت الملائكة إلى إبراهيم قالوا لإبراهيم : إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب . وأخرج أبو الشيخ عن عمرو بن ميمون قال : الأواه : الرحيم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : المنيب : المقبل إلى طاعة الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : المنيب : المخلص .

**﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)**

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ .

لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ جاؤوا إلى لوط ، فلما رآهم لوط وكانوا فى صورة غلمان حسان مرد ﴿ سىء بهم ﴾ أى ساءه مجيئهم . يقال : ساءه يسؤوه ، وأصل سىء بهم : سوىء بهم ، نقلت حركة الواو إلى السين فقلبت الواو ياء ، ولما خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء . وقرأ نافع وابن عامر والكسائى وأبو عمرو بإشمام السين الضم ﴿ وضاق بهم ذرعا ﴾ قال الأزهرى : الذرع يوضع موضع الطاقة . وأصله بأن البعير يذرع بيده فى سيره على قدر سعة خطوه ، أى يبسطها . فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك . فجعل ضيق الذرع كناية عن قلة الوسع والطاقة وشدة الأمر . وقيل : هو من ذرعه القىء : إذا غلبه وضاق عن حبسه . والمعنى : أنه ضاق صدره لما رأى الملائكة فى تلك الصورة خوفا عليهم من قومه لما يعلم من فسقهم وارتكابهم لفاحشة اللواط ﴿وقال هذا يوم عصيب ﴾ أى شديد . قال الشاعر :

وإنك إن لم ترض بكر بن وائل ... يكن لك يوم بالعراق عصيب

يقال : عصيب وعصيصب وعصوصب على التكثير ، أى يوم مكروه يجتمع فيه الشر ، ومنه قيل : عصبة وعصابة ، أى مجتمعو الكلمة ، ورجل معصوب ، أى مجتمع الخلق ﴿وجاءه قومه يهرعون إليه ﴾ أى جاؤوا لوطا . الجملة فى محل نصب على الحال . ومعنى ﴿يهرعون إليه ﴾ : يسرعون إليه . قال الكسائى والفراء وغيرهما من أهل اللغة : لا يكون الإهراع إلا إسراعا مع رعدة ، يقال : أهرع الرجل إهراعا ، أى أسرع فى رعدة من برد أو غضب أوحمى ، قال مهلهل :

فجاؤوا يهرعون وهم أسارى ... نهودهم على رغم الأنوف

وقيل : يهرعون : يهرولون . وقيل : هو مشى بين الهرولة والعدو ، والمعنى : أن قوم لوط لما بلغهم مجىء الملائكة فى تلك الصورة أسرعوا إليه ، كأنما يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه ﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ أى ومن قبل مجىء الرسل فى هذا الوقت كانوا يعملون السيئات . وقيل : ومن قبل لوط كانوا يعملون السيئات ، أى كانت عادتهم إتيان الرجال ، فلما جاؤوا إلى لوط ، وقصدوا أضيافه لذلك العمل ، قام إليهم لوط مدافعا و﴿قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ﴾ أى تزوجوهن ، ودعوا ما تطلبونه من

الفاحشة بأضيافى ، وقد كان له ثلاث بنات . وقيل : اثنتان ، وكانوا يطلبون منه أن يزوجهم بهن فيمتنع لخبثهم ، وكان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما بنتيه . وقيل : أراد بقوله : ﴿هؤلاء بناتى﴾ النساء جملة ، لأن نبى القوم أب لهم ، وقالت طائفة : إنما كان هذا القول منه على طريق المدافعة ولم يرد الحقيقة . ومعنى ﴿ هن أطهر لكم ﴾ أى أحل وأنزه ؛ والتطهر : التنزه عما لا يحل ، وليس فى صيغة أطهر دلالة على التفضيل ، بل هى مثل : « الله أكبر » . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر بنصب :« أطهر » ، وقرأ الباقون بالرفع ؛ ووجه النصب أن يكون اسم الإشارة مبتدأ وخبره : ﴿ بناتى ﴾ ، و﴿ هن ﴾ ضمير فصل ، و﴿أطهر﴾ حال . وقد منع الخليل وسيبويه والأخفش مثل هذا ، لأن ضمير الفصل الذى يسمى عمادا إنما يكون بين كلامين بحيث لا يتم الكلام إلا بما بعدها ، نحو كان زيد هو أخاك ﴿فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ﴾ أى اتقوا الله بترك ما تريدون من الفاحشة بهم ؛ ولا تذلونى وتجلبوا على العار فى ضيفى ، والضيف يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، لأنه فى الأصل مصدر ، ومنه قول الشاعر :

لا تعدمى الدهر شفار الجازر  للضيف والضيف أحق زائر

ويجوز فيه التثنية والجمع ، والأول أكثر . يقال : خزى الرجل خزاية ، أى استحيا أو ذل أو هان ، وخزى خزيا :إذا افتضح ، ومعنى ﴿ فى ضيفى ﴾ : فى حق ضيفى ، فخزى الضيف خزى للمضيف ، ثم وبخهم فقال : ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ يرشدكم إلى ترك هذا العمل القبيح ويمنعكم منه ، فأجابوا عليه معرضين عما نصحهم به ، وأرشدهم إليه بقولهم: ﴿ ما لنا فى بناتك من حق ﴾ أى مالنا فيهم من شهوة ولا حاجة ، لأن من احتاج إلى شىء فكأنه حصل له فيه نوع حق ، ومعنى ما نسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكالبة على إتيان الذكور وشدة الشهوة إليهم ، فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء ؛ ويمكن أن يريدوا : أنه لا حق لنا فى نكاحهن ، لأنه لا ينكحهن ويتزوج بهن إلا مؤمن ونحن لا نؤمن أبدا . وقيل : إنهم كانوا قد خطبوا بناته من قبل فردهم ، وكان من سنتهم أن من خطب فرد فلا تحل المخطوبة أبدا ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ من إتيان الذكور .

ثم إنه لما علم تصميمهم على الفاحشة وأنهم لا يتركون ما قد طلبوه ﴿ قال لو أن لى بكم قوة ﴾ وجواب « لو » محذوف ، والتقدير : لدافعتكم عنهم ومنعتكم منهم ، وهذا منه عليه السلام على طريق التمنى ، أى لو وجدت معينا وناصرا. فسمى ما يتقوى به قوة ﴿ أو آوى إلى ركن شديد ﴾ عطف على ما بعد « لو » لما فيه من معنى الفعل ، والتقدير : لو قويت على دفعكم ، أو آويت إلى ركن شديد . وقرئ :« أو آوى » بالنصب عطفا على قوة كأنه قال : لو أن لى بكم قوة، أو إيواء إلى ركن شديد ، ومراده بالركن الشديد : العشيرة ، وما يمتنع به عنهم هو ومن معه . وقيل : أراد بالقوة : الولد، وبالركن الشديد : من ينصره من غير ولده.

وقيل : أراد بالقوة : قوته فى نفسه . ولما سمعته الملائكة يقول هذه المقالة ، ووجدوا قومه قد غلبوه وعجز عن مدافعتهم ﴿ **قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك** ﴾ أخبروه أولا أنهم رسل ربه ثم بشروه بقولهم : ﴿ **لن يصلوا إليك** ﴾ وهذه الجملة موضحة لما قبلها ؛ لأنهم إذا كانوا مرسلين من عند الله إليه لم يصل عدوه إليه ولم يقدروا عليه ، ثم أمروه أن يخرج عنهم فقالوا له : ﴿ **فأسر بأهلك بقطع من الليل** ﴾ قرأ نافع وابن كثير بالوصل ، وقرأ غيرهما بالقطع ، وهما لغتان فصيحتان . قال الله تعالى : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ [ الفجر : ٤ ] وقال: ﴿سبحان الذى أسرى ﴾ [ الإسراء : ١] وقد جمع الشاعر بين اللغتين فقال :

حى النضير وربة الخدر     أسرت عليه ولم تكن تسرى

وقيل : إن أسرى للمسير من أول الليل ، وسرى للمسير من آخره . والقطع من الليل : الطائفة منه . قال ابن الأعرابى : ﴿**بقطع من الليل** ﴾ : بساعة منه . وقال الأخفش : بجنح من الليل . وقيل : بظلمة من الليل . وقيل : بعد هدو من الليل . قيل : إن السرى لا يكون إلا فى الليل ، فما وجه زيادة بقطع من الليل ؟ قيل : لو لم يقل بقطع من الليل لجاز أن يكون فى أوله قبل اجتماع الظلمة ، وليس ذلك بمراد ﴿ **ولا يلتفت منكم أحد** ﴾ أى لا ينظر إلى ما وراءه ، أو يشتغل بما خلفه من مال أو غيره . قيل : وجه النهى عن الالتفات ألا يروا عذاب قومهم ، وهول ما نزل بهم فيرحموهم ويرقوا لهم ، أو لئلا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم بما يقع من الالتفات ،فإنه لابد للملتفت من فترة فى سيره ﴿ **إلا امرأتك** ﴾ بالنصب على قراءة الجمهور ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالرفع على البدل ، فعلى القراءة الأولى امرأته مستثناة من قوله: ﴿ **فأسر بأهلك**﴾ أى أسر بأهلك جميعا إلا امرأتك فلا تسر بها ، فإنه﴿ **مصيبها ما أصابهم** ﴾ من العذاب ، وهو رميهم بالحجارة لكونها كانت كافرة ؛ وأنكر قراءة الرفع جماعة منهم أبو عبيد وقال : لا يصح ذلك إلا برفع ﴿ **يلتفت** ﴾ ويكون نعتا، لأن المعنى يصير إذا أبدلت وجزمت أن المرأة أبيح لها الالتفات وليس المعنى كذلك. قال النحاس : وهذا العمل من أبى عبيد وغيره على مثل أبى عمرو مع جلالته ومحله من العربية لا يجب أن يكون ، والرفع على البدل له معنى صحيح ، وهو أن يكون استثناء من النهى عن الالتفات ، أى لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت وتهلك . وقيل : إن الرفع على البدل من ﴿ **أحد** ﴾ ، ويكون الالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر إلى الخلف ، فكأنه قال : ولا يتخلف منكم أحد إلا امرأتك ، فإنها تتخلف ، والملجئ إلى هذا التأويل البعيد الفرار من تناقض القراءتين ، والضمير فى ﴿ **إنه مصيبها ما أصابهم** ﴾ للشأن، والجملة خبر إن ، ﴿ **إن موعدهم الصبح** ﴾ هذه الجملة تقليل لما تقدم من الأمر بالإسراء والنهى عن الالتفات ، والمعنى : أن موعد عذابهم الصبح المسفر عن تلك الليلة، والاستفهام فى : ﴿ **أليس الصبح بقريب** ﴾ للإنكار التقريرى ، والجملة تأكيد للتعليل . وقرأ عيسى بن عمر : « أليس الصبح » بضم الباء وهى لغة ، ولعل جعل الصبح ميقاتا لهلاكهم لكون النفوس فيه أسكن ،

والناس فيه مجتمعون لم يتفرقوا إلى أعمالهم .

﴿ **فلما جاء أمرنا** ﴾ أي الوقت المضروب لوقوع العذاب فيه ، أو المراد بالأمر : نفس العذاب ﴿ **جعلنا عاليها سافلها** ﴾ أي عالي قرى قوم لوط سافلها ، والمعنى : أنه قلبها على هذه الهيئة ، وهي كون عاليها صار سافلها ، وسافلها صار عاليها ، وذلك لأن جبريل أدخل جناحه تحتها فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء ثم قلبها عليهم ﴿**وأمطرنا عليها حجارة من سجيل** ﴾ قيل : إنه يقال : أمطرنا في العذاب ومطرنا في الرحمة . وقيل : هما لغتان ، يقال : مطرت السماء و أمطرت حكى ذلك الهروى . والسجيل : الطين المتحجر بطبخ أو غيره . وقيل : هو الشديد الصلب من الحجارة . وقيل : السجيل الكثير . وقيل : إن السجيل لفظة غير عربية ، أصله سج وجيل ، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسما واحدا . وقيل : هو من لغة العرب . وذكر الهروى : أن السجيل اسم لسماء الدنيا . قال ابن عطية : وهذا ضعيف يرده وصفه بمنضود . وقيل : هو بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض . وقيل : هي جبال في السماء . وقال الزجاج : هو من التسجيل لهم ، أي ما كتب لهم من العذاب فهو في معنى سجين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم ﴾ [ المطففين : ٨ ، ٩ ] وقيل : هو من أسجلته : إذا أعطيته ، فكأنه عذاب أعطوه ، ومنه قول الشاعر :

من يساجلني يساجل ماجدا    يملأ الدلو إلى عقد الكرب

ومعنى : ﴿ **منضود** ﴾ أنه نضد بعضه فوق بعض . وقيل : بعضه في أثر بعض ، يقال: نضدت المتاع : إذا جعلت بعضه على بعض ، فهو منضود ونضيد . والمسومة : المعلمة، أي التي لها علامة . قيل : كان عليها أمثال الخواتيم . وقيل : مكتوب على كل حجر اسم من رمي به . وقال الفراء . زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض . فذلك تسويمها؛ ومعنى : ﴿ **عند ربك** ﴾ في خزائنه ﴿ **وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾ أي وما هذه الحجارة الموصوفة من الظالمين وهم قوم لوط ببعيد ، أو ما هي من كل ظالم من الظلمة ومنهم كفار قريش ومن عاضدهم على الكفر بمحمد ﷺ ببعيد . فهم لظلمهم مستحقون لها . وقيل : ﴿ **وما هي** ﴾ أي قرى ﴿ **من الظالمين** ﴾ من كفر بالنبي ﷺ ﴿ **ببعيد** ﴾ فإنها بين الشام والمدينة. وفي إمطار الحجارة قولان : أحدهما : أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل . والثاني : أنها أمطرت على من لم يكن في المدن من أهلها وكان خارجا عنها . وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو إجراء له على موصوف مذكر، أي شيء بعيد ، أو مكان بعيد، أو لكونه مصدرا كالزفير والصهيل ، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ **ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا** ﴾ قال : ساء ظنا بقومه ، وضاق ذرعا بأضيافه ﴿ **وقال**

**هذا يوم عصيب ﴾** يقول : شديد . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : **﴿يهرعون إليه ﴾** قال : يسرعون **﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾** قال : يأتون الرجال. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا قال : **﴿ يهرعون إليه ﴾** يستمعون إليه . وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا فى قوله : **﴿ هؤلاء بناتى ﴾** قال : ما عرض لوط بناته على قومه لا سفاحا ولا نكاحا . إنما قال هؤلاء نساؤكم ، لأن النبى إذا كان بين ظهرانى قوم فهو أبوهم . قال الله تعالى فى القرآن : « وأزواجه أمهاتهم وهو أبوهم » فى قراءة أبى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : لم تكن بناته ولكن كن من أمته . وكل نبى أبو أمته وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن عساكر عن السدى نحوه . قال : وفى قراءة عبد الله : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم » . وأخرج ابن أبى حاتم عن حذيفة بن اليمان قال : عرض عليهم بناته تزويجا . وأراد أن يقى أضيافه بتزويج بناته . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله :**﴿ ولا تخزونى فى ضيفى ﴾** قال : لا تفضحونى . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك : **﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾** قال : رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وأخرج أبو الشيخ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس **﴿ أليس منكم رجل رشيد﴾** قال : واحد يقول : لا إله إلا الله . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى **﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾** قال : إنما نريد الرجال **﴿ قال ﴾** لوط **﴿ لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾** يقول : إلى جند شديد لمقاتلتكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس **﴿ أو آوى إلى ركن شديد ﴾** قال : عشيرة . وقد ثبت فى البخارى وغيره من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « يغفر الله للوط إن كان يأوى إلى ركن شديد » (١) وهو مروى فى غير الصحيح من طريق غيره من الصحابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس **﴿ بقطع من الليل ﴾** قال : جوف الليل . وأخرجا عنه قال : بسواد الليل . وأخرج عبد الرزاق عن قتادة قال : بطائفة من الليل. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : **﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾** قال : لا يتخلف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : **﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾** قال : لا ينظر وراءه أحد **﴿ إلا امرأتك ﴾** . وأخرج أبو عبيد وابن جرير عن هارون قال : فى حرف ابن مسعود : « فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك » .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : **﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ﴾** قال : لما أصبحوا عدا جبريل على قريتهم فقلعها من أركانها . ثم أدخل جناحه ثم حملها على خوافى جناحه بما فيها ، ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم

---

(١) أحمد ٢ / ٣٢٢ والبخارى فى الأنبياء ( ٣٣٨٧ ) ومسلم فى الفضائل ( ١٥١ / ١٥٣ ) .

قلبها، فكان أول ما سقط منها سرادقها ، فلم يصب قوما ما أصابهم ، ثم إن الله طمس على أعينهم ، ثم قلبت قريتهم ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل . وقد ذكر المفسرون روايات وقصصا فى كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخالفة . وليس فى ذكرها فائدة لاسيما وبين من قال بشيء من ذلك وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له فى مثله إسناد صحيح . وغالب ذلك مأخوذ عن أهل الكتاب . وحالهم فى الرواية معروف .وقد أمرنا بأنا لا نصدقهم ولا نكذبهم . فاعرف هذا ، فهو الوجه فى حذفنا لكثير من هذه الروايات الكائنة فى قصص الأنبياء وقومهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿وما هى من الظالمين ببعيد﴾ قال :يرهب بها قريش أن يصيبهم ما أصاب القوم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال : من ظلمة العرب إن لم يؤمنوا فيعذبوا بها . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن أبى حاتم عن قتادة قال : من ظالمى هذه الأمة .

**﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾** .

أى وأرسلنا إلى مدين وهم قوم شعيب أخاهم فى النسب شعيبا . وسموا مدين باسم أبيهم ، وهو مدين بن إبراهيم . وقيل : باسم مدينتهم . قال النحاس : لا ينصرف مدين لأنه اسم مدينة ، وقد تقدم الكلام على هذا فى الأعراف بأبسط مما هنا ، وقد تقدم تفسير : ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ فى أول السورة ، وهذه الجملة مستأنفة ؛ كأنه قيل : ماذا قال لهم شعيب لما أرسله الله إليهم ؟ وقد كان شعيب عليه السلام يسمى خطيب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه ، أمرهم أولا بعبادة الله سبحانه الذى هو الإله وحده لا شريك له ، ثم نهاهم عن أن ينقصوا المكيال والميزان ، لأنهم كانوا مع كفرهم أهل تطفيف ، كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد وكذلك إذا وصل إليهم الموزون أخذوا بوزن زائد ، وإذا باعوا باعوا بكيل ناقص ووزن ناقص ؛ وجملة : ﴿ إنى أراكم بخير ﴾ تعليل للنهى ، أى لا تنقصوا المكيال والميزان لأنى أراكم بخير ، أى بثروة واسعة فى الرزق فلا تغيروا نعمة الله عليكم بمعصيته والإضرار بعباده ، ففى هذه النعمة ما يغنيكم عن أخذ أموال الناس بغير حقها؛ ثم ذكر بعد هذه العلة علة أخرى ، فقال : ﴿ وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ فهذه العلة فيها الإذكار لهم بعذاب الآخرة كما أن العلة الأولى فيها الإذكار لهم بنعيم الدنيا ، ووصف اليوم بالإحاطة والمراد العذاب ، لأن العذاب واقع فى اليوم ؛ ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم : أنه لا يشذ منهم أحد عنه ولا يجدون منه ملجأ ولا مهربا ، واليوم هو يوم القيامة . وقيل : هو يوم الانتقام منهم فى الدنيا بالصيحة .

ثم أكد النهى عن نقص الكيل والوزن بقوله : ﴿ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ﴾ والإيفاء : هو الإتمام . والقسط : العدل ، وهو عدم الزيادة والنقص وإن كان الزيادة على الإيفاء فضل وخير ، ولكنها فوق ما يفيده اسم العدل ، والنهى عن النقص وإن كان يستلزم الإيفاء ففى تعاضد الدلالتين مبالغة بليغة وتأكيد حسن ، ثم زاد ذلك تأكيدا فقال : ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ قد مر تفسير هذا فى الأعراف ، وفيه النهى عن البخس على العموم، والأشياء أعم مما يكال ويوزن فيدخل البخس بتطفيف الكيل والوزن فى هذا دخولا أوليا . وقيل: البخس (١) : المكس خاصة ، ثم قال : ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ قد مر أيضا تفسيره فى البقرة . والعثى فى الأرض يشمل كل ما يقع فيها من الإضرار بالناس فيدخل فيه ما فى السياق من نقص المكيال والميزان ، وقيده بالحال وهو قوله : ﴿ مفسدين ﴾ ليخرج ما كان صورته من العثى فى الأرض ، والمقصود به الإصلاح كما وقع من الخضر فى السفينة ﴿ بقيت الله خير لكم ﴾ أى ما يبقيه لكم من الحلال بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر خيرا وبركة مما تبقونه لأنفسكم من التطفيف والبخس والفساد فى الأرض . ذكر معناه ابن جرير وغيره من المفسرين . وقال مجاهد : بقية الله : طاعته . وقال الربيع : وصيته . وقال الفراء : مراقبته،

(١) وقيل : البخس : الهضم والنقص والظلم .

وإنما قيد ذلك بقوله : ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ لأن ذلك إنما ينتفع به المؤمن لا الكافر ، أو المراد بالمؤمنين هنا : المصدقون لشعيب ﴿ **وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ أحفظكم من الوقوع فى المعاصى من التطفيف والبخس وغيرهما . أو أحفظ عليكم أعمالكم وأحاسبكم بها وأجازيكم عليها .

وجملة : ﴿ **قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قالوا لشعيب ؟ وقرئ : « أصلاتك » بالإفراد ، و﴿ **أن نترك** ﴾ فى موضع نصب . وقال الكسائى : موضعها خفض على إضمار الباء ، ومرادهم بما يعبد آباؤهم ما كانوا يعبدون من الأوثان ، والاستفهام للإنكار عليه والاستهزاء به ؛ لأن الصلوات عندهم ليست من الخير الذى يقال لفاعله عند إرادة تليين قلبه وتذليل صعوبته ، كما يقال لمن كان كثير الصدقة إذا فعل ما لايناسب الصواب : أصدقتك أمرتك بهذا . وقيل : المراد بالصلاة هنا : القراءة . وقيل : المراد بها : الدين . وقيل : المراد بالصلوات : أتباعه ، ومنه المصلى الذى يتلو السابق ؛ وهذا منهم جواب لشعيب عن أمره لهم بعبادة الله وحده ، وقولهم : ﴿ **أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء** ﴾ جواب له عن أمرهم بإيفاء الكيل والوزن ، ونهيهم عن نقصهما وعن بخس الناس وعن العثى فى الأرض ، وهذه الجملة معطوفة على ﴿ **ما** ﴾ فى : ﴿ **ما يعبد آباؤنا** ﴾ . والمعنى : أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا وتأمرك أن نترك أن نفعل فى أموالنا ما نشاء من الأخذ والإعطاء والزيادة والنقص . وقرئ : « تفعل ما تشاء » بالفوقية فيهما . قال النحاس : فتكون ﴿ **أو** ﴾ على هذه القراءة للعطف على أن الأولى ، والتقدير : أصلواتك تأمرك أن تفعل فى أموالنا ما تشاء . وقرئ « نفعل » بالنون و« ما تشاء » بالفوقية ، ومعناه : أصلواتك تأمرك أن نفعل نحن فى أموالنا ما تشاؤه أنت وندع ما نشاؤه نحن وما يجرى به التراضى بيننا ؛ ثم وصفوه بوصفين عظيمين فقالوا : ﴿ **إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾ على طريقة التهكم به ، لأنهم يعتقدون أنه على خلافهما ، أو يريدون إنك لأنت الحليم الرشيد عند نفسك وفى اعتقادك ، ومعناهم : أن هذا الذى نهيتنا عنه وأمرتنا به يخالف ما تعتقده فى نفسك من الحلم والرشد . وقيل : إنهم قالوا ذلك لا على طريقة الاستهزاء بل هو عندهم كذلك ، وأنكروا عليه الأمر والنهى منه لهم بما يخالف الحلم والرشد فى اعتقادهم . وقد تقدم تفسير الحلم والرشد.

وجملة : ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى** ﴾ مستأنفة كالجمل التى قبلها، والمعنى : أخبرونى إن كنت على حجة واضحة من عند ربى فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه ﴿**ورزقنى منه** ﴾ أى من فضله وخزائن ملكه ﴿ **رزقا حسنا** ﴾ أى كثيرا واسعا حلالا طيبا ، وقد كان عليه السلام كثير المال . وقيل : أراد بالرزق : النبوة . وقيل : الحكمة . وقيل : العلم . وقيل : التوفيق ، وجواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام تقديره : أترك أمركم ونهيكم ، أو أتقولون فى شأنى ما تقولون مما تريدون به السخرية والاستهزاء ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه** ﴾ أى وما أريد بنهى لكم عن التطفيف والبخس أن

أخالفكم إلى ما نهيتكم عنه فأفعله دونكم ، يقال : خالفه إلى كذا إذا قصده وهو مول عنه ، وخالفته عن كذا فى عكس ذلك ﴿ إن أريد إلا الإصلاح ﴾ أى ما أريد بالأمر والنهى إلا الإصلاح لكم ، ودفع الفساد فى دينكم ومعاملاتكم ﴿ ما استطعت ﴾ ما بلغت إليه استطاعتى، وتمكنت منه طاقتى ﴿ وما توفيقى إلا بالله ﴾ أى ما صرت موفقا هاديا نبيا مرشدا إلا بتأييد الله سبحانه ، وإقدارى عليه ، ومنحى إياه ﴿ عليه توكلت ﴾ فى جميع أمورى التى منها أمركم ونهيكم ﴿ وإليه أنيب ﴾ أى أرجع فى كل ما نابنى من الأمور وأفوض جميع أمورى إلى ما يختاره لى من قضائه وقدره . وقيل : معناه : وإليه أرجع فى الآخرة . وقيل : إن الإنابة : الدعاء ، ومعناه : وله أدعو.

قوله : ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى ﴾ قال الزجاج : معناه لا يكسبنكم شقاقى إصابة العذاب إياكم كما أصاب من كان قبلكم ؛ وقيل : معناه : لا يحملنكم شقاقى ، والشقاق : العداوة ، ومنه قول الأخطل :

ألا من مبلغ عنى رسولا فكيف وجدتم طعم الشقاق

و﴿ أن يصيبكم ﴾ فى محل نصب على أنه مفعول ثان ليجرمنكم ﴿ مثل ما أصاب قوم نوح ﴾ من الغرق ﴿ أو قوم هود ﴾ من الريح ﴿ أو قوم صالح ﴾ من الصيحة ، وقد تقدم تفسير يجرمنكم وتفسير الشقاق ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ يحتمل أن يريد ليس مكانهم ببعيد من مكانكم أو ليس زمانهم ببعيد من زمانكم ، أو ليسوا ببعيد منكم فى السبب الموجب لعقوبتهم ، وهو مطلق الكفر ، وأفرد لفظ ﴿ بعيد ﴾ لمثل ما سبق فى ﴿ وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ .

ثم بعد ترهيبهم بالعذاب أمرهم بالاستغفار والتوبة فقال : ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ﴾ وقد تقدم تفسير الاستغفار مع ترتيب التوبة عليه فى أول السورة . وتقدم تفسير الرحيم . والمراد هنا : أنه عظيم الرحمة للتائبين . والودود : المحب . قال فى الصحاح (١) : وددت الرجل أوده ودا : إذا أحببته ، والودود : المحب ، والودّ والوُدّ والوِدّ : المحبة ، والمعنى هنا : أنه يفعل بعباده ما يفعله من هو بليغ المودة بمن يوده من اللطف به وسوق الخير إليه ودفع الشر عنه . وفى هذا تعليل لما قبله من الأمر بالاستغفار والتوبة .

وجملة : ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ﴾ مستأنفة كالجمل السابقة ، والمعنى : أنك تأتينا بما لا عهد لنا به من الإخبار بالأمور الغيبية كالبعث والنشور ولا نفقه ذلك ، أى نفهمه كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة ، فيكون نفى الفقه على هذا حقيقة لا مجازا . وقيل : قالوا ذلك إعراضا عن سماعه ، واحتقار الكلام مع كونه مفهوما لديهم معلوما عندهم ، فلا

(١) مختار الصحاح ص٧١٤ .

يكون نفى الفقه حقيقة بل مجازا . يقال : فقه يفقه : إذا فهم فِقْها وفَقها ، وحكى الكسائى فقهانا . ويقال : فقه فقها : إذا صار فقيها ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفا ﴾ أى : لا قوة لك تقدر بها على أن تمنع نفسك منا وتتمكن بها من مخالفتنا . وقيل : المراد أنه ضعيف فى بدنه ، قاله على بن عيسى . وقيل : إنه كان مصابا ببصره . قال النحاس : وحكى أهل اللغة أن حمير تقول للأعمى : ضعيف ، أى قد ضعف بذهاب بصره كما يقال له : ضرير ، أى قد ضر بذهاب بصره . وقيل : الضعيف : المهين . وهو قريب من القول الأول ﴿ولولا رهطك لرجمناك ﴾ رهط الرجل : عشيرته الذين يستند إليهم ويتقوى بهم ، ومنه الراهط لجحر اليربوع ، لأنه يتوثق به ويخبأ فيه ولده ، والرهط يقع على الثلاثة إلى العشرة . وإنما جعلوا رهطه مانعا من إنزال الضرر به مع كونهم فى قلة والكفار ألوف مؤلفة ؛ لأنهم كانوا على دينهم فتركوه احتراما لهم لا خوفا منهم ، ثم أكدوا ما وصفوه به من الضعف بقولهم : ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ حتى نكف عنك لأجل عزتك عندنا ، بل تركنا رجمك لعزة رهطك علينا، ومعنى ﴿ لرجمناك ﴾ : لقتلناك بالرجم ، وكانوا إذا قتلوا إنسانا رجموه بالحجارة . وقيل : معنى ﴿ لرجمناك ﴾ لشتمناك ، ومنه قول الجعدى :

تراجمنا بمر القول حتى نصير كأننا فرسا رهان

ويطلق الرجم على اللعن ، ومنه الشيطان الرجيم . وجملة : ﴿ قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله ﴾ مستأنفة ، وإنما قال : أعز عليكم من الله ، ولم يقل : أعز عليكم منى ؛ لأن نفى العزة عنه وإثباتها لقومه كما يدل عليه إيلاء الضمير حرف النفى استهانة به ، والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عز وجل ، فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعز عليه من الله، فاستنكر ذلك عليهم وتعجب منه ، وألزمهم مالا مخلص لهم عنه ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام ، وفى هذا من قوة المحاجة ووضوح المجادلة وإلقام الخصم الحجر ما لا يخفى ، ولأمر ما سمى شعيب خطيب الأنبياء ، والضمير فى ﴿ واتخذتموه ﴾ راجع إلى الله سبحانه ، والمعنى: واتخذتم الله عز وجل بسبب عدم اعتدادكم بنبيه الذى أرسله إليكم ﴿ وراءكم ظهريا ﴾ أى منبوذا وراء الظهر لا تبالون به . وقيل : المعنى : واتخذتم أمر الله الذى أمرنى بإبلاغه إليكم ، وهو ماجئتكم به وراء ظهوركم ، يقال : جعلت أمره بظهر : إذا قصرت فيه، و﴿ ظهريا ﴾ منسوب إلى الظهر ، والكسر لتغيير النسب ﴿ إن ربى بما تعملون محيط ﴾ لا يخفى عليه شىء من أقوالكم وأفعالكم .

﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون ﴾ : لما رأى إصرارهم على الكفر وتصميمهم على دين آبائهم ، وعدم تأثير الموعظة فيهم ، توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكنهم ونهاية استطاعتهم ، يقال : مكن مكانة : إذا تمكن أبلغ تمكن ، وأخبرهم أنه عامل على حسب ما يمكنه ويقدر الله له ، ثم بالغ فى التهديد والوعيد بقوله : ﴿ سوف تعلمون ﴾

أى عاقبة ما أنتم فيه من عبادة غير الله والإضرار بعباده ، وقد تقدم مثله فى الأنعام ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ : « من » فى محل نصب بـ ﴿ تعلمون ﴾ ، أى سوف تعلمون من هو الذى يأتيه العذاب المخزى الذى يتأثر عنه الذل والفضيحة والعار ﴿ ومن هو كاذب ﴾ معطوف على : ﴿ من يأتيه ﴾ ، والمعنى : ستعلمون من هو المعذب ومن هو الكاذب ؟ وفيه تعريض بكذبهم فى قولهم : ﴿ لولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾ . وقيل : إن « من » مبتدأ وما بعدها صلتها ، والخبر محذوف ، والتقدير : من هو كاذب فسيعلم كذبه ويذوق وبال أمره . قال الفراء : إنما جاء بهو فى ﴿ من هو كاذب ﴾ لأنهم لا يقولون : من قائم ، إنما يقولون : من قام ، ومن يقوم ، ومن القائم ، فزادوا هو ليكون جملة تقوم مقام فعل ويفعل . قال النحاس : ويدل على خلاف هذا قول الشاعر :

من رسولى إلى الثريا فإنى ضقت ذرعا بهجرها والكتاب

﴿ وارتقبوا إنى معكم رقيب ﴾ أى انتظروا إنى معكم منتظر لما يقضى به الله بيننا ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه ﴾ أى لما جاء عذابنا أو أمرنا بعذابهم نجينا شعيبا وأتباعه الذين آمنوا به ﴿ برحمة منا ﴾ لهم بسبب إيمانهم، أو برحمة منا لهم ، وهى هدايتهم للإيمان ﴿ وأخذت الذين ظلموا ﴾ غيرهم بما أخذوا من أموالهم بغير وجه وظلموا أنفسهم بالتصميم على الكفر ﴿ الصيحة ﴾ التى صاح بهم جبرائيل حتى خرجت أرواحهم من أجسادهم ، وفى الأعراف : ﴿ فأخذتهم الرجفة﴾ [الآية : ٧٨ ] وكذا فى العنكبوت . وقد قدمنا أن الرجفة : الزلزلة ، وأنها تكون تابعة للصيحة لتموج الهوى المفضى إليها ﴿ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾ أى ميتين . وقد تقدم تفسيره وتفسير﴿ كأن لم يغنوا فيها﴾ قريبا ، وكذا تفسير﴿ ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾ وحكى الكسائى أن أبا عبد الرحمن السلمى قرأ : «كما بعدت ثمود » بضم العين . قال المهدوى : من ضم العين من « بعدت » فهى لغة تستعمل فى الخير والشر ، و« بعدت » بالكسر على قراءة الجمهور تستعمل فى الشر خاصة ، وهى هنا بمعنى اللعنة .

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إنى أراكم بخير ﴾ قال : رخص السعر ﴿ وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ قال : غلاء السعر . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ بقية الله ﴾ قال : رزق الله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ بقية الله خير لكم ﴾ يقول : حظكم من ربكم خير لكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : طاعة الله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الأعمش فى قوله : ﴿ أصلواتك تأمرك ﴾ قال : أقراءتك . وأخرج ابن عساكر عن الأحنف : أن شعيبا كان أكثر الأنبياء صلاة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿ أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ﴾ قال : نهاهم عن

قطع هذه الدنانير والدراهم فقالوا : إنما هى أموالنا نفعل فيها ما نشاء ، إن شئنا قطعناها ، وإن شئنا أحرقناها ، وإن شئنا طرحناها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب نحوه . وأخرجا عن زيد بن أسلم نحوه أيضا . وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن المنذر وأبو الشيخ وعبد بن حميد عن سعيد بن المسيب نحوه أيضا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ قال : يقولون : إنك لست بحليم ولا رشيد . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : استهزاء به .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ ورزقنى منه رزقا حسنا ﴾ قال : الحلال. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ قال : يقول لم أكن لأنهاكم عن أمر وأركبه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ وإليه أنيب ﴾ قال : إليه أرجع . وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن على قال : قلت :يا رسول الله ، أوصنى ، قال :« قل الله ربى ثم استقم » ، قلت : ربى الله وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، قال : « ليهنك العلم أبا الحسن ، لقد شربت العلم شربا ونهلته نهلا » (١) وفى إسناده محمد بن يوسف الكديمى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ لا يجرمنكم شقاقى ﴾ لا يحملنكم فراقى . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : شقاقى :عداوتى . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى قال . لا تحملنكم عداوتى . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ قال : إنما كانوا حديثى عهد قريب بعد نوح وثمود .

وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن سعيد بن جبير ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفا ﴾ قال : كان أعمى ،وإنما عمى من بكائه من حب الله عز وجل.وأخرج الواحدى وابن عساكر عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « بكى شعيب عليه السلام من حب الله حتى عمى »(٢). وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفا ﴾ قال : كان ضرير البصر . وأخرج أبو الشيخ عن أبى صالح مثله . وأخرج أبو الشيخ عن سفيان فى قوله :﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفا ﴾ قال :كان أعمى ، وكان يقال له خطيب الأنبياء . وأخرج أبو الشيخ عن السدى قال : معناه : إنما أنت واحد . وأخرج أبو الشيخ عن على بن أبى طالب أنه خطب فتلا هذه الآية فى شعيب ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفا ﴾ قال : كان مكفوفا ، فنسبوه إلى الضعف ﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ قال

---

(١) أبو نعيم ١/ ٦٥ .

(٢) أورده الخطيب فى تاريخه ٦/ ٣١٥ وقال : « فيه إسماعيل بن على بن الحسن ، وقال : قدم علينا بغداد حاجا وسمعت منه بها حديثا واحدا مسندا منكرا ولم يكن موثوقا به فى الرواية » والأحاديث الموضوعة والضعيفة ٢/ ٤٢٦ وكذلك كنز العمال ١١/ ٤٩٩ وميزان الاعتدال ١/ ٢٣٩ وقال : « هذا حديث باطل لا أصل له » .

على : فوالله الذى لا إله غيره ما هابوا جلال ربهم ما هابوا إلا العشيرة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهريا ﴾ قال : نبذتم أمره . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال فى الآية : لا تخافونه . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : تهاونتم به .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾ .

المراد بالآيات: التوراة . والسلطان المبين :المعجزات [١] . وقيل : المراد بالآيات : هى التسع المذكورة فى غير هذا الموضع ، والسلطان المبين : العصا . وهى وإن كانت من التسع لكنها لما كانت أبهرها أفردت بالذكر . وقيل : المراد بالآيات: ما يفيد الظن ، والسلطان المبين: ما يفيد القطع بما جاء به موسى . وقيل : هما جميعا عبارة عن شىء واحد أى أرسلناه بما يجمع وصف كونه آية ، وكونه سلطانا مبينا . وقيل : إن السلطان المبين : ما أورده موسى على فرعون فى المحاورة بينهما ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ أى أرسلناه بذلك إلى هؤلاء ، وقد تقدم أن الملأ أشراف القوم ، وإنما خصهم بالذكر دون سائر القوم ؛ لأنهم أتباع لهم فى الإصدار والإيراد ، وخص هؤلاء الملأ دون فرعون بقوله : ﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ أى أمره لهم بالكفر؛ لأن حال فرعون فى الكفر أمر واضح ، إذ كفر قومه من الأشراف وغيرهم إنما هو مستند إلى كفره ، ويجوز أن يراد بأمر فرعون : شأنه وطريقته فيعم الكفر وغيره ﴿ وما أمر

(١) فى المطبوعة : « المعزات » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

فرعون برشيد ﴾ أى ليس فيه رشد قط ، بل هو غى وضلال ، والرشيد بمعنى المرشد ، والإسناد مجازى ، أو بمعنى ذى رشد ، وفيه تعريض بأن الرشد فى أمر موسى . ﴿يقدم قومه يوم القيامة ﴾ من قدمه بمعنى تقدمه ، أى يصير متقدما لهم يوم القيامة ، سابقا لهم إلى عذاب النار كما كان يتقدمهم فى الدنيا ﴿ فأوردهم النار ﴾ أى إنه لا يزال متقدما لهم وهم يتبعونه حتى يوردهم النار . وعبر بالماضى تنبيها على تحقق وقوعه ، ثم ذم الورد الذى أوردهم إليه، فقال :﴿ وبئس الورد المورود ﴾ لأن الوارد إلى الماء الذى يقول له الورد ، إنما يرده ليطفئ حر العطش ، ويذهب ظمأه ، والنار على ضد ذلك .

ثم ذمهم بعد ذم المكان الذى يردونه ، فقال : ﴿ وأتبعوا فى هذه لعنة ﴾ أى أتبع قوم فرعون مطلقا ، أو الملأ خاصة ، أو هم وفرعون فى هذه الدنيا لعنة عظيمة ، أى طردا وإبعادا ﴿ ويوم القيامة ﴾ أى وأتبعوا لعنة يوم القيامة يلعنهم أهل المحشر جميعا ، ثم إنه جعل اللعنة رفدا لهم على طريقة التهكم ، فقال : ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ . قال الكسائى وأبو عبيدة : رفدته أرفده رفدا : أمنته وأعطيته ، واسم العطية الرفد ، أى بئس العطاء ، والإعانة ما أعطوهم إياه، وأعانوهم به ، والمخصوص بالذم محذوف ، أى رفدهم ، وهو اللعنة التى أتبعوها فى الدنيا والآخرة ، كأنها لعنة بعد لعنة تمد الأخرى الأولى وتؤبدها . وذكر الماوردى حكاية عن الأصمعى أن الرفد بالفتح : القدح ، وبالكسر : ما فيه من الشراب ، فكأنه ذم ما يستقونه فى النار ، وهذا أنسب بالمقام . وقيل : إن الرفد : الزيادة ، أى بئس ما يرفدون به بعد الغرق ، وهو الزيادة قاله الكلبى .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ﴾ أى ما قصه الله سبحانه فى هذه السورة من أخبار الأمم السالفة وما فعلوه مع أنبيائهم ، أى هو مقصوص عليك خبر بعد خبر، وقد تقدم تحقيق معنى القصص ، والضمير فى ﴿ منها ﴾ عائد إلى ﴿ القرى ﴾ أى من القرى قائم ، ومنها حصيد . والقائم : ما كان قائما على عروشه ، والحصيد : ما لا أثر له . وقيل: القائم : العامر ، والحصيد : الخراب . وقيل : القائم : القرى الخاوية على عروشها، والحصيد : المستأصل بمعنى محصود ، شبه القرى بالزرع القائم على ساقه والمقطوع . قال الشاعر :

والناس فى قسم المنية بينهم كالزرع منه قائم وحصيد

﴿ وما ظلمناهم ﴾ بما فعلنا بهم من العذاب ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ بالكفر والمعاصى ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم ﴾ أى فما دفعت عنهم أصنامهم التى يعبدونها من دون الله شيئا من العذاب ﴿ لما جاء أمر ربك ﴾ أى لما جاء عذابه ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ الهلاك والخسران ، أى ما زادتهم الأصنام التى يعبدونها إلا هلاكا وخسرانا ، وقد كانوا يعتقدون أنها تعينهم على تحصيل المنافع ﴿ وكذلك أخذ ربك ﴾ قرأ الجحدرى وطلحة بن مصرف : « أخذ»

على أنه فعل، وقرأ غيرهما : ﴿ أخذ ﴾ على المصدر ﴿ إذا أخذ القرى وهى ظالمة ﴾ أى أهلها وهم ظالمون ﴿ إن أخذه ﴾ أى عقوبته للكافرين ﴿ أليم شديد ﴾ أى موجع غليظ ﴿ إن فى ذلك لآية ﴾ أى فى أخذ الله سبحانه لأهل القرى ، أو فى القصص الذى قصه على رسوله لعبرة وموعظة ﴿ لمن خاف عذاب الآخرة ﴾ لأنهم الذين يعتبرون بالعبر ، ويتعظون بالمواعظ . والإشارة بقوله : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة أن يجمع فيه الناس للمحاسبة والمجازاة ﴿ وذلك ﴾ أى يوم القيامة ﴿ يوم مشهود ﴾ أى يشهده أهل المحشر ، أو مشهود فيه الخلائق ، فاتسع فى الظرف بإجرائه مجرى المفعول ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾ أى وما نؤخر ذلك اليوم إلا لانتهاء أجل معدود معلوم بالعدد، قد عين الله سبحانه وقوع الجزاء بعده ﴿ يوم يأت ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرو والكسائى بإثبات الياء فى الدرج ، وحذفها فى الوقف . وقرأ أبى وابن مسعود بإثباتها وصلا ووقفا . وقرأ الأعمش بحذفها فيهما ، ووجه حذف الياء مع الوقف ما قاله الكسائى : إن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم .فحذفت الياء كما تحذف الضمة . ووجه قراءة من قرأ بحذف الياء مع الوصل أنهم رأوا رسم المصحف كذلك ، وحكى الخليل وسيبويه أن العرب تقول : لا أدر، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسر، وأنشد الفراء فى حذف الياء :

كفاك كف ما تليق درهما    جودا وأخرى تعط بالسيف الدما

قال الزجاج : والأجود فى النحو إثبات الياء ، والمعنى : حين يأتى يوم القيامة ﴿ لا تكلم نفس ﴾ أى لا تتكلم حذفت إحدى التاءين تخفيفا ، أى لا تتكلم فيه نفس إلا بما أذن لها من الكلام . وقيل : لا تكلم بحجة ولا شفاعة ﴿ إلا بإذنه ﴾ سبحانه لها فى التكلم بذلك ، وقد جمع بين هذا وبين قوله : ﴿ هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ [المرسلات : ٣٥ ، ٣٦ ] باختلاف أحوالهم باختلاف مواقف القيامة . وقد تكرر مثل هذا الجمع فى مواضع ﴿ فمنهم شقى وسعيد ﴾ أى من الأنفس شقى ومنهم سعيد ؛ فالشقى من كتبت عليه الشقاوة، والسعيد من كتبت له السعادة ، وتقديم الشقى على السعيد لأن المقام مقام تحذير ﴿ فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ﴾ أى فأما الذين سبقت لهم الشقاوة فمستقرون فى النار لهم فيها زفير وشهيق . قال الزجاج : الزفير من شدة الأنين ، وهو المرتفع جدا. قال : وزعم أهل اللغة من البصريين والكوفيين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير ، والشهيق بمنزلة آخره. وقيل : الزفير : الصوت الشديد ، والشهيق : الصوت الضعيف . وقيل : الزفير : إخراج النفس ، والشهيق : رد النفس . وقيل : الزفير : من الصدر ، والشهيق: من الحلق . وقيل: الزفير : ترديد النفس من شدة الخوف ، والشهيق : النفس الطويل الممتد ، والجملة إما مستأنفة كأنه قيل : ما حالهم فيها ؟ أو فى محل نصب على الحال ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ﴾ أى مدة دوامهما .

وقد اختلف العلماء فى بيان معنى هذا التوقيت ؛ لأنه قد علم بالأدلة القطعية تأبيد عذاب الكفار فى النار ، وعدم انقطاعه عنهم ، وثبت أيضا أن السموات والأرض تذهب عند انقضاء أيام الدنيا ، فقالت طائفة : إن هذا الإخبار جار على ما كانت العرب تعتاده إذا أرادوا المبالغة فى دوام الشىء ، قالوا : هو دائم ما دامت السموات والأرض ، ومنه قولهم : لا آتيك ما جن ليل ، وما اختلف الليل والنهار ، وما ناح الحمام ونحو ذلك . فيكون معنى الآية : أنهم خالدون فيها أبدا لاانقطاع لذلك ولا انتهاء له . وقيل : إن المراد سموات الآخرة وأرضها ، فقد ورد ما يدل على أن للآخرة سموات وأرضا غير هذه الموجودة فى الدنيا ، وهى دائمة بدوام دار الآخرة . وأيضا لابد لهم من موضع يقلهم ، وآخر يظلهم ، وهما أرض وسماء .

قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قد اختلف أهل العلم فى معنى هذا الاستثناء على أقوال : الأول : أنه من قوله : ﴿ **ففى النار** ﴾ كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك . روى هذا أبو نضرة عن أبى سعيد الخدرى . الثانى : أن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين ، وأنهم يخرجون بعد مدة من النار ، وعلى هذا يكون قوله سبحانه : ﴿ **فأما الذين شقوا** ﴾ عاما فى الكفرة والعصاة ، ويكون الاستثناء من ﴿ **خالدين** ﴾ ، وتكون « ما » بمعنى من ، وبهذا قال قتادة والضحاك وأبو سنان وغيرهم . وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضرورى بأنه يخرج من النار أهل التوحيد ، فكان ذلك مخصصا لكل عموم . الثالث: أن الاستثناء من الزفير والشهيق ، أى لهم فيها زفير وشهيق ﴿ **إلا ما شاء ربك**﴾ من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق ، قاله ابن الأنبارى . الرابع : أن معنى الاستثناء : أنهم خالدون فيها ما دامت السموات والأرض لا يموتون إلا ما شاء ربك ، فإنه يأمر النار فتأكلهم حتى يفنوا، ثم يجدد الله خلقهم ، روى ذلك عن ابن مسعود . الخامس : أن ﴿ **إلا** ﴾ بمعنى سوى، والمعنى : ما دامت السموات والأرض سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود ، كأنه ذكر فى خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه ، ثم زاد عليه الدوام الذى لا آخر له ، حكاه الزجاج . السادس : ما روى عن الفراء وابن الأنبارى وابن قتيبة من أن هذا لا ينافى عدم المشيئة كقولك: والله لأضربنه إلا أن أرى غير ذلك ، ونوقش هذا بأن معنى الآية الحكم بخلودهم إلا المدة التى شاء الله، فالمشيئة قد حصلت جزما. وقد حكى هذا القول الزجاج أيضا . السابع: أن المعنى خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من مقدار موقفهم فى قبوركم وللحساب ، حكاه الزجاج أيضا . الثامن : أن المعنى : خالدين فيها إلا ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم وزيادة العذاب لأهل الجحيم ، حكاه أيضا الزجاج ، واختاره الحكيم الترمذى . التاسع : أن ﴿ **إلا** ﴾ بمعنى الواو ، قاله الفراء ؛ والمعنى : وما شاء ربك من الزيادة ، قال مكى : وهذا القول بعيد عند البصريين أن تكون إلا بمعنى الواو . العاشر : أن ﴿**إلا**﴾ بمعنى الكاف ، والتقدير : كما شاء ربك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف** ﴾ [ النساء : ٢٢ ] أى كما قد سلف . الحادى عشر :

أن هذا الاستثناء إنما هو على سبيل الاستثناء الذى ندب إليه الشارع فى كل كلام ، فهو على حد قوله : ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ [ الفتح : ٢٧ ] روى نحو هذا عن أبى عبيد . وهذه الأقوال هى جملة ما وقفنا عليه من أقوال أهل العلم . وقد نوقش بعضها بمناقشات، ودفعت بدفوعات. وقد أوضحت ذلك فى رسالة مستقلة جمعتها فى جواب سؤال ورد من بعض الأعلام .

﴿ وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ﴾ قرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائى ﴿ سعدوا ﴾ بضم السين ، وقرأ الباقون بفتح السين ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . قال سيبويه: لا يقال : سعد فلان ،كما لا يقال: شقى فلان:لكونه مما لا يتعدى ، قال النحاس: ورأيت على بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائى بضم السين مع علمه بالعربية ، وهذا لحن لا يجوز . ومعنى الآية كما مر فى قوله : ﴿ فأما الذين شقوا ﴾ . قوله : ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ قد عرف من الأقوال المتقدمة ما يصلح لحمل هذا الاستثناء عليه ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ أى يعطيهم الله عطاء غير مجذوذ ، والمجذوذ : المقطوع ، من جذه يجذه إذا قطعه ، والمعنى : أنه ممتد إلى غير نهاية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة ﴾ يقول : أضلهم فأوردهم النار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : فرعون يمضى بين أيدى قومه حتى يهجم بهم على النار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فأوردهم النار ﴾ قال : الورود الدخول . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ بئس الرفد المرفود﴾ قال : لعنة الدنيا والآخرة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه :﴿ منها قائم وحصيد ﴾ يعنى : قرى عامرة وقرى خامدة . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة : ﴿ منها قائم ﴾ يرى مكانه ، و﴿ حصيد﴾ لا يرى له أثر . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج : ﴿ منها قائم ﴾ خاو على عروشه ، و﴿حصيد ﴾ ملصق بالأرض . وأخرج أبو الشيخ عن أبى عاصم :﴿ فما أغنت عنهم ﴾ قال: ما نفعت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عمر فى قوله: ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ أى هلكة . وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد قال : تخسير . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة معناه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ :« إن الله سبحانه وتعالى ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ (١) .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله : ﴿ إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ﴾

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٨٦) ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٨٣/٦٦) والترمذى فى التفسير (٣١١٠) وقال: « حديث حسن صحيح غريب » والنسائى فى التفسير (٢٦٥) وابن ماجة فى الفتن (٤٠١٨) والبيهقى ٦/٩٤ .

يقول : إنا سوف نفى لهم بما وعدناهم فى الآخرة كما وفينا للأنبياء أنا ننصرهم . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود** ﴾ قال : يوم القيامة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد مثله . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **يوم يأت** ﴾ قال : ذلك اليوم . وأخرج الترمذى وحسنه ، وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : لما نزلت ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ قلت : يا رسول الله ، فعلام نعمل ، على شىء قد فرغ منه ، أو على شىء لم يفرغ منه ؟ قال : « بلى على شىء قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر ، ولكن كل ميسر لما خلق له» (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : هاتان من المخبآت ،قول الله : ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ و﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا ﴾ [ المائدة : ١٠٩ ] أما قوله : ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ فهم قوم من أهل الكتاب من أهل هذه القبلة يعذبهم الله بالنار ما شاء بذنوبهم ، ثم يأذن فى الشفاعة لهم فيشفع لهم المؤمنون فيخرجهم من النار فيدخلهم الجنة ، فسماهم أشقياء حين عذبهم فى النار ﴿ **فأما (٢) الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك** ﴾ حين أذن فى الشفاعة لهم ،وأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة وهم هم ﴿ **وأما الذين سعدوا** ﴾ يعنى بعد الشقاء الذى كانوا فيه ﴿ **ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك** ﴾ يعنى الذين كانوا فى النار .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن قتادة أنه تلا هذه الآية : ﴿ **فأما الذين شقوا** ﴾ فقال : حدثنا أنس أن رسول الله ﷺ قال : « يخرج قوم من النار ،ولا نقول كما قال أهل حروراء : إن من دخلها بقى فيها » (٣) . وأخرج ابن مردويه عن جابر قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **فأما الذين شقوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن شاء الله أن يخرج أناسا من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن خالد بن معدان فى قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قال : إنها فى التوحيد من أهل القبلة . وأخرج عبد الرزاق وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله ، أو عن أبى سعيد الخدرى أو رجل من أصحاب النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قال : هذه الآية قاضية على القرآن كله ، يقول حيث كان فى القرآن خالدين فيها تأتى عليه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عن أبى نضرة قال : ينتهى القرآن كله إلى هذه الآية: ﴿ **إن ربك فعال لما يريد** ﴾ .

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣١١) وقال : « حديث حسن غريب من هذا الوجه ولا نعرفه إلا من حديث عبد الملك ابن عمرو » وأبو يعلى (٥٥٧١) وابن جرير ١٢/ ٧٠ .

(٢) فى المخطوطة « أما » . (٣) ابن جرير ١٢/ ٧٠ .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ما دامت السموات والأرض** ﴾ قال : لكل جنة سماء وأرض . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن نحوه أيضا . وأخرج البيهقى فى البعث والنشور عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قال : فقد شاء ربك أن يخلد هؤلاء فى النار وأن يخلد هؤلاء فى الجنة . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قال : استثنى الله من النار أن تأكلهم . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها. فأنزل بالمدينة : ﴿ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا﴾ إلى آخر الآية [ النساء : ١٦٨ ] ، فذهب الرجاء لأهل النار أن يخرجوا منها ، وأوجب لهم خلود الأبد . وقوله : ﴿ **وأما الذين سعدوا** ﴾ الآية . قال : فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها ، فأنزل بالمدينة : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات ﴾ إلى قوله : ﴿ ظلا ظليلا ﴾ [ النساء : ٥٧ ] فأوجب لهم خلود الأبد .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : قال عمر : لو لبث أهل النار فى النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه . وأخرج إسحاق بن راهويه عن أبى هريرة قال : سيأتى على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد ، وقرأ : ﴿ **فأما الذين شقوا** ﴾ الآية . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن إبراهيم قال : ما فى القرآن آية أرجى لأهل النار من هذه الآية : ﴿**خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك** ﴾ . قال : وقال ابن مسعود : ليأتين عليها زمان تخفق أبوابها . وأخرج ابن جرير عن الشعبى قال : جهنم أسرع الدارين عمرانا وأسرعهما خرابا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك**﴾ قال : الله أعلم بثنيته على ما وقعت . وقد روى عن جماعة من السلف مثل ما ذكره عمر وأبو هريرة وابن مسعود كابن عباس وعبد الله بن عمر وجابر وأبى سعيد من الصحابة ، وعن أبى مجلز وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما من التابعين . وورد فى ذلك حديث فى معجم الطبرانى الكبير عن أبى أمامة صدى بن عجلان الباهلى ، وإسناده ضعيف . ولقد تكلم صاحب الكشاف (١) فى هذا الموضع بما كان له فى تركه سعة ، وفى السكوت عنه غنى ، فقال : ولا يخدعنك قول المجبرة (٢) إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار ، فإن الاستثناء الثانى ينادى على تكذيبهم ويسجل بافترائهم ، وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض الثوابت عن ابن عمرو : ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد . ثم قال : وأقول ما كان لابن عمرو فى سيفيه ومقاتلته بهما على بن أبى طالب رضى الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث انتهى .

(١) الكشاف ٢/ ٤٣٠ .

(٢) يريد أهل السنة . أما المعتزلة فيقولون : فاعل الكبيرة فى مرتبة بين المؤمن والكافر ، وخلوده فى النار أبدى ، وتحقيق بطلانه فى علم التوحيد .

وأقول : أما الطعن على من قال بخروج أهل الكبائر من النار . فالقائل بذلك يا مسكين رسول الله ﷺ كما صح عنه فى دواوين الإسلام التى هى دفاتر السنة المطهرة ، وكما صح عنه فى غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر ؛ فمالك والطعن على قوم عرفوا ما جهلته وعملوا بما أنت عنه فى مسافة بعيدة . وأى مانع من حمل الاستثناء على هذا الذى جاءت به الأدلة الصحيحة الكثيرة كما ذهب إلى ذلك وقال به جمهور العلماء من السلف والخلف . وأما ما ظننته من أن الاستثناء الثانى ينادى على تكذيبهم ويسجل بافترائهم فلا مناداة ولا مخالفة، وأى مانع من حمل الاستثناء فى الموضعين على العصاة من هذه الأمة ، فالاستثناء الأول يحمل على معنى ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ من خروج العصاة من هذه الأمة من النار ، والاستثناء الثانى يحمل على معنى ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ من عدم خلودهم فى الجنة كما يخلد غيرهم ، وذلك لتأخر خلودهم إليها مقدار المدة التى لبثوا فيها فى النار . وقد قال بهذا من أهل العلم من قدمنا ذكره ، وبه قال ابن عباس حبر الأمة . وأما الطعن على صاحب رسول الله وحافظ سنته وعابد الصحابة عبد الله بن عمرو رضى الله عنه ، فإلى أين يا محمود ، أتدرى ما صنعت ، وفى أى واد وقعت ، وعلى أى جنب سقطت ؟ ومن أنت حتى تصعد إلى هذا المكان وتتناول نجوم السماء بيديك القصيرة ورجلك العرجاء ، أما كان لك فى مكسرى طلبتك من أهل النحو واللغة ما يردك عن الدخول فيما لا تعرف والتكلم بما لا تدرى ، فيالله العجب ما يفعل القصور فى علم الرواية والبعد عن معرفتها إلى أبعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه ، ولا أوقفها حيث أوقفها الله سبحانه .

**﴿ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) ﴾ .**

لما فرغ الله سبحانه من أقاصيص الكفرة وبيان حال السعداء والأشقياء ، سلى رسوله ﷺ بشرح أحوال الكفرة من قومه فى ضمن النهى له عن الامتراء فى أن ما يعبدونه غير نافع ولا ضار ولا تأثير له فى شىء . وحذف النون فى « لاتك » لكثرة الاستعمال ، والمرية : الشك . والإشارة بهؤلاء إلى كفار عصره ﷺ . وقيل : المعنى : لاتك فى شك من بطلان ما يعبد

هؤلاء . وقيل : لا تك فى شك من سوء عاقبتهم . ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعانى، وهذا النهى له ﷺ هو تعريض لغيره ممن يداخله شىء من الشك ، فإنه ﷺ لا يشك فى ذلك أبدا . ثم بين له سبحانه أن معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم ، أو أن عبادتهم كعبادة آبائهم من قبل ، وفى هذا استثناء تعليل للنهى عن الشك . والمعنى : أنهم سواء فى الشرك بالله وعبادة غيره . فلا يكن فى صدرك حرج مما تراه من قومك ، فهم كمن قبلهم من طوائف الشرك ، وجاء بالمضارع فى ﴿ كما يعبد آباؤهم ﴾ لاستحضار الصورة . ثم بين له أنه مجازيهم بأعمالهم فقال : ﴿ وإنا لموفوهم نصيبهم ﴾ من العذاب كما وفينا آباءهم لا ينقص من ذلك شىء ، وانتصاب غير الحال ، والتوفية لا تستلزم عدم النقص . فقد يجوز أن يوفى وهو ناقص ، كما يجوز أن يوفى وهو كامل . وقيل : المراد نصيبهم من الرزق . وقيل : ما هو أعم من الخير والشر .

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ أى : التوراة ﴿ فاختلف فيه ﴾ أى : فى شأنه وتفاصيل أحكامه ، فآمن به قوم وكفر به آخرون ، وعمل بأحكامه قوم ، ترك العمل ببعضها آخرون ، فلا يضق صدرك يا محمد بما وقع من هؤلاء فى القرآن ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ﴾ أى لولا أن الله سبحانه قد حكم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح لقضى بينهم ، أى بين قومك ، أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين . فأثيب المحق وعذب المبطل ؛ أو الكلمة هى : إن رحمته سبحانه سبقت غضبه فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك . وقيل : إن الكلمة هى أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال ، وهذا من جملة التسلية له ﷺ ثم وصفهم بأنهم فى شك من الكتاب فقال : ﴿ وإنهم لفى شك منه مريب ﴾ أى من القرآن إن حمل على قوم محمد ﷺ ، أو من التوراة إن حمل على قوم موسى عليه السلام ، والمريب : الموقع فى الريبة .

ثم جمع الأولين والآخرين فى حكم توفيه العذاب لهم . أو هو والثواب فقال : ﴿ وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو بكر : « وإن » بالتخفيف على أنها إن المخففة من الثقيلة وعملت فى ﴿ كلا ﴾ النصب ، وقد جوز عملها الخليل وسيبويه ، وقد جوز البصريون تخفيف « إن » مع إعمالها . وأنكر ذلك الكسائى وقال : ما أدرى على أى شىء قرئ : ﴿ وإن كلا ﴾ ؟ وزعم الفراء أن انتصاب ﴿ كلا ﴾ بقوله : ﴿ ليوفينهم ﴾ ، والتقدير : وإن ليوفينهم كلا . وأنكر ذلك عليه جميع النحويين . وقرأ الباقون بتشديد : ﴿إن﴾ ونصبوا بها ﴿ كلا ﴾ . وعلى كلا القراءتين فالتنوين فى ﴿ كلا ﴾ عوض عن المضاف إليه ، أى وإن كل المختلفين . وقرأ عاصم وحمزة وابن عامر : ﴿ لما ﴾ بالتشديد . وخففها الباقون. قال الزجاج : لام ﴿ لما ﴾ لام إن ، و« ما » زائدة مؤكدة ، وقال الفراء: « ما » بمعنى من كقوله:﴿ وإن منكم لمن ليبطئن ﴾ [ النساء : ٧٣ ] أى وإن كلا لمن ليوفينهم ! وقيل : ليست بزائدة بل هى اسم دخلت عليها لام التوكيد ، والتقدير : وإن كلا لمن خلق . قيل :

وهى مركبة ، وأصلها لمن ما ، فقلبت النون ميما واجتمعت ثلاث ميمات فحذفت الوسطى حكى ذلك النحاس عن النحويين : وزيف الزجاج هذا وقال : « من » اسم على حرفين فلا يجوز حذف النون . وذهب بعض النحويين إلى أن « لما » هذه بمعنى إلا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ [ الطارق : ٤ ] وقال المازنى : الأصل لما المخففة ثم ثقلت، قال الزجاج : وهذا خطأ ، إنما يخفف المثقل ولا يثقل المخفف . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : يجوز أن يكون التشديد من قولهم : لممت الشيء ألمه : إذا جمعته ، ثم بنى منه فعلى كما قرئ : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى ﴾ [ المؤمنون : ٤٤ ] وأحسن هذه الأقوال أنها بمعنى إلا الاستثنائية . وقد روى ذلك عن الخليل وسيبويه وجميع البصريين ورجحه الزجاج ويؤيده أن فى حرف أبى : « وإن كلا إلا ليوفينهم » كما حكاه أبو حاتم عنه . وقرئ بالتنوين ، أى جميعا . وقرأ الأعمش : « وإن كل لما » بتخفيف إن ورفع كل وتشديد لما . وتكون إن على هذه القراءة نافية ﴿ إنه بما يعملون ﴾ أيها المختلفون ﴿ خبير ﴾ لا يخفى عليه منه شيء ، والجملة تعليل لما قبلها .

ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له سبحانه فقال : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ أى كما أمرك الله ، فيدخل فى ذلك جميع ما أمره به وجميع ما نهاه عنه ، لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه ، كما أمره بفعل ما تعبده بفعله ، وأمته أسوته فى ذلك . ولهذا قال: ﴿ ومن تاب معك ﴾ أى رجع من الكفر إلى الإسلام وشاركك فى الإيمان ، وهو معطوف على الضمير فى : ﴿ فاستقم ﴾ ؛ لأن الفصل بين المعطوف والضمير المرفوع المعطوف عليه يقوم مقام التأكيد أى وليستقم من تاب معك وما أعظم موقع هذه الآية وأشد أمرها ، فإن الاستقامة كما أمر الله لا تقوم بها إلا الأنفس المطهرة والذوات المقدسة ، ولهذا يقول المصطفى ﷺ : «شيبتنى هود » كما تقدم ﴿ ولا تطغوا ﴾ الطغيان: مجاوزة الحد. لما أمر الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بين أن الغلو فى العبادة ، والإفراط فى الطاعة على وجه تخرج به عن الحد الذى حد . والمقدار الذى قدره ممنوع منه منهى عنه ، وذلك كمن يصوم ولا يفطر ، ويقوم الليل ولا ينام ، ويترك الحلال الذى أذن الله به ورغب فيه ، ولهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه: « أما أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأنكح النساء ؛ فمن رغب عن سنتى فليس منى(١) » ، والخطاب للنبى ﷺ ولأمته تغليبا لحالهم على حاله ، أو النهى عن الطغيان خاص بالأمة. ﴿إنه بما تعملون بصير ﴾ يجازيكم على حسب ما تستحقون ، والجملة تعليل لما قبلها .

قوله : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ . قرأ الجمهور بفتح الكاف ، وقرأ طلحة بن مصرف وقتادة وغيرهما «تركنوا » بضم الكاف . قال الفراء : وهى لغة تميم وقيس ، قال أبو عمرو : وقراءة الجمهور هى لغة أهل الحجاز ، قال : ولغة تميم بكسر التاء وفتح الكاف . وهم

(١) أحمد ٢/ ١٥٨ ومسلم فى النكاح (١٤٠١ / ٥) .

يكسرون حرف المضارعة فى كل ما كان من باب علم يعلم . وقرأ ابن أبى عبلة بضم التاء وفتح الكاف على البناء للمفعول من أركنه . قال فى الصحاح : ركن إليه يركن بالضم . وحكى أبو زيد : ركن إليه بالكسر يركن ركونا فيهما ، أى مال إليه وسكن قال الله تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ وأما ما حكى أبو زيد ركن يركن بالفتح فيهما فإنما هو على الجمع بين اللغتين ، انتهى . وقال فى شمس العلوم : الركون السكون يقال : ركن إليه ركونا ، قال الله تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ انتهى . وقال فى القاموس : ركن إليه كنصر وعلم . ومنع، ركونا : مال وسكن ، انتهى ، فهؤلاء الأئمة من رواة اللغة فسروا الركون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد بما قيده به صاحب الكشاف حيث قال : فإن الركون هو الميل اليسير (١) ، وهكذا فسره المفسرون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد إلا من كان من المتقيدين بما ينقله صاحب الكشاف ؛ ومن المفسرين من ذكر فى تفسير الركون قيودا لم يذكرها أئمة اللغة. قال القرطبى فى تفسيره : الركون حقيقته الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشىء والرضا به(٢) . ومن أئمة التابعين من فسر الركون بما هو أخص من معناه اللغوى . فروى عن قتادة وعكرمة فى تفسير الآية أن معناها : لا تودوهم ولا تطيعوهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير الآية : الركون هنا :الإدهان ، وذلك أن لا ينكر عليهم كفرهم . وقال أبو العالية : معناه لا ترضوا أعمالهم .

وقد اختلف أيضا الأئمة من المفسرين فى هذه الآية هل هى خاصة بالمشركين أو عامة ؟ فقيل : خاصة ، وإن معنى الآية النهى عن الركون إلى المشركين ، وأنهم المرادون بالذين ظلموا ، وقد روى ذلك عن ابن عباس . وقيل : إنها عامة فى الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم ، وهذا هو الظاهر من الآية ، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فإن قلت : وقد وردت الأدلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول الله ﷺ ثبوتا لا يخفى على من له أدنى تمسك بالسنة المطهرة بوجوب طاعة الأئمة والسلاطين والأمراء حتى ورد فى بعض ألفاظ الصحيح : « أطيعوا السلطان وإن كان عبدا حبشيا رأسه كالزبيبة » (٣) . وورد وجوب طاعتهم ما أقاموا الصلاة ، وما لم يظهر منهم الكفر البواح ، وما لم يأمروا بمعصية الله . وظاهر ذلك أنهم وإن بلغوا فى الظلم إلى أعلى مراتبه ، وفعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به إلى الكفر البواح ، فإن طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به من معصية الله ؛ ومن جملة ما يأمرون به تولى الأعمال لهم . والدخول فى المناصب الدينية التى ليس الدخول فيها من معصية الله ؛ ومن جملة ما يأمرون به الجهاد ، وأخذ الحقوق الواجبة من الرعايا ، وإقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم ، وإقامة الحدود على من وجبت عليه ، وبالجملة فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم ونهيهم فى كل ما

(١) الكشاف ٢/ ٤٣٣ . (٢) القرطبى ٥/ ٣٣٣٦ .
(٣) أحمد ٣/ ١١٤ ، ١٧١ والبخارى فى الأحكام (٧١٤٢) وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٦٠) .

يأمرون به مما لم يكن من معصية الله . ولابد فى مثل ذلك من المخالطة لهم والدخول عليهم ، ونحو ذلك مما لابد منه ، ولا محيص عن هذا الذى ذكرناه من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة لتواتر الأدلة الواردة به ، بل قد ورد به الكتاب العزيز ﴿ أطيعوا [١] الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ [ النساء : ٥ ] بل ورد أنهم يعطون الذى لهم من الطاعة ، وإن منعوا ما هو عليهم للرعايا كما فى بعض الأحاديث الصحيحة : « أعطوهم الذى لهم ، واسألوا الله الذى لكم » ، بل ورد الأمر بطاعة السلطان ، وبالغ فى ذلك النبى ﷺ حتى قال : « وإن أخذ مالك وضرب ظهرك». فإن اعتبرنا مطلق الميل والسكون فمجرد هذه الطاعة المأمور بها مع ما تستلزمه من المخالطة هى ميل وسكون ، وإن اعتبرنا الميل والسكون ظاهرا وباطنا فلا يتناول النهى فى هذه الآية من مال إليهم فى الظاهر لأمر يقتضى ذلك شرعا كالطاعة ، أو للتقية ومخافة الضرر منهم، أو لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة ، إذا لم يكن له ميل إليهم فى الباطن ولا محبة ولا رضا بأفعالهم . قلت : أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن فى معصية الله ، فهى على فرض صدق مسمى الركون عليها مخصصة لعموم النهى عنه بأدلتها التى قدمنا الإشارة إليها ، ولاشك فى هذا ولا ريب ، فكل من أمروه ابتداء أن يدخل فى شيء من الأعمال التى أمرها إليهم مما لم يكن من معصية الله كالمناصب الدينية ونحوها إذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل إليه ، فذلك واجب عليه فضلا عن أن يقال جائز له. وأما ما ورد من النهى عن الدخول فى الإمارة ، فذلك مقيد بعدم وقوع الأمر ممن تجب طاعته من الأئمة والسلاطين والأمراء جمعا بين الأدلة ، أو مع ضعف المأمور عن القيام بما أمر به كما ورد تعليل النهى عن الدخول فى الإمارة بذلك فى بعض الأحاديث الصحيحة ، وأما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة مع كراهة ما هم عليه من الظلم ، وعدم ميل النفس إليهم ومحبتها لهم ، وكراهة المواصلة لهم لولا جلب تلك المصلحة أو دفع تلك المفسدة فعلى فرض صدق مسمى الركون على هذا ، فهو مخصص بالأدلة الدالة على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد ، والأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى، ولا تخفى على الله خافية ؛ وبالجملة فمن ابتلى بمخالطة من فيه ظلم فعليه أن يزن أقواله وأفعاله وما يأتى وما يذر بميزان الشرع ، فإن زاغ عن ذلك « فعلى نفسها براقش تجنى » ، ومن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته فهو الأولى له ، والأليق به. يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين، اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم ، وقونا على ذلك ويسره لنا ، وأعنا عليه . قال القرطبى فى تفسيره : وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهى بحال الاضطرار انتهى[٢]. وقال النيسابورى فى تفسيره : قال المحققون : الركون المنهى عنه هو الرضا

(١) فى المطبوعة : « وأطيعوا » .
(٢) القرطبى ٥/٣٣٣٦ .

بما عليه الظلمة ، أو تحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم ، ومشاركتهم فى شىء من تلك الأبواب ؛ فأما مداخلتهم لرفع ضرر واجتلاب منفعة عاجلة ، فغير داخلة فى الركون . قال: وأقول هذا من طريق المعاش والرخصة ، ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية ﴿ أليس الله بكاف عبده﴾ [الزمر: ٣٦ ] انتهى .

قوله : ﴿ **فتمسكم النار** ﴾ بسبب الركون إليهم ، وفيه إشارة إلى أن الظلمة أهل النار ، أو كالنار ، ومصاحبة النار توجب لا محالة مس النار ، وجملة : ﴿ **وما لكم من دون الله من أولياء** ﴾ فى محل نصب على الحال من قوله : فتمسكم النار ، والمعنى : أنها تمسكم النار حال عدم وجود من ينصركم وينقذكم منها ﴿ **ثم لا تنصرون** ﴾ من جهة الله سبحانه ، إذ قد سبق فى علمه أنه يعذبكم بسبب الركون الذى نهيتم عنه فلم تنتهوا عنادا وتمردا .

قوله : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار** ﴾ لما ذكر الله سبحانه الاستقامة خص من أنواعها إقامة الصلاة لكونها رأس الإيمان ، وانتصاب ﴿ **طرفى النهار** ﴾ على الظرفية ، والمراد : صلاة الغداة والعشى ، وهما الفجر والعصر . وقيل : الظهر موضع العصر . وقيل : الطرفان الصبح والمغرب . وقيل : هما الظهر والعصر . ورجح ابن جرير أنهما الصبح والمغرب ، قال: والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح ، فدل على أن الطرف الآخر المغرب ﴿**وزلفا من الليل** ﴾ أى فى زلف من الليل . والزلف : الساعات القريبة بعضها من بعض ، ومنه سميت المزدلفة لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة . وقرأ ابن القعقاع وأبو إسحاق وغيرهما: « زلفا » بضم اللام جمع زليف ، ويجوز أن يكون واحده زلفة . وقرأ ابن محيصن بإسكان اللام . وقرأ مجاهد : « زلفى » مثل فعلى . وقرأ الباقون : « زلفا » بفتح اللام كغرفة وغرف. قال ابن الأعرابى : الزلف الساعات واحدتها زلفة . وقال قوم : الزلفة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس . قال الأخفش : معنى ﴿ **زلفا من الليل** ﴾ : صلاة الليل ، ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ أى إن الحسنات على العموم ، ومن جملتها بل عمادها الصلاة يذهبن السيئات على العموم . وقيل : المراد بالسيئات : الصغائر ، ومعنى ﴿ **يذهبن السيئات** ﴾ : يكفرنها حتى كأنها لم تكن ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ إلى قوله : ﴿**فاستقم** ﴾ وما بعده . وقيل : إلى القرآن ذكرى للذاكرين ، أى موعظة للمتعظين ﴿ **واصبر**﴾ على ما أمرت به من الاستقامة ، وعدم الطغيان ، والركون إلى الذين ظلموا ! وقيل : إن المراد الصبر على ما أمر به دون ما نهى عنه ، لأنه لا مشقة فى اجتنابه وفيه نظر ، فإن المشقة فى اجتناب المنهى عنه كائنة ، وعلى فرض كونها دون مشقة امتثال الأمر فذلك لا يخرجها عن مطلق المشقة ﴿ **فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾ أى يوفيهم أجورهم ولا يضيع منها شيئا فلا يهمله ولا يبخسه بنقص .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص** ﴾ قال : ما قدر لهم من خير أو شر . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية قال : من العذاب . وأخرجا عن أبى العالية .

قال من الرزق . وأخرجا أيضا عن قتادة فى قوله : ﴿ **فاستقم كما أمرت** ﴾ قال : أمر الله نبيه أن يستقيم على أمره ، ولا يطغى فى نعمته ، وأخرج أبو الشيخ عن سفيان فى الآية قال: استقم على القرآن . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية ﴿**فاستقم كما أمرت** ﴾ قال : شمروا شمروا فما رؤى ضاحكا. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ **ومن تاب معك** ﴾ قال : آمن . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن العلاء بن عبد الله بن بدر فى قوله : ﴿ **ولا تطغوا** ﴾ قال : لم يرد أصحاب النبى ﷺ إنما عنى الذين يجيئون من بعدهم . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس : ﴿ **ولا تطغوا** ﴾ يقول : لا تظلموا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : الطغيان : خلاف أمره وارتكاب معصيته . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا** ﴾ قال : يعنى الركون إلى الشرك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه ﴿ **ولا تركنوا** ﴾ قال : لا تميلوا. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : ﴿ **ولا تركنوا** ﴾ لا تدهنوا . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال : أن تطيعوهم أوتودوهم أو تصطنعوهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار**﴾ قال : صلاة المغرب والغداة ﴿ **وزلفا من الليل** ﴾ قال : صلاة العتمة . وأخرجا عن الحسن قال: الفجر والعصر ﴿ **وزلفا من الليل** ﴾ قال : هما زلفتان : صلاة المغرب وصلاة العشاء . قال : وقال رسول الله ﷺ : « هما زلفتا الليل » . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الطرفين قال : صلاة الفجر ، وصلاتى العشى : يعنى الظهر والعصر ﴿ **وزلفا من الليل** ﴾ قال : المغرب والعشاء . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وزلفا من الليل** ﴾ قال : ساعة بعد ساعة ، يعنى صلاة العشاء الآخرة . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أنه كان يستحب تأخير العشاء ، ويقرأ : ﴿ **زلفا من الليل** ﴾ .

وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ قال : الصلوات الخمس. وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة ومحمد ابن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ قال : الصلوات الخمس، والباقيات الصالحات: الصلوات الخمس. وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود : أن رجلا أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها ، فأنزلت عليه : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ فقال الرجل: يارسول الله إلى هذه؟ قال: « هى لمن عمل بها من أمتى » (١). وأخـرج أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم عن

---

(١) البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٢٦) وفى التفسير (٤٦٨٧) ومسلم فى التوبة (٣٩/٢٧٦٣، ٤٠) والترمذى فى التفسير (٣١١٤) وقال : « حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى الزهد (٤٢٥٤) وفى إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٩٨).

أبى أمامة ؛ أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، أقم فى حد الله . مرة أو مرتين . فأعرض عنه ، ثم أقيمت الصلاة ، فلما فرغ قال :« أين الرجل ؟ » قال : أنا ذا . قال : «أتممت الوضوء وصليت معنا آنفا ؟» قال : نعم . قال : « فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد » ، وأنزل الله حينئذ على رسوله :﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار** ﴾ (١). وفى الباب أحاديث كثيرة بألفاظ مختلفة ، ووردت أحاديث أيضا أن الصلوات الخمس كفارات لما بينهن(٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ قال : هم الذين يذكرون الله فى السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، والعافية والبلاء . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال :لما نزع الذى قبل المرأة تذكر فذلك قوله :﴿ **ذكرى للذاكرين** ﴾ .

**﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) ﴾** .

هذا عود إلى أحوال الأمم الخالية لبيان أن سبب حلول عذاب الاستئصال بهم أنه ما كان فيهم من ينهى عن الفساد ويأمر بالرشاد . فقال : ﴿ **فلولا** ﴾ أى فهلا ﴿ **كان من القرون** ﴾ الكائنة ﴿ **من قبلكم أولوا بقية** ﴾ من الرأى والعقل والدين ﴿ **ينهون** ﴾ قومهم ﴿ **عن الفساد فى الأرض** ﴾ ويمنعونهم من ذلك لكونهم ممن جمع الله له بين جودة العقل ، وقوة الدين . وفى هذا من التوبيخ للكفار ما لا يخفى . والبقية فى الأصل لما يستبقيه الرجل مما يخرجه ، وهو لا يستبقى إلا أجوده وأفضله ، فصار لفظ البقية مثلا فى الجودة ، والاستثناء فى ﴿ **إلا قليلا** ﴾ منقطع ، أى لكن قليلا ممن أنجينا منهم ينهون عن الفساد فى الأرض . وقيل: هو متصل لأن فى حرف التحضيض معنى النفى ، فكأنه قال : ما كان فى القرون أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، و« من » فى : ﴿ **ممن أنجينا** ﴾ بيانية، لأنه لم ينج إلا

---

(١) أحمد ٥/ ٢٥١ ، ٢٥٢ ومسلم فى التوبة ( ٢٧٦٥/ ٤٥) وأبو داود فى الحدود (٤٣٨١) .
(٢) أحمد ٢/ ٤٨٤ ومسلم فى الطهارة (٢٣٣/ ١٤) والترمذى فى الصلاة (٢١٤) وقال: «حديث حسن صحيح » .

الناهون . قيل : هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله فيما مر : ﴿ إلا قوم يونس﴾ [ يونس : ٩٨ ] وقيل : هم أتباع الأنبياء وأهل الحق من الأمم على العموم ﴿ **واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه** ﴾ معطوف على مقدر يقتضيه الكلام . تقديره : إلا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد ؛ والمعنى : أنه اتبع الذين ظلموا بسبب مباشرتهم الفساد وتركهم للنهى عنه ما أترفوا فيه. والمترف : الذى أبطرته النعمة ، يقال : صبى مترف : منعم البدن ، أى صاروا تابعين للنعم التى صاروا بها مترفين من خصب العيش ، ورفاهية الحال ، وسعة الرزق، وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة واستغرقوا أعمارهم فى الشهوات النفسانية . وقيل : المراد بالذين ظلموا : تاركو النهى . ورد بأنه يستلزم خروج مباشرى الفساد عن الذين ظلموا وهم أشد ظلما ممن لم يباشر ، وكان ذنبه ترك النهى . وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه:« وأتبع الذين ظلموا » على البناء للمفعول ، ومعناه : أتبعوا جزاء ما أترفوا فيه ، وجملة:﴿ **وكانوا مجرمين** ﴾ متضمنة لبيان سبب إهلاكهم ، وهى معطوفة على أترفوا أى وكان هؤلاء الذين أتبعوا ما أترفوا فيه مجرمين ، والإجرام : الأثام والمعنى :أنهم أهل إجرام بسبب اتباعهم الشهوات ،واشتغالهم بها عن الأمور التى يحق الاشتغال بها ،ويجوز أن تكون جملة ﴿ **وكانوا مجرمين** ﴾ معطوفة على ﴿**واتبع الذين ظلموا** ﴾ أى اتبعوا شهواتهم وكانوا بذلك الاتباع مجرمين .

﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾ أى ما صح ولا استقام أن يهلك الله سبحانه أهل القرى بظلم يتلبسون به وهو الشرك ، والحال أن أهلها مصلحون فيما بينهم فى تعاطى الحقوق لا يظلمون الناس شيئا ، والمعنى : أنه لا يهلكهم بمجرد الشرك وحده حتى ينضم إليه الفساد فى الأرض ، كما أهلك قوم شعيب بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم ، وأهلك قوم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء . وقيل : إن قوله : ﴿ **بظلم**﴾ حال من الفاعل ، والمعنى : وما كان الله ليهلك القرى ظالما لهم حال كونهم مصلحين غير مفسدين فى الأرض . ويكون المراد بالآية تنزيهه سبحانه وتعالى عن صدور ذلك منه بلا سبب يوجبه على تصوير ذلك بصورة ما يستحيل منه ، وإلا فكل أفعاله كائنة ما كانت لا ظلم فيها، فإنه سبحانه ليس بظلام للعبيد . قال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى : وما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمه ، وإن كان على نهاية الصلاح ؛ لأن تصرفه فى ملكه ، دليله قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ﴾ [ يونس : ٤٤ ] وقيل : المعنى : وما كان ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون ، أى مخلصون فى الإيمان . فالظلم المعاصى على هذا .

﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة** ﴾ أى أهل دين واحد ، إما أهل ضلالة ، أو أهل هدى . وقيل : معناه : جعلهم مجتمعين على الحق غير مختلفين فيه ، أو مجتمعين على دين الإسلام دون سائر الأديان ولكنه لم يشأ ذلك فلم يكن، ولهذا قال : ﴿ **ولا يزالون**

**مختلفين** ﴾ فى ذات بينهم على أديان شتى ، أو لا يزالون مختلفين فى الحق أو دين الإسلام . وقيل : مختلفين فى الرزق : فهذا غنى ، وهذا فقير ﴿ **إلا من رحم ربك** ﴾ بالهداية إلى الدين الحق ، فإنهم لم يختلفوا ، أو إلا من رحم ربك من المختلفين فى الحق أو دين الإسلام ، بهدايته إلى الصواب الذى هو حكم الله ، وهو الحق الذى لا حق غيره ، أو إلا من رحم ربك بالقناعة . والأولى تفسير لجعل الناس أمة واحدة بالمجتمعة على الحق حتى يكون معنى الاستثناء فى ﴿ **إلا من رحم ربك** ﴾ واضحا غير محتاج إلى تكلف ﴿ **ولذلك** ﴾ أى لما ذكر من الاختلاف ﴿ **خلقهم** ﴾ أو ولرحمته خلقهم ، وصح تذكير الإشارة إلى الرحمة لكون تأنيثها غير حقيقى . والضمير فى خلقهم راجع إلى الناس ، أو إلى ﴿ **من** ﴾ فى : ﴿ **من رحم ربك** ﴾ . وقيل : الإشارة بذلك إلى مجموع الاختلاف والرحمة ، ولا مانع من الإشارة بها إلى شيئين كما فى قوله : ﴿ عوان بين ذلك ﴾ [ البقرة : ٦٨ ] . ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ [ الإسراء : ١١٠ ] ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ [ يونس : ٥٨ ] قوله : ﴿ **وتمت كلمة ربك** ﴾ معنى تمت ثبتت كما قدره فى أزله ، وإذا تمت امتنعت من التغيير والتبديل . وقيل : الكلمة هى قوله : ﴿ **لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ أى ممن يستحقها من الطائفتين، والتنوين فى ﴿ **وكلا** ﴾ للتعويض عن المضاف إليه ، وهو منصوب بـ ﴿ **نقص** ﴾ ، والمعنى : وكل نبأ من أنباء الرسل مما يحتاج إليه نقص عليك ، أى ، نخبرك به . وقال الأخفش : ﴿**كلا** ﴾ حال مقدمة ، كقولك : كلا ضربت القوم ، والأنباء: الأخبار ﴿ **ما نثبت به فؤادك** ﴾ أى ما نجعل به فؤادك مثبتا بزيادة يقينه بما قصصناه عليك ووفور طمأنينته ؛ لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ فى النفس وأقوى للعلم ، وجملة : ﴿ **ما نثبت** ﴾ بدل من أنباء الرسل ، وهو بيان لكلا ، ويجوز أن يكون ﴿ **ما نثبت** ﴾ مفعولا لنقص ، ويكون ﴿ **كلا** ﴾ مفعولا مطلقا ، والتقدير : كل أسلوب من أساليب الاقتصاص نقص عليك ما نثبت به فؤادك ﴿**وجاءك فى هذه الحق** ﴾ أى جاءك[1] فى هذه السورة ، أو فى هذه الأنباء البراهين القاطعة الدالة على صحة المبدأ والمعاد ﴿**وموعظة** ﴾ يتعظ بها الواقف عليها من المؤمنين ﴿ **وذكرى** ﴾ يتذكر بها من تفكر فيها منهم ، وخص المؤمنين لكونهم المتأهلين للاتعاظ والتذكر ، وقيل : المعنى : وجاءك فى هذه الدنيا الحق ، وهو النبوة ؛ وعلى التفسير الأول يكون تخصيص هذه السورة بمجىء الحق فيها مع كونه قد جاء فى غيرها من السور لقصد بيان اشتمالها على ذلك ، لا بيان كونه موجودا فيها دون غيرها .

﴿ **وقل للذين لا يؤمنون** ﴾ بهذا الحق ولا يتعظون ولا يتذكرون ﴿ **اعملوا على مكانتكم**﴾ على تمكنكم وحالكم وجهتكم ، وقد تقدم تحقيقه ﴿ **إنا عاملون** ﴾ على مكانتنا وحالنا وجهتنا من الإيمان بالحق والاتعاظ والتذكر ، وفى هذا تشديد للوعيد والتهديد لهم ،

---

(١) فى المخطوطة : « جاك » وهى على عادة المصنف فى تليين الهمزة .

وكذلك قوله : ﴿ **وانتظروا إنا منتظرون** ﴾ فيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى ، والمعنى : انتظروا عاقبة أمرنا فإنا منتظرون عاقبة أمركم وما يحل بكم من عذاب الله وعقوبته .

﴿ **ولله غيب السموات والأرض** ﴾ أى علم جميع ما هو غائب عن العباد فيهما ، وخص الغيب من كونه يعلم بما هو مشهود ، كما يعلم بما هو مغيب ، لكونه من العلم الذى لا يشاركه فيه غيره . وقيل : إن غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض ، والأول أولى ، وبه قال أبوعلى الفارسى وغيره ، وأضاف الغيب إلى المفعول توسعا ﴿ **وإليه يرجع الأمر كله** ﴾ أى يوم القيامة فيجازى كلا بعمله. وقرأ نافع وحفص : ﴿ **يرجع**﴾ على البناء للمفعول . وقرأ الباقون على البناء للفاعل ﴿ **فاعبده وتوكل عليه** ﴾ فإنه كافيك كل ما تكره ، ومعطيك كل ما تحب ، والفاء لترتيب الأمر بالعبادة ، والتوكل على كون مرجع الأمور كلها إلى الله سبحانه ﴿ **وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ بل عالم بجميع ذلك ومجاز عليه إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وقرأ أهل المدينة والشام وحفص ﴿ **تعملون**﴾ بالفوقية على الخطاب . وقرأ الباقون بالتحتية .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **فلولا** ﴾ قال : فهلا . وأخرج ابن مردويه عن أبى بن كعب قال : أقرأنى رسول الله ﷺ : ﴿ **فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية** ﴾ وأحلام ينهون عن الفساد فى الأرض . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج ﴿ **إلا قليلا ممن أنجينا منهم** ﴾ يستقلهم الله من كل قوم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه** ﴾ قال : فى ملكهم وتجبرهم وتركهم الحق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جريج قال : قال ابن عباس أترفوا فيه: أبطروا فيه .

وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمى عن جرير قال : سمعت رسول الله ﷺ يسئل عن تفسير هذه الآية ﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « وأهلها ينصف بعضهم بعضا » (١). وأخرجه ابن أبى حاتم والخرائطى فى مساوئ الأخلاق موقوفا على جرير . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك ﴿**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة** ﴾ قال : أهل دين واحد أهل ضلالة أو أهل هدى . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **ولا يزالون مختلفين** ﴾ قال : أهل الحق وأهل الباطل ﴿ **إلا من رحم ربك**﴾ قال : أهل الحق ﴿ **ولذلك خلقهم** ﴾ قال : للرحمة . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عنه ﴿ **إلا من رحم ربك** ﴾ قال : إلا أهل رحمته فإنهم لا يختلفون . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : لا يزالون مختلفين فى الأهواء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء بن أبى رباح ﴿ **ولا يزالون مختلفين** ﴾ أى اليهود والنصارى والمجوس والحنيفية . وهم

---

(١) الطبرانى (٢٢٨١) .

الذين رحم ربك الحنيفية . وأخرج هؤلاء عن الحسن فى الآية قال : الناس مختلفون على أديان شتى إلا من رحم ربك ، فمن رحم ربك غير مختلف ﴿ **ولذلك خلقهم** ﴾ قال : للاختلاف. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد : ﴿ **ولا يزالون مختلفين** ﴾ قال : أهل الباطل ﴿**إلا من رحم ربك**﴾ قال : أهل الحق ﴿ **ولذلك خلقهم** ﴾ قال : للرحمة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة نحوه . وأخرجا عن الحسن قال : لا يزالون مختلفين فى الرزق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ولذلك خلقهم قال : خلقهم فريقين : فريقا يرحم فلا يختلف ، وفريقا لا يرحم يختلف . فذلك قوله : ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك** ﴾ لتعلم يا محمد ما لقيت الرسل قبلك من أممهم . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : ﴿ **وجاءك فى هذه الحق** ﴾ قال : فى هذه السورة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى موسى الأشعرى مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير مثله أيضا . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : فى هذه الدنيا .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ **اعملوا على مكانتكم** ﴾ أى منازلكم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج : ﴿ **وانتظروا إنا منتظرون** ﴾ قال : يقول : انتظروا مواعيد الشيطان إياكم على ما يزين لكم ، وفى قوله : ﴿ **وإليه يرجع الأمر كله** ﴾ قال : فيقضى بينهم بحكم العدل . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وابن الضريس فى فضائل القرآن وابن جرير وأبو الشيخ عن كعب قال : فاتحة التوراة فاتحة الأنعام ، وخاتمة التوراة خاتمة هود ﴿ **ولله غيب السموات والأرض** ﴾ إلى آخر الآية .

**بحمد الله تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث**

**وأوله تفسير سورة يوسف**

# فهرس الموضوعات

## تفسير سـورة المائـدة


٥ هل المائدة آخر ما نزل من القرآن ؟ ـ ما نسخ منها .

٦ **قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ... ﴾** الآيات . عجز معارضى القرآن ـ ما معنى العقود ـ ما هى البهيمة ـ متى تحل ومتى تحرم ؟ ـ معنى قوله تعالى : ﴿ لا يجرمنكم ﴾ ـ الآثار الواردة .

١٢ **قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة ... ﴾** الآية . ما يحل من الميتة ـ ما معنى الوقيذة وما حكم الصيد بالمعراض ؟ ما معنى الذكاة ـ وما معنى النصب والأزلام ؟ ما معنى تمام الدين ؟ الآثار الواردة .

١٨ **قوله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم...﴾** الآيات. حكم الأكل من الصيد بالجوارح المعلمة ـ ما حكم طعام أهل الكتاب ؟ وما حكم نكاح نسائهم ـ الآثار الواردة.

٢٤ **قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ... ﴾** الآية . بعض أحكام الوضوء والتيمم ـ الآثار الواردة .

٢٩ **قوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه...﴾** الآيات. ما الميثاق وما القسط؟الآثار الواردة .

٣١ **قوله تعالى : ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل ... ﴾** الآيات. نقباء بنى إسرائيل وخيانتهم لما تعاقدوا عليه ـ الآثار الواردة .

٣٤ **قوله تعالى : ﴿ يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا ... ﴾** الآيات . الآثار الواردة .

٣٥ **قوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ... ﴾** الآيات. دعوى اليهود فى حب الله والرد عليهم ـ الآثار الواردة .

٣٧ **قوله تعالى : ﴿ يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة ...﴾** الآية. معنى الفترة ـ الآثار الواردة .

٣٨ **قوله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم ... ﴾** الآيات . دعوة بنى إسرائيل للجهاد ، وقعودهم ، وعقوبة الله لهم ـ الآثار الواردة .

٤٣ **قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ ابنى آدم ... ﴾** الآيات. الكلام فى ابنى آدم وقتل أحدهما الآخر ـ الآثار الواردة فى الآيات .

٤٧ **قوله تعالى : ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل ... ﴾** الآيات. معنى قتل النفس وإحيائها ـ معنى المحاربة والسعى فى الأرض بالفساد ـ أحكام المحاربين والمفسدين فى الأرض ـ الآثار الواردة .

٥٤ **قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا ... ﴾** الآيات. ماهى الوسيلة ؟ وما حال الكفار يوم القيامة ؟ الآثار الواردة .

٥٦ **قوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ...﴾** الآيات. حكم السارق وحكم توبته ـ الآثار الواردة .

٥٨ **قوله تعالى : ﴿ يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون ... ﴾** الآيات . أفعال اليهود

والمنافقين ـ متى يحكم بالكفر على من لم يحكم بما أنزل الله؟ الآثار الواردة.

٦٥ **قوله تعالى :** ﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ...** ﴾ الآيات. أحكام القصاص فى النفس والجوارح ـ تضمن القرآن ما ورد فى الكتب السابقة ـ الآثار الواردة .

٧٠ **قوله تعالى :** ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ...** ﴾ الآيات. وصف من يوالى اليهود والنصارى ـ أوصاف من يحبهم الله ـ الآثار الواردة .

٧٦ **قوله تعالى :** ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم ...** ﴾ الآيات. النهى عن موالاة المستهزئين بالدين من المنافقين وأهل الكتاب ـ الآثار الواردة .

٨٠ **قوله تعالى :** ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة ...** ﴾ الآيات. جرأة اليهود على الله ورد الله عليهم ـ الآثار الواردة .

٨٤ **قوله تعالى :** ﴿ **يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ...** ﴾ الآية . الآثار الواردة .

٨٧ **قوله تعالى :** ﴿ **قل يأهل الكتاب لستم على شىء ...** ﴾ الآيات . وصف حال أهل الكتاب بعد نزول القرآن ـ حالهم مع الرسل ـ حكم عقيدة التثليث ـ القول الفصل فى عيسى ابن مريم ـ الآثار الواردة .

٩٢ **قوله تعالى :** ﴿ **أتعبدون من دون الله ما لا يملك ...** ﴾ الآيات. لعن بنى إسرائيل وسببه ـ الآثار الواردة .

٩٥ **قوله تعالى :** ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ...** ﴾ الآيات. من هم أعداء المؤمنين ؟ ومن القريب منهم وجزاء كل ـ الآثار الواردة .

٩٨ **قوله تعالى :** ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم . . .** ﴾ الآيات. الالتزام بالشرع فى التحريم والتحليل ـ بيان أن ليس هناك فضل فى حرمان النفس من الطيبات ـ الآثار الواردة .

١٠٠ **قوله تعالى :** ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ...** ﴾ الآيات. حكم لغو اليمين ـ اليمين المنعقدة وحكمها وكفارتها ـ وما هى اليمين الغموس ؟ الآثار الواردة .

١٠٤ **قوله تعالى :** ﴿ **يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ...** ﴾ الآيات . تحريم الخمر والتدرج فيه ـ وحكم الميسر ـ الآثار الواردة .

١٠٩ **قوله تعالى :** ﴿ **يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد ...** ﴾ الآيات . الابتلاء بالصيد ، والوعيد فى الاعتداء عليه، وحرمة الصيد للمحرم ، والجزاء الدنيوى لقاتل الصيد ـ حل صيد البحر للمحرم والقلائد قياما ـ معنى جعل الكعبة والشهر الحرام والقلائد قياما للناس ـ الآثار الواردة .

١١٤ **قوله تعالى :** ﴿ **قل لا يستوى الخبيث والطيب ...** ﴾ الآيات . المراد بالخبيث والطيب ، حكم السؤال عما يسبب المشقة ـ إلغاء أعراف الجاهلية وجعل التشريع من عند الله وحده ـ الآثار الواردة .

١١٩ **قوله تعالى :** ﴿ **يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ...** ﴾ الآيات. هل يسقط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالآية ؟ الآثار الواردة .

١٢١ **قوله تعالى :** ﴿ **يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم ...** ﴾ الآيات . بعض أحكام الشهادة ، وتحليف الشهود ـ الآثار الواردة .

١٢٨ قوله تعالى : ﴿ يوم يجمع الله الرسل ... ﴾ الآيات. معنى ﴿ لاعلم لنا ﴾ ــ معنى وحى الله إلى الحواريين ــ الآثار الواردة .
١٣١ قوله تعالى : ﴿ إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم ... ﴾ الآيات . قضية المائدة ونزولها من السماء وعقوبة من يكذب بها بعد معاينتها ــ الآثار الواردة .
١٣٣ قوله تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ...﴾ الآيات. براءة عيسى من دعوى الألوهية ــ معنى ﴿توفيتنى﴾ ــ جزاء الآخرة لأصحاب العقيدة الصحيحة ــ الآثار الواردة.

## تفسير سورة الأنعام

١٣٧ فضلها .
١٣٩ قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ... ﴾ الآيات. المراد بـ﴿ الظلمات والنور﴾، ومعنى ﴿ أجلا وأجل مسمى ﴾ ــ الآثار الواردة .
١٤٢ قوله تعالى : ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم ... ﴾ الآيات. الكفار لا يفتئون يكذبون الرسل ولا يعتبرون بمصارع السابقين ــ صلابة أهل الكفر وإصرارهم على باطلهم، لماذا كان الرسول بشرا ؟ الآثار الواردة .
١٤٦ قوله تعالى : ﴿ قل لمن ما فى السموات والأرض قل لله ... ﴾ الآيات . الحجج الدالة على وحدانية الله وقدرته وخسران من لم يؤمن بذلك ــ الآثار الواردة .
١٥١ قوله تعالى : ﴿ويوم نحشرهم جميعا ...﴾ الآيات. حال المشركين حين رأوا حقيقة القيامة ــ حالهم فى الدنيا مع دين الله وبعدهم وصد غيرهم عن السبيل القويم . الندم يوم القيامة حين لا ينفع الندم ــ الآثار الواردة .
١٥٥ قوله تعالى : ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ... ﴾ الآيات . حالة الحسرة على التفريط يوم القيامة ، وحقارة شأن الدنيا، وعظم شأن الآخرة ، تكذيب الكافرين للرسل: تكذيب لله تعالى ــ تعليق الأمانى على المحال يصيب الداعى بالإحباط ــ الآثار الواردة .
١٥٩ قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ...﴾ الآيات. تعنت ومكابرة أهل الباطل ــ شمول كتاب الله لأحوال العباد كلها ، وعدم انتفاع من كذب بالكتاب بحواسه ــ الآثار الواردة .
١٦٢ قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ... ﴾ الآيات. حال الإنسان فى الشدة وحاله فى الرخاء ــ الآثار الواردة .
١٦٥ قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم . . . ﴾ الآيات . وظيفة الرسل وحال المكذبين ــ الآثار الواردة .
١٦٦ قوله تعالى : ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ... ﴾ الآيات . الإنكار على من يشتغل بالمفاضلة بين الرسل والملائكة ــ زنة الناس على المبادئ الإسلامية وترك موازين الدنيا ــ الآثار الواردة .
١٧١ قوله تعالى : ﴿ قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ... ﴾ الآيات . بطلان مزاعم من يدعون أنهم يعلمون شيئا من الغيب ــ الآثار الواردة .

١٧٥ قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
١٧٧ قوله تعالى : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ... ﴾ الآيات . دلائل القدرة وعجز الإنسان ــ الآثار الواردة .
١٨٠ قوله تعالى : ﴿ وكذب به قومك وهو الحق ... ﴾ الآيات . النهى عن مجالسة أهل الباطل والأهواء ــ التذكرة منجاة من الهلاك ــ التوجه إلى الله وحده ؛ لأن المرجع فى الآخرة إليه ــ الآثار الواردة .
١٨٧ قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ... ﴾ الآيات . الإنكار على من يعبد غير الله وإقامة الحجج عليه ــ الخشية لله وحده ــ الآثار الواردة .
١٩٢ قوله تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
١٩٥ قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ... ﴾ الآيات . الرد على منكرى رسالة محمد ﷺ ــ حال المنكرين عند الموت وعند البعث ــ الآثار الواردة .
٢٠٠ قوله تعالى : ﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾ الآيات . تعديد آيات الله التى يلمسها البشر فى أنفسهم وحولهم ــ الآثار الواردة .
٢٠٧ قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ... ﴾ الآيات . رؤية الله فى الآخرة ــ الآثار الواردة .
٢١٠ قوله تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم ... ﴾ الآيات . هل يترك الداعى إلى الله النهى عن المنكر إذا خشى وقوع ما هو أشد منه ؟ الآثار الواردة .
٢١٣ قوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ... ﴾ الآيات . معنى « لا » فى ﴿ أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ ــ الصراع الدائم بين الحق والباطل ــ الآثار الواردة .
٢١٨ قوله تعالى : ﴿ أفغير الله أبتغى حكما ...﴾ الآيات. معنى أكثر أهل الأرض ــ الآثار الواردة.
٢٢٠ قوله تعالى : ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ...﴾ الآيات. ذكر الله عند الذبح ــ الآثار الواردة.
٢٢١ قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ... ﴾ الآية . حكم الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه ــ الآثار الواردة .
٢٢٣ قوله تعالى : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه ...﴾ الآيات. المراد بالإماتة والإحياء ــ الآثار الواردة.
٢٢٥ قوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره ... ﴾ الآيات. علامتى الإيمان والضلال ــ التسوية بين التابع والمتبوع فى العذاب ــ الآثار الواردة .
٢٢٨ قوله تعالى : ﴿ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا ﴾ الآيات . الله يهلك الظالم بالظالم ، كما يهلك أهل المعاصى بعصيانهم ــ الآثار الواردة .
٢٣١ قوله تعالى : ﴿ وربك الغنى ذو الرحمة ... ﴾ الآيات. التحليل والتحريم حسب الهوى ، وتزيين الباطل ــ الآثار الواردة .
٢٣٤ قوله تعالى : ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر ... ﴾ الآيات . الرد على من حللوا وحرموا بأهوائهم ومن قتلوا أولادهم ــ الآثار الواردة .
٢٣٦ قوله تعالى : ﴿ وهو الذى أنشأ جنات معروشات ... ﴾ الآيات . هل نسخ قول الله تعالى: ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ ؟ الآثار الواردة .
٢٣٩ قوله تعالى : ﴿ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ... ﴾ الآيات . الرد على من حرم على نفسه ما أحل الله ــ الآثار الواردة .

٢٤١ قوله تعالى : ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلى ... ﴾ الآية . حصر المحرمات ـ الآثار الواردة .

٢٤٣ قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ... ﴾ الآيات. المحرمات على اليهود ـ الآثار الواردة.

٢٤٥ قوله تعالى : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ... ﴾ الآيات . محاولة الاحتجاج على الله للإفلات من العذاب ـ الآثار الواردة .

٢٤٧ قوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ... ﴾ الآيات . الوصايا العشر من الله سبحانه وورود مثلها فى التوراة ـ الآثار الواردة .

٢٥١ قوله تعالى : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة.

٢٥٣ قوله تعالى : ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ...﴾ الآية. ما الذى ينتظره من لم يؤمن! ـ الآثار الواردة .

٢٥٦ قوله تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ... ﴾ الآيات . وحدة المسلمين والتئام شملهم من الواجبات ـ الآثار الواردة .

٢٥٨ قوله تعالى : ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ... ﴾ الآيات . أفعال العباد يجب أن تخلص لله ـ الآثار الواردة .

٢٦٠ قوله تعالى : ﴿ قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ... ﴾ الآيات . المسؤلية الفردية عن الأعمال ـ الآثار الواردة .


## تفسير سورة الأعراف


٢٦٣ قوله تعالى : ﴿ المص . كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج ... ﴾ الآيات . هل يعارض قوله : ﴿ فلنسألن ﴾ قوله : ﴿ ولا يسأل ﴾ ؟ الآثار الواردة .

٢٦٦ قوله تعالى : ﴿ والوزن يومئذ الحق ... ﴾ الآيات . معنى الوزن ـ قضية السجود لآدم ، وإغواء إبليس لذرية آدم ـ الآثار الواردة .

٢٧٣ قوله تعالى : ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .

٢٧٧ قوله تعالى : ﴿ يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى ... ﴾ الآيات . هل يرى الشيطان لبنى آدم ؟ ـ الآثار الواردة .

٢٧٩ قوله تعالى : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا ... ﴾ الآيات . معنى الفاحشة ـ الرد على المقلدين ـ قضية الرد على منكرى البعث ـ الآثار الورادة .

٢٨١ قوله تعالى : ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ... ﴾ الآيات . طيب اللباس والطعام الحلال دون سرف مما حض عليه الشرع ـ الآثار الواردة .

٢٨٥ قوله تعالى : ﴿ ولكل أمة أجل ... ﴾ الآيات . معنى أجل الأمم ـ الآثار الواردة .

٢٨٨ قوله تعالى : ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ ـ الآثار الواردة .

٢٩٢ قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ... ﴾ الآيات. ما هو الحجاب بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ؟ ـ قضية الأعراف والخلاف فيها ـ الآثار الواردة.

٢٩٦ قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ... ﴾ الآيات . قضية الاستواء على العرش ورأى السلف فيها ـ الآثار الواردة .

٣٠١ **قوله تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعًا وخفية ... ﴾** الآيات . معنى الاعتدال فى الدعاء ، ومعنى التضرع فيه والخفية ــ الآثار الواردة .
٣٠٥ **قوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ... ﴾** الآيات. قضية سيدنا نوح ــ الآثار الواردة.
٣٠٧ **قوله تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ... ﴾** الآيات . قصة سيدنا هود ــ الآثار الواردة .
٣١٠ **قوله تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا ... ﴾** الآيات. قصة سيدنا صالح ــ الآثار الواردة.
٣١٤ **قوله تعالى : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ... ﴾** الآيات . قصة سيدنا لوط ــ الآثار الواردة .
٣١٦ **قوله تعالى : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ... ﴾** الآيات . قصة سيدنا شعيب ــ الآثار الواردة.
٣٢٢ **قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا ... ﴾** الآيات . إجمال أحوال الأمم بعد التفصيل السابق ــ الطاعة سبب من أسباب البركة ــ العبرة من السابقين تدفع أسباب الهلاك ــ الآثار الواردة .
٣٢٥ **قوله تعالى : ﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ... ﴾** الآيات . نقض العهد مع الله وتكذيب الأنبياء سبب للطبع على القلوب وموجب العذاب ــ الآثار الواردة.
٣٢٦ **قوله تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا ... ﴾** الآيات . آيات الله لموسى التى جحدها فرعون وآمن السحرة بالله بسببها ــ الآثار الواردة .
٣٣٢ **قوله تعالى : ﴿ قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ... ﴾** الآيات . رد فرعون على إيمان السحرة وثباتهم على عقيدتهم . صبر موسى وقومه على الأذى حتى يأذن الله فى فرج ــ الآثار الواردة .
٣٣٦ **قوله تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ... ﴾** الآيات . عقاب الله لآل فرعون لعلهم يؤمنون بالله ــ ضعفهم أمام عقاب الله وطلبهم العفو ثم نكوثهم فى العهود ــ إهلاك الله لهم ــ الآثار الواردة .
٣٤٠ **قوله تعالى : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون ... ﴾** الآيات . تمكين الله لبنى إسرائيل جزاء صبرهم وثباتهم ــ اهتزاز عقيدة بنى إسرائيل الإيمانية ــ الآثار الواردة.
٣٤٤ **قوله تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ... ﴾** الآية . الآثار الواردة .
٣٤٤ **قوله تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ... ﴾** الآيات . قضية رؤية الله والآراء فيها ــ معنى دار الفاسقين ــ الآثار الواردة .
٣٥١ **قوله تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده ... ﴾** الآيات . حقيقة عجل بنى إسرائيل ــ ما حدث بين موسى وهارون بشأن بنى إسرائيل ــ الآثار الواردة .
٣٥٥ **قوله تعالى : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب ... ﴾** الآيات . الآثار الواردة .
٣٥٧ **قوله تعالى : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا ... ﴾** الآيات . الرجفة التى أصابت السبعين وسببها ــ سعة رحمة الله وبيان أسبابها ــ الآثار الواردة .
٣٦٢ **قوله تعالى : ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم ... ﴾** الآيات . الآثار الواردة .
٣٦٣ **قوله تعالى : ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق ... ﴾** الآيات . قصة السبت عند اليهود ومخالفتهم أوامر الله ــ انقسام بنى إسائيل فى قصة السبت ، ونجاة من وعظوا قومهم ــ الآثار الواردة .

٣٦٩ قوله تعالى : ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم ... ﴾ الآيات . ضرب الذلة والشتات على بنى إسرائيل ـ الآثار الواردة .
٣٧٣ قوله تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ... ﴾ الآية . الآثار الواردة .
٣٧٤ قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم ... ﴾ الآيات . معنى أشهدهم على أنفسهم ـ الآثار الواردة .
٣٧٧ قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ... ﴾ الآيات . من الذى أوتى الآيات فانسلخ منها ؟ ولم شبه بالكلب ؟ الآثار الواردة .
٣٨١ قوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن ... ﴾ الآية . الآثار الواردة .
٣٨٢ قوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى ... ﴾ الآية . ما معنى ﴿ يلحدون فى أسمائه ﴾ ـ الآثار الواردة .
٣٨٧ قوله تعالى : ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق ... ﴾ الآيات . معنى الاستدراج والإملاء ـ الآثار الواردة .
٣٨٩ قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة ... ﴾ الآيات . السؤال عن الساعة وإخفاء الموعد على البشر ـ الغيب لله وحده ـ طبيعة الإنسان فى الإنابة عند الحاجة والبعد عن الله عند الغنى ـ الآثار الواردة .
٣٩٦ قوله تعالى : ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ... ﴾ الآيات . حقيقة ما يعبد من دون الله ـ الآثار الواردة .
٣٩٩ قوله تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف ... ﴾ الآيات . التحلى بمكارم الخلق والكرم بخاصة ـ متى يجب الإنصات إلى القرآن ؟ الآثار الواردة .

## تفسير سورة الأنفال

٤٠٦ قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال ... ﴾ الآية . ما هى الأنفال ؟ الآثار الواردة .
٤١٠ قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله ... ﴾ الآيات . صفات المؤمنين وجزاء من تحققت له هذه الصفات ـ الآثار الواردة .
٤١٢ قوله تعالى : ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك ... ﴾ الآيات . إرادة الله سبحانه فى القتال كانت أنفع للمسلمين مما رغبوا فيه ـ الآثار الواردة .
٤١٦ قوله تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ... ﴾ الآيات . إمداد المؤمنين بالملائكة ـ الآثار الواردة .
٤١٨ قوله تعالى : ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ... ﴾ الآيات . آيات الله فى طمأنة المؤمنين وإلقاء الرعب فى قلوب الكافرين ـ الآثار الواردة .
٤٢١ قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا ... ﴾ الآيات . التحرف للقتال والتحيز إلى فئة ورأى العلماء فيه ـ معنى قوله : ﴿ وما رميت إذ رميت ﴾ ـ الآثار الواردة .
٤٢٧ قوله تعالى : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا ... ﴾ الآية . معنى الاستفتاح . الآثار الواردة .

٤٢٨ **قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ... ﴾** الآية . الآثار الواردة .

٤٣٠ **قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول ... ﴾** الآيات . ما معنى ﴿ يحول بين المرء وقلبه ﴾ ــ الآثار الواردة .

٤٣٣ **قوله تعالى : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ... ﴾** الآيات . الآثار الواردة .

٤٣٥ **قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم ... ﴾** الآثار الواردة فى الآية .

٤٣٦ **قوله تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك ... ﴾** الآيات . مؤامرة المشركين على الرسول وبغضهم للحق ، وما أعطاه الله للأمة من الأمان ــ الآثار الواردة .

٤٣٩ **قوله تعالى : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون ... ﴾** الآيات . الصد عن سبيل الله وبذل المال والجهد لذلك ــ الآثار الواردة .

٤٤٢ **قوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ... ﴾** الآيات . الآثار الواردة .

٤٤٤ **قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء ... ﴾** الآيات . كيف توزع الغنائم ؟ الآثار الواردة .

٤٥٠ **قوله تعالى : ﴿ إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ... ﴾** الآيات . رؤيا الرسول وأثرها فى ثبات المؤمنين ــ الآثار الواردة .

٤٥٢ **قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة ... ﴾** الآيات.عوامل النصر ــ موقف المنافقين ــ الآثار الواردة .

٤٥٦ **قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا ... ﴾** الآيات . مصير الكافرين ــ سنن الله فى التغيير ــ الآثار الواردة .

٤٥٨ **قوله تعالى : ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا ... ﴾** الآيات . وضوح العلاقة بين المؤمنين وغيرهم خاصة فى حالة الحرب ــ الآثار الواردة .

٤٦٢ **قوله تعالى : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل ...﴾** الآيات. الخلاف حول نسخ الآية ــ الآثار الواردة .

٤٦٤ **قوله تعالى : ﴿ يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك ... ﴾** الآيات . حالتى المسلم فى القتال بين الصبر والضعف ــ الآثار الواردة .

٤٦٦ **قوله تعالى : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن ... ﴾** الآيات . الحديث حول أسرى بدر ــ الآثار الواردة .

٤٧٠ **قوله تعالى : ﴿ يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى ... ﴾** الآيات . الآثار الواردة .

٤٧١ **قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا ... ﴾** الآيات . موالاة المؤمنين بعضهم ، مولاة الكافرين بعضهم ، نسخ الميراث بالموالاة ــ الآثار الواردة .


## تفسير سورة براءة


٤٧٥ أسماء سورة براءة وسبب سقوط البسملة من أولها

٤٧٦ **قوله تعالى : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم ... ﴾** الآيات . تحديد موقف الدولة المؤمنة ممن نقضوا العهود ــ الآثار الواردة .

٤٨٢ **قوله تعالى : ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ... ﴾** الآيات . تحديد موقف الدولة المؤمنة ممن

لم ينقضوا العهود ــ ما هى الأشهر الحرام ؟ ــ موقف المستجير بالمؤمنين ــ الآثار الواردة .

٤٨٦ قوله تعالى : ﴿ كيف يكون للمشركين عهد عند الله ... ﴾ الآيات . حال الكافرين إذا ظهروا مع المؤمنين ــ الآثار الواردة .

٤٨٨ قوله تعالى : ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ... ﴾ الآيات . حكم الكافر إذا طعن فى الدين ــ الآثار الواردة .

٤٩٢ قوله تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله ... ﴾ الآيات . عمارة بيوت الله لا تليق إلا بمن آمن ــ أعمال الخير بلا إيمان لا وزن لها عند الله ــ الآثار الواردة.

٤٩٥ قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم ... ﴾ الآيات . تحريم موالاة الآل إذا كانوا غير مؤمنين ، وكذا تحريم اتخاذهم ذريعة للقعود عن الجهاد ــ الآثار الواردة .

٤٩٧ قوله تعالى : ﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ... ﴾ الآيات . ما حدث فى حنين رمنة الله على المؤمنين ــ الآثار الواردة .

٤٩٩ قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ... ﴾ الآيات . منع المشركين من دخول المسجد الحرام ــ الموقف من أهل الكتاب ــ الآثار الواردة .

٥٠٣ قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ... ﴾ الآيات . فساد عقيدة اليهود والنصارى ــ سعيهم ضد الإسلام والحق ــ الآثار الواردة .

٥٠٨ قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن كثير من الأحبار ... ﴾ الآيات . حرمة الكنز ، وخروجه من الحرمة بأداء الزكاة ــ الآثار الواردة .

٥١٢ قوله تعالى : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشرا شهرا ... ﴾ الآيات . الخلاف فى القتال فى الأشهر الحرم ــ ما هو النسىء ــ الآثار الواردة .

٥١٥ قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم ... ﴾ الآيات . التحريض والحض على القتال ونصرة الإسلام ــ الآثار الواردة .

٥٢١ قوله تعالى : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ... ﴾ الآيات . عتاب الله لرسول على إذنه للمنافقين ــ خطورة المنافقين داخل صف المؤمنين ــ الآثار الواردة .

٥٢٥ قوله تعالى : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ﴾ الآيات . بيان حال المنافقين النفسى وأفعالهم التى تخالف أقوالهم ــ الآثار الواردة .

٥٢٩ قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يلزمك فى الصدقات ... ﴾ الآيات . مصارف الزكاة ــ الآثار الواردة .

٥٣٤ قوله تعالى : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون ... ﴾ الايات . إيذاء المنافقين للرسول ﷺ ــ تبريرهم لأفعالهم بالحلف الكاذب ــ الآثار الواردة .

٥٣٩ قوله تعالى : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ... ﴾ الآيات . ولاية أهل النفاق بعضهم بعضا وبيان ما ينتظرهم من عاقبة ــ الآثار الواردة .

٥٤٢ قوله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ... ﴾ الآيات . ولاية أهل الإيمان بعضهم بعضا وبيان ما ينتظرهم من عاقبة ــ الآثار الواردة .

٥٤٣ قوله تعالى : ﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ... ﴾ الآيات . سبب نزول الآيات ـ الآثار الواردة .
٥٤٦ قوله تعالى : ﴿ ومنهم من عاهد الله ... ﴾ الآيات . قصة من عاهد ثم نكث وعاقبته ـ دفاع الله عن أصحاب الصدقات ـ الآثار الواردة .
٥٤٩ قوله تعالى : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ... ﴾ الايات . استغفار رسول الله ﷺ للمنافقين غير نافع فى المغفرة لهم ـ عدم اشتراكهم مع المسلمين فى المعارك ـ الآثار الواردة .
٥٥٢ قوله تعالى : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ... ﴾ الآيات . نهى الله ورسوله الصلاة على المنافقين وسببه ـ الآثار الواردة .
٥٥٣ قوله تعالى : ﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه ... ﴾ الآيات . الأثر الوارد .
٥٥٤ قوله تعالى : ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ... ﴾ الآية . معنى المعذرون ـ الآثار الواردة .
٥٥٥ قوله تعالى : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ... ﴾ الآيات . أرباب الأعذار ورفع الحرج عنهم وإلقاء التبعات على من ليس له عذر ـ الآثار الواردة .
٥٥٨ قوله تعالى : ﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ... ﴾ الآيات . اعتذار المنافقين وعدم قبوله ـ انتحال الأعذار إن جاز على البشر لا يجوز على الله ـ الأعراب وأصنافهم ـ الآثار الواردة .
٥٦٢ قوله تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين ... ﴾ الآيات . السابقون الأولون وجزاؤهم ـ المنافقون وجزاؤهم ـ من خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وتوبة الله عليهم ـ وظيفة المال فى المجتمع المسلم ـ الآثار الواردة .
٥٦٩ قوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضرارا ... ﴾ الآيات . الضرار من اتخذوه وهدفه ـ المسجد الذى أسس على التقوى والخلاف فيه ـ معنى الشفا ـ معنى الريبة ـ الآثار الواردة .
٥٧٥ قوله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ...﴾ الآيات . فضل الله فى شراء ما وهب ـ الصفات العشر لأهل الإيمان ـ الآثار الواردة .
٥٧٩ قوله تعالى : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا ... ﴾ الايات . النهى عن الاستغفار للمشركين وجعل رابطة الإيمان هى الرابطة الحقة ـ معنى أواه ـ الآثار الواردة .
٥٨٢ قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم ... ﴾ الايات . حادثة الثلاثة الذين خلفوا وتوبة الله عليهم ـ الآثار الواردة .
٥٨٦ قوله تعالى : ﴿ ماكان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ... ﴾ الايات . حرمة التخلف عن الجهاد ، وعظم ثواب من يجاهد ـ الآثار الواردة .
٥٨٧ قوله تعالى : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ... ﴾ الآيات . المسلمون يجب أن يجمعوا الخير كله ، طاءفة تجاهد وطائفة تتعلم ـ الآثار الواردة .
٥٨٩ قوله تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول ... ﴾ الايات . حال المنافقين ومن فى قلوبهم مرض مع القرآن وهو يتنزل ـ الكلام عن رسول الله ﷺ ـ الآثار الواردة .

## تفسير سورة يونس

٥٩٤ قوله تعالى : ﴿ الر تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجبا ... ﴾ الآيات . إنكار العجب من إرسال البشر رسلا ــ التذكير بقدرة الله سبحانه . وحال المؤمن والكافر ــ الآثار الواردة .
٥٩٨ قوله تعالى : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
٦٠٠ قوله تعالى : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
٦٠٢ قوله تعالى : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ... ﴾ الآيات . بيان طبيعة الإنسان ــ علل المكذبين ــ الآثار الواردة .
٦٠٧ قوله تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
٦٠٩ قوله تعالى : ﴿ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه ... ﴾ الآيات . طبيعة الإنسان حين تواجهه الشدائد ــ الآثار الواردة .
٦١٤ قوله تعالى : ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه ... ﴾ الآيات ، مثل الدنيا ــ عاقبة من استجاب لداعى الإيمان ومن لم يستجب ــ الآثار الواردة .
٦٢١ قوله تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ... ﴾ الآيات. دلائل وجود الله وقدرته ــ دلائل صدق القرآن والوعيد لمن كذب به ــ الآثار الواردة .
٦٢٨ قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يستمعون إليك ... ﴾ الآيات . طبيعة المكذبين ــ رد الأمر إلى الله سبحانه وتعالى ــ الآثار الواردة .
٦٣٢ قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً ... ﴾ الآيات . تشكك الكافرين فى اليوم الآخر ــ الآثار الواردة .
٦٣٧ قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق ... ﴾ الآيات . التحريم والحل دون أمر من الله افتراء ــ إحاطة علم الله يوجب له حق التشريع وحده ــ الآثار الواردة.
٦٤٣ قوله تعالى : ﴿ ولا يحزنك قولهم ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
٦٤٦ قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح ... ﴾ الآيات . قصة سيدنا نوح . الآثار الواردة .
٦٤٩ قوله تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون ... ﴾ الآيات . قصة سيدنا موسى مع فرعون ــ الآثار الواردة .
٦٥٤ قوله تعالى : ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه ... ﴾ الآيات . عاقبة فرعون بعد أن كذب بموسى ــ الآثار الواردة .
٦٦٠ قوله تعالى : ﴿ ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ... ﴾ الآيات . الحديث حول قوله تعالى: ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك ﴾ ــ خصوصية قوم سيدنا يونس برفع العذاب عنهم بعد معاينتهم له ــ الآثار الواردة .
٦٦٤ قوله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ... ﴾ الآيات . حال اتباع الرسل فى تسليم الأمر لله ــ الضر والنفع بيد الله وحده ــ الآثار الواردة .

## تفسير سورة هود


٦٦٩ الآثار الواردة فى فضل السورة .

٦٧٠ قوله تعالى : ﴿ الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت ... ﴾ الآيات . معنى أحكمت وفصلت ــ أهمية الاستغفار ــ الهدف من الخلق ــ الآثار الواردة .

٦٧٧ قوله تعالى : ﴿ ولئن أذقنا الناس منا رحمة ... ﴾ الآيات . طبيعة الإنسان فى الشدة والرخاء واستثناء الذين آمنوا من هذه الطبيعة غير المتوازنة ــ الرد عمن قالوا إن القرآن من عند محمد ﷺ ــ الآثار الواردة .

٦٨٣ قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ... ﴾ الآيات . جزاء الفريقين : الذين كذبوا والذين خشعوا لله ــ الآثار الواردة .

٦٨٧ قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه... ﴾ الآيات. قصة سيدنا نوح مع قومه ــ الآثار الواردة.

٦٩١ قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ... ﴾ الآيات . عاقبة من كذبوا نوحا ــ اعتبار الإيمان هو الرابطة الوحيدة ــ الآثار الواردة .

٦٩٩ قوله تعالى : ﴿ ونادى نوح ربه ... ﴾ الآيات . أهل الكفر سواء عند الله وإن كانوا آل أهل الإيمان وأهل الإيمان عند الله لهم البركات ــ الآثار الواردة .

٧٠٢ قوله تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ...﴾ الآيات. قصة سيدنا هود مع قومه ــ الآثار الواردة.

٧٠٦ قوله تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا...﴾ الآيات. قصة سيدنا صالح مع قومه ــ الآثار الواردة.

٧٠٨ قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ... ﴾ الآيات . بشرى سيدنا إبراهيم بالولد . اهتمامه بقوم لوط ــ الآثار الواردة .

٧١٣ قوله تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا ﴾ الآيات . قصة قوم لوط مع الملائكة وإهلاك قوم لوط ــ الآثار الواردة .

٧١٩ قوله تعالى : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ... ﴾ الآيات . قصة سيدنا شعيب مع قومه ــ الآثار الواردة .

٧٢٦ قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ...﴾ الآيات. قصة عذاب فرعون وقومه فى الآخرة ــ حال السعداء والأشقياء يوم القيامة ــ الآثار الواردة .

٧٣٣ قوله تعالى : ﴿ فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء ... ﴾ الآيات . الحديث حول قوله تعالى : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ ــ المراد بالركون إلى الذين ظلموا ــ الآثار الواردة .

٧٤٠ قوله تعالى : ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم ... ﴾ الآيات . أثر من ينهون عن الفساد فى إصلاح الأمة ومنع هلاك الله عنها ــ القصص القرآنى جاء لتثبيت أفئدة المؤمنين ــ الآثار الواردة .



رقم الإيداع : ٥٩٦٧ / ١٩٩٤ م

I.S.B.N:977-15-0122-4